

بسم الله الرحمن الرحيم

ابن تيميه المجلد الأول

ترجمة حياته

حبيب طاهر الشمري

مراجعة: جعفر البياتي

إهداء

إلى سادة الورى

- محمد ﷺ سيّد الأنبياء والرسل.
- عليّ عليه السلام نفس رسول الله وسيّد العرب.
- فاطمة عليها السلام بنت رسول الله سيّدة نساء العالمين.
- الحسن والحسين عليهما السلام سبطي رسول الله سيّدي شباب أهل الجنّة.
- الكوثر الطيّب الطاهر الذي حباك الله إياه سيّدي يا رسول الله، لتسري السيادة فيه حتّى يخرج مهديكم فيقطع قرن الشيطان.
- والسلام عليكم سادتي؛ راجياً شفاعتكم لي ولوالديّ فنهل من حوضكم.

مقدمة

(وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ) ^(١).

(وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً) ^(٢).

(وَمَنْ التَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ

(١) الزخرف: ٣٦ - ٣٧.

(٢) النساء: ٣٨.

* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ^(١).

شهد القرن المجري السابع وقائع عظام عصفت بالعالم الإسلامي وغير الإسلامي؛ فقد ظهرت قوّة متغترسة تلك هي (المغول) التي دكدكت ممالك ودوّحت أخرى فركعت تخطب ودّها، وكانت حاضرة الدولة العبّاسية ببغداد لا تحسد على ما هي عليه، فمثلها مثل بيت العنكبوت، إذ القصر الحاكم يمور بالفساد والعسف وبؤرة موبوءة بالدسائس والمؤامرات بين أفراد الأسرة الحاكمة! وللمرأة يدٌ طولى في تحريك وتثوير الأمور؛ وللعنصر الأجنبي دورٌ في إفساد الراعي والرعيّة؛ منه أمّ الحاكم وزوجته ونساء اللّهو والغناء، وبعض قادة الجيش ... وقد ذكروا أنّ هولاء أمر بأن يُفرز جميع النساء اللّواتي باشرهنّ المستعصم وبُئوه، فغزلن عن غيرهنّ فكّن سبعمائة امرأة أُخرجنّ ومعهنّ ألف وثلاثمائة وصيف وخامدم!

كانت أخبار المغول وتهديداتهم تترى على بغداد، والمستعصم سادر في ملذّاته غافل عن الطلب الذي أرسله إليه هولاءكو يأمره فيه أن يرسل إليه مجانيق ليدكّ بها بغداد!! وفي كلّ نوبة لم يكن للمستعصم من يحضه النصّح والرأي في معالجة المغول إلّا الوزير ابن العلقميّ، فيتبادر رجالُ السوء ممّن حسد ابن العلقميّ حُظوته عند المستعصم فما يزالون به حتّى يستزلّوه، وهكذا حتّى وقعت الثبوة ودخل المغول بغداد وكان الذي كان.

(١) البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦.

زامنَ عاصفة المغول فتنة أعظم وأشدّ انبعثت من داخل الكيان الإسلامي؛ فإنّ الفاتح لم يمض عليه حين حتّى ضعف وانحى أثره وبغداد ضمّدت جراحها ولو بعد حين؛ إلّا أنّ حالب ضرع شيطان قد حمل لواء فتنته لنشر أفائك وبدع خالف بها القرآن الكريم وسنة رسول الله ﷺ و إجماع مذاهب المسلمين؛ وما زالت فتنته تمدّ ظلالها وضلالها حتّى يومنا متّخذة من أرض الزلازل والفتن حيث يطلع منها قرن الشيطان (نجد) مأوى لها في حركة تكفيرية إرهابية وهابية تيمية؛ فلا عدم الشيطان أتباعاً!! صاحب الفتنة تلك: ابن تيمية، واسمه أحمد، وتيمية هي الجدّ الرابع! التي إليها ينتهي كلّ اخوانه وأعمامه؟! وهذه واحدة من عقده التي سنعرض لها.

من عقيدة ابن تيمية هذا القول بتشبيه الله وتجسيمه ورؤيته في الدنيا وأنّه على عرشه بذاته، وأنّه يتحرّك وينتقل ويصعد وينزل ويتكلّم بحرف وصوت، وأنّه خلق آدم ﷺ على صورته. ولأمر سيّئضح أنكر خلود جهنّم! وأنّ جهنّم لا يسكت زفيرها حتّى يضع الرحمان ساقه فيها!! هاجم الأشعرية، والمعتزلة، والصوفية...، واختصّ أهل بيت النبي ﷺ وشيعتهم، بالقسط الأوفر خصوصاً في كتابه (منهاج السنة) سبأاً مقدعاً وكذباً لا حدّ لوصفه، وأنكر كلّ فضيلة لأهل البيت ﷺ وفضل عليهم بني أمية والخوارج والنواصب!!!

والذي أثار عليه حفيظة الأمة الإسلامية بشامها ومصرها: أنّ ابن تيمية هذا، نال من رسول الله ﷺ؛ فقد أفق بتحرّم شدّ الرّحال لزيارة قبر رسول الله ﷺ وزيارة إبراهيم الخليل ﷺ، والأولياء، وجعل السفر إليهم سفر معصية! فاعتقل

و طيف به في سكك دمشق مضروباً بالدِّرَّة، ثمَّ عُقد له مجلس قضاء وحُبس بقلعة دمشق ثلاث مرَّات في كلِّ مرَّة يُعلن توبته وبراءته من عقيدته! فيخرج فيعود لفتنته (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)، ليعود إلى السجن بحكم القضاة للمذاهب الثلاث: الشَّافعيّ والمالكيّ والحنفيّ؛ وهكذا في المرَّة الثالثة إذ انضمَّ إليهم القاضي الحنبليّ. وأمَّا التُّهم المُوَّجَّهة لابن تيميه فهي: الفسق، الزندقة، الكفر، التَّفَاق ...؛ وفي المرَّة الثالثة من سجنه لم يتبرَّأ من عقيدته ومات عليها في سجن دمشق سنة ٧٢٨ هـ؛ ليحمل راية عقيدته رجال أوفياء له منهم: ابن قيِّم الجوزيَّة الحنبليّ الدمشقيّ، الذي أُشرب في نفسه الوله والإكبار لابن تيميه وتعشَّق آراءه وفتاواه فناله العقاب وسُجن مرَّات عدَّة ولكنَّه نجا ليشيِّع أستاذه ويعاهده على أن يكون القيِّم الوفيّ على إحياء عقيدته وآرائه. ومنهم تلميذه ابن عبد الهادي الذي تجاوز الحدود فلم يكتفِ بإظهار الحماس لعقيدة ابن تيميه في ذات الله تعالى، ورسوله ﷺ، وإثما شَرَّ الغارة الشديدة على علماء وقضاة المذاهب الإسلاميَّة الذين عارضوا شيخه وأصدروا أحكامهم العادلة بحقه.

ومن تلامذته يوسف المزيّ (ت ٧٤٢ هـ) السِّلَفيّ، كان معجباً في أوَّل أمره بابن تيميه؛ ثمَّ لما تبَيَّن له حاله وخُبث طويته، ابتعد عنه حتَّى أنَّه لم يُترجم له في موسوعته (تهذيب الكمال في أسماء الرجال). وتلميذ آخر كان مسحوراً بابن تيميه، لا يخرج عن قول يقوله! ذلك هو الذهبيّ الحنبليّ؛ فلما انكشف حال ابن تيميه؛ باعده وكتب إليه كتاباً طويلاً ينصحه على ترك سفاسفه الَّتِي أدَّت إلى إضعاف الأُمَّة الإسلاميَّة ... ويأسف على الأيام الَّتِي أمضاها معه!

عصم الله أُمَّتنا الإسلاميَّة من مضلَّات الهوى ومرديات الفتن وقطع قرن

الشيطان المنبعث من أرض النبوات الكاذبة: مسيلمة الكذاب، وسجاح التميميين النجديين، وقد ضمّ مسيلمة نبوة سجاح إلى نبوته في ليلة! وقطام وكحيلة.. من تميم قوم ابن عبد الوهاب النجدي التميمي الخارجي الثالث الذي انتهت إليه راية ضلالة الخارجي الثاني: ابن تيميه.

تأخر إسلام نجد حتى العام التاسع وجاء وفد تميم يظهرون إسلامهم وفيهم وفي قبائل نجدية أخرى نزلت سورة الحجرات، وآيات من سورة (المنافقون)؛ ولم يستقم إسلامهم، وظهر فيهم رجال ونساء من تميم ادّعوا النبوة وشكّلوا خطراً على الإسلام؛ ومن نجد من تميم رهط ابن عبد الوهاب كان الخارجي الأول ذو الخويصرة التميمي الذي خرج على رسول الله ﷺ، وحذر منه النبي إذ قال: (يخرج من ضئضئ هذا قوم يرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...)، وقد عقدنا باباً ذكرنا فيه رؤوس الخوارج ومجتهداتهم نساءً ورجالاً نادراً من هو غير تميمي نجدي!، وما خارجة يومنا إلا أبناء نجد وأتباع أعراب نجد حاملو لواء الضلالة التيميه؛ وهم يعفون عن الكافر ويقتلون المسلم كأسلافهم. هذه هي فتنة ابن تيميه وأفراخ السامرة، وليس فيهم ثمّة مغولي. (والذي خبّئ

لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً) ^(١).

وكان مجمع البحوث الإسلامية قد رأى أنّ من الأوجه أن يقدم هذا الكتاب في ثلاث مجلدات، تيسيراً لتناوله ومراجعته، وبياناً لمواضيعه المتعددة التي يصعب تناولها أو جمعها تحت عنوان واحد.

(١) الأعراف: ٥٨.

تمهيد

لم تحملني أحكام قضاة المذاهب الإسلامية الأربعة التي أدانت ابن تيمية بالفسق، والكفر، والزندقة، والنفاق..؛ وتعزيره والتشهير به مكشوف الرأس على بغلة في سكك دمشق محدّرين من أتباعه، ونال الحنابلة بسببه أذى كثيراً وحُبس منهم خلق واختفى آخرون؛ وسجنه ثلاثاً ثمّ موته في السجن.

ولا انفصال أشدّ تلامذته وأقرانه انبهاراً به، وفصم العرى معه.
ولا الحملة ضدّه والتي صارت إجماعاً لم ينقطع من يومه وحتى يومنا، لم يشدّ في ذلك مذهب من المذاهب وقد أثبتّ جدولاً بأسماء العلماء والمشايخ والأساتذة ممّن تكلموا في هذا الشأن.
كلّ ذلك لم يكن هو الدافع عن الكتابة عن الرجل وإن كان مشيراً للانتباه والتساؤل: علام هذه الصاخبة؟! فلنبحث بموضوعيّة.

قرأ ابن تيمية بأقلام رواد، ورجعت إلى المُنصفين، ثمّ عوّلت على كتبه التي هي بخطّه مثل: العقيدة الحمويّة، والتفسير الكبير، والفتاوى الكبرى، وبيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، والعقيدة الواسطيّة، والتوسّل والوسيلة؛

وضممتُ إليها ما وجدته في مصنفات تلميذه الوقيين: ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ) وابن القيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ)؛ فوجدتُ الهول لما رأيت وسمعت! رجل أبيض بض لم تصبه من سمرة العرب شيء، شعره أسود فاحم يصل شحمة أذنيه، تجاوز الستين من عمره وهو في كل نشاطه، ولم يتحمل أعباء الزواج والذرية بعد! يحتاج في الله تعالى وصفاته.. وتعتريه حدة غير معهودة لدى أهل الكلام! وقد أوقف كتبه تلك على ما ذكرنا من عقيدته في تشبيه الله وتحسيمه... وكل ما ذكرنا من الحوادث وصفات النقص التي هي صفات المخلوقات، تعالى ربنا الواحد الأحد عن كل ذلك.

وقرأت ابن تيمية في عقيدته بالنبي ﷺ؛ في كتابه: قاعدة جلية في التوسل والوسيلة، وكتاب الزيارة؛ فوجدته يمنع من الشفاعة والتوجه برسول الله ﷺ بعد موته، وناضل النضال الشديد في تحريم زيارة قبر النبي ﷺ وقبر الخليل عليهما السلام وقبور الأولياء واعتبر ذلك سفر معصية. هذا في عقيدته في المرسل تعالى، والرسول ﷺ. وأما في أهل بيت رسول الله ﷺ وعترته؛ الثقل الثاني بعد القرآن الكريم وبهم غلب النبي نصارى بحران يوم المباهلة، فكانوا معجزة النبي يومئذ وعلي نفسه وفاطمة نساءه والحسن والحسين أبناءه وبهم أنزل الله تعالى آية التطهير، وفرض سبحانه مودتهم...

فقد وجدت ابن تيمية ناصياً خارجياً، وكتابه (منهاج السنة) بأجزائه الأربع من القطع الكبير يبدأ وينتهي بالخط من أهل بيت النبي وتكذيب فضائلهم وخصائصهم، استكمالاً منه لمنهجه: المرسل، والرسول، وآل الرسول.

تَبَّعت ابن تيمية نسباً منقطعاً ينتهي إلى امرأة (تيمية)؛ فكانت هذه عُقدته النفسية الأولى. وأثر البيئة في تكوينه الفكري (حرّان) مهد الصابئة، والنصرانية، وانتهى إلى قربها أحد الخوارج الذي سلموا من معركة النهروان وتنازل هناك، واحتضنت حرّان مروان الحمار حتى قُتل وغلب على أهلها حبّ الأمويين، قبيلته المجهولة؛ عُقدة أخرى، التقلّبات السياسيّة في عصره: هجوم المغول وفرار أسرته إلى دمشق التي أكثر أهلها آنذاك هواهم مع بني أميّة، رجل تجاوز الستين ولم يتزوَّج على ما ذكرنا؛ عُقدة أخرى، طموحه في الإمامة الكبرى! فلم ينلها واشتهر غيره ونالوا مناصب القضاء والدرس، ونال هو التكفير والتعزير والسجن، ورأى شيئاً لأن يخرّ من السماء أهون عليه من أن يراه، ذلك هو عالم الشيعة (المطهر الحلّي) الذي وفقه الله تعالى لأن يؤثّر على حفيد السلطان المغولي (خدا بنده) فاعتنق هذا مذهب أهل البيت؛ ولذلك قصّة نأتي عليها. فاستشاط ابن تيمية وانتفخ سحره وتخلّى عن مهاجمته الفرق الإسلاميّة، ولو مهادنةً وخطب ودّ لظنّه أنّهم سيكونون له عوناً مع الشيطان؛ فخاب ظنّه وزاد في إداناته، فاستدعي وحقوق وألزم بالنفاق لتنقيصه من مقام أمير المؤمنين علي عليه السلام هذا في الدنيا، وفي الآخرة (ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا) ^(١).

هادن ابن تيمية الأشعريّ بعد أن كان هدفاً لناره، فلعلّه بذلك يرضي فرق السّنة، وراح يهملج بسبّ الشيعة وعالمهم (الحلّي) وأهل البيت عليه السلام ظناً منه أنّهم

(١) النساء: ١٠٩.

أئمة الشيعة وليسوا قرآناً يتلى في المحارب، فإذا حذفت تلك الآيات كانت ردّاً على الله تعالى ورسوله! وكتب الحنابلة والمالكية والحنفية والشافعية مشحونة بفضائل أهل البيت، مضافاً إلى كتب التصانيف والسنن والسير والتاريخ.

بدأ ابن تيمية كتاب (منهاج السنة) بشتيمة العلامة الحلبي فقال: وإن من سمى نفسه بالمطهر هو أولى أن يُسمى بالمنجس...، وإن كتابه الذي سماه (منهاج الكرامة) هو أولى أن يُسمى بـ (منهاج الندامة)! ثم راح يسفّ يكذب كلّ فضيلة لأهل البيت ﷺ بلهجة حادة لا دليل له في كلّ ذلك إلا أن يقول: هذا كذب موضوع باتفاق أهل العلم! وإجماع أهل الحديث؛ ثم لا يذكر واحداً من أولئك العلماء، والإجماع! ثم يلوذ بالمسلمين السنة، فيقول: هذا مخالف لقول أهل السنة والجماعة؛ وقصده من ذلك استغفال السذج ليحسبوه مسلماً من أهل السنة وأنّ قوله قولهم! فمن هم أهل السنة بمصطلحه المعروف، هل هم الخوارج والنواصب؟ أم المذاهب الإسلامية: الشافعية والحنفية، والمالكية، والحنبلية؛ الذين قامت قيامتهم على ابن تيمية لله ورسوله وأوليائه...؟! ولم يقل من السنة ممن عاصر العلامة (الحلي) أو جاء بعده كلمة نابية مما قالها ابن تيمية فيه، إنما كان محلّ احترام وإعجاب وتبجيل.

ومن منهجي في البحث أيّ اخترت لهذا الكتاب هذا العنوان (نقد منهج ابن تيمية)، للمجلّد الثاني (ابن تيمية، نقد منهجه) فكلمة (منهج) لو قلبت صارت (جهنم) إزاء كتاب ابن تيمية (منهج السنة) الذي هو في حقيقته منهاج البدعة والضلال والتأصبيّة العمياء...! ولذا كان الأصل في البحث هو نقض النقض وردّ

مفتريات ابن تيميه في منهاجه. وقد عوّلت في هذا الحقل واعتمدت القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل أبداً، ثم تناولت كتب السيرة ممن عاش أصحابها القرن الأول وثوّقوا منتصف القرن الثاني الهجري، أو أوائل القرن الثالث الهجري، وكتب الصحاح للبخاري ومسلم والترمذي، والمسانيد للطيالسي (ت ٢٠٤ هـ) وأحمد (ت ٢٤١ هـ) وأبي يعلى (ت ٣٠٧ هـ) والمسند الحميدي (ت ٢١٩ هـ) ومسند أبي داود السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) وتاريخ البخاري، وتفسير القرآن لابن وهب (١٣٥ - ١٩٧ هـ) وتاريخ خليفة (ت ٢٤٠ هـ) والمغازي للواقدي (٢٠٧ هـ) والموقعيات للزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) والمعرفة والتاريخ للفسوي (ت ٢٧٧ هـ) والمصنّف لابن أبي شيبه (ت ٢٣٥ هـ) والمصنّف لابن أبي شيبه (ت ٢٣٥ هـ) والمصنّف لعبد الرزاق (ت ٢١١ هـ) وتفسير القرآن العزيز، له، وتفسير سفيان الثوري (ت ١٦١ هـ) وتفسير مقاتل (٨٠ - ١٥٠ هـ) وكتاب الفضائل لأحمد بن حنبل، وأنساب الأشراف للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، وأسباب النزول للواحدي (ت ٤٦٨ هـ) وأحكام القرآن للجصاص (ت ٣٧٠ هـ) والاستيعاب لابن عبد البر المالكي (ت ٤٦٣ هـ) وأسد الغابة لابن الأثير الشافعي (ت ٦٣٠ هـ) والإصابة لابن حجر الشافعي (ت ٨٥٢ هـ) والأغاني لأبي الفرج الإصفهاني (ت ٣٥٦ هـ) والإمامة والسياسة لابن قتيبة (ت ٢٧٠ هـ) والبحر المحيط في تفسير القرآن لمحمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ)، وسنن ابن ماجه وسنن النسائي (ت ٣٠٣ هـ)، والسنن الكبرى للبيهقي (ت ٤٥٨ هـ)، وخصائص أمير المؤمنين للنسائي، والطبقات الكبرى لابن سعد (ت ٢٣٠ هـ)، وتاريخ يعقوبي (القرن

الثالث المجري)، وتاريخ ابن معين (ت ٢٣٣ هـ)، ومروج الذهب للمسعودي (ت ٣٤٦ هـ)،
والمستدرك على الصحيحين للحاكم (ت ٤٠٥ هـ)، ومشكل الآثار للطحاوي الحنفي (ت ٣٢١ هـ)،
ومصابيح السنة للبغوي الشافعي (ت ٥١٦ هـ)، ومعالم التنزيل للفراء الشافعي (ت ٥١٦ هـ)،
ومطالب السؤول لابن طلحة الشافعي، والمعجم الكبير، والصغير، كلاهما للطبراني السلفي
(ت ٣٦٠ هـ)، وتاريخ الطبري، وتفسيره، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، الفصول المهمة في
معرفة أحوال الأئمة لابن الصبّاح المالكي، وشواهد التنزيل لقواعد التفضيل للحسكاني الحنفي (ت
٤٩٠ هـ)، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي، تاريخ الإسلام للذهبي الحنبلي، وسير أعلام
النبلاء، له، والعبر في خبر من عبر، له، وجمهرة النسب لابن الكلبي (ت ٢٠٤ هـ)، وشفاء السقام
في زيارة خير الأنام لشيخ الإسلام تقي الدين السبكي (٦٨٣ - ٧٥٦ هـ)، ودفع الشبه عن
الرسول والرسالة للإمام تقي الدين الحصري الدمشقي (٧٥٢ - ٨٢٩ هـ)، والسيف الصقيل: كتبه
السبكي ردّاً على ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية؛ والكتابة عن الأبناء تبقى واحدة لوحدة الأصل
والمبنى في العقيدة والأفكار والسبكي في سيفه شنّ حملة على ابن القيم في عقيدته في التجسيم
...، وما يتفرّع منها من كفريات أستاذ ابن تيمية، وللكوثري حاشية مع كلّ جملة ذكرها السبكي
في أصل كتابه، ثمّ ألحق الكتاب بخاتمة مشكورة تلك هي رسالة الذهبي الذي تيقّظ لنفسه فطلق
أفكار أستاذ ابن تيمية ثمّ بعث إليه تلك الرسالة الذهبية الطويلة يأسف فيها على أيام أمضاها
مع هذا الرجل ويحذّره عاقبة أمره ... أثبتناها في فصل أصحاب الردود.

هذا بعضٌ من مصادرها التي آلينا في منهجنا أن نحاكم ابن تيمية وقد انتهى إلى ربّ لا يعزب عنه شيء في السماء ولا في الأرض، نسأله تعالى أن يعامله بعدله إنّه عزيز ذو اقتدار؛ إلّا أنّنا رأينا أنّ الوظيفة الشرعيّة تسترعيّننا أن نضع يد القارئ الكريم تمهيداً وقبلولوج في أصل البحث على كشف قناع المفترى العنيد فهل وجدت أخي الغيور فيما ذكرت لك مصدراً شيعياً؟ وستجد ضعف العدد هذا بل ويزيد بكثير، ممّن تصدّى لابن تيمية، أو أثبت فضائل وخصائص أهل البيت عليهم السلام، التي أنكرها ابن تيمية في منهاج ضلاله.

بعد المقدّمة والتمهيد حان أن ندرس ابن تيمية، فكان:

المجلّد الأوّل: حياته؛ أسرته تنتهي إلى امرأة، تيمية مجهولة؟ منحدره القبليّ مجهول؟ بيئته: حرّان، مشتبك الصّابئة واليهوديّة والأمويّة والخارجيّة والنّصرانيّة، إلى دمشق أمويّة الهوى. عصره السياسيّ: ظهور أقوى موجة عصفت بالممالك، ففرت أسرته إلى دمشق. نزاعه مع الفرق الإسلاميّة. مع الصوفيّة. مع ابن عربيّ. عقيدته في تشبيه الله تعالى وتحسيمه وأنّه محلّ الحوادث...، منهجه في التفسير. عقيدته في التوسّل بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وزيارة قبور الأنبياء والأولياء. قصّة تشييع خدابنده.

ابن تيمية في مجلس القضاء. نهاية المطاف في السّجن الثالث.

المجلّد الثاني: تتبّع فيه عشرات ابن تيمية وسقطاته وسبابه بحقّ أهل بيت الوحي وشيعتهم في كتابه (منهاج السنّة) فوجدته رجلاً أشاح عن القرآن وجهه، وأسمع لهات تركاضه، فقد أوعكه رجال القرن المحرّيّ الأوّل فما بعد يُحبتون

للقرآن والسُّنَّة في شأن البيت العَلَوِيِّ العَلَوِيِّ لم يشاركهم بذلك خارجي ولا أُمويّ، فوجدته ينكر وذريعته إجماع أهل المعرفة بالعلم...، وأهل الحديث، وأهل السُّنَّة؛ وبعد الرجوع إلى المصادر ربّما ريت على الخمسين أو السبعين أو أكثر!

مسألة أخرى في منهاجه: وهو ينكر، فإنّه يُطيل بما لا طائل فيه، ثمّ يفرّع في الإنكار تفرّعات لا معنى لها إظهاراً منه للسّدج أنّه كثير العلم.

وهو إذ يرى مصيره الذي هو صائر إليه، إلّا أنّه العناد الإبليسيّ! تجده ينسى أو يتناسى فيذكر المطلوب في أكثر من موضع وأكثر من جزء من أجزائه الأربعة.

المجلّد الثالث: أصحاب الردود: جمعتُ فيه جمعاً جمّاً من علماء وأساتذة وفقهاء المسلمين بمختلف مذاهبهم ممّن عاصروا ابن تيميه حتّى يومنا ممّن ردّ على الرجل زياداً في الحجّة.

والله وليّ التوفيق

تعريف بـ (ابن تَيْمِيَّة) ٦٦١ - ٧٢٨ هـ

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن تَيْمِيَّة الحرَّانيّ، ثمّ الدمشقيّ،
الحنبليّ. ^(١)

واختلفت بعض المصادر في عدّ أجداده انتهاءً إلى تَيْمِيَّة؛ فاتّفقت جميعها على عدم تعدّي
تَيْمِيَّة، وما ذكرناه من نسبه مأخوذ من كتابه (منهاج السنّة) وكتابه الآخر (علم الحديث) و
(تاريخ ابن الوردي) وكتاب تلميذه الوقيّ: ابن عبد

(١) منهاج السنّة، لابن تَيْمِيَّة ١: ٢، وعلم الحديث، له ٤١، والعقود الدريّة في مناقب ابن تَيْمِيَّة، لابن عبد الهادي ٩،
وتاريخ ابن الوردي ٢: ٢٧٥، وتذكرة الحفاظ، للذهبيّ ٤: ١٤٩٦، والوافي بالوفيات، للصفديّ ٧: ١٥/٢٩٦٤،
والبداية والنهاية، لابن كثير ١٣ و ١٤ عدّة مواضع وشذرات الذهب، لابن العماد الحنبليّ ٦: ٨٠، والنجوم الزاهرة في
ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي ٩: ٢٧١، والمنهل الصافيّ ن له، ١: ٣٥٨، وعقد الجمان، لبدر الدين العينيّ ٢
و ٣ عدّة مواضع، ودائرة المعارف الإسلاميّة ١: ١٠٩، وتاريخ ابن خلدون ٥: ٤٧٤، والبدر الطالع، للشوكانيّ ١:
٤٠/٦٣، وابن تَيْمِيَّة حياته وعصره، لمحمّد أبي زهرة.

الهادي (العقود الدرّية).

في حين ذكرت بعض المصادر له خمسة، وأخرى سبعة، فيما ذكرت أخرى لصاحب الترجمة ثلاثة أجداد وكلّها تنتهي عند (تيميه)، فالأسرة جميعاً إخواناً وأعماماً، تُعرف بأسرة ابن تيميه. استباق الأحداث: كان علينا أن نتكلّم عن تاريخ مولد صاحب الترجمة، وبيئته، وتعريف بأُمة ونسبها وقبيلتها ... على ما جرى عليه المترجمون؛ إلّا أنّ أمراً استوقفنا متسائلين: علامَ انتهت سلسلة نسب هذا الرجل الذي أحدث ضجّة وصار أمة رغم القيامة عليه وعلى أتباعه من الحنابلة، وما سمعته من التشنيع به والتشهير، وتكفيره وتفسيقه وزندقته والتعزير، وموته بالسجن؛ فنَفَخَ الشيطان بعقيدته وآرائه من أرض الزلازل والفتن (بُحْد) فعاد ابن تيميه في حركة وهائية! إنّ استباق الأحداث في المنهج فرض نفسه: مَنْ هو هذا (الجدّ) الذي تنتهي إليه هذه الأسرة (تيميه) ذكر هو أم أنثى، ما حظّه من الخير ومنزلته الاجتماعية، هل كان مثل حفيده صاحب الترجمة (أحمد بن عبد الحليم) شيخ الإسلام - كذا، والإمام المطلق؟! الجواب: إنّ تيميه، امرأة.

ملاحظة جديرة بالتحقيق: ليس في تاريخ العرب ولا النصارى أن تنتمي أسرة واسعة إلى امرأة، وجعل الإسلام النسب للآباء، ولم أجد ملّة جعلت النسب للأمّهات إلّا: اليهود.

منزلتها العلمية: كانت واعظة ^(١).

تسمية تيميه

وقع اختلاف قليل في المناسبة التي بها سُميت (تيميه)، حتى من قبل بعض الأسرة! قال ابن خلّكان في ترجمته لمحمد بن الخضر الحرّاني: (محمد بن الخضر... المعروف بابن تيميه الحرّاني، الخطيب الواعظ الحنبلي).

قديم بغداد وسمع الحديث بها من شهدة بنت الإبري، وابن البطّي، وصنّف في مذهب الإمام أحمد. وكانت إليه الخطابة بحرّان، ولأهله من بعده.

ولد سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، بمدينة حرّان. وتوفي بها سنة إحدى وعشرين وستّمائة. قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في حقّه: كان ضنيناً (أي حسوداً) بحرّان، متى نبغ فيها أحد لا يزال وراءه حتى يخرج منه ويبيعه عنها!

قال: وذكره أبو البركات ابن المستوفي في (تاريخ إربل) فقال: ورد إربل حاجاً في سنة أربع وستّمائة فسألته عن اسم تيميه، ما معناه؟ فقال: حجّ أبي أو جدّي، أنا أشكّ أيّهما، قال: وكانت امرأته حاملاً، فلمّا كان بتيماء، رأى جُويرية قد خرجت من خباء، فلمّا رجع إلى حرّان وجد امرأته قد وضعت جارية، فلمّا رفعوها إليه قال: يا تيميه، يا تيميه، يعني أنّها تشبه التي رآها بتيماء، فسُمّي بها، أو

(١) المصادر جميعاً، ولم ترد.

كلاماً هذا معناه.

قال ابن خلكان تعقياً على ذلك، وتيماء، بُليدة في بادية تبوك إذا خرج الإنسان من خير إليها تكون على منتصف طريق الشام، وتيمية منسوبة إلى هذه البليدة، وكان ينبغي أن تكون تيماءية، لأن النسبة إلى تيماء تيماءوي، لكنه هكذا قال واشتهر كما قال! ^(١)

وقفه تأمل

إن صفات الخير، وصفات الشر تتوارث كما تتوارث الصفات الخلقية (البدنية) ولذا دعا رسول الله ﷺ وندب إلى التحري في اختيار الزوج والزوجة من حيث صلاح دينهما لسريان ذلك إلى ذريتهما، وقوله ﷺ في أن الخال أحد الضجيعين، إشارة لما ينتقل من صفات سيئة أو حميدة إلى الذرية.

وهذا هو الجد الأعلى (ما قبل الجد المرأة المجهول: تيمية!) حظّه من العلم أن يأخذ الحديث من امرأة مجهولة لم أجد لها ترجمة (شهادة بنت الإبري)؛ قد كان حسوداً (ضنياً) ما أن ينبغ أحد بجران حتى يكون واره حتى يخرج منها...؛ فورث هذه الصفة الإبلسية صاحب ترجمتنا أحمد بن تيماءية! ونجد غيره من إخوته أحسن صفته أنه (أقل شراً).

(١) وفيات الأعيان، لابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ٤: ٣٨٦ - ٣٨٨ - الترجمة ٦٥٧، والوافي بالوفيات ٣: ٣٧، والعقود الدرية ١٤.

عودٌ على تَيْمِيهِ

إنّ قول جدّ صاحب الترجمة: (حجّ أبي أو جدّي، أنا أشكّ أيّهما ...) أقول: ونحن أكثر شكّاً؛ فقد قلنا أنّ النسب للآباء لا للأُمّهات، أمّا أن ينتسب فردٌ ولمناسبةٍ إلى أُمّه فليسبب وجيه كما قلنا كما الأمر في الانتساب لسيدة نساء العالمين فاطمة الطاهرة بنصّ القرآن الكريم ابنة سيّد الرسل ﷺ، وكفى بذلك محتدّاً وفخرًا، وسلسلة النسب العلويّ أعلى من أن تطاله يدُ آثم.

إذن: تَيْمِيهِ، أُمّ مَنْ؟! أمّ الخضر، أو محمّد بن الخضر؟!

وثمة مسألة جديرة بالنظر:

إنّ الرجل إذا سمّى ابنه أو ابنته، كُتِبَ به أو بها: أبو فلان، أبو فلانة، أمّا أن يُسمّى بمولوده فأمر لم نسمع به حتّى نجُم أمر هذه الأسرة الحرّائيّة.

وتختلف هذه الرواية في شيء: فقد ذكرت مصادر أخرى أنّ تلك الجُويريّة كان اسمها (تَيْمِيهِ). وذكروا القصّة السالفة في تسميتها وفيها: (فراى هناك اسمها تَيْمِيهِ، ثمّ رجع فوجد امرأته ولدت بنتاً فسَمّاها تَيْمِيهِ) ^(١).

ونختم ترجمة تَيْمِيهِ التي بقيت مجهولة الحال، ولم يترجم لها المزيّ السلفيّ كما ترجم لغيرها من النساء، بل وترجم لمن سَمّاهن المجهولات! ولا ابن خلّكان ...، فنختم ذلك بيت شعر من قصيدة لابن الورديّ يرثي بها صاحب

(١) ابن تَيْمِيّة، حياته وعصره، لمحمّد أبي زهرة ١٧.

الترجمة:

بنو تيميه كانوا فيانا نجوم العلم أدركها انباط^(١)

والدته

هي ست النعم بنت عبّدوس الحرّائيّة، توفيت بدمشق سنة ٧١٦ هـ، ولدت تسعة بنين ولم تُرزق بنتاً^(٢)، عُرف منهم غير (صاحب الترجمة): بدر الدين أبو القاسم أخو الشيخ ابن تيميه، كان فقيهاً ساكناً قليل الشر! توفي سنة ٧١٧ هـ^(٣).

وعبد الله بن عبد الحليم بن تيميه الحرّائيّ الحنبليّ، وهو أصغر سنّاً من أخيه أحمد. توفي سنة ٧٢٧ هـ^(٤).

وأخوهم زين الدين عبد الرحمان وهو الذي تولّى الصلاة على أخيه أحمد بن تيميه عند وفاته^(٥).

تعليق

كما ظهر لنا مجهوليّة جدّه الأعلى (تيميه)، فإنّ المصادر لم تُسعفنا بوميض نورٍ نتهدي فيه إلى شيء عن أمّ صاحب الترجمة سوى:

(١) تاريخ ابن الورديّ ٢: ٢٧٦.

(٢) نفسه ٢٥٦.

(٣) نفسه ٢٥٧.

(٤) نفسه ٢٧١ - ٢٧٢.

(٥) العقود الدريّة، مصدر سابق ٣٧١.

سِتّ النِّعم بنت عبدوس الحرّائيّة. ومن خلال التسمية تجدها هجيناً وليست عربيّة. ذكر شيخ الأزهر محمّد أبو زهرة في هذا المقام، قال: (ولم يذكر المؤرّخون شيئاً عن أمّه. ولا قبيلها، وهي في الغالب ليست عربيّة) ^(١).

قبيلته

وللأسباب المتقدّمة وغيرها، صار منحدره القبليّ مجهولاً وعرضه للتكهّنات. فإنّ أحداً ممّن ترجم له، حتّى من عاصره منهم وتلامذته ومحبّوه بتعصّب كالذهبيّ، وابن عبد الهادي، والصّفديّ، وابن الورديّ، وابن كثير؛ لم ينسبوه إلى قبيلة عربيّة أو أعراييّة، كرديّة أو غير ذلك؟! وهكذا فعلوا في ترجمة كلّ واحد من آبائه؛ فلم نجد في تراجمهم جميعاً، وفي تراجم أعمامه إلّا: فلان بن فلان تيميّه الحرّائيّ الحنبليّ.

ولشيخ الأزهر أبو زهرة تعقيب على ذلك، قال:

(لم يذكر المؤرّخون الذين قرأت لهم القبيل الذي تنتمي إليه أسرة ابن تيميّه. فلم يذكروا له نسبةً إلّا أنّه الحرّائيّ فنسبوه إلى بلده حرّان موطن أسرته الأول، ولم ينسبوه إلى قبيلة من قبائل العرب، وإنّ هذا يشير إلى أنّه لم يكن عربيّاً، أو لم يُعرف أنّه عربيّ منسوب إلى قبيلة من القبائل العربيّة، ولذلك نستطيع أن نفهم أن نعلم علماً ظنّاً أنّه لم يكن عربيّاً، ولعلّه كان كرديّاً، وهم قوم ذوو

(١) ابن تيميّه، حياته وعصره، لمحمد أبي زهرة ١٩.

هَمَّة وبأسٍ شديد، وفي أخلاقهم حِدَّة، وإنَّ تلك الصفات كانت واضحة جليَّة فيه ...^(١).

خلاصة

فكما سُمِّيت الجارية باسم (تَيْمَاء) الموضع الذي مرَّ به أب أو جدَّ صاحب الترجمة؛ والشكُّ ليس مِنَّا وإِنَّمَا من الجدِّ الأعلى ما قبل تَيْمِيه على ما قرأت! وإليها تُسبَّت العشيرة؛ فكذلك صاحب الترجمة يُنسب إلى موضعين هما: (تَيْمَاء) والثاني (حَرَان). فهو: تَيْمََاوي حَرَائِيّ، نزيل دمشق. وكذلك حال أتباعه، بالتبعية، إلَّا دمشق بالنسبة لخارجة عصرنا فهم تَيْمََاويون تَجْدِيَّون تيميميّون وهَابِيَّون.

صفاته البدنية

رجل أبيض أعين ربعة بين الرجال أسود الشعر يصل شعر رأسه إلى شحمة أُذنه، جهوري الصوت، تأخذه حِدَّة ورعدة عند الجدال ولم تغَيِّر النوائب على شدَّتْها وقد بلغ من العمر سبعة وستين سنة حين وفاته سنة (٧٢٨ هـ) إذ وُلِد سنة (٦٦١ هـ) إلَّا شعراتٍ في لحيته، بعيد ما بين المنكبين قويّ الساعد.

مع صفات الجمال البدنيَّة التي ذكرها ابن الورديّ تلميذه؛ فقد ذكر أنَّه لم يتزوَّج ولا تسرى! ولا كان له من العلوم إلَّا شيء قليل، وكان أخوه يقوم

(١) ابن تيميه، لأبي زهرة، مصدر سابق ١٨.

بمصلحه...، والله لو لا تعرّضه للسلف لراحهم بالمناكب^(١).

يسأل القارئ وأنا معه عن السرّ؛ وحياة أحمد بن تيمية كلّها أُلغاز ومبهمات منذ شرعنا بالبحث وما يأتي أكثر! يسأل: هذا الذي اتّخذة أعراب بحدّ الوهابيّون مثلما اتّخذوا أسلافه معاوية ويزيد، وقطام وكحيلة وغيرهما من مجتهدات الخوارج النّجديّات التّميميّات قدوةً، حتّى رفع راية النّصب الخارجيّة سلفهم الذي أنساهم ذكر الرحمان، فعبدوه إذ جسّده وقاسه لهم بنفسه...، فهو أولى أن يُعبّد ويطاع من هُبُل وإساف؛ وقد أفتاهم بحرمة زيارة القبور؛ فخرّبوها! وسيأتي اليوم الذي لا يخشون أحداً فيخربوا قبر الرسول ﷺ، والمسلمون في سُبات!.

والسؤال: رجل في العقد السابع من عمره، لا عيب في بدنه أبيض، أعين (أي واسع العين)، ربعة وهو بين الطول والقصر، شعره مسترسل أسود، فماذا تريد المرأة بعد؟! أم هناك سبب بدنيّ خفيّ لا نعلمه ويعلمه هو فيخاف من عاقبة الزواج؟ أو أنّ السبب ما ذكره ابن الورديّ من أنّه كان كالأعلى أخيه، فهو الذي يقوم بمصلحه ويوفّر له عيشه، فيما هو منشغل بالخصومات مع الأطراف جميعاً إلّا اليهود والشیطان. ومن هذا دأبه فهو في خوف من عالة الزوجة والذريّة إن كان له الإمكان على الإنجاب.

(١) تاريخ ابن الورديّ ٢: ٢٧٩.

فابن تيمية قليل العلم بإقرار تلميذه؛ وهو غير سيّئ إذ لا يأخذ برأي المذاهب الأربعة المعروفة وإنّما بما يقوم لديه الدليل، وهو عدوّ وخصم للأشعريّ رأس السّنة ويبرأ من المعتزلة والصوفيّة ويكفر الشيعة ثمّ يتعرّض للسلف!!

ثم إنَّ ابن الوردِيَّ كان جريئاً فلم تمنعه حنليَّته ولا تلمذته التي بقي عليها ووُدُّه لابن تيميِّه أن يُقرَّ أنَّ أستاذه كان قليل العلم!

ولعلَّ البعض يعذر ابن تيميِّه وهو يسلك هذا المنهج الذي كانت فيه حياته، فلو كان غيره لنهج منهجه لاشتباك العُقَد والعاهات التي ذكرناها وتأثيرها في نفسه، ثمَّ: بيئته، وعامل الوراثة والتقلُّبات السياسيَّة والأجواء الدينيَّة في عصره ... فلنرَ.

بيئته

تلاقحت حرَّان^(١)، ودمشق في تكوين شخصيَّة ابن تيميِّه، خلا سنين قليلة قلقة أمضاها بمصر بعد أن جاوز الخامسة والأربعين، ثمَّ عاد إلى دمشق.

ففي حرَّان وُلد، وهي موطن آبائه الأوَّل ومنها تحوَّلوا إلى دمشق. وفي حرَّان أمضى سنيَّه السبع الأولى، وفي مثل هذا العمر يكون ابن آدم أكثر استعداداً للتلقِّي والتأثُّر بمحيطه وأفكار عصره. وتأسيساً على ذلك أولت التربية الحديثة هذه المرحلة من العمر عناية فائقة وأوصت بتهيئة الجوّ الأمثل للطفل خلالها ذلك أنَّ تأثير البيئة أسرع وأشدَّ من تأثير عامل الوراثة التي مع خطرهما فإنَّها غير مرتبطة بسنٍّ معيَّنة.

وأعطى الإسلام عنايته بهذه المرحلة إذ قسَّم عمر الإنسان إلى مراحل فرَكَّز على هذه المرحلة من وجوب حسن التربية والعناية لأنَّها الأساس لما

(١) شمال سورية، وهي ضمن الأراضي التركيَّة الآن.

بعدها. وكان العرب قبل الإسلام يختارون لمواليدهم مرضعات من البادية، ولا يستردّوهم حتّى يبلغوا السادسة من العمر. فكيف كانت ملامح موطن ابن تيميه، حرّان؟
حرّان موطن الصابئة والصابئين من أقدم عصور الإسلام. ويزعم الصابئون أنّ ماني الثنويّ من أهل حرّان، قال بالاثنتين: أي أصلين للمخلوقات هما النور والظلمة، أو الخير والشرّ، فضارع قول المجوس. ووضع أناجيل وتسمّى مسيحاً فضارع قول النصارى، وقتله سابور على الزندقة.
ولهم قول أنّ ديصان الزنديق هو من أهل حرّان، وقد وُلد من زناً، وُجد منبوءاً على نهر ديصان، فسُمّي به.

ولهم أعيادٌ عند نزول الكواكب الخمسة المتحيّرة بيوت أشرافها، والمتحيّرة: زُحل والمُشتري والمريخ والزُهرة وعطارد، وبظاهر حرّان مكان يحجّونه، ويقولون: إن أهرام مصر أحدها قبر شيث بن آدم، والآخر قبر إدريس وهو خنوخ، والآخر قبر صابئ بن إدريس الذي ينتسبون إليه ويعظّمون يوم دخول الشّمس الحمل فيتزيّتون ويتهادون فيه^(١).

وذكر المسعوديّ، قال: وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أهل حرّان

(١) تاريخ ابن الورديّ ١: ٦٩ - ٧٠، ومعجم البلدان، لياقوت الحمويّ ٢: ٢٣٥، ومروج الذهب، للمسعوديّ ١: ٣٥، ومختصر كتاب البلدان، لابن الفقيه: ١٢٦، ورحلة ابن جُبَيْر، لابن جُبَيْر الأندلسيّ ٢٢٠، وصبح الأعشى، للقلقشنديّ ٤: ٣١٩، والبداية والنهاية، لابن كثير ج ١٢ و ١٣ ومواضع متعدّدة، وخطط المقرئيّ ٢٢١، وعقيدة الشيعة: دوايت م. روندلسن ١٧٥.

يُعرف بالحارث بن سنباط عن الحرّائيين أشياء ذكرها من قرابين يقرّبونها من الحيوان ودخن للكواكب يبخّرون بها وغير ذلك ^(١) ...

قال المسعودي: والذي بقي من هياكلهم المعظّمة في هذا الوقت - وهو سنة اثنتين وثلاثمائة - بيت لهم بمدينة حرّان في باب الرّقة، وهو هيكل آزر وابنه إبراهيم ...، ولابن عيشون الحرّانيّ القاضي - وكان ذا فهمٍ ومعرفة، وتوفّي بعد الثلاثمائة - قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرّائيين المعروفين بالصابئة، وذكر فيها هذا البيت وما تحته من السرايب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام التي جعلت مثلاً للأجسام السماويّة وما ارتفع من ذلك الأشخاص العلويّة، و أسرار هذه الأصنام، وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السرايب وعرضهم لهم على هذه الأصنام، وما يُحدّث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة الى الصفرة وغيرها لما يسمعون من ظهور أنواع صبيانهم من الاستحالة الى الأصنام والأشخاص، بحيلٍ قد اتُّخذت ومنافخ قد عملت: تقف السدنة من وراء جُدُر فتتكلّم بأنواع من الكلام، فتجري الأصوات في تلك المنافخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المحوّفة والأصنام المشخّصة، فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان، فيصطادون به العقول، وتُسترق بها الرقاب، ويُقام بها المثلّك والممالك، ومّا ذُكر في هذه القصيدة قوله:

إنّ نفيسَ العجائب يبتّ لهم في سرّاداب

(١) مروج الذهب ٢: ٢٣٧.

ثَبَدَ فِيهِ الْكَوَاكِبُ أَصْنَائِهِمْ خَلْفَ غَائِبٍ^(١)
 فِي مِثْلِ هَذِهِ الْبَيْئَةِ الَّتِي وَصَفْنَا عَاشَ ابْنَ تَيْمِيهِ سِنِّيهِ السَّبْعَ الْأَوَّلَى الَّتِي قَلْنَا إِنَّمَا أخطرُ مَرَحَلَةٍ فِي
 حَيَاةِ الْإِنْسَانِ لِسُرْعَةِ تَأْثَرِهِ بِمَحِيطِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَلَقِّيهِ لِمَا يَسْمَعُ وَيُشَاهِدُ.
 وَمَهْمَا بَلَغَ الْإِنْسَانُ مِنَ الْعُمُرِ، وَارْتَقَى فِي سُلْمِ الْمَعْرِفَةِ؛ تَبْقَى خَوَاطِرُ تِلْكَ الْمَرَحَلَةِ تَدَاعِبُ ذَهْنَهُ
 وَتَهْبِطُ عَلَى نَفْسِهِ وَرَبَّمَا أَثَّرَتْ فِي سُلُوكِهِ وَإِنْ بَلَغَ الْهَرَمَ! وَبَقَدَرِ الْحَالَةِ النَّفْسِيَّةِ لِلصَّبِيِّ، يَكُونُ الْجَذْبُ
 وَالطَّرْدُ لِلْمَحِيطِ الْاجْتِمَاعِيِّ فِي تَكْوِينِهِ.
 وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ أَيْضاً فِي الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ:
 «إِنَّ النِّسْلَ لَا يَدَّ لَهُ مِنْ تَخْصِيصِ قُوَّتِهِ بِشَيْءٍ يُمَيِّزُهُ وَيُيَسِّنُّهُ مِنْ سِوَاهِ، فَصَارَ الْجَفَاءُ وَالْغُلْظُ فِي
 الرُّزْمِ وَأَصْحَابُ الْجِبَالِ، وَالْأَكْثَرُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَأَوْبَاشَ مِصْرَ، وَ اللَّؤْمُ فِي الْحَزَرِ وَأَهْلُ حَرَانَ مِنْ
 دِيَارِ بَكْرٍ، وَالشُّخُ بِفَارِسَ، وَاللُّؤْمُ فِي الطَّعَامِ بِأَصْفَهَانَ، وَصَارَ تَفَرُّطُ الرِّجْلَيْنِ وَقَطْسُ الْأُنُوفِ فِي
 السُّودَانِ، وَالطَّرَبُ فِي الزَّنَجِ خَاصَّةً»^(٢).
 وَأَضَافَ: «وَهَذَا الَّذِي وَصَفْنَا عِنْدَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ وَخَوَاصِّ تَأْثِيرِ الْأَشْخَاصِ
 الْعُلُويَّةِ وَالْأَجْسَامِ السَّمَاوِيَّةِ»^(٣).

(١) نَفْسُهُ.

(٢) نَفْسُهُ ١٤٧.

(٣) مَرُوجُ الذَّهَبِ ٢: ١٤٧.

إنَّ ما ذهب إليه الشيخ أبو زهرة من احتماله في أنَّ أصل ابن تيمية كردياً، لما عُرف عن الأكراد وهم رجال الجبال من الشدَّة والصلابة والحدَّة؛ وهذه الصفة الأخيرة كانت واضحة في ابن تيمية، إذ تعتريه رعدة شديدة تُخرجه عن الصواب فلا تجعله يعرف ماذا يريد أن يقول ويناقض نفسه في المجلس الواحد مرَّات كثيرة فكلَّما أُشكل عليه وأُلزم الحجَّة قال: ما أردتُ هذا إنما أردتُ كذا، ثمَّ يذكر قولاً آخر، وهكذا. ولا غرابة فقد قال تلميذه المخلص - وقد ذكرنا قوله سابقاً - قال: «لا كان له من العلوم إلَّا شيء قليل».

وأما اللُّوم: فقد وجدنا جدَّ ابن تيمية الثالث، وفي قولٍ الرابع! يذكر قصَّة تسمية «تيمية» الواعظة، التي انتمت الأسرة كلَّها إليها وبها عُرفت، فإنَّ هذا الجدَّ الخطيب الواعظ الحنبليّ تلميذ شهيدة بنت الإبري «لم نجد لها ترجمة»؛ قال عنه سبط ابن الجوزي: كان ضنيناً (أي حسوداً) فإذا قيل: إنَّ أسرته حنبليَّة؛ فذلك غيرُ شافع في تحصين وليدهم المتمرِّد! لما فيه من طباع الحدَّة والعناد، ولم تكن أسرة عِلم بقدر ما هي أسرة وعظ في أحسن الأحوال، مع مجاهيل كثيرة ذكرناها وشرَّ في أحدهم لا يُطاق وشرَّ قليل في آخر، وذكر حامل في آخرين فهي أسرة لا ضابط لها أن تُنشأ وليدها وتُحصَّنه من تلك المزالق. فانطبع بطابعهم من حيث التقلُّب في المواقف والأقوال حتَّى قال له القاضي المالكيّ في محاكمته: يا ابن تيمية! أنت مثل العصفور كلَّما أردتُ أن أمسكك فررت من عُصنٍ إلى عُصن.

وأثَّرت تلك المرحلة من عمر ابن تيمية في نسج أفكاره ومعتقداته بعد، من تشبيهه وتجسيم لذات الله تعالى وأنَّ له حرفاً وصوتاً وأعضاءاً مثل الإنسان ...،

تعالى الله ربنا عن ذلك علواً كبيراً؛ وعامل ابن تيمية وأتباعه بعدله.

ابن تيمية خارجي، الجزيرة تستضيف الخوارج

في وقعة النهروان بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والخوارج، لم يفلت من الخوارج وعدتهم أربعة آلاف، إلا بضعة نفر.

قال ابن أعثم: فهرب منهم رجالان إلى خراسان إلى أرض سجستان وفيها نسلهما إلى الساعة، وصار رجالان إلى بلاد اليمن فيها نسلهما إلى الساعة، ورجلان صارا إلى بلاد الجزيرة إلى موضع يُقال له: سوق التورخ، وإلى شاطئ الفرات فهناك نسلهما إلى الساعة، وصار رجل إلى تل مؤزن^(١).

ابن أعثم (ت ٣١٤ هـ) ذكر لنا أنّ الخوارج الذين فلتوا من النهروان قد انتهى منهم ثلاثة إلى الجزيرة؛ واحد منهم حطّ رحاله على مشارف حرّان. وإنّ الخوارج أولئك كان نسلهم موجود إلى أيام المؤلف (ابن أعثم) ولا توجد قرينة على انقراضهم، وعلى عكس ذلك فتلك الخوارج الإباضية في أيماننا هذه، وتلك خارجة بحدّ، وذاك الممهد لهم بالتمكين والذي يُطلق عليه العلماء والمفكرون: الخارجي الثاني: لأنّ سلفه «ذو الخويرة التميمي النجدي» خرج على رسول الله صلى الله عليه وآله، وخرج هو على علي أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) الفتوح، لابن أعثم (ت ٣١٠ هـ) ٤: ١٣٢ - ١٣٣. وفي معجم البلدان ٢: ٤٥، تل مؤزن بلد قديم بين رأس عين وسروج. وفي ٣: ١٤ رأس عين مدينة مشهورة من مدن الجزيرة بين حرّان ونصيبين، وفي ٥: ٢٢١، سروج: بلدة قريبة من حرّان من ديار مضر.

وقفه قصيرة

مضى الكلام عن أثر البيئة البالغ في تكوين الشخصية وبلورة أفكارها، وهنا يبرز عامل آخر ذاك هو عامل الوراثة الذي أولاه الإسلام عناية كبيرة؛ والأحاديث كثيرة في تحيّر الزوجة الصالحة والتحذير من الانخداع بالمرأة الحسناء في منبت سوء، وأنّ الخال أحد الضجيعين! أقول: تعاضدت البيئة المضطربة «حرّان» وهي تمور بالفتن والديانات المنحرفة، وكونها محطة الفاتحين والغزاة وعشّ الأمويين، مع الاحتمال الوارد أن يكون في دماء الأسرة أصول خارجيّة، وابن تيمية يكاد أن يصرّح بذلك!

هذا هو كتابه «منهاج السنّة» بأجزائه الأربعة، بمناسبة ومن غير مناسبة مشحون بذكر الخوارج فيصفهم أتهم أهل دين وعبادة وصدق وأهم على الحقّ، فيما الشيعة أهل باطل في كلّ ما يقولون...، وليته يقف عند هذا! إنّما حمله الذي فيه إلى أن قال في شأن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: أنّه منافق، وكافر، وطالب رياسة وحكم وقتل من أجل ذلك...؛ كلّ ذلك يقوله ويلقيه على ألسنة الخوارج، وينفي أن تكون لأمر المؤمنين عليه السلام فضيلة خاصّة في القرآن الكريم ولا يوجد نصّ في كتاب الله يثبت إسلام عليّ عليه السلام -؛ مع دفاع شديد عن بني أمية: سفيانهم وعائوهم، ناقصهم ووليدهم، أدعيائهم - وهم كثر! -، وخلفائهم؛ حتّى وصل الأمر به أن يُفصح عن خارجيّة ابنه فيحتجّ بتواتر إسلام وجهاد معاوية ويزيد وحكام بني أمية وبني العباس، وأي شبهة تُذكر فيهم ففي عليّ أعظم!! واللافت للنظر أنّ ابن تيمية يُكثر من ذكر الخوارج ويرفع من شأنهم أكثر من ذكره لبني أمية، ثمّ يستقلّ

بالكلام على طريقته المعهودة التي أخرجته عن المذاهب الأربعة المعروفة في العقيدة والفقه والأصول؛ فسمّاه أتباعه لذلك بشيخ الإسلام؛ وسمّاه من درس سيرته بالخارجي الثاني تمييزاً له كما قلنا عن الخارجي الأول الذي خرج على رسول الله ﷺ: ذو الخويصرة التميمي؛ وخرج ابن تيمية على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ وأطلقوا على خارجه تجدد أتباع ابن عبد الوهاب التميمي الذي أحى سنة سلفيه: ذي الخويصرة التميمي، وابن تيمية الحرّاني، الخارجي الثالث، وذلك لوحدة الأفكار وأنها نسيج واحد.

حان أن نذكر نصوصاً من في ابن تيمية، تأكيداً لما وصلنا إليه من نتيجة بشأن خارجيته، من كتابه (منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، وبهامشه كتابه: بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول).

لفت نظر

تحوّلت أسرة ابن تيمية تحمل مشؤومها أحمد صاحب الترجمة من حرّان التي بقت على ولائها لبني أمية، ولأجل هذا الولاء الشديد اتخذها مروان الحمار عاصمةً دون دمشق وقُتل بها على أيدي العباسيين، فلمّا كان الغزو المغوليّ تحوّلت الأسرة إلى دمشق معقل حكم بني أمية وعاصمتهم، وهناك تدرّج وتعلّم بعض المعارف. وعلى أيّ حال ففي هذه الأجواء كتب مؤلفاته، فكان فيها مزدوج الشخصية! كيف لا وهو يفتح عينه على بيئة تمرّ بالأفكار الفاسدة تلك هي حرّان التي فتحها أبو عبيدة، وسلبها بنو أمية. ومن حرّان إلى الشام التي

صارت في حيز بني أمية أيام أبي بكر تمهيداً، وفي عهد عمر ترسيخاً إذ ضمّ إلى معاوية جميع الشام وكان يُسمّيه كسرى العرب، وفي عهد عثمان توسيعاً إذ ضمّ إليه مصر وأقاليم أخرى، وكانت سياسة معاوية وحاشيته وخلفه هي حجب أهل الشام عن معرفة أمير المؤمنين وأهل البيت ﷺ، بل أفلحوا أن يجعلوا من أكثر أهلها نواصب؛ فابنُ تيميه بما عُرف منه من الناصبية فهو يلوذ بحمي بني أمية وأتباعهم فينتصر للشجرة الملعونة تشفياً من الشجرة المباركة.

أما أن يقال: إن الخوارج قاتلوا بني أمية على طول التاريخ، وبدأوا بـابن هند ففلقوا إسته؛ فإن الخوارج قاتلوا بني العباس وغيرهم، وابن تيميه يدفع عن بني العباس، إلا أن عدوّه «عليّ أمير المؤمنين وأهل البيت ﷺ» أشغله ذلك عن كلّ شيء وعاهد قرينه أن يموت خارجاً على عليّ أمير المؤمنين عليه السلام!

وقد عقدتُ فصلاً مستقلاً عن الخوارج ضمن هذا الكتاب اقتضته الضرورة. ولنذكر بعض أقوال ابن تيميه الدالة على خارجيته، عامله الله بعدله: قال الخارجي ابن تيميه: «إنّ أبا بكر وعمر كان بُعْدُهُما عن شبهة طلب الرياسة والمال أشدّ من بُعد عليّ عن ذلك. وشبهة الخوارج الذين ذمّوا عليّاً وعثمان وكفّروهما أقرب من شبهة الرافضة الذين ذمّوا أبا بكر وعمر وكفّروهما»^(١).

أيّ رعديد ابن تيميه؟! فهو يصول بأوراق وأسماء سرعان ما يولّي شيطانه القرين لأنّه لم يُحسن التسديد وحلّت بساحته قراءة التعاويذ واللّعنات لكثرة الظنون أنّه صار مطيّة الشيطان!

(١) منهاج السنّة ١: ١٦٣.

انظر قوله: «إنَّ أبا بكر وعمر كان بُعْدُهُما عن شُبْهة طلب الرياسة والمال أشدُّ من بُعد عليّ عن ذلك».

فهؤلاء خلفاء راشدون ومن العشرة المبشّرة بالجنّة؛ أليق الكلام عنهم بمثل هذا الكلام؟! ثمّ دقّق في كلامه تجده متّهماً للصديق والفاروق في طلب الرياسة والمال؛ فهو لم ينفِ عنهما ذلك من قبيل: لم يثبت، لم يسعيا، لم يعملّا، لم يعرضا لها، لم يتهاككا عليها، لم يقاتلا من أجلها، لم يعارضا من هو أحقّ بها، لقد جعلّاها شورى بين أهل الحلّ والعقد، ونظراً في القرآن والسنة ... وأما كلام ابن تيمية في البُعد والقُرب، إنّما هي من أساليبه في خداع العامة، وإلّا فالمعنى واحد: عليّ وأبو بكر وعمر، كلّهم طالبوا رئاسة ومال وإن تفاوتت النسبة بينهم فيما زعم!.

ثمّ ما بال الخارجيّ ابن تيمية في سورة غضبه الشيطانيّة ينال من عثمان فيكفره على السنة الخارج؟! ولو وسعه لزعم أنّ الخارج قد كفّروا العشرة «المذكورين في حديث المبشّرة بالجنّة» ولذكر كثيراً غيرهم. وهو إذ يشنّ غاراته الخائبة على فتى الإسلام، نفس رسول الله، أولهم إسلاماً وآخرهم عهداً بالنبّي، أحد الثقلين وأبو السبطين فارس بدر وأحد وخيبر وحُنين زوج البتول الطّاهرة بأمر الله تعالى، الأذن الواعية، القلب الطاهر، سيّد العرب، خير البريّة بعد رسول الله، حبّه إيمان وبُغضه نفاق، وليّ المسلمين بحكم التنزيل والتتويج يوم الغدير، وليد الكعبة، ما سجد لغير الله عزّ وجلّ حتّى مضى شهيداً محتسباً ... أقول: إذ يشنّ غاراته الخائبة ضائع النسب آباءً وأماً، كلاً على أخيه قليل العلم بشهادة

محبّيه، فلم يسلم من لسانه صوفي ولا مالكي ولا شافعي ولا حنفي؛ وتجرأ على ذات الله تعالى فحقوق وألزم الحجة فأظهر التوبة، ثم عاد، فعاد إلى السجن وهكذا ثلاثاً لينتهي إلى الهلاك.

أقول: إنّه في مرّات كثيرة إذ يطعن بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقرن به عثمان بن عفّان فيكفرهما على لسان الخوارج، وفي مواضع أخرى يدافع عن بني أمية حاكمين وأتباعاً، مهما قصرت بهم الهمم وسفلت بهم العزائم واشتبكت عُقد نقص النسب وسوء السيرة من ظلم وتجاوز الحدود ومعاقرة الخمر ومقارفة الزنا؛ فكما ذكرنا سابقاً أنّه يعيش في كنف بني أمية وكتب مؤلفاته هناك فكان لابدّ أن يحابي ويدفع حتّى عن السقط من بني أمية إن وُجد، إرضاء لهم وتأثراً بالبيئة التي عاشها في حرّان ودمشق، وخلطاً للأمور وتقليبها.

وهل عثمان إلّا أمويّاً، فلم الإصرار على تكفيره على لسان أسلافك الخوارج وإني أظنّ قوياً أنّه إنّما يعني بهم: عائشة أم المؤمنين التي كانت أوّل من نادى بكفر عثمان وتحريض على قتله، وتبعها على ذلك طلحة والزبير بعد أن بايعا أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام فنكثا البيعة ...

أمّا الباعث على تفجّر غضب عائشة على عثمان حتّى بلغ بها الأمر أن تنعته بالكفر وتدعو إلى قتله، ذلك أنّ عثمان أخر بعض أرزاقها عنها إلى وقت من الأوقات، فغضبت ثمّ قالت: يا عثمان، أكلت أمانتك وضيّقت - وضيّعت - رعيّتك وسلّطت عليهم الأشرار من أهل بيتك؛ لا سقاك الله الماء من فوقك

وَحَرَمَكَ الْبَرَكَةَ مِنْ تَحْتِكَ! أما والله لو لا الصلوات الخمس لمشى إليك قوم ثياب ^(١) وبصائر يذبوك كما يُذبح الحمل! (تمهيد لوقعة الجمل!)، فقال لها عثمان: (صَرَبَ اللَّهُ مَسْأَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةً نُوحٍ وَامْرَأَةً لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاحِلِينَ) ^(٢) فكانت تحرّض على قتل عثمان جهدها وطاقتها وتقول: أيها الناس، هذا قميص رسول الله لم يبلّ وبليت سنّته، اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً! ^(٣). ووجدت عائشة في مجريات الأمور مناسبات للإيقاع بعثمان، من ذلك: شكوى أهل مصر من عامل عثمان عليهم: ابن أبي سرح «عبد الله بن سعد»؛ وهو أخو عثمان من الرضاعة ^(٤) ويوم فتح مكة عهد رسول الله ﷺ إلى أمرائه أن يدخلوا مكة فلا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر ستمهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وإنما أمر بقتله لأنه قد كان أسلم، وكان يكتب لرسول الله ﷺ، فارتدّ مشركاً راجعاً إلى قريش. فلما كان الفتح فرّ إلى عثمان، فغيبه حتى أتى به رسول الله بعد أن اطمأن الناس، فاستأ من له، فزعموا أنّ رسول الله ﷺ صمّت طويلاً، ثم قال: نعم، فلما انصرف عنه عثمان، قال رسول الله لمن حوله من أصحابه: لقد صمّت ليقوم إليه بعضكم فيضرب

(١) هكذا في المصدر، ولعلّ الصحيح: ذوو ثياب.

(٢) التحريم: ١٠، الفتوح، لابن أعمش ٢: ٢٢٤.

(٣) أنساب الأشراف ٦: ٢٠٩. (ونعثل رجل يهودي بمصر، وقيل هو اسم رجل طويل اللحية بالمدينة كانت عائشة تُشبّه به عثمان بن عفّان!).

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام ٤: ٥٢، وطبقات ابن سعد ٧: ٣٤٤.

عنقه. فقال رجل من الأنصار: فهلاً أو مأتَ إليَّ يا رسول الله؟ قال: إِنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ بِالْإِشَارَةِ (١).

ووجدت فرصة أخرى في تسعير الحرب على عثمان وقتله، إذ لم يُجِرِ عثمان الحدَّ على الوليد بن عُقبة؛ ومن قصَّته أَنَّ الوليد بن عُقبة بن أبي مُعَيْط أخو عثمان لأُمِّه، فلمَّا انتهت الحاكِمية إلى عثمان عزل سعد بن أبي وقَّاص عن الكوفة، وأبدله بالوليد الفاسق، وذلك: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَّهَ الْوَلِيدَ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ فَجَاءَ فَقَالَ: إِنَّهُمْ مَنَعُوا الصَّدَقَةَ، فَنَزَلَ فِيهِ: (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ) (٢٠١) فَتَبَيَّنُوا الْآيَةَ. وَنَرَجَى أَخْبَارَ الْوَلِيدِ هَذَا، مِنْ صَلَاتِهِ سَكَرَاناً...، إِلَى مَنَادِمَتِهِ نَصْرَانِيّاً فِي الْمَسْجِدِ وَإِطْعَامِهِ الْخَزِيرَ وَالْخَمْرَ...، فَأَقَامَ عَلَيْهِ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْحَدَّ!

إِلَّا أَنَّ عَائِشَةَ مَضَتْ بِالنَّدَاءِ: إِنَّ عَثْمَانَ أَبْطَلَ الْحُدُودَ وَتَوَعَّدَ الشُّهُودَ. ثُمَّ إِنَّ عَائِشَةَ أَغْلَظَتْ لِعَثْمَانَ وَأَغْلَظَ لَهَا وَقَالَ: وَمَا أَنْتِ وَهَذَا؟! إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ تَقْرِي فِي بَيْتِكَ. فَقَالَ قَوْمٌ مِثْلَ قَوْلِهِ وَقَالَ آخَرُونَ: وَمَنْ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْهَا؟! فَاضْطَرُّوا بِالنَّعَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ قِتَالٍ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ (٢).

ولما اشتدَّ الأمر على عثمان قرَّبت عائشة راحلتها وعزمت على الحجِّ

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ٤: ٥٢.

(٢) الحجرات: ٦.

(٣) تفسير مقاتل ٣: ٢٥٩، والسيرة النبوية، لابن هشام ٣: ٣٠٩، والمغازي، للواقدي ٣: ٩٨٠، وتفسير عبد الرزاق ٣: ٢٢٠، وتفسير ابن زمنين ٢: ٣٣٦، وأنساب الأشراف ٦: ١٤٤، وأسباب النزول، للواحدي ٢٦١، وتفسير ابن جرير ٢٦/١٢٤.

(٤) أنساب الأشراف ٦: ١٤٤.

فجاءها مروان بن الحكم فقال لها: لو أقمتِ فلعلَّ الله يدفع بك عن هذا الرجل! فقالت: قد قَرَّبْتُ ركابي وأوجبتُ الحجَّ على نفسي، ووالله لا أفعل، فجعل مروان يتمثل شعراً:
وَحَرَّقَ قَيْسٌ عَلَيَّ الْبَلَا دَ حَتَّى إِذَا اضْطَرَمْتُ أَجْزَمَا^(١)
فقالت: قد فهمت ما قلت يا مروان. فقال مروان: قد بَيَّنْتُ لكَ ما في نفسك. فقالت: هو ذاك. ثمَّ قالت: يا مروان، وِدِدْتُ وَاللَّهِ أَنَّهُ فِي غِرَارَةٍ مِنْ غِرَائِي هَذِهِ وَأَنِّي طُوِّقْتُ حَمْلَهُ حَتَّى أَلْقِيَهُ فِي الْبَحْرِ!

ومرَّ عبد الله بن عَبَّاسٍ بعائشة فقالت: يا ابن عَبَّاسٍ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ آتَاكَ عَقْلاً وَفَهْماً وَبَيَاناً، فإِذَاكَ أَنْ تَرَدَّ النَّاسُ عَنْ هَذَا الطَّاعِيَةِ!^(٢)
وضربت عائشة صوب مَكَّةَ وكلَّها أَمَلٌ أَنْ الْفِتْنَةُ تَنْتَهِيَ بِالْبَيْعَةِ لِابْنِ عَمِّهَا طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ التَّيْمِيِّ أَشَدَّهُمْ عَلَى عَثْمَانَ وَلِذَا لَمْ يَطْلُبْ مَرْوَانَ بِثَأْرِهِ لِعَثْمَانَ غَيْرَهُ!
وَأَمَّا شُرَكَاءُ عَائِشَةَ فِي ثَوْرَتِهَا عَلَى عَثْمَانَ، وَهُوَ مَا يَعْنِيهِ الْخَارِجِيُّ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ فَهَمَّ: طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التَّيْمِيِّ، ابْنُ عَمِّ أَبِي بَكْرٍ وَزَوْجُ ابْنَتِهِ أُمِّ كَلْثُومٍ. وَكَانَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ طَلْحَةَ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ خَلَفَ عَلَيْهَا مُصْعَبُ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ.
وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ، كَانَ صَهْرَ أَبِي بَكْرٍ، زَوْجَتُهُ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، وَوَلَدَهُ

(١) وفي طبقات ابن سعد ٥: ٢٧: حَتَّى إِذَا اسْتَعَرَّتْ أَجْزَمَا.

(٢) أنساب الأشراف ٦: ١٩٢ - ١٩٣، والفتوح ٢: ٢٢٥ - ٢٢٦.

منها عبد الله بن الزبير. ثم طلقها الزبير.

ولم يكن للزبير وطلحة شأن أيام عمر وكان يتنقصهما! فيصف الزبير بأنه يدافع من أجل الدرهم، وينعت طلحة بالبأ، أي: الفخر والزهو، من ذلك حوار لابن عباس: قال ابن عباس: طرقتني عمر بن الخطاب بعد هدأة الليل. فقال: اخرج بنا نحرس نواحي المدينة! فخرج وعلي غنقه درته، حتى أتى بقيع الغرقد^(١)، فاستلقي علي ظهره وجعل يضرب أخص قدميه وتأوه صعداً، فقلت له: ما أخرجك إلي هذا الأمر؟ فقال: أمر الله يا ابن عباس. قلت: إن شئت أخبرتك بما في نفسك! قال: غص غواص، إن كنت تقول فتُحسن. قلت: ذكرت هذا الأمر وإلي من تصيره. قال: صدقت. فقلت له: أين أنت عن عبد الرحمان بن عوف؟ فقال: ذاك رجل ممسك - أي: بخيل محب للمال - وهذا الأمر لا يصلح إلا لمعيط من غير سرف ومانع في غير إقتار^(٢). فقلت: سعد بن أبي وقاص؟ قال: ذاك مؤمن ضعيف^(٣).

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة. (معجم البلدان ٤: ١٩٤).

(٢) في شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد: رجل ضعيف لو صار الأمر إليه لوضع خاتمه في يد امرأته.

(٣) في شرح نهج البلاغة: صاحب سلاح ومقنب، أي: جماعة الخيل.

فقلت: طلحة بن عبيد الله؟ قال: ذاك رجل يناول للشرف - أي: السُّمعة والشُّهرة - والمديح، يعطي ماله حتّى يصل إلى مال غيره، وفيه بأو وكبر ^(١).

قلت: فالزبير بن العوّام، فهو فارس الإسلام؟! قال: ذاك يوم إنسان ويوم شيطان! إن كان ليكادح علي المكيّلة من بكرة إلى الظّهر حتّى تفوته الصلاة ^(٢).

فقلت: عثمان بن عفان؟ قال: إن ولي حمل بني أبي معيط، وبني أميّة علي رقاب النّاس، وأعطاهم مال الله، ولئن فعل لتسيرنّ العرب إليه حتّى تقتله في بيته ^(٣).

ثمّ سكت. قال: فقال: أمضها يا ابن عبّاس، أترى صاحبكم (يعني عليّاً) لها موضعاً؟! فقلت: وأين يتعد من ذلك مع فضله وسابقته وقربته وعلمه؟ قال: هو والله كما ذكرت، ولو وليهم تحمّلهم علي منهج الطريق فأخذ المحجّة الواضحة، إلّا أنّ فيه خصالاً: الدّعابة في المجلس، واستبداد الرأي، والتبكيّ للناس مع حداثة السنّ!

قلت: هلاًّ استحدثتم سنّه يوم الخندق إذ خرج عمرو بن عبد ودّ، وقد كعم ^(٤) عنه الأبطال، وتأخّرت عنه الشيوخ؟! ويوم بدرٍ إذ كان يقطّ الأبطال قطّاً؟! ولا

(١) في شرح نهج البلاغة: قال: ذو البأو، وبأصبغه المقطوعة.

(٢) في شرح نهج البلاغة: قال: سكس لقس - أي سيئ الخلق - يلاطم في التقيع في صاع من برّ.

(٣) في شرح نهج البلاغة: قال: أوّه! ثلاثاً. والله لئن وليها ليحملنّ بني معيط على رقاب الناس، ثمّ لتنهضنّ إليه العرب.

(٤) كعم: جبن.

سبقتموه بالإسلام.

فقال: إليك عتي يا ابن عباس، إن علياً ابن عمك لأحق الناس بها، ولكن قريشاً لا تحمله! ولئن وليهم ليأخذهم بمز الحق لا يجدون عنه رخصة، ولئن فعل لينكثن بيعته ثم ليتحارب^(١). وكان الأمر كما قال، إذ حين أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وكان أول من بايعه طلحة والزبير، ثم نكثا البيعة وخرجوا على أمير المؤمنين بقيادة عائشة، فقتلا مع خارجة الناكثين يوم الجمل.

ملاحظة جديرة بالاهتمام

من خلال الكلام بين عمر وابن عباس، وجدنا الخليفة لم يثبت من مجموع الستة أشخاص المذكورين إلا أمير المؤمنين علياً عليه السلام فقد أقر له بالسابقة إلى الإسلام وبالعلم وأنه أحق الناس بالخلافة.

أما الآخرين فذكرهم بما مر بنا من عيوبهم ومثالبهم ولم يذكر لأحد منهم فضيلة واحدة ومع هذا وذاك عين الأشخاص الستة المذكورين للشورى من أجل اختيار الخليفة من بعده، وفي حال الاختلاف ينظر إلى صف عبد الرحمان بن عوف فيأخذ برأيه. وعلى رغم اختيار ابن عوف عثمان بن عفان، وأنه قد أثرى إثراء لا مثيل له في حاكمية عثمان، إلا أن ذلك لم يمنعه من الإنكار على عثمان والتأليب

(١) تاريخ يعقوبي ٢: ١٥٨ - ١٥٩، وشرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٢: ٥١.

عليه، وكان قد حلف إلا يُكلّم عثمان أبداً. وذكر عثمان عند عبد الرحمان بن عوف في مرضه الذي مات فيه فقال عبد الرحمان: عاجلوه قبل أن يتمادى في ملكه! فبلغ ذلك عثمان، فبعث إلى بئر كان يسقى منها نعم عبد الرحمان بن عوف فمنعه إياها. وأوصى عبد الرحمان بن عوف أن لا يُصلّي عليه عثمان، فصلّي عليه الزبير، أو سعد بن أبي وقاص^(١).
فحالّ عبد الرحمان بن عوف، حالّ عائشة وطلحة والزبير ... في خروجهم علي عثمان وتكفيرهم إياه، وبهم اقتدى الخارجي ابن تيميه.

موقف طلحة والزبير من عثمان

ذكرنا أنّ طلحة والزبير لم يكن لهما شأن أيام عمر وكان يتنقّصهما، ثمّ منّ عليهما أن جعلهما في الشورى! وبعد عمر طمعا طمعاً كاذباً بالكوفة والبصرة، إلا أنّ عثمان خيب آمالهما، إذ كان عبد الله بن عامر بن كُرَيْز الأمويّ، عامله على البصرة، وعلى الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط^(٢)، فلمّا شكاه أهل الكوفة (ذكرنا بعض خبره) استبدل به سعيد بن العاص، فلمّا ولّاه عثمان قال: «ويلّ للأشراف منّي! وقال: إنّما السواد بستان لقريش، فأخرجه أهلها عنها، وولّاه معاوية المدينة وولّاه الموسم»^(٣).

(١) أنساب الأشراف ٦: ١٧٠ - ١٧١.

(٢) أسر عقبة بن أبي معيط يوم بدر ثم قتله رسول الله ﷺ صبراً (المصادر جميعاً).

(٣) أنساب الأشراف ٦: ٤٨.

وكان عمرو بن العاص على مصر أيام عمر بن الخطاب وفترة من أيام عثمان ثم عزله عنها، واستعمل عليها أخاه من الرضاعة ابن أبي سرح - كما أسلفنا - مما أثار حفيظة ابن التَّابِغَة، فراح يوري زناد الفتنة على عثمان، وهو القائل: «أنا أبو عبد الله! إني إذا حككت قرحة نكاتها. وقد قال له عثمان وهو بالمدينة: يا ابن التَّابِغَة، إنَّكَ لَمَنْ تَوَلَّى عَلِيَّ الطَّغَام! لأن عزلتك عن مصر، فخرج إلى فلسطين» ^(١) غير أنَّ ابن التَّابِغَة مضى في عزمه في التَّأليب على عثمان. وعلى الرغم من إثراء طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم أيام عثمان إثراءً فاحشاً لم يكن لأحدهم من قبل عشر معشار ما ملك أيامه! ^(٢) إلا أنَّ ذلك لم يمنعهم من الخروج على عثمان ومعارضته أشدَّ المعارضة وقد ذكرنا ما كان من عبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص؛ وبعضاً من مواقف عائشة وسنعود إليها.

إنَّ الذي أثار طلحة والزبير كما ذكرنا هو عدم استجابة عثمان لمطعمهما في الإمارة والولاية «فقام طلحة مع عائشة وكلَّم عثمان بكلام شديد» ^(٣) وذلك حين جاءته الوفود تشكوا عمَّاله. «وسلَّم - أي عثمان - على جماعة فيهم طلحة فلم يردُّوا عليه فقال: يا

(١) نفسه ٦: ١٩٣.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في طبقات ابن سعد (الجزء الثالث: تراجم عثمان وطلحة والزبير وابن عوف وسعد بن أبي وقاص)، وأنساب الأشراف ٦: ١٣٦ فما بعد، ومروج الذهب ٢: ٣٣٢ فما بعد.

(٣) أنساب الأشراف ٦: ١٩٥.

طلحة ما كنتُ أرى أبيّ أعيش إلى أن أسلّم عليك فلا تردّ عليّ السلام»^(١). وجاء الزبير إلى عثمان فقال له: إنّ في مسجد رسول الله ﷺ جماعة يمنعون من ظلمك ويأخذونك بالحقّ فاخرج فخاصم القوم إلى أزواج النبيّ، فخرج معه فوثب الناس عليه بالسلاح فقال: يا زبير! ما أرى أحداً يأخذ بحقّ ولا يمنع من ظلم، ودخل ومضى الزبير إلى منزله^(٢).
أرأيت! كيف كان أمر الحواري - كذا! - من عثمان: كذب عليه، والكذب في الإسلام أعظمُ الذنوب الكبائر! وإنّه خدع عثمان للفتك به وقتله.

إنّ الناس المذكورين الذين كانوا لعثمان بالمرصاد: فيهم طلحة، عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبيّ ﷺ أشدّ على عثمان من طلحة^(٣).
وحين اشتدّ الأمر على عثمان كان الزبير وطلحة قد استوليا علي الأمر^(٤).

لم يكن موقف الغدر من (الحواري) جديداً ولا أخيراً!!، فمن قبل، وقبل أن ينكث بيعته لابن خاله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقد ذكر الطبريّ (عن موسى بن عُقبة عن أبي حبيبة مولى الزبير، قال: لما قتل الناس عثمان وبايعوا عليّاً، جاء عليّ إلى الزبير فاستأذن عليه فأعلمته به، فسلّ السيف ووضعه تحت فراشه! ثمّ قال: ائذن له فأذنّت له، فدخل فسلّم على الزبير وهو واقف

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ٢٠١.

(٤) نفسه ٢٢٥.

بنحوه ثمّ خرج، فقال الزبير: لقد دخل المرء ما أقصاه! فم في مقامه فانظر: فهل ترى من السيف شيئاً، فقمّت في مقامه فرأيت دُبابَ السيف فأخبرته فقال: ذاك أعجلَ الرجلِ»^(١).
لقد كان الزبير من العزم على قتل ابن خاله أمير المؤمنين عليه السلام وقد بايعه آنفاً، فما الذي يُرجى منه بعد؟!

وقال أبو مخنف وغيره: حرّس القومُ عثمان ومنعوا من أن يدخل عليه، وأشار عليه سعيد بن العاص بأن يُحرم ويُلبّي ويخرج فيأتي مكّه فلا يُقدّم عليه، فبلغهم قوله فقالوا: والله لئن خرج لا فارقناه حتّى يحكم الله بيننا وبينه، واشتدّ عليه طلحة بن عبيد الله في الحصار، ومنع من أن يُدخل إليه الماء حتّى غضب عليّ بن أبي طالب من ذلك، فأدخلت عليه روايا الماء! ^(٢)

ثلاثة من أهل الشورى

«أشرف عثمان على الناس فسلم عليهم فردّوا سلاماً ضعيفاً، فقال: أفيكم طلحة؟ قال: نعم ها أنا ذا، فقال عثمان: سبحان الله! ما كنتُ أظنُّ أن أسلم على جماعة أنت فيهم ولا تردّ عليّ السلام، ثمّ قال: أهاهنا سعد بن أبي وقاص؟ أهاهنا الزبير بن العوّام؟ فقالا: نعم نحن هاهنا، فقل ما تشاء: فراح يناشدهم الله

(١) تاريخ الطبريّ ٣: ٤٥٤.

(٢) تاريخ الطبريّ ٣: ١٨٨.

ويذكرهم بمناقبه وأنه لا يجوز لهم قتله، ثم سمع صوتاً يهدّد بقتله»^(١).

فثلاثة من أركان الشورى: طلحة، والزبير، وسعد، على رأس المحاصرين لعثمان وقد منعوا الماء عنه وهدّدوا بقتله. ومن قبلهم رابعهم عبد الرحمان بن عوف. وخامس أركان الشورى عثمان وهو المحصور في داره تنتظر أمّ المؤمنين عائشة خبر مقتله، بعد أن نادى: اقتلوا نعثلاً فقد كفر. ولم يمنع الحجّ ولا التواجد في البيت الحرام من أن تقع بعثمان فكانت تقول: «إني أرى عثمان سيثوم قومه كما شام أبوسفیان قومه يوم بدر»^(٢).

فهؤلاء هم الخوارج الذين ألع بذكرهم الخارجي ابن تيميه وقال في مواطن كثيرة من منهاج ضلاله أنهم يكفّرون عثمان بن عفّان.

موقف أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

بقي واحد من أهل الشورى ذاك هو أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وإن كنّا قد ذكرنا له خبراً من غيرته الهاشمية العلوية، لما شدّدوا الحصار على عثمان ومنع طلحة أن يدخل الماء إليه، فأدخل أبو الحسن عليه رويا الماء رغم من رغم! ولم نجد له خبراً واحداً في المحاصرين له ... وبعد فتنة مروان التي كانت الشرارة التي أضرمت اللهب والتي كاد أمير المؤمنين عليه السلام أن يطفئها، «فحاصر الناس عثمان ومنعوه الماء، فأشرف على الناس فقال: أفيكم عليّ؟

(١) الفتوح ٢: ٢١٩ - ٢٢٠، ومروج الذهب ٢: ٣٤٤.

(٢) أنساب الأشراف ٦: ٢١٢ - ٢١٣.

فقالوا: لا، قال: أفيكم سعد؟ قالوا: لا، فسكت (ولم يسأل عن طلحة والزبير لعلمه بحالهما) ثم قال: ألا أحدٌ يبلِّغُ فيسقيناً ماءً؟ فبلغ ذلك عليّاً فبعث إليه بثلاث قِرَبٍ مملوءة ماء فما كادت تصل إليه، وجُرح بسببها عدّة من موالي بني هاشم وبني أميّة حتّى وصلت. وبلغ عليّاً أنّ القوم يريدون قتل عثمان فقال: غنما أردنا قتل مروان، فأما قتل عثمان فلا، وقال للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتّى تقوما على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه، وبعث عدّة من أصحاب النبي ﷺ أبناءهم ليمنعوا الناس من الدخول إليه ويسألوه إخراج مروان! ورمى الناس عثمان بالسهم حتّى خُضب الحسن بالدماء على بابه، وشُجَّ قنبر مولى عليّ، وأصاب مروان سهم وهو في الدار»^(١).

إنّ مطلب الناس هو نفسه مطلب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وهو: إخراج مروان الذي كان يُقلِّب الأمور علي عثمان. ولم يكن عند عثمان أحد يُسدي له النصيحة ويثق به إلاّ عليّاً عليه السلام لذا: «لما علِمَ بنزول الثَّوار بذي خشب»^(٢)، بعث إلى عليّ، فأحضره وسأله أن يخرج إليهم ويضمن إليهم عنه كلّ ما يريدون من العدل وحسن السّيرة، فسار عليّ إليهم، فكان بينهم خطب طويل، فأجابوه إلى ما أراد وانصرفوا، فبينما هم في الطريق إذا غلام عثمان مقبل من قبل المدينة، فقرّره فأقرّ وأظهر كتاباً إلى ابن أبي سرح صاحب مصر وفيه: إذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان واقتل

(١) أنساب الأشراف ٦: ١٨٥.

(٢) خشب: واد على مسيرة ليلة من المدينة. (معجم البلدان ٢: ٣٧٢).

فلاناً وافعل بفلان كذا...»^(١) وعلم القوم أنّ الكتاب بخط مروان، فرجعوا إلى المدينة. من هنا يستبين أن مروان ركن من أركان قتلة عثمان من لون آخر. فعائشة وطلحة والزبير من أشدّ المؤلّين عليه، ومروان يلعب بعثمان ويقلب الموقف ويضيق جهود أمير المؤمنين عليه في إطفاء الفتنة. «عكرمة عن ابن عباس قال: لما حُصر عثمان الحصر الآخر فلقاهم عليّ بذئ خشب فردّ عنه، وقد كان والله عليّ له صاحب صدق، حتّى أوغر نفس عليّ عليه، جعل مروان وسعيد وذووهما يحملونه على عليّ فيتحمل ويقولون لو شاء ما كلّمك أحد، وذلك أن عليّاً كان يكلمه وينصحه ويغلظ عليه في المنطق في مروان وذويه، فيقولون لعثمان: هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمّه، فما ظنّك بما غاب عنك منه؟»^(٢).

بهذه الأساليب ذبح مروان وبنو أميّة عثمان وكانوا بذلك شركاء الخوارج الأشدّاء عائشة وطلحة والزبير وعبد الرحمان بن عوف، ومواقف أضعف من هؤلاء لسعد بن أبي وقاص.

نفاق طلحة!

البلاذري: حدّثني إسحاق الفروي حدّثنا عبد الله بن إدريس حدّثنا يحيى

(١) أنساب الأشراف ٦: ٢١١. ومروج الذهب ٢: ٣٤٤. وعن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي أشدّ على عثمان من طلحة (نفس المصدر ٢٠١).

(٢) تاريخ الطبري ٣: ٤٣٣ - ٤٣٤.

ابن سعيد قال: كان طلحة استولى على أمر الناس في الحصار، فبعث عثمان عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب إلى عليّ بهذا البيت:

إن كنت مأكولاً فكن أنت آكلِي و إلا فأدركني ولما أمَرَ

وقال هشام ابن الكلبي: هذا البيت للممَرَّق العبدى واسمه شأس بن نهار ابن الأسود بن حزيل، وبه سمي الممَرَّق ^(١).

وقال أبو مخنف: صلى عليّ بالناس يوم النحر وعثمان محصور، فبعث إليه عثمان بيت الممَرَّق. ففرق عليّ الناس عن طلحة؛ فلما رأى طلحة ذلك دخل على عثمان فاعتذر! فقال له عثمان: يا ابن الحضرميّة ألّبت عليّ الناس ودعوتهم إلى قتلي حتّى إذا فاتك ما تريد جئت معتذراً، لا قبل الله ممّن قبل عذرک ^(٢).

إنّا نجد: أنّ الخوارج الذين كفّروا عثمان هم أهل الشورى وعليّ خارج عن دائرتهم وناصر لعثمان الذي أراد الخلافة له ففوّت الفرصة علي طلحة وجعلها لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام.

إذن كيف قرن الخارجي ابن تيميه تكفير من خرج على عثمان بتكفيرهم عليّاً عليه السلام، وهم حتّى ساعة قتله - أي عثمان - لم يذكروا عليّاً بسوء، وإنّما كانت همّتهم عثمان بن عفّان؛ فلما رأوا الأمر قد صرفه عثمان إلى عليّ عليه السلام وأنّ الوفود والأقطار لا تعدل به سواه ولذا سارع طلحة والزيير إلى إظهار البيعة!

(١) أنساب الأشراف، مصدر سابق ١٩٦.

(٢) نفسه.

البيعة لأمر المؤمنين عليه السلام

قُتِلَ عثمان بن عفّان في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين بعد حصار دام تسعاً وأربعين يوماً، وبويع لأمر المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في الليلة التي قُتِلَ فيها عثمان وقيل في صبيحتها. «وكان طلحة والزبير قد أخذوا مفتاح بيت المال، فبعث عليّ من أخذ مفاتيح بيت المال»^(١). وأقبل الناس إلى عليّ بن أبي طالب فقالوا: يا أبا الحسن، إنّه قد قُتِلَ هذا الرجل ولا بدّ للناس من إمام، وليس لهذا الأمر أحد سواك فهلّم، فبايع الناس حتّى يُدفن هذا الرجل، فقال عليّ: لا حاجة لي في البيعة، التمسوا لهذا الأمر غيري، فإنّي أرى أمراً له وجوه لا تقوم له القلوب... فعليكم بطلحة والزبير! قالوا: فانطلق معنا إلى طلحة والزبير، فقال عليّ: أفعل ذلك. ثمّ خرج من منزله مع القوم حتّى صار إلى دار طلحة فقال: يا أبا محمّد إنّ الناس قد اجتمعوا إليّ في البيعة، وأنا أنا فلا حاجة لي فيها، فابسط يدك حتّى يبايعك الناس، فقال طلحة: يا أبا الحسن، أنت أولى بهذا الأمر وأحقّ به منّي لفضلك وقرابتك وسابقتك، فقال له عليّ: إنّي أخاف إن بايعني الناس واستقاموا على بيعتي أن يكون منك أمرٌ من الأمور! فقال طلحة: مهلاً يا أبا الحسن، فلا والله لا يأتيك منّي شيء

(١) أنساب الأشراف ٣: ٨.

تكرهه أبداً. قال عليّ: فالله تبارك وتعالى عليك راعٍ وكفيل! فقال طلحة: يا أبا الحسن، نعم.

قال عليّ: فثُمّ بنا إذن إلى الزبير بن العوّام، فأقبل معه طلحة إلى الزبير فكلّمه عليّ بما كلّم به طلحة؛ فردّ عليه الزبير شبيهاً بكلام طلحة، وعاقده وعاهده أنّه لا يغدر به ولا يحبس بيعته. فرجع عليّ إلى المسجد واجتمع الناس فيهم نفراً من الأنصار منهم أبو الهيثم بن التّيهان، ورفاعة بن رافع، ومالك بن العجلان، وخزيمة بن ثابت، والحجاج بن عمرو بن غزّة، وأبو أيّوب، فكلّموا الناس فقال الكوفيّون والمصريّون: فإنّنا قد قبلنا منكم فأشيروا علينا، فإنّكم أهلُ السابقة، وقد سمّاكم الله أنصاراً فأمرونا بأمركم. فقالت الأنصار: قد عرفتم فضل عليّ بن أبي طالب وسابقته وقربته ومنزلته من رسول الله ﷺ مع علمه بحلالكم وحرامكم وحاجتكم إليه من بين الصحابة، ولن يألوكم نُصحاً، ولو علمنا مكان أحد هو أفضل منه وأجمل لهذا الأمر وأولى به منه لدعوناكم إليه. فقال الناس كلّهم بكلمة واحدة: رضينا به طائعين غير كارهين. فقال لهم عليّ: أخبروني عن قولكم هذا، أحقّ واجب من الله عليكم أم رأي رأيتموه من عند أنفسكم؟ قالوا: بل هو واجب أوجبه الله عزّ وجلّ لك علينا، فقال عليّ: فانصرفوا يومكم هذا إلى غدٍ، فلمّا كان غد أقبل الناس إلى المسجد، وجاء عليّ ابن أبي طالب، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس إنّ الأمر أمركم فاختاروا لأنفسكم من أحببتهم وأنا سامع مطيع لكم!

فصاح الناس من كلّ ناحية وقالوا: نحن على ما كنّا عليه بالأمس، فابسط

يدك حتّى يبايعك الناس، فسكت عليّ. وقام طلحة إلى عليّ فبايعه وضرب يده على يد عليّ، وكان به شلل من ضربة أصابته يوم أحد، فلمّا وقعت يده على يد عليّ قال قبيصة بن جابر: إنّنا لله وإنّا إليه راجعون! أوّل يد وقعت على كفّ أميرالمؤمنين يدٌ شلاء، لا والله لا يتمّ هذا الأمر من قبل طلحة بن عبيد الله أبداً. ثمّ وثب الزبير فبايع، وبايع الناس بعد ذلك ^(١).

وفي البصرة، أخذ جارية بن قدامة السعدي البيعة لأمرالمؤمنين عليه السلام، وكان بها عبد الله بن عامر والياً لعثمان، ففرّ منها إلى مكّة.

وفي الكوفة، بايع هاشم بن عتبة المرقال أميرالمؤمنين عليه السلام، وقال: هذه يميني وشمالي لعليّ؛ وكان فيها أبو موسى الأشعريّ فقعد يثبّط أهل الكوفة عن أميرالمؤمنين! فعزله.

وفي المدائن، بايع حذيفة بن اليمان لأمرالمؤمنين واضعاً يده اليمنى وحتّ الناس على بيعته ونصرته وقال: لا أباع بعده لأحد من قريش ... وقال: من أراد أن يلقي أميرالمؤمنين حقّاً فليأت عليّاً ^(٢).

وفي الشام كان معاوية والياً لعثمان ومن قبله لعمر بن الخطّاب، فأظهر الخلاف لأمرالمؤمنين، ومنع واليه من دخول الشام.

فالأقطار الإسلاميّة بايعت عليّاً من غير سيف ولا سفك دم كما زعم ابن

(١) المعارف، لابن قتيبة ٢٠٨ - ٢٠٩، وأنساب الأشراف ٣: ١٤ - ١٦، وتاريخ الطبري ٣: ٤٥٦ - ٤٥٧،

والفتوح ٢: ٢٤٣ - ٢٤٦، ومروج الذهب ٢: ٣٥٧.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ١٧.

تيميه! كما سنوافيك، وأنّ أمير المؤمنين قاتل من أجل الخلافة وأراق الدماء البريئة وأنّه كان متهاكاً عليها حتّى قُتل ولم يتمتّع بها بخلاف من سبق إذ كانت خلافتهم إجماعاً ورضى ولم تُرق فيها دماء!

فنحن لم نجد في بيعة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام مخالفة لوحيته ﷺ حينما طلب أن يقدموا له ليكتب لهم كتاباً لن يضلّوا بعده فاعترض معترضٌ وكان اللّغظ حتّى طردهم رسول الله ﷺ إلّا عليّاً فإنّه لم يقدّم بين يدي الله ورسوله، متأدّباً بأدب القرآن الكريم، ولا رفع صوته فوق صوت النبيّ، ممثلاً أمر الله سبحانه وتعالى، ولذا بقي عليّ عليّاً في خلقه. ولذا لم يغادر النبيّ ﷺ فلقد تربّى في حضنه وليداً وكان أوّل طعام دخل جوفه هو ريق رسول الله فهنئاً لأبي الحسن زوج البتول، وكان للنبيّ مثل الظلّ للشيء لا يزياله... وبقي مع النبيّ يمرضه ورأس النبيّ بين سحر عليّ ونحوه حتّى فاضت روحه الطاهرة في كفّ عليّ، وهو الذي تولّى غسله ودفنه ليلاً والقوم يصطرون من أجل الخلافة وسلّت السيوف! وصُرع سعد بن عبادة سيّد الخزرج، وديس بالأقدام، وكان عمر يقول: اقتلوا سعداً، قتله الله!

وانفضّ الاجتماع عن بيعة أبي بكر مع تخلف ومعارضة شديدة من بعض الأنصار وامتناع أمير المؤمنين في عدد من بني هاشم ولزومهم بيت الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام، وانجفلت كثيرٌ من القبائل عن قبول خلافة أبي بكر فمنعته صداقاتها. كما رجع بعض عمّال رسول الله صلى الله عليه وآله عن أعمالهم ورفضوا أن يعملوا لأبي بكر، ولما سألهم أبو بكر: لم رجعتن عن أعمالكم؟ قالوا: لا نعمل لأحد بعد

رسول الله، وكان ميلهم إلى بني هاشم.

ويوم الجمعة وأبوبكر على المنبر تصدّى له اثنا عشر من أصحاب النبيّ فحاجّوه منكرين عليه وهم: سلمان الحمّدي، وأبوذر الغفاري، والمقداد الكنديّ، وعمّار بن ياسر، وُريدة الأسلميّ، وأبيّ بن كعب، وخزيمة ذو الشهادتين، ومالك بن النّيثان، وسهل بن حنيف وأخوه عثمان بن حنيف، وأبو أيّوب الأنصاريّ، وخالد بن سعيد بن العاص.

وكانت قبائل أسد، وفزارة تقول: لا والله لا نبايع أبا الفصيل ^(١) أبداً، يعنون بذلك أبا بكر ^(٢). ولما رأى أبو بكر أنّ جُلّ القبائل قد أقامت على الإسلام إلّا أنّها منعت الرّكاة، عزم على محاربتها، فقال أصحاب رسول الله لأبي بكر: اقبل منهم. فقال: «لو منعوني عِقْلاً ممّا أعطوا رسول الله لقاتلتهم». وعن يحيى بن سعيد أنّ أبا بكر قال: «لو منعوني عِقْلاً أو حبلاً لقاتلتهم». ثمّ إنّ أبا بكر خرج من المدينة للنصف من جمادي الآخرة سنة إحدى عشرة إلى ذي القُصّة وهناك أمر خالد بن الوليد على الجيش وأمره أن يقاتل من عارضه أشدّ القتال، ثمّ لم يترك أحداً قدّر عليه إلّا أحرقه بالنّار إحراقاً، وأن يسيّ الذراري والنساء ويأخذ الأموال. وعملاً بما أمر به أبوبكر جمع خالد أسرى بني سُلَيم فجعلهم في حظائر

(١) الفصيل: ولد الناقة أو البقرة، إذا فُصِل عن أمّه.

(٢) تاريخ الطبريّ ٢: ٤٨٥، والفتوح، لابن أعمش ١: ١٤.

ثم أضرم عليهم النار^(١).

إنّ فعل خالد هذا يختلف عن فعله مع أسرى بني أسد وفيهم عُيينة بن حصن الذي أقرّ على نفسه أمام أبي بكر أنّه كان منافقاً لم يؤمن قطّ. ومع ذلك عفا أبوبكر عنه وعن أسرى بني أسد. و أمّا طليحة الأسدي، وكان قد ادّعى النبوة! وقاتل خالداً، فلمّا حلّت به الهزيمة فرّ إلى الشام، ثمّ خرج إلى مكّة معتمراً، فقبل لأبي بكر: هذا طليحة، فقال: ما أصنع به! خلّوا عنه فقد هداه للإسلام، ثمّ أتى فيما بعد فبايع عمر بن الخطّاب^(٢).

مقتل مالك بن نويرة

ثمّة أمر مروّع! ذلك أنّ خالد وعملاً بدستور الخليفة، لما توسّط البطحاء من أرض تميم وكان بها مالك بن نويرة، وكان رسول الله ﷺ استعمله على بعض صدقات تميم. فلمّا توفّي رسول الله، منع مالك الزكاة، حاله في ذلك حال القبائل الأخرى التي امتنعت عن دفع الزكاة لأبي بكر، فازداد أبو بكر عليه حنفاً وغيظاً، وأمّا خالد بن الوليد فإنّه حلف وعاهد الله عزّ وجلّ لئن قدر عليه ليقتلنه وليجعلنّ رأسه أثفيّةً للقدور! ف وقعت سرية من تلك السرايا التي بثّها خالد على مالك ومعه امرأته، وكان فيها مسحة من جمال، فأخذوه أسيراً وأخذوا معه

(١) تاريخ خليفة ٦٧.

(٢) تاريخ خليفة ٦٤ - ٦٧، وتاريخ الطبري ٢: ٤٥٦ - ٤٩٤، والفتوح، لابن أعثم ١ - ١٩.

امراته، وكلّ من كان معه من بني عمّه، فأتوا به إلى خالد فأمر بضرب أعناق بني عمّه بدّيّاً^(١). فقال القوم: إنّنا مسلمون، فعلى ماذا تأمر بقتلنا؟! قال خالد: والله لأقتلنكم! فوثب أبو قتادة^(٢) إلى خالد فقال: أشهد أنّك لا سبيل لك عليهم. قال خالد: وكيف ذلك؟ قال: لأنّي كنت في السريّة التي قد وافتهم، فلمّا نظروا إلينا قالوا: من أين أنتم؟ قلنا: نحن المسلمون، فقالوا: ونحن المسلمون، ثمّ أذّنّا وصلّينا فصلّوا معنا، فقال خالد: صدقت يا أبا قتادة، إن كانوا صلّوا معكم فقد منعوا الزكاة التي تجب عليهم ولا بدّ من قتلهم!

فقدّمهم فضرب أعناقهم عن آخرهم. وعاهد أبو قتادة أنّه لا يشهد مع خالد بن الوليد مشهداً أبداً بعد ذلك اليوم.

ثمّ قدّم خالد مالك بن نويرة ليضرب عنقه، فقال مالك: أتقتلني وأنا مسلم أصلي إلى القبلة؟ فقال خالد: لو كنت مسلماً لما منعت الزكاة ولا أمرت قومك بمنعها. والله ما نلت ما في مثابتك حتّى أقتلك! فالتفت مالك إلى امرأته فنظر إليها ثمّ قال: يا خالد بهذه قتلتي!

فقال خالد: بل الله قتلك برجوعك عن دين الإسلام، وجفلك لإبل الصدقة، وأمرك لقومك بحبس ما يجب عليهم من زكاة أموالهم. ثمّ قدّمه خالد فضرب

(١) بدّيّاً: أي ابتداءً من غير سؤال أو إقامة برهان على وجوب قتلهم!

(٢) اسمه الحارث بن ربيّ، وقيل النعمان بن ربيّ، بدريّ. وقيل بل شهد أحداً وما بعدها، وشهد مع أمير المؤمنين عليه السلام مشاهده. (أنساب الأشراف ٣: ٣٥، ومروج الذهب ٢: ٣٦٠، وأسد الغابة ٦: ٢٥٠).

عنقه صبراً وتزوَّج امرأته ودخل بها ^(١).

نجد في خبر مالك أنَّ الخليفة حنق على مالك خاصّة من بين مانعي الزكاة وأنَّ خالد قد عاهد الله تعالى أن يجعل رأس مالك وقوداً للقدر! ومالك لم يكن محارباً ولم يُرق دماً كما هو شأن طليحة الذي تنبأ لقومه ومنع الزكاة وقتل المسلمين، وغيبنة الذي ارتدّ ومنع الزكاة وأراق دماء المسلمين فحملة خالد وقومه إلى الخليفة فعفا عنهم. وأمّا مالك وأصحابه فقد شهد لهم أبو قتادة بالإسلام والصلاة وأن لا سبيل لخالد لقتلهم فتعلّل بالزكاة، وهي الذريعة التي تمسّكوا بها في حرب تلك القبائل. ولقد كان مالك من الفطنة والبديهة أن علم سرَّ إصرار خالد على قتله أن قال له: يا خالد، بهذه قتلتني، أي بزوجته! وفعلاً كان، إذ دخل خالد بامرأة مالك في ليلة قتله وهذا ما أنكره عمر عليه: «... فلما بلغ عمر بن الخطاب تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر وقال: عدو الله عدا على امرئ مسلم فقتله ثم نزا على امرأته! وأقبل خالد قافلاً حتّى دخل المسجد وعليه قباءٌ معتجراً بعمامة له قد غرز في عمامته أسهُماً، فلما أن دخل المسجد قام إليه عُمر فانتزع الأسهُم من رأسه فحطمها ثم قال: أرئاء قتلتم امرءاً مسلماً ثم نَزَوْتَ على امرأته؟! والله لأرجمنك بأحجارك، وخالد لا يكلمه ولا يظنّ إلا أنَّ رأي أبي بكر على مثل رأي عمر فيه حتّى دخل على أبي بكر، فلما أن دخل عليه أخبره الخبر واعتذر إليه فعذره أبو بكر، وتجاوز عنه ما كان في حربه تلك! فخرج خالد حين رضي عنه أبو بكر و عمر جالس في المسجد فقال: هلمَّ إليَّ يا ابن أمّ

(١) الفتوح ٢: ٢٠ - ٢٣.

شملة! فعرف عمر أنّ أبا بكر قد رضي عنه فلم يكلمه ودخل بيته»^(١).

وفي تاريخ خليفة: «فقال أبو بكر: هل يزيد خالد أن يكون تأوّل فأخطأ؟»^(٢) وذكر خليفة أيضاً: «أن أبا قتادة قدم على أبي بكر فأخبره بمقتل مالك وأصحابه فجزع من ذلك جزعاً شديداً! وودى مالك بن نُؤيرة وردّ السيِّ والمال»^(٣). فلو كان مالك مرتدّاً أو ممّن يستحقّ القتل لما جزع عليه الخليفة وليس له أن يؤدّي عنه الدّية، ولما شهد له عمر بالإسلام ومن قبل عمر أبو قتادة ثمّ هو عاملُ رسول الله ﷺ. ويبقى موضوع دخول خالد بزوجة الصحابيِّ مالك من غير عُدة أمراً مخيِّراً، وليس بأغرب منه إلّا قول الخليفة: هل يزيد خالد على أن يكون تأوّل فأخطأ! وبعد كلّ ذلك فقد مضى مالك بن نُؤيرة شهيداً.

تعقيب: إنّ دستور الخليفة في عدم التفريق بين الإسلام والزكاة وإنّ الممتنع عن دفع الزكاة إليه يُقتل، يدفع مقولة الردّة عن الإسلام! إلّا ما كان من البعض مثل أسد وقد ذكرنا خبرهم. وأيضاً بنو حنيفة الذين اتّبعوا مُسيكمة الحنفيّ التميميّ وصاحبه سجاح التميميّة، وكلاهما ادّعى النبوّة فقاتلهم خالد، وقُتل مُسيكمة وأصحابه وأسر مجاعة وصاحبه سارية وقد ادّعى أنّهما اتّبعوا مُسيكمة خوفاً على الأنفس والأموال والأولاد؛ فقال له خالد: فاعتزل أنت وصاحبك

(١) تاريخ الطبري ٢: ٥٠٣ - ٥٠٤.

(٢) تاريخ خليفة ٦٨.

(٣) نفسه.

ناحيةً من هؤلاء الكفار. ثمّ قدّم خالد بقيّة القوم فضرب أعناقهم صبراً، ثمّ أطلق مُجاعة وسارية. تعقيب: إنّ خالد قتل أسرى بني سُليم وحرّقهم، وقتل قوم مالك ابن نويرة غدرًا وهم يصلّون ثمّ قتل مالك بن نويرة صاحب رسول الله ﷺ ونزا على زوجته. إلّا أنّه كما ذكرنا عفا عن عُيينة الذي أقرّ على نفسه بالردّة فحمّله وقومه إلى الخليفة الذي منّ عليهم وأطلق سراحهم. زواج خالد من ابنة مُجاعة: وخطب خالد إلى مُجاعة ابنته فزوَّجها إيّاه، ودخل بها خالد هنالك بأرض اليمامة، فكان خالد يرفع من مجالس أعمام هذه الجارية على المهاجرين والأنصار، فكتب حسان بن ثابت إلى أبي بكر بذلك، فأقبل أبوبكر على عمر فقال: يا أبا حفص، ما ترى إلى خالد بن الوليد وحرصه على الزواج وقلة اكتراثه بمن قُتل من المسلمين؟ فقال عمر: أما والله لا يزال يأتينا من قبل خالد في كلّ حين ما تضيق به الصدور. ثمّ كتب أبوبكر إليه: أما بعد يا ابن الوليد، فإنّك فارغ القلب حسن العزاء عن المسلمين، إذ قد اعتكفت على النساء وبغناء بيتك دُم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يجفف بعد، منهم سبعمائة رجل من حملة القرآن إن لم يخذلك مُجاعة عن رأيك أن صالحك صلح مكر وقد أمكن الله منهم، وإنّها لشبيهة بفعلك الأوّل بمالك بن نويرة، فسوءاً لك ولأفعالك هذه القبيحة التي شانتك في بني مخزوم! ولما نظر خالد في الكتاب قال هذا عملُ الأعيّس، يعني عمر بن الخطّاب بعث وخالد بن الوليد وفداً من

بني حنيفة إلى أبي بكر ^(١).

إذن الخليفة يشهد بمظلوميّة مالك وما جرى من فعل شنيع إذ جعل خالد رأس مالك وقوداً يطبخ عليه قدره! ودخل بزوجه ليلة قتله! ومَن قُتل مع مالك مضوا على ما مضى عليه مالك فأين الردّة ولماذا سفك الدماء الذي أنكره ابن تيميه؟! فإذا ذكر الزكاة؛ فنعم، ذلك أنّ القبائل لم تر مشروعيّة ما جرى في السقيفة، فإذا وجب قتالهم وسفك دمائهم؛ وجب سفك دماء الاثني عشر من الصحابة الذين تصدّوا للخليفة وعارضوه وحاججوه، وقتل بني هاشم وأمير المؤمنين عليّاً ^{عليه السلام} إذ قاطعوا واعتزلوا...، وجرت فعلاً فيما بعد أفعال ولكن لا بعنوان الردّة. وخالد إذ شمل عفوه غيبته وقومه ولم يسع مالكاً وقومه ونزا على امرأته فإنّ عفوه شمل مجاعة وخطب ابنته فتزوّجها ورفع مجالس أعمامها على مجالس الأنصار والمهاجرين، والخليفة قبّح عمله إلاّ أنّه لم ينتزعه من قيادة الجيوش.

بين دستورين

قرأنا دستور الخليفة الذي أصدره إلى خالد بن الوليد في قتاله للممتنعين عن بيعته أشدّ القتال وحرّق من يقدر عليه وأن يسبي الذراري والنساء ويأخذ

(١) تاريخ خليفة ٦٩ - ٧٢، وتاريخ الطبري ٢: ٥٠٤ - ٥١٩، والفتوح ١: ٢٣ - ٤٤، وفتوح البلدان، للبلاذري ٩٧ - ١٠٠.

دستور عليّ بن أبي طالب في القتال

كان مبدأ أمير المؤمنين عليه السلام يوم الحمل أن أمر أصحابه: أن يُصافّوهم ولا يبدأوهم بقتال ولا يرموهم بسهم ولا يضربوهم بسيفٍ ولا يطعنوهم برمح، وأن لا يُجهزوا على جريح ولا يُمتلوا بقتيل، ولا يدخلوا داراً بغير إذن، ولا يشتموا أحداً ولا يلحقوا مُدبراً ولا يهيجوا امرأة، ولا يأخذوا إلا ما في عسكرهم، ولا يكشفوا عورة، ولا يهتكوا سترًا^(١). وبعد الواقعة نادى أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تتبعوا مؤلّياً ولا تُجهزوا على جريح ولا تنتهبوا مالا، ومن ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»^(٢).

تسيير عائشة إلى المدينة

بعث أمير المؤمنين عليه السلام عبد الله بن عباس إلى عائشة يأمرها بالخروج إلى المدينة، فدخل عليها بغير إذنها، واجتذب وسادة فجلس عليها، فقالت له: يا ابن عباس: أخطأت السنة المأمور بها دخلت إلينا بغير إذننا، وجلست على رحلنا بغير أمرنا! فقال لها: لو كنت في البيت الذي خلّفت فيه رسول الله ﷺ ما دخلنا إلا بإذنك وما جلسنا على رحلك إلا بأمرك وإن أمير المؤمنين يأمرك بسرعة الأوبة والتأهب للخروج إلى المدينة، فقالت: أبيت ما قلت وخالفْتُ ما وصفت فمضى

(١) تاريخ الطبري ٣: ٥٤٥، وأنساب الأشراف ٦: ١٣٦، ومروج الذهب ٢: ٣٣٢.

(٢) نفس المصادر السابقة.

إلى أمير المؤمنين فخبّره بامتناعها، فردّه إليها وقال: إنّ أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترجعي، فأنعمت وأجابت إلى الخروج.

وجّهزها أمير المؤمنين وأتاها في اليوم الثاني ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقي ولده وفتيان أهله من بني هاشم وغيرهم من شيعته من همدان، فلما بصّرت به التّسوان صحن في وجهه وقلن: يا قاتل الأُحبة! فقال: لو كنت قاتل الأُحبة لقتلت من في هذا البيت، وأشار إلى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عامر بن نُكرز وغيرهم.

فسألته عائشة أن يؤمّن ابن اختها عبد الله بن الزبير، فأمنه وأمن مروان بن الحكم والوليد بن عُقبة وولد عثمان وغيرهم من بني أُمّية وأمن النّاس جميعاً. وخرجت عائشة من البصرة وقد بعث معها أمير المؤمنين أخاها عبدالرحمان بن أبي بكر وثلاثين رجلاً وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرهما، ألبسهنّ العمام وقلّدهنّ السيوف وقال لهنّ: لا تُعلّمن عائشة أنّكنّ نسوة، وتلثمن كائنكنّ رجال وكُنّ اللاّتي تليّن خدمتها وحملها. فلما أتت المدينة قيل لها: كيف رأيت مسيرك؟ قالت: كنت بخير والله، لقد أعطى عليّ بن أبي طالب فأكثر، ولكنّه بعث معي رجالاً أنكرتهم، فعرفها النسوة أمرهنّ فقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلّا كرمًا^(١)!

فأمير المؤمنين عليّ عليه السلام لم يُقاتل من أجل الخلافة ولم يسفك دماء المسلمين لأجلها كما زعم الخارجي ابن تميمه، إنّما خرج عليه الذين خرجوا

(١) المصادر السابقة.

على عثمان وانضم إليهم بنو أمية لا قبولاً بزعامتهم وإنما جمعهم بغض علي أمير المؤمنين عليه السلام؛ وإلا فإن مروان كان في منزل عثمان وطلحة والزبير من أشد المحاصرين لعثمان، وعائشة تكفر عثمان وتحرض على قتله؛ فلما قُتل عثمان رفعت عقيرتها أن عثمان قُتل مظلوماً وأن علي بن أبي طالب هو الذي قتله وذهبت إلى مكة حيث اجتمع إليها عدد من بني أمية قد فروا بعد مقتل عثمان، منهم مروان بن الحكم والمغيرة بن شعبة و... وخرجوا جميعاً والتحق بهم طلحة والزبير وعبد الله بن الزبير، وفعلوا أفعالاً شنيعة حين اجتماعهم بالبصرة تذكّرنا بإخوانهم الذين اقتفوا أثر خوارج الجمل فخرجوا يوم صفين ثم توالى راية الخوارج حتى انتهت إلى ابن تميمه أشدّهم على الرحمان عتياً! فتلقّفها من بعده أعراب بجّد الوهابيون.

إنّ الذي وقع من هؤلاء الخوارج: أن قتلوا واحداً وسبعين رجلاً لأنهم حاججهم فحجّجهم ابتداءً من السقيفة إلى الشورى ثم قتل عثمان فيبيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام، ونكثهم البيعة وخرجهم بغير حق، فما كان جواب أتباع البعير إلاّ السيف! فقتلوهم^(١). فماذا يقول الخارجي ابن تميمه؟!

مفارقة: لما سار القوم إلى البصرة تقودهم عائشة، حتى إذا بلغت بعض مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب، فقالت: ما اسم هذا الموضع؟ فقال لها السائق لجمليها: الحوآب. فتذكرت قول رسول الله ﷺ: «كأني بامرأة من نسائي تنبح عليها كلاب الحوآب، فاتّقي الله أن تكوني أنت يا حميراء» فقالت: ردوني... فقال

(١) تاريخ الطبري ٣: ٤٨٦، وأنساب الأشراف ٣: ٢٨.

الزبير: بالله ما هذا الحوَّاب...، وأقسم طلحة كذلك، وشهد خمسون رجلاً ممَّن كان معهم، فكان ذلك أول شهادة زور في الإسلام! ^(١)

نعم يا ابن تيميه: قَتَلَةُ عثمان، هم الخارجون على عليٍّ عليه السلام يقتلون الأبرياء لا لذنْبٍ إلاَّ لأنَّهم أقاموا عليهم البرهان والبيّنة في خطأهم وهم لا ورع لهم فيحلفون بالله ويشهدوا شهادة الزور، وهم وأنت معهم بهذه الصفات كيف صرتم خَيْرُ البرية! ونفيت أن تكون الآية قد نزلت في عليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام؟! وكان من عمل أولئك الخوارج: أن قاتلوا عثمان بن حُنيف والي أمير المؤمنين على البصرة وكثرت القتلى والجرحى ثمّ تداعوا إلى الصُّلح...، فلمّا كان في بعض الليالي بيَّتوا عثمان بن حُنيف وهو يُصَلِّي بالنَّاس العشاء الآخرة، فأَسْرَوْه وأمرت عائشة بقتله! ثمّ إنَّ القوم استرجعوا وخافوا على مَخْلَفِيهم بالمدينة من أخيه سهل بن حُنيف وغيره من الأنصار. فاكْتَفَوْا بضربه وحلقوا رأسه وتنفّوا لحيته وأشْفار عينيه، ثمّ حبسوه. وأجهزوا على خَزَّان بيت المال فقتلوا منهم سبعين رجلاً غير مَنْ جرح، وخمسون من السبعين ضُربت أعناقهم صبراً من بعد الأسر.

وفي وقعة أخرى قتلوا سبعين آخرين وتدافع الزبير وطلحة الصلاة! ^(٢)

(١) مروج الذهب ٢: ٣٥٨. وتاريخ الطبري ٣: ٤٧٥، والفتوح ٢: ٢٨٨، وأنساب الأشراف ٣: ٢٤، والمعيار والموازنة، للإسكافي ٥٥، والمصنّف، لابن أبي شيبة ٧: ٣٧٧٤/٥٣٨.

(٢) أنساب الأشراف ٣: ٢٦ - ٢٨، وتاريخ الطبري ٣: ٤٨٦ - ٤٩١، والفتوح ٢: ٢٨٩ - ٢٩٠ ومروج الذهب ٢: ٣٥٨.

(٣) المصادر السابقة.

وعن عوف الأعرابي قال: جاء رجل فناشد الزبير فقال: أعهد إليكما رسول الله شيئاً في مسيركما؟ فقال الزبير: لا، ولكن بلغنا أنّ عندكم دراهم فجئنا نشارككم فيها ^(١). ولقد صدقت مقولة عمر بن الخطاب في الزبير لمعرفته بحالته النفسية السيئة لما سأله ابن عباس على ما مرّ بنا في تصيير الأمر بعده فلمّا ذكر الزبير، قال ذاك يومٌ إنسان ويوم شيطان، إن كان ليكادح على المكيلة من بكرةٍ إلى ظهرٍ حتّى تفوته الصلاة! فهم لا دين لهم، قتلوا وخرجوا على خليفتهم بعد اختيار وضيّقوا عليه الحصار وكفّروه ومنعوه الماء لو لا عليّاً عليه السلام وبني هاشم وبعضاً من الأنصار، وبعد قتله وجدوا أنفسهم فرادى حيارى فالأقطار جميعاً لعلّي أمير المؤمنين فأظهروا غير ما يبطنون فحاق بهم ما يمكنون! إذ خرجوا على الإمام المفترض الطاعة، وكانوا في طريقهم قطاع طرق قتلّة غاصبي دراهم وسالبي بيت أموال المسلمين، ومع كلّ ذلك فإنّهم لم يكفّروا أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام ولم يكفّروهم أمير المؤمنين علي عليه السلام، وحتّى الخارجة التي خرجت عليه يوم صقّين واجتمعت بالنهروان إنّما رفضت التحكيم فلم تكفّر أمير المؤمنين عليه السلام ولم يكفّرهم أمير المؤمنين، وقد استأمن إليه منهم ثمانية آلاف بعد أن حاججهم! وبقي الآخرون على شعارهم في رفض التحكيم: لا حكم إلّا لله! ولو لا أنّهم قد عاثوا في السبيل فقتلوا الصابيّ عبد الله بن خبّاب بن الأرت، وبقروا بطن امرأته وهي حامل مُقرب، فيما عفوا عن نصرانيّ لآته في ذمّة نبيّهم كما يزعمون!

(١) المصنّف، لابن أبي شَيْبَةَ ٧: ٣٧٧٥/٥٤٤، وأنساب الأشراف ٣: ٦٢، وتاريخ الطبريّ ٣: ٩١.

- وأخافوا السبيل، فطالبهم بالقتلة فصاحوا جميعاً: كلنا قتلناه! كما قتلوا ثلاث نسوة، وقتلوا أمّ سنان الصيداوية^(١).

مع ذلك كلّ لم يبدأهم بقتالٍ وإنما ناظرهم كما ذكرنا فحجّهم واستأمن منهم ثمانية آلاف. وطلب من أصحابه أن لا يبدأوهم بقتالٍ حتّى يبدأهم الخوارج، فرماهم الخوارج فقال أمير المؤمنين عليه السلام: كُفّوا، فكررّوا عليه القول ثلاثاً وهو يأمرهم بالكفّ، حتّى أتى برجلٍ متشحّطٍ بدمه، فقال عليه السلام: الله أكبر، الآن حلّ قتالهم، احملوا على القوم ...^(٢).

إنّ الخوارج الذين خرجوا على عثمان؛ نعم كفّروه، وكان أمير المؤمنين عليّ وبنوه ومجموعة من بني هاشم وبعض من الأنصار في نُصرة عثمان. وأمّا الخوارج الذين رفضوا التحكيم يوم صفّين، فمضوا على وجههم رافضين تحكيم الرجال - بزعمهم - وهم الذين حملوا أمير المؤمنين عليه السلام على قبول حيلة ابن التّابعة في حمل المصاحف والدعوة إلى التحكيم على ما هو معروف فلمّا جرى التحكيم خرج هؤلاء مطالبين برفضه! ولم يقف أحدٌ منهم بتكفير أمير المؤمنين عليه السلام، ولو جرى شيء من ذلك لما رجع منهم (ثمانية آلاف) وهم يصيحون: التوبة! التوبة، يا أمير المؤمنين. وبذا حقنوا دماءهم وصاروا مع عليّ

(١) الإمامة والسياسة، لابن قُتيبة ١: ١٢٢، وأنساب الأشراف ٢: ٣٦٧ - ٣٦٨، والفتوح ٤: ١٩٨، والطبري ٤: ٦١، وشرح نهج البلاغة ٢: ٢٨٢.

(٢) تاريخ خليفة ١٤٩، وأنساب الأشراف ٣: ١٤٩، ومروج الذهب ٢: ٤٠٤ - ٤٠٦، والفتوح ١٢٩ - ١٣٣، وتاريخ يعقوبي ٢: ١٩٣.

وشيعته خير البرية؛ فيما بقي على حربه شر البرية، الذين أخبر أمير المؤمنين عليه السلام أنه لا ينجو منهم إلا أقل من عشرة^(١)، انتهى أحدهم إلى قرب حرّان فنسله فيها^(٢) لم ينقطع، وهي المدينة التي وُلد فيها ابن تيمية وترعرع بها.

الخوارج في السنة

أخرج ابن ماجة في سننه قال: حدّثنا أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ، حدّثنا إِسْحَاقُ الْأَزْرَقُ عن الأعمش، عن ابن أبي أوفى؛ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله «الخوارج كِلَابُ النَّارِ»^(٣).
ويسنده عن أبي أُمَامَةَ: شَرُّ قَتْلَى قَتَلُوا تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ، وَخَيْرُ قَتِيلٍ مَنْ قَتَلُوا، كِلَابُ أَهْلِ النَّارِ. قَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ مُسْلِمِينَ فَصَارُوا كَفَّارًا. قُلْتُ: يَا أَبَا أُمَامَةَ! هَذَا شَيْءٌ تَقُولُهُ؟ قَالَ: بَلْ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله^(٤).

وعُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ سُؤَيْدِ بْنِ غَفَلَةَ، عَنْ عَلِيِّ عليه السلام، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «يُخْرِجُ قَوْمٌ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرِّمِيَّةِ، قَتَلَهُمْ حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(٥).

(١) الفتوح ٤: ١٢٠، والكامل، للمبرّد ٥٤٣.

(٢) الفتوح ٤: ٢٦٩ - ٢٧٥.

(٣) سنن ابن ماجة ١: ١٧٣/٦١.

(٤) نفسه ١: ١٧٦/٦٢.

(٥) مسند أحمد ١: ١٥٦، وخصائص أمير المؤمنين علي، للنسائي ١٤٥/١٧٨.

ونظير الذي قبله، عن الأعمش، عن خيثمة، عن سويد بن غفلة، عن أمير المؤمنين عليه السلام، إلا أن آخره: «فأينما أدركتموهم فاقتلوهم، فإنّ في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة» ^(١).
 ويسند عالٍ عن عبد الله بن الصامت عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ بعدي من أمّتي قومٌ يقرأون القرآن لا يُجاوِزُ خَلْقِيهِمْ يَخْرُجُونَ من الدين كما يخرج السهم من الرميّة ثم لا يعودون فيه، هُم شرُّ الخلق والخلقة» ^(٢).

وكلّ ذلك منفيّ عن شيعة عليّ وأهل البيت عليهم السلام ومتحقّق في الخوارج الأوّل، فابن تيمّيه، فنانة عصرنا، والحكم عدلٌ.

وأخرج النسائي، قال: أخبرنا عليّ بن المنذر قال: أخبرنا عاصم بن كليب عن أبيه، قال: كنت عند عليّ عليه السلام جالساً، إذ دخل رجل عليه ثياب السفر، وعليّ يكلّم الناس ويكلّمونه، فقال: يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أتكلّم؟ فلم يلتفت إليه وشغله ما فيه، فجلس إلى رجل قال له: ما عندك؟ قال: كنت معتمراً، فلقيت عائشة فقالت: هؤلاء القوم الذين خرجوا في أرضكم يُسمّون حرورية؟ قلت: خرجوا في موضع يُسمّى حروراء، فقالت: طوبى لمن شهد منكم، لو شاء ابن أبي طالب لأخبركم خبرهم، فجئت أسأله عن خبرهم، فلمّا فرغ عليّ عليه السلام، قال: أين المستأذن؟ فقصّ عليه كما قصّت عليه؛ قال: إنّني دخلتُ على رسول الله صلى الله عليه وآله

(١) صحيح البخاري (٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠)، وصحيح مسلم (٧: ١٦٧ - ١٦٨)، ومسنّد أحمد (٨١/١)،

(١١٣، ١٣١)، والفضائل، له/ ١١٩٨، وسنن أبي داود/ ٤٧٦٧، ومسنّد أبي يعلى (٢٢٦/١).

(٢) صحيح مسلم ٧: ١٧٤.

وليس عنده غيرُ عائشة، فقال لي: كيف أنت يا عليّ وقوْ كذا وكذا؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلم. قال: ثمَّ أشار بيده، فقال: قومُ يخرجون من المشرق يقرأون القرآن، لا يُجاوز تراقيهم، يرقون من الدّين كما يمرق السّهمُ من الرّميّة، فيهم رجلٌ محدّج ^(١)، كأنّ يده ثدي حبشيّة، أنشدكم بالله أخبرتكم أنّه فيهم؟ قالوا: نعم. فجئتوني وأخبرتوني أنّه ليس فيهم، فحلفتُ لكم بالله أنّه فيهم، ثمَّ أتيتوني به كما نعتُ لكم؟ قالوا: نعم، صدق الله ورسوله ^(٢).

وبسندٍ عن أبي سعيد الخُدريّ، عن النّبيّ ﷺ، أنّه ذكر أناساً يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق، يرقون من الدّين كما يمرق السهم من الرّميّة، هم شرُّ الخلق، تقتلهم أولى الطائفتين بالحقّ، وأنتم قتلتموهم يا أهل العراق ^(٣).

نكتفي بهذا القدر ممّا جاء في السّنة الشريفة بشأن ابن تيميه وسلفه الخوارج، فهم كلابُ النّار، وهم شرُّ قتلى، ومن الكفر هربوا وفيه وقعوا، وقتلهم حقّ واجب على كلّ مسلم، لا حظّ لهم من الدّين وإن علت أصواتهم بقراءة القرآن كما هو حال الوهابيّين لأنّهم قطعوا طرق قتلة سفّاكوا دماء المسلمين فهم شرُّ الخلق والخلقة، فمعاذ الله ترك الإسلام ومتابعة الخوارج!

(١) محدّج: أي ناقص اليد.

(٢) خصائص أمير المؤمنين عليّ، للنّسائيّ ١٧٨/١٤٥.

(٣) صحيح مسلم ٧: ١٦٩، والخصائص، للنّسائيّ (١٦٨/١٤٠).

إمام الخوارج وشيخها

حق لأتباع ابن تيمية إطلاق تسميات (الإمام المطلق) و (شيخ الإسلام) على قائد مسيرتهم الذي سوغ لهم كل منكر، ولما كانوا نواصباً فقد وجدوا ضالّتهم فيه، فهو أكذب من مسيلمة وإن كان كل واحد منهما في أمر. ولعلنا لا نعدو الحقيقة إن قلنا أنّ مسيلمة أقلّ خطراً فهو ادّعى النبوة من غير معجزة وهذا كافٍ في إنهاء أمره! ثمّ قتله الله تعالى على أيدي جند الإسلام وانمحي أثره.

أمّا ابن تيمية ففتنته قد امتدّت على مدى سبعة قرون، سيق كما ذكرنا ونذكر مفصّلاً في موضعه مرّات ثلاث الى المحاكم ثمّ إلى السجون بقلعة دمشق يرافقه تلميذه ابن قيم الجوزية، وتهمته: فاسق، زنديق، كافر؛ أمضاه القاضي المالكيّ والشافعيّ والحنفيّ وأخيراً الحنبليّ. وتاب كاذباً! إذ أفرج عنه فعاد إلى السجن وهكذا حتّى خرج في الثالثة جسداً بلا روح! إنّ مسيلمة لم يتكلّم في ذات الله، فيما خاض ابن تيمية في هذا الأمر ممّا سنعرض له في عقيدته، ولذا حُوق وألزم في ذلك. وهذه المسألة من الإرث الجاهليّ لأعراب جزيرة العرب عكف عليها ابن عبد الوهاب وتابعه أعراب نجد يقتلون ويذبحون من خالفهم.

والمسألة الأخرى التي تصدر بها هذا الخارجي: ابن تيمية، وست النعم! فصار إمام الخوارج المطلق وشيخ الإسلام بغضه الذي لم يُعرف في تاريخ الخوارج! فما من فضيلة لأهل البيت ﷺ إلّا وأنكرها أشدّ الإنكار ودليله دائماً إنّ هذا كذب بالإجماع، أو موضوع باتّفاق أهل المعرفة بالمنقولات من غير أن

يذكر شيئاً من ذلك. ثمّ يفرّع على ذلك فيجعل تلك الفضيلة خاصّة بالنواصب والخوارج! ونذكر مثلاً من ذلك، ثمّ نذكر بعض الموارد إدراجاً - وهي كثيرة للغاية - التي يذكر فيها الخوارج ليتيقّن القارئ على صحّة ما وصلنا إليه من خارجيّة ابن تيميه: قال ابن تيميه: قال الرافضي: البرهان الثالث والثلاثون (أي في إمامة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام) قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) ^(١). روى الحافظ أبو نعيم بإسناده إلى ابن عباس لما نزلت هذه الآية قال رسول الله لعليّ: تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين ويأتي خصماؤك غضاباً مُقحمين ... ^(٢).

قال الخارجيّ ابن تيميه: إنّ هذا معارض بمن يقول: إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم النواصب كالخوارج، ويقولون: إنّ من تولّاه فهو كافر مرتدّ فلا يدخل في الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... ^(٣).

تعليق: لا يسعني أن أنتقل إلى بقيّة أقواله في الخوارج من تعليق سريع: من هذا الذي نسب إليه ابن اليتيمة القول؟ هل هو من أهل العلم بالمنتقولات والمعرفة والحديث على عادته المنتظمة إذا أنكر حديثاً؟! أم أنّه تركه لبديهة البلهاء من أتباعه الذين يستبطنون دواخل كلامه ويتبعون منكّره؟! وأما نحن فقد تيقّنا أنّه في كلّ موطن يقول فيه هذه الأقوال فإنما يقصد نفسه لا غير! ثمّ متى

(١) البيّنة: ٧.

(٢) منهاج السنّة ٤: ٧٠.

(٣) منهاج السنّة ٤: ١٢٧.

صار كلاب النار، الذين هربوا من الكفر وفيه وقعوا، كما أخرج ابن ماجة عن أبي أمامة، وقوله قد ذكرناه «قد كان هؤلاء مسلمين فصاروا كفاراً».

ويوم النهروان، تقدّم إلى أمير المؤمنين عليه السلام حبيب بن عاصم الأزدي فقال: يا أمير المؤمنين، هؤلاء الذين نقاتلهم أكفار هم، فقال عليه السلام: من الكفر هربوا وفيه وقعوا ^(١).

إنّ الحكم على الخوارج بالكفر إنّما لأنهم كانوا يكفّرون أهل الإيمان مثل الصحابي عبد الله بن خباب والنسوة اللاتي ذكرناهنّ وقتلهم في وقت كانوا يعفون عن الذمّيّ ...

هؤلاء الذين قتالهم حقّ على كلّ مسلم فهم شرّ الخلق والخليقة خرجوا من الدّين ثمّ لا يعودون فيه ...، وأنّ أولى الطّائفتين بالحقّ وهم أهل العراق مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، يتولّون قتلهم كما أنبأ به رسول الله ﷺ فكان كما قال. وبعد ذلك كلّه وغيره: يكون ابن تيمية وأسلافه الخوارج هم خير البرية، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام مرتدّاً! وشيعته شرّ البرية!

ابن تيمية يُصرّح بخارجيته

ذكرنا شيئاً من البراهين على خارجيّة ابن تيمية، من ذلك بعض أقواله التي يمجّد أسلافه الخوارج، ويذمّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام ويكفّره، ونذكر هنا بعض أقواله التي تقطع وتجزم بخارجيته أخذناها من منهاج ضلاله «منهاج السّنة» من

(١) الفتوح ٤: ١٢٧.

غير أن نعلّق عليها وإّما اكتفينا بوضع خطّ على ما لزم ووجب: قال الخارجيّ ابن تيميه: إنّ عليّاً لم ينزّهه المخالفون، بل القادحون في عليّ طوائف متعدّدة وهم أفضل من القادحين في أبي بكر وعمر وعثمان والقادحون فيه أفضل من الغلاة فيه فإنّ الخوارج متفقون على كفره وهم عند المسلمين كلهم خيرٌ من الغلاة الذين يعتقدون إلهيته أو نبوته، بل هم والذين قاتلوه من الصحابة (طلحة والزبير وعبد الله بن الزبير ومروان ومعاوية والضحّاك...) والتابعين خيرٌ عند جماهير المسلمين من الرافضة الاثني عشرية الذين اعتقدوه إماماً معصوماً.

والخوارج المكفّرون لعليّ يوالون أبا بكر وعمر ويترضّون عنهما، والمروانية الذين ينسبون عليّاً إلى الظلم ويقولون إنّّه لم يكن خليفة، يوالون ابا بكر و عمر... فكيف يقال: إنّ عليّاً نزّهه الموافق والمخالف بخلاف الخلفاء الثلاثة؟ ومن المعلوم أن المنزّهين لهؤلاء أعظم وأكثر وأفضل وأنّ القادحين في عليّ حتّى بالكفر والفسوق والعصيان طوائف معروفة وهم أعلم من الرافضة وأدين والرافضة عاجزون معهم علماً ويداً فلا يمكن الرافضة أن تقيم عليهم حجّة تقطعهم بها ولا كانوا منصوريين عليهم في القتال (في الجمل، وصفين، والنهروان؟!)، والذين قدحوا في عليّ وجعلوه كافراً وظالماً، ليس فيهم طائفة معروفة بالردّة عن الإسلام...، فمن يُكفّر عليّاً ويلعنه من الخوارج (ليس فيهم من لعنه وإّما برأوا منه وبرأ منهم!) ومَن قاتله ولعنه من أصحاب معاوية وبنو مروان وغيرهم فإنّ هؤلاء كانوا مقرّين بالإسلام وشرائعهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويصومون رمضان ويحجّون البيت العتيق ويحرمون ما حرّم الله ورسوله...

فالمُنزّهون لعثمان القادحون في عليّ أعظم وأدين وأفضل من المنزهين لعليّ القادحين في عثمان ^(١). قال: إنّ الرافضيّ لا يمكنه أن يثبت إيمان عليّ وعدالته وأنّه من أهل الجنّة فضلاً عن إمامته إن لم يُثبت ذلك لأبي بكر وعمر وعثمان وإلاّ فمتى أراد إثبات ذلك لعليّ وحده لم تساعده الأدلّة. فإذا قالت الخوارج الذين يكفّرون عليّاً ^(٢) أو النواصب الذين يفسّقونه أنّه كان ظالماً للدنيا وأنّه طلب الخلافة لنفسه وقاتل عليها بالسيف وقتل على ذلك ألوفاً من المسلمين حتّى عجز عن انفراده بالأمر فهذا الكلام إن كان فاسداً، ففساد كلام الرافضيّ في أبي بكر وعمر أعظم ^(٣)...

قال: إذا قالت لهم الخوارج وغيرهم ممّن تُكفّره أو تُفسّقه لا تُسلم أنّه كان مؤمناً بل كان كافراً...، لم يكن لهم دليل على إيمانه! وعدله إلاّ وذاك الدليل على أبي بكر وعمر وعثمان أدلّ. فإن احتجّوا بما تواتر من إسلامه وهجرته وجهاده، فقد تواتر ذلك عن هؤلاء بل تواتر إسلام معاوية ويزيد وخلفاء بني أميّة وبني العبّاس وصلاتهم وصيامهم وجهادهم للكفّار. فإن ادّعوا في واحد من هؤلاء التّفاق أمكن الخارجيّ أن يدّعي التّفاق (أي في عليّ عليه السلام)، وأنّه سعى في قتل

(١) منهاج السُنّة ٣: ٣.

(٢) نعتذر من القارئ الكريم أن نذكره بما تقدّم من القول أنّ الخوارج لم تكفّر عليّاً عليه السلام، وإنّما الكلمات القارصة هذه هي لابن تيمية وإلاّ لذكر اسم واحد من أولئك!

(٣) منهاج السُنّة ١: ١٦٢.

الخليفة الثالث! وأوقد الفتنة حتّى غلا في قتل أصحاب محمد وأمتّه (أصحاب الجمل الذي خرجوا عليه) بغضاً له - أي للنبي! - وعداوةً وأتّه كان مباطناً للمنافقين الذين ادّعوا فيه الإلهيّة والنبوّة؛ وكان يُظهر خلاف ما يُظن لأنّ دينه التقيّة! فلمّا أحرّقهم بالنار أظهر إنكار ذلك وإلّا فكان في الباطن معهم، ولهذا كانت الباطنيّة من أتباعه وعندهم سرّه وهم ينقلون عنه الباطن الذي ينتحلونه (١) ...

قال: إنّ إخباره (أي النبي ﷺ) أنّ عليّاً يُحبّ الله ورسوله ويُحبّه الله ورسوله حقّ وفيه ردّ على التّواصب! لكن الرافضة الذين يقولون أنّ الصّحابة ارتدّوا بعد موته لا يمكنهم الاستدلال بهذا لأنّ الخوارج تقول لهم هو ممّن ارتدّ أيضاً (٢).

قال: والخوارج أعقل وأصدق وأتبع للحقّ من الرافضة، فإنّهم صادقون لا يكذبون أهل دين ظاهراً وباطناً، وأمّا الرافضة فالجهل والهوى والكذب غالب عليهم وكثير من أئمّتهم وعامّتهم زنادقة ملاحدة (٣) ...

قال: لم تكفّر الصّحابة الخوارج مع تكفيرهم - أي تكفير الخوارج - لعثمان

(١) منهاج السّنّة ١: ١٦٣.

ما جاء به الأقاك الأثير، سنتكلّم عليه في موضعه، ولكن: متى كفر عليّ لينتقل إلى إيمان؟! كلّ سجد لصم وياشر رذيلة، وعليّ من رحم فاطمة بنت أسد إلى رحم الكعبة ومن ثمّ إلى حضن النبي ليطعمه ريقه؛ وما قيل كرم الله وجهه إلّا لعليّ ﷺ لتكرّم وجهه عن السجود للأصنام.

(٢) نفسه ٤: ٩٨.

(٣) نفسه ٧٠.

وعليّ ومَن والاهما واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم ^(١).

قال: وقوله ﷺ: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحب الله ورسوله» قال: فتناولنا، فقال: ادعوا لي علياً فأتاه وبه رمَد فبصق في عينيه ودفع الراية إليه ففتح الله على يديه «أنكر مسألة الفتح أشد الإنكار في كلامه عن فتح خيبر وقد تكلمنا عنه في محله» هذا الحديث أصح ما يُحتج به على النواصب الذين يتبرأون منه ولا يتولّونه ولا يُحبّونه بل قد يكفّرونه أو يفسّقونه كالخوارج؛ فإنّ النبيّ شهد له بأنّه يُحبّ الله ورسوله ويحبّ الله ورسوله، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردّتهم فإنّ الخوارج تقول في عليّ مثل ذلك. ^(٢)

نكتفي بهذا المقدار من أقوال ابن تيمية التي دافع باطلاً بها عن الخوارج تارةً، وأخرى، وهي الأكثر: شنّ غارة النّصب على لسان الخوارج وهم أطهر منه وأفضل! كلمة إنصاف بحقّ الخوارج: إنّ الخوارج على ما هم عليه وما جاء فيهم من النكير ونعتهم بكلاب النار، ووجوب قتلهم...؛ إلّا أنّنا وجدناهم لما ناظرهم أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فإنّ ثمانية آلاف من خوارج الكوفة قد أقرّوا بخطيئتهم وأعلنوا التوبة واعتزلوا أصحابهم...

وأما الذين ظهروا فيما بعد فقد اقتدوا بآثار سلفهم: فهم يرون أنّ عثمان قد أثار الفتنة باستيلائه على أموال بيت المسلمين وإيوائه الطريد «الحكم» وتسليطه

(١) نفسه ٣: ٢٣.

(٢) منهاج السنّة ٣: ١١.

آل بني مُعيط رقاب المسلمين، وأما أمير المؤمنين عليّ عليه السلام؛ فكلّامهم فيه كلام سلفهم أيضاً من تحكيم الرجال من غير أن يرجع عن ذلك إلاّ أنّه إمام عدل مرضي لم يظهر منه كفر - كما زعم ابن تيمية وألقاه على ألسنتهم -، وإن طلحة والزبير بايعا عليّاً عليه السلام ثمّ نكثا البيعة وأخرجوا عائشة تقاتل؛ وهما «طلحة والزبير» كانوا أشدّ الناس على عثمان. هذا هو رأي الخوارج.

ولنسمع ابن عبد ربّه الأندلسيّ ماذا يذكر في الذي ذكرناه وفي الذي قال: هم - أي الخوارج - وابن الزبير: فبلغهم خروج مسلم بن عُقبة إلى المدينة وقتله أهل حرّة، وأنّه مُقبل إلى مكّة^(١)، فقالوا: علينا أن نمنع حرّم الله ونمتحن ابن الزبير،

(١) إنّ الخوارج الذين أكثر الناصبيّ الخارجيّ الشاذّ عنهم! ابن تيمية، ووصفهم بالصدق؛ فهم كذلك، على خلاف ابن تيمية إلاّ في مسألة البراءة ممّن لم يتبهم على رأيهم؛ ولذا لم يكونوا مثل الخارجيّ الناصبيّ الذي غلبت عليه بيئة تمر بعقائد الصابئة واليهود والنصارى وأمويّة لم تنزع ثياب الجاهليّة ولها أحقادها على الرسول ﷺ والوصي عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام ولذا جاؤوا بمنعون حرّم الله من أوباش أهل الشام الذين بعثهم الناقص ابن معاوية بعد أن أوقع بأهل المدينة وتوجّه جيشه صوب البيت الحرام إذ عادّ به عبد الله بن الزبير.

أما ابن تيمية فهو ينتصر لبني أميّة قاطبة: أبوسفیان الذي يقول عنه سيّد قريش في الجاهليّة وقائد حروبها ضدّ رسول الله! ويتكلّم عن إيمان معاوية ويزيد وصلاتهم وصيامهم وجهادهم وحجّهم، على ما ذكرنا، ويتنقّص أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام ويثلب إيمانه ويصفه بالتفاق؛ ويفضّل أتباع بني أميّة على أتباع أهل البيت؛ إلاّ أنّ الخوارج على نقضه تماماً! ولذلك حمّل الحسين عليه السلام سبب مقتله وبرأ يزيد من ذلك؛ وكذلك حمّل أهل المدينة سبب ما حدث في وقعة الحرّة، وحمّل ابن الزبير ما وقع للحرّم المكي! وليس هنا محلّ إعطاء الأمور المذكورة حقّها وسنفرّد لها باباً نتكلّم فيه عن بني أميّة في ضوء منهج ابن تيمية وما خلّف. إلاّ أنّ من المناسب =

= القول موجزاً: أنّ يزيد حكم ثلاث سنين وستّة أشهر، اشتهر عنه معاقرة الخمر والفجور والجمع بين الأختين والأهوَ مع القيان حتّى تفوته الصلوات! والظلم واتّخذ قِرداً سَمَاح: قُبِس ألبسه الذهب كان يجلسه معه على منبر المسلمين يلاعبه

...

ارتكب يزيد خلال سنوات حُكمه الثلاث، ثلاث جرائم عظمى، برأ منه أعتى العتاة أن يعينه في بعضها على ما سترى، وسارع الخوارج لدفعه عن الجريمة الثالثة، وأطبق المؤرّحون: سَلَفِيّون وغيرهم بما فيهم تلامذة ابن تيمية، مثل: ابن الورديّ الذي بقي ملازماً له حتّى هلك الأستاذ في حبسه؛ والسَلَفِيّ المزيّ الذي فارق أستاذه لما ظهرت له حقيقته وفساد عقيدته حتّى أنّه لم يترجم له في موسوعته (تهذيب الكمال) حتّى ضمن المجهولين والمهملين ومنهم تلميذه الذهبيّ الحنبليّ وقد فارقه كذلك، وأيضاً ابن كثير الحنبليّ. ذكرنا هؤلاء لأنهم من أئمة السلف وتلامذة مباشرة لابن تيمية الذي برأ ساحة يزيد من جرائمه الثلاث! ففي السنة الأولى من حكمه المشؤوم قتل سبط رسول الله ﷺ وريحانته سيّد شباب أهل الجنّة الحسين بن عليّ عليه السلام وأهل بيته وأصحابه الكرام وجرى لعياله من الأسر ما هو معلوم...؛ وفي السنة الثانية أوقع بأهل المدينة المنورة هتك حرمة مدينة رسول الله ﷺ وأوكل المهمّة إلى الطاغية ابن مرجانة (عبيد الله ابن الدعويّ زياد بن سُمَيّة) فقد كتب إليه: أن أغرّ ابن الزبير، فقال: لا أجمعهما للفاسخ أبداً! أقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله [وآله] وأغزو البيت. (تاريخ الطبري ٤: ٣٧١).

تباينت كلمة الأبناء وتناقضت! فالأوّل الذي حطّ رجال نسبه عند تيمية، قد توفّي سنة (٧٢٨ هـ). وأما ابن زياد ثمّ ابن سُمَيّة، فهوا بن القرن الهجريّ الأوّل وهو الذي أوكل إليه ابن ميسون قتل الحسين وأهل بيته عليه السلام وصحابته الكرام؛ فهو أعرف بحاله ولذا رفض أوامره مع اعترافه بجريمته في قتل ابن بنت رسول الله ﷺ... ووصف يزيد بالفسق، وكلّ ذلك ينفية ابن تيمية وحلفه. ولنا ردّ على أحد متأخريهم إذ كتب (حقائق عن أمير المؤمنين يزيد بن معاوية) ونشرته وزارة المعارف بالمملكة العربيّة السعوديّة، نفي فيه ما أثبتته التاريخ من القرون الأولى، وأقرّها أئمة السلف منهم من ذكرنا آنفاً للوشيجة بينهم وبين ابن تيمية. =

فإن كان على رأينا تابعناه، فلمّا صاروا إلى ابن الزبير عَرَفُوهُ أَنفُسَهُمْ وما قَدِمُوا لَهُ، فأظهر لهم أنّه على رأيهم، حتّى أتاهم أهل الشام ومسلم بن عُقبة، فدافعوه

= ولما رفض قاتل الحسين عليه السلام طاعة الناقص كتب هذا إلى عمرو بن سعيد يأمره فرفض ...، عند ذلك بعث إلى مسلم بن عُقبة فقبل المهمة وقد أجمع المؤرّخون على تسميته: مُسْرَف، ومجرم، والشيخ الضال ...، فقال: وجهني إليهم، فو الله لأدعنّ أسفلها أعلاها، يعني مدينة رسول الله صلّى الله عليه وآله (تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥٠) وكان دستور يزيد لمسلم وأهل الشام هو إباحة المدينة ثلاثة أيّام ... وكان مسرف يسمّي مدينة رسول الله (ننتة) وقد سمّاها رسول الله: (طَيْبَة). (مروج الذهب ٣: ٦٩).

حرق الكعبة: توجه الجيش الشاميّ صوب البيت الحرام وطال حصار ابن الزبير حتّى السنة الثالثة من حكم الطاغية يزيد، وكان ابن الزبير يسمّي نفسه العائذ بالبيت. وقبل وصول أهل الشام إلى بيت الله وهم الذين ستمتهم الرعاية الأمويّة: الأبدال؛ أي يُبدل الله بهم و يختارهم من دون غيرهم لينتصر بهم لديه على طول التاريخ فلا يخرج إلى غيرهم! ولذا حُبِلَت أَلْف امرأة من غير زوج وافْتُضَّت أَلْف بَكْر لما دخلوا حرّم رسول الله صلّى الله عليه وآله (البداية والنهاية ٨: ٢٢٠ - ٢٢١، تاريخ الخلفاء ٢٣٣)؛ وغير ذلك من الفضائح التي سوّدت وجه بني أميّة وابن تميميه.

هلاك الطاغية: قبل وصول الأبدال مكّة احتضر مُسْرَف، وامتنالاً لأوامر مولاه ولّى على الجيش الحصين بن نمير السكوني وقال له: يا برذعة الحمار! إذا قَدِمْتَ مكّة فلا يكون عملك إلّا الوقاف ثمّ الثفاف ثمّ الانصراف، وهلك ... (تاريخ اليعقوبي). وتوجّه أهل الشام نحو مكّة، وجاء بجُدة الحنفِيّ في أناس من الخوارج يمنعون البيت الحرام (من الأبدال!). حاصر الحصين البيت الحرام أربعاً وستين يوماً ورموا البيت بالمنجنيق بالأحجار والنفط ... فاحترق وانهدمت أركان الكعبة والأبدال يرتجزون حذلين ... نرمي بها أعواد هذا المسجد! (الإمامة والسياسة ٢: ٩، تاريخ الطبري ٣: ٣٨٣، تاريخ اليعقوبي ٢٥٢، مروج الذهب ٣: ٧٢، البداية والنهاية ٨: ٢٢٥؛ وخالفهم ابن تميميه).

إذ برأ يزيد من تلك الشنائع، ودأب على منهج ضلاله خارجة عصرنا!!!!).

إلى أن يأتي رأي يزيد بن معاوية، ولم يتابعوا ابن الزبير، ثم تناظروا فيها، فقالوا: ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده، فإن قدم أبابكر وعمر وبرا من عثمان وعلي، وكفر أباه وطلحة بايعناه، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يُجدي علينا. فدخلوا على ابن الزبير وهو مُبتدل^(١) وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا له: إنّا جئناك لثخربنا رأيك، فإن كنت على صواب بايعناك، وإن كنت على خلاف دعوناك إلى الحق؛ ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً، قالوا: فما تقول في عثمان الذي حمى الحمى^(٢)، وأوى الطريد، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آل بني مُعيط رقاب الناس وآثرهم بفيء المسلمين؛ وفي الذي بعده الذي حَكَم الرجال في دين الله وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم؛ وفي أبيك وصاحبه وقد بايعا عليّاً، وهو إمام عادل مرضي لم يظهر منه كفر، نكثا بيعته وأخرجوا عائشة تقاتل، وقد أمرها الله وصواحبها أن يَقْرَنَ^(٣) في بيوتهنّ، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة، فإن أنت قبلت كلّ ما نقول، لك الزُّلفى عند الله، والنصر على أيدينا إن شاء الله، ونسأل الله لك التوفيق، وإن أبيت، خذلك وانتصر منك بأيدينا^(٤).

(١) مبتدل: غير محتاط ومصون.

(٢) حمى الحمى: يريدون أنه خالف قول رسول الله ﷺ: (لا حمى إلا لله ورسوله) أي: لا يحمى للخيال التي تُرصد للجهاد والإبل التي تُحمل عليها في سبيل الله.

(٣) يَقْرَنَ: يجلسن في بيوتهنّ ولا يخرجن.

(٤) العقد الفريد ٢: ٢٣٥.

وقبل أن نسمع جواب ابن الزبير أشدّ الناس بُغضاً لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام، تجلّى ذلك أوضح ما تجلّى باستماتته في حرب الجمل. أقول: إنّ الخوارج الذين كذب عليهم الخارجي الناصبي ابن تميمه، في قولهم أنّ الخوارج قد كفّروا عليّاً وعثمان! وجدناهم هنا مثلما استنتجنا وأسعفتنا النصوص من قبل أنّهم إنّما كفّروا طلحة والزبير؛ وقد نكثا بيعتهما لأمير المؤمنين عليه السلام وأخرجا عائشة تقاتل، وليس هذا شأنها؛ وذكروا مثالب عثمان من غير تكفير مثلما أثبتوا ذلك لطلحة والزبير ولذلك طالبوا ابن الزبير أن يعلن توبته لأنّه طرف فاعل وهو وأبوه وطلحة وغيرهم ممّن حلفوا بالله لعائشة بشأن ماء الخوآب كذباً، فكانت أوّل شهادة زور في الإسلام، ولذا طالبوه بالتوبة لينصروه. وأمّا بشأن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فهو عندهم إمامٌ عادلٌ مرضيٌّ لم يظهر منه كفر، إلّا أنّهم بقوا على الشبهة التي وقع فيها سلفهم وهي تحكيم الرجال!

[جواب ابن الزبير] فقال ابن الزبير: إنّ الله أمر وله العزة والقدرة في مخاطبة أكفر الكافرين وأعتى العاتين بأرقّ من هذا القول؛ قال لموسى وأخيه صلى الله عليهما: (اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ-) ^(١). وقال رسول الله: (لا تؤذوا الأحياء بسبّ الموتى). فنهى عن سبّ أبي جهل من أجل عكرمة ابنه، وأبو جهل عدوّ الله ورسوله، والمقيم على الشرك والحادّ في محاربة رسول الله قبل الهجرة والمحارب له بعدها، وكفى بالشرك ذنباً؛ وقد كان يُغنيكم عن هذا القول الذي سمّيت فيه طلحة وأبي أن تقولوا: أتبرأ من الظالمين؟ فإن

(١) طه: ٤٣، ٤٤.

كانا منهم دخلا في غمار الناس ^(١)، وإن لم يكونا منهم لم تحفظوني بسبب أبي وصاحبه، وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمن: (وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) ^(٢) وقال: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) ^(٣). وهذا الذي دعوتكم إليه أمرٌ له ما بعده، وليس يقنعكم إلا التوقيف والتّصريح، ولعمري إنّ ذلك آخرى بقطع الحجج، وأوضح لمنهاج الحقّ، وأولى بأن يعرف كلّ صاحبه من عدوّه. فروحوا إليّ من عشيتكم عذّه أكشف لكم ما أنا عليه إن شاء الله تعالى ^(٤).

خطبة ابن الزبير فيهم

فلما كان العشي راحوا إليه، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه، فلما رأى ذلك بجده ^(٥)، قال: هذا خروج منابذ ^(٦) لكم. فجلس على رفع من الأرض فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيّه، ثمّ ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكرٍ، ثمّ ذكر في السنين الأوائل من خلافته؛ ثمّ وصلهنّ بالسنين التي أنكروا سيرته فيها فجعلها كالماضية، وأخبر أنّه آوى الحكم بن أبي العاص بإذن رسول الله، وذكر الحِمَى

(١) غمار الناس: جهلتهم.

(٢) لقمان: ١٥.

(٣) البقرة: ٨٣.

(٤) العقد الفريد ٢: ٢٣٥ - ٢٣٦.

(٥) نخدة بن عاصم الحنفيّ الخارجي.

(٦) منابذ: مناجز ومعارض ومعدّ لحرب.

وما كان فيه من الصلاح! وأنّ القوم استعتبوه من أمورٍ ما كان له أن يفعلها أولاً مصيباً ثمّ أعتبهم بعد ذلك محسناً...، وراح يذكر ما كان من أمور عثمان مثل كتابة الكتاب باسمه في قتل فلان وفلان وقطع يد فلان وفلان...، ممّا مرّ تفصيله سابقاً؛ ودافع عن أبيه وصاحبه طلحة وعائشة؛ فانصرفوا عنه ^(١).

كتاب ابن الأزرق إلى ابن الزبير

وكتب بعد ذلك نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره: أما بعد، فإني أحذرك من الله: يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ مُحضراً وما عملت من سوءٍ تودّ لو أنّ بيها وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، فاتق الله ربك ولا تتولّ الظالمين، فإنّ الله يقول: **(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)** ^(٢) وقال: **(لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)** ^(٣)، وقد حضرت عثمان يوم قتل. فلعمري لئن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وخاذلوه، ولئن كان قاتلوه مهتدين، وإنّهم لمهتدون، لقد كفر من تولّاه ونصره ولقد علمت أنّ أباك وطلحة وعليّاً كانوا أشدّ الناس عليه، وكانوا في أمره بين قاتل وخاذلٍ، وأنت تتولّى أباك وطلحة وعثمان، فكيف ولاية قاتلٍ متعمّدٍ ومقتولٍ في دين واحد؟ ولقد ولي عليّ فنفي الشُّبهات، وأقام الحدود، وأجرى

(١) العقد الفريد ٢٣٧.

(٢) المائدة: ٥١.

(٣) آل عمران: ٢٨.

الأحكام مجاريها، وأعطى الأمور حقها فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحة، ثم خلعا بيعته ظالمين له، وإنّ القول فيك وفيهما لكما قال ابن عباس (رحمه الله): إن يكن عليّ في وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمناً لقد كفرتم بقتال المؤمنين وأئمة العدل، ولئن كان كافراً كما زعمتم وفي الحكم جائراً لقد يؤتم بغضبٍ من الله لفراركم من الزحف، ولقد كنت له عدوّاً، ولسيرته عائباً، فكيف تولّيته بعد موته؟! ^(١)

عليّ عليه السلام في وصف الخارجي: ابن الأزرق؛ والخارجي ابن تميمه

أيّ كذاب أشير، أيّ شائنٍ أبتر، أيّ...؟! ظلم الخوارج بما وزر! هلاًّ رحم نفسه فكان في الثمانية آلاف خارجيّ ممن أعلنوا التوبة فرجعوا إلى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، هلاًّ كان خارجياً فلا يقول إلّا حقّاً ويجتنب الكذب! ولو صدق فهو العجب! دعنا منه وقد ذكرنا كثيراً من منهاج ضلاله وما يصف به أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام، ولنوازن بين منطقته ومنطق الخارجي ابن الأزرق، مرّ بنا:

فكما ذكرنا أنّ طلحة والزبير قتلة عثمان، وذكره ابن الأزرق والخوارج قد قاتلوا عليّاً عليه السلام إلّا أنّهم ينطقون بحقه:

لقد أقام الحدود التي أبطلها غيره، وطهر الشريعة من كلّ شبهة طارئة واجتهاد قبال الشرع! وأجرى الأحكام المعطّلة وأنصف الأمور إن كانت له أو عليه فهو ميزانٌ عدلٍ لا عيِّق فيه، ولم يذكر في كتابه أنّه سفك الدماء وقتل

(١) العقد الفريد ٢٣٨.

الألوف من أجل الرياسة كما قال الخارجي الثاني ابن تيميه!

وإذا شهدت الخوارج بفضائل أمير المؤمنين عليه السلام، وأنكرها الضال ابن تيميه؛ فإنّ التواصب الذين ألقوا ما في نفسه على ألسنتهم كما فعل مع الخوارج، ومن أولئك معاوية وبطانته نجدهم يقرّون لأمر المؤمنين علي عليه السلام بفضائله وهم القاسطون الذين أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّ أمير المؤمنين علي عليه السلام يقاتلهم بعد قتاله للنّاكثين ثمّ أخيراً المارقين، صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ كان الأمر كما قال.

معاوية يدحض دعوى باطلة بحق علي عليه السلام

حدّث الزبير بن بكار، عن رجاله قال: دخل محقّن بن أبي محقّن الضبيّ على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين جئتك من عند أُمّ العرب، وأبخل العرب وأعيا العرب وأجبن العرب! قال: ومن هو يا أخا بني تميم؟ قال: علي بن أبي طالب. قال معاوية: اسمعوا يا أهل الشام ما يقول أخوكم العراقي، فابتدروه أيّهم ينزل عنده ويكرمه. فلمّا تصدّع الناس عنه قال: كيف قلت؟ فأعاد عليه فقال له: ويحك يا جاهل، كيف يكون أُمّ العرب وأبوه أبو طالب وجدّه عبد المطلب وامرأته فاطمة بنت رسول الله [صلى الله عليه وآله وسلم] (١).

(١) هذه هي أعظم عُقْد (ذوي العاهات) بعد الإمامة والولاية والسابقة والمنزلة الخاصّة (حديث المنزلة) ...؛ فإنّ معاوية قد قاتل عليّاً أمير المؤمنين عليه السلام يوم صفّين، وسنّ سنةً لعنه عقب الصلاة، إلّا أنّه مثل الخوارج مع ترجيح لكفّة هؤلاء عليه! لم يكفر عليّاً مثلما فعل الخوارج، ونطق بفضائل علي عليه السلام في حين كفره وفسّقه ونعته بالنفاق ابن تيميه ففاق الأولين والآخرين ١ في هذه المعاناة: (عُقْدَةُ النقص) وقد مضى الكلام في عُقْدَةِ نسبه من طرقي أمّه وأبيه، مع انغراس
صفة =

وأنيّ يكون أبخل العرب؟ فو الله لو كان بيتان؛ بيت تبن وبيت تير، لأنفذ تير قبل تبنه.
وأنيّ يكون أجبن العرب؟! فو الله ما التفت فنتان قطّ إلا كان فارسهم غير مدافع!
وأنيّ يكون أعيأ العرب! فو الله ما سنّ البلاغة لقريش غيره! ولما قامت أمّ محقن عنه الأمت
وأبخل وأجبن وأعيأ لبظّر أمّه. فو الله لو لا ما تعلم لضربت الذي فيه عيناك. فإيتاك عليك لعنة الله
والعودة إلى مثل ذلك!

قال: والله أنت أظلم مني، على أيّ شيء قتلته وهذا محله؟!

قال: على خاتمي هذا، حتّى يجوز به أمري.

قال: فحسبك ذلك عوضاً من سخط الله وأليم عذابه ^(١).

= الحسد فيه وفي عائلته ومحبيه، وأثر البيئة في حرّان والشام والروح الخارجيّة التي يحملها بين جنبيه، كلّ ذلك وغيره أدخله
في معركة وحرب كلاميّة كآلتي نقضت غزوها من بعد قوّة أنكاثاً؛ بل صاحبنا من بعد ضعف أنكاثاً!! بدأت حربه
الكلاميّة مع (الله عزّوجلّ) فأرداه وأخزاه فطيف به ثلاث مرّات مشهراً به على بغلة بالقلوب حاسر الرأس مضروباً بالدرة
ومنادياً عليه أنّ من يعتقد عقيدته يُسجن فخاف الخنابلة واختفوا وجرت لهم بسببه مخن...

(١) كشف الغمّة، للأربلي، من إعلان القرن السابع ٢: ٤٤، وكشف اليقين، للعلامة الحليّ ٤٧٤ - ٤٧٥.

وفي الأخبار الطوال ٢٦٠ (محقّن ثعلبة)؛ وفي الطبري ٦: ٢٦٤، والإكمال، لابن ماكولا ٧: ١٦٤، وتاريخ دمشق
٥٧: ٩٨ - ٩٩: محفز بن ثعلبة - بالفاء - بنقطة واحدة؛ وفي جمهرة نسب قریش، لمصعب ٤٤١: محفز - من غير
شدّة -.

صحيح أنّ ابن تيمية أثّرت بيئته فيه، سواء في حرّان أم في دمشق مع مداراته للبيئة التي شبّ فيها وأمضى فيها أطول سنّي عمره بعد أن فرّت أسرته الحنبليّة النشأة الأمويّة الهوى من حرّان على إثر الغزو المغوليّ، فاستوطنت دمشق واصطبغت بلبوسها وهي مهيةً بدأ لذلك؛ وكما ذكرنا فإنّ ابن الأسرة تلك كتب مؤلّفاته في تلك الأجواء.

فذكر بني أميّة وأشياعهم مفضّلاً إيّاهم على أهل البيت عليه السلام وأشياعهم، متّبِعاً منهمجاً إسقاطياً حمّل أوزار أولئك على الشجرة المباركة وشيعتهم. والإشكال عليه، وما أكثره! إذ تعاضدت بيئته حرّان مع ما نعتقده من إرثه الخارجيّ، ففضّل الخوارج على أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب وأهل البيت وشيعتهم، وكذب على الخوارج في عقائدهم وأفكارهم ونسب إليهم ما يريد أن يقوله هو من الشتائم الوقحة التي تبلغ حدّ الكفر بحقّ أهل البيت عليه السلام...؛ فكذلك الإشكال عليه في نفسيّته المضطربة التي كان لبيئته حرّان، وقد احتملنا أنّ أصحاب تلك السرايب المظلمة من الصابئة كيف يصطادون الأطفال بحيلهم ويفعلون معهم أفاعيل تؤثّر في نفوسهم وتربكهم عقيدياً، وشيوع العقيدة اليهوديّة هناك تركت آثارها في ذهنه وظهرت فيما بعد في ما كتب في عقيدته في الله تعالى من تشبيهه وتجسيم، وغيرها من صفات المخلوقين.

أقول: تعاضدت تلك العوامل ليشحن منهاج ضلاله بتعظيم بني أميّة وأتباعهم كما ذكرنا على أهل البيت وشيعتهم، وذكرنا ما فعله مع الخوارج، فوجدناهم يعظّمون عليّاً ويقولون بشأنه إمام حقّ عادل مرضيّ لم يظهر منه كفر؛

وإنّما خالفوا منهج ابن تيمية! الذي مارس الإسقاط فجعل من الفاعل بريء: عائشة وطلحة والزبير ومروان ...، وبعد أن تمّت صفقتهم الخاسرة في قتل عثمان الذي كان خير ناصر له: أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وبنوه وبنو هاشم وثلة من أبناء الصحابة، فيما كان معاوية منشغلاً ببطنه التي لا تشبع بعد دعوة النبي ﷺ وملاذّه ومتربّحاً حصاد الحوادث، فما له ولا بن عمّه عثمان، فإنّ سلم، فيده قد بسطها عثمان أوسع ممّا ولّاه عمر «الشام» وإنّما ضمّ إليه مصر وأقاليم أخرى، مرّ تفصيل ذلك. وإن قُتل، فأقلّ ما بيده الشام التي عُرف أهلها أنّهم يُعطون الطّاعة من غير جدال

...

بعد تلك الصفقة توجّه القتلة صوب البصرة فكانت وقعة الجمل، وفيها قُتل أحد أصحاب رسول الله ﷺ ذلك هو: طلحة، أوّل من بايع عليّاً عليه السلام ثمّ نكث، وكان هو والزبير أشدّ الناس على عثمان، فلمّا رأى مروان أنّ الهزيمة حلّت بهم سرّد سهماً نحو طلحة فقتله وقال: لا أطلب تأري بدم عثمان بعد اليوم أحداً!

هؤلاء هم الصحابة الذين كفرهم الخوارج على ما مرّ بنا، ووصفوا عليّاً عليه السلام بنفيه الشبهات وإقامة الحدود وإعطاء الأمور حقّها ...

وكما ذكرنا للخوارج أقوالاً ومواقف تنقض مزاعم ابن تيمية وتُظهر ناصبيّة المعوكة النبيّ وأهل بيته عليهم السلام أجمعين، وقد ذكرنا نموذجاً من أجوبة معاوية الذي قاتل عليّاً؛ وكيف تصدّى لمن جاء يتنقّصه وقد علّم أنّما هو منافق يُصانع؛ فقلب معاوية المعادلة تماماً. ومن أقوال معاوية في حقّ أبي الحسن عليّ عليه السلام:

ذكر ابن عساكر، قال: قال معاوية: ما زُمِيتُ في مُصَمِّمَةٍ مثل أبي الحسن عليّ بن أبي طالب قطّ^(١).

هذا وهو معاوية! فهو إذ يُقرّر لأُمير المؤمنين بالشدة في الأمور والشجاعة ويصفه بالأسد؛ فإنّه كنّاه أولاً ثمّ سَمّاه باسمه الصريح. فهلاًّ التفت ابنُ تيميّه إلى غلواء نفسه وقرينه هذا الذي لا يفارقه ثمّة لحظة يزيدّه سوءاً إلى سوء وبغيضةً إلى بغيضةٍ في حقّ عليّ وأهل البيت وشيعتهم ويجعلهم معدن كلّ مفسدة ورذيلة. والملتقى عند حكيم عدل وحينها يخسر المبطلون.

وذكر ابن عساكر أنّ أبا مسلم الخولانيّ جاء ومعه ناس إلى معاوية فقالوا له: أنت تُنازع عليّاً أم أنت مثله؟ فقال معاوية: لا والله، إني لأعلمُ أنّ عليّاً أفضل مني، وإنّه لأحقّ بالأمر مني، ولكنّ أستم تعلمون أنّ عثمان قُتل مظلوماً وأنا ابنُ عمّه؟ وإنّما أطلبُ بدم عثمان فقولوا له فليدفع إليّ قتلة عثمان، وأسلم له^(٢).

من نافلة القول كما يقولون ومن غير الاستغراق: فإن معاوية أقرّ أنّ عليّاً عليه السلام أفضل منه مثلما أقرّت الخوارج بفضله عليه السلام؛ وسلّم بأنّ عليّاً أحقّ بالأمر منه؛ وبذا بطلت مقولة الجاني على نفسه المنتصر لغيره وغيره يرفضه: ابن تيميّه: بأنّ عليّاً قاتل على الرئاسة وأراق الدماء من أجلها...، وتجاهل إصرار القوم على بيعته ورفضه عليه السلام لذلك حتّى بُويع إجماعاً طواعيةً لا سقيفةً ولا شهراً لسيف ولا قتلاً عامّاً للقبائل الممتنعة عن البيعة فحبست زكاتها فسُمّيت ردةً عن الإسلام

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٤٠.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ١٣٢.

وجرى ما ذكرناه؛ وكما بُيع طواعيةً وبإلحاح من أولئك النَّفر الذين أخذ عليهم عهد الله وميثاقه! لمعرفته بدخائل نفوسهم وكانوا أوَّل مَنْ بايعه البيعة العامة في المسجد...؛ فإنَّ الأقاليم قد بايعت له من غير سيف ولا مبعوث منه عليه السلام إليهم إلا معاوية فقد أظهر التمرّد وشقّ عصا الطاعة وخرج على الجماعة...، ونكث أولئك النَّفر فكان الذي كان يوم الجمل، ثمّ صفّين من قِبَل معاوية، فالخوارج فأما الخوارج فقد مضوا على شبهتهم في مسألة التحكيم مع إقرارٍ لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام بالفضل والعدل وإنّه مع الحقّ! وأما معاوية فقد ذكرنا مثلين له وسنذكر أكثر وقد وجدناه رغم ناصبيّته، وحسد أُميّة الموروث لبني هاشم، فإنّ ذلك كلّ لم يمنعه أن يقرّ أنّ عليًّا عليه السلام أفضل منه وأحقّ بالأمر منه. إلا أنّه تلمّس لنفسه المعاذير مثلما فعلت الخوارج!

وكانت عائشة كلّما ذكرت مسيرها في وقعة الجمل بكّت حتّى تَبِلَ خمارها ^(١).

وكانت إذا قرأت الآية: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ) ^(٢)، تبكي نادمَةً على مسيرها يوم الجمل حتّى

تَبِلَ خمارها ^(٣).

وسُئِلت عائشة عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فقالت: وما

(١) طبقات ابن سعد ٨: ٨١، تفسير القرطبي ١٤: ١٨٠، شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٠.

(٢) الأحزاب ك ٣٣.

(٣) تاريخ بغداد ٩: ١٨٤، تاريخ دمشق ٣٤: ٢٢٠، المناقب، للخوازمي ١٨٢، سير أعلام النبلاء، للذهبي ٢:

١٧٧.

عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ، وَهُوَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ جَمَعَ شَمْلَتَهُ عَلَى عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ وَقَالَ: «هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي اللَّهُمَّ أَذْهَبْ عَنْهُمْ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيراً». قِيلَ لَهَا: فَكَيْفَ سِرَّتْ إِلَيْهِ؟ قَالَتْ: أَنَا نَادِمَةٌ! وَكَانَ ذَلِكَ قَدْرًا مَقْدُورًا^(١).

عائشة تبكي قتالها علياً

وَمِنْ جَنْسِ كَلَامِهَا السَّالِفِ لَمَّا سَأَلَهَا جَمِيعُ بَنِ عُمَيْرٍ، قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ: حَدِّثِي عَن عَلِيٍّ. فَقَالَتْ: تَسْأَلُنِي عَنْ رَجُلٍ سَأَلَتْ نَفْسُ رَسُولِ اللَّهِ فِي يَدِهِ، وَوَلِيَّ غَسْلِهِ وَتَغْمِيطِهِ وَإِدْخَالِهِ قَبْرَهُ^(٢)! قُلْتُ: فَمَا حَمَلَكِ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ؟ فَأَرْسَلْتُ خِمَارَهَا عَلَى وَجْهِهَا وَبَكَتْ، وَقَالَتْ: أَمْرٌ كَانَ قُضِيَ عَلَيَّ^(٣).

إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ قَاتَلَتْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَنَّ الْحَقَّ نَطَقَ بِفَضَائِلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَخَصَائِصِهِ حَالِهَا حَالِ الْخَوَارِجِ وَمَعَاوِيَةَ وَكُلِّ يَلْتَمِسُ لِنَفْسِهِ عِذْرًا؛ فَعُذِرَ عَائِشَةُ أَنَّ قِتَالَهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ بِتَقْدِيرِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا وَقَضَاءِ، حَاشَا لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا مِنْ ذَلِكَ.

(١) المحاسن والمساوئ، للبيهقي ٢٩٨. ويبدو أَنَّ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدَرَتِ! فَهِيَ تَظْهَرُ النَّدَمَ عَلَى مَا فَعَلَتْهُ يَوْمَ الْجَمَلِ ثُمَّ تَرَدُّ الْفِعْلُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ!

(٢) وهذا ما يُبْطَلُ مَا تُسَبِّحُ إِلَيْهَا: مَتَى أَوْصَى رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ مَاتَ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي؟ وَالْغَرَضُ مِنْهُ إِبْطَالُ الْوَصِيَّةِ لِلْوَصِيِّ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَعَلِيٌّ مَشْغُولٌ بِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَرَسُولِ اللَّهِ يَنَاجِيهِ حَتَّى مَاتَ بَيْنَ سَحْرِهِ وَنَحْرِهِ بَعِيدًا عَنِ السَّقِيفَةِ.

(٣) المحاسن والمساوئ، للبيهقي ٢٩٨.

إلا أن ذلك لم يمنعها من النطق بفضائله، بل وكلما ذكرت مسيرها المشؤوم يوم الجمل أو قرأت الآية القرآنية التي تأمر نساء النبي ﷺ أن يقرن في بيوتهن، حتى تبكي ندماً... عطا، قال: سألت عائشة عن عليّ فقالت: ذاك خيرُ البشر لا يشك فيه إلا كافر^(١). هذه الفرق الثلاث التي قاتلت أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام كلها تنطق بفضله وعدله وأنه خيرُ البشر

...

ومع كلّ هذا فإن ابنُ تيمية لم تُطاوعه نفسه إلا أن يُناقض ويكذب على الآخرين فيلقي على ألسنتهم ما هم منه أبرياء كبراءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب، ويتجاوز الحدّ هذا! فيكيل السُّباب لأُمير المؤمنين عليه السلام.

فلا كان مع الخوارج، وإن كان خارجياً أصالته، ولا كان مع النواصب القاسطين وإن كان قاسطاً وللتواصب إماماً يُحتذى منذ نعق وحتى الساعة ولا ندري متى تمتد يد المشيئة الإلهية المقتدرة لتطهر الأرض من الصُّمِّ البُكم العُمي مخالفين القرآن؛ وأحمد ومالك والشافعي والحنفي؛ عاكفين على سليل «تيمية، وسيت النعم» مجسّمين مشبّهين لذات الله تعالى، قد استحوذوا على الحرمين الشريفين: بيت الله الحرام، ومسجد النبي ﷺ، يعاقبون من يقترب من مرقد رسول الله ﷺ للترك ويرفعون أصواتهم التّكرة: لا تشرك؛ مقتدين بإمامهم الذي علّمهم ذلك وأفتى بحرمة زيارة قبر الرسول وجعله بدعة وشركاً، فتلقّفها البدوي النّجدي

(١) كفاية الطالب ٢٤٦.

الأعرابي ابن عبد الوهاب الذي ظهر مع ظهور الإنجليز في الجزيرة العربية وعمل بتلك البدعة والفتوى ونشر عقائد ابن تيمية وهاجم أتباعه المراقدين الشريفة في العراق وما زالوا يفعلون وسنأتي على ذكر فتاوى متأخريهم وأفعالهم الشيعة في هذا الحقل.

أقول: ولا كان مع أم المؤمنين عائشة التي قادت الناكثين فلما وضعت الحرب أوزارها، جهّزها أمير المؤمنين عليه السلام، فلما وصلت المدينة قيل لها: كيف كان مسيرك؟ قالت: لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر، ولكنه بعث معي رجالاً أنكرتهم، فعرفها النسوة أمرهنّ فقالت: ما ازددت والله يا ابن أبي طالب إلا كرمًا. (١)

وللسنة الذين حاولوا فاشلاً أن يثيرهم على إخوانهم شيعة أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، ففضحه الله تعالى وحكمه فضاء المذاهب السنية بالأحكام التي ذكرناها: فاسق، زنديق، منافق، كافر، وشهروا به وسجنوه ثلاث مرّات مات في الثالثة في السجن...

إنّ الذين حكموا على ابن تيمية هذه الأحكام قد شغفهم حبّ آل البيت، وكان هذا الحبّ ديناً يدينون الله عزّ وجلّ به ويتقرّبون به إليه سبحانه ويعتقدون أنّ الصلاة عليهم من الواجبات التي لا تتمّ صلاتهم إلّا بها.

ذكر الفخر الرازي في تفسيره، قال: إنّ الدعاء لآل منصيب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة وهو قوله: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، وارضهم محمدًا وآل محمد. وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير

(١) أنساب الأشراف ٣: ٥١، تاريخ الطبري ٣: ٥٤٨، الأخبار الطوال ١٥٢، مروج الذهب ٢: ٣٧٢.

الآل؛ فكلّ ذلك يدلّ على أنّ حب آل محمد ﷺ واجب. وقال: إنّ أهل بيته ساوؤه في خمسة أشياء: في الصلاة عليه وعليهم في التشهد، وفي السلام...»^(١).

فقول الفخر: «وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل» يعني لو دخل فيها ذكر غيرهم - أيّاً كان - بطلت الصلاة، وكان ذكر غيرهم حاله حال أيّ من المبطلات! ولا تستقيم الصلاة إلّا بالشهادة لله تعالى بالوحدانيّة، ولحمد ﷺ بالعبوديّة لله سبحانه وأنّه نبي الله، ثمّ تعظيمه بالصلاة عليه وعلى آله.

وفي الصواعق المحرقة، قال ابن حجر: قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)^(٢)، إنّ النبي ﷺ، قرّن الصلاة على آله بالصلاة عليه؛ لما سُئل عن كيفيّة الصلاة والسلام عليه. وقال: وهذا دليل ظاهر على أنّ الأمر بالصلاة على أهل بيته وبقية آله مُراد من هذه الآية، وإلّا لم يسألوا عن الصلاة على أهل بيته وآله عقب نزول هذه الآية ولم يُجابوا بما ذكر، فلمّا أُجيبوا به دلّ على أنّ الصلاة عليهم من جملة المأمور به، وأنّه ﷺ أقامهم في ذلك مقام نفسه؛ لأنّ القصد من الصلاة عليه مزيد تعظيمه ومنه تعظيمهم، ومن ثمّ لما دخل من مرّ في الكساء قال: «اللّهمّ إنهم منّي وأنا منهم، فاجعل صلاتك ورحمتك ومغفرتك ورضوانك عليّ وعليهم» وقضيّة استجابة هذا الدّعاء: إنّ الله صلّى عليهم معه، فحينئذ طلب من المؤمنين صلاتهم عليهم معه. ويُروى: «لا تُصلُّوا عليّ الصلاة البتراء» فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: «تقولون: اللّهمّ صلّ

(١) التفسير الكبير، للفخر الرازي ٢٧: ١٦٦.

(٢) الأحزاب: ٥٦.

على محمد، وتُسكون! بل قولوا: اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد». وقد نُقل عن الإمام الشافعيّ قوله:

يا أهل بيتِ رسول الله حُبُّكم فرضٌ من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم القدر أنكم من لم يُصلّ عليكم لا صلاة له
قال: فيُحتمل لا صلاة له صحيحة، فيكون موافقاً لقوله بوجوب الصلاة على الآل، ويُحتمل لا صلاة كاملة، فيوافق أظهر قوليه ^(١).

قال أخرج الدار قطني والبيهقي حديث «من صلى صلاة ولم يُصلّ فيها عليّ وعلى أهل بيتي لم تُقبل منه». وكأنّ هذا الحديث هو مستند قول الشافعيّ رحمته الله: إنّ الصلاة على الآل من واجبات الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم. ^(٢)

وفي الشفا للقاضي عياض المالكيّ، عن ابن مسعود، عيّن الحديث السابق الذي ذكره ابن حجر في الصواعق صفحة ١٣٩. ^(٣)

وفي شرح الشفا للقاضي الخفاجيّ الحنفيّ، [عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام]: «الدعاء والصلاة معلق بين السماء والأرض، لا يصعد منه إلى الله شيء حتّى يُصلّى عليه صلى الله عليه وسلم، وعلى آل محمد». ^(٤)

وقيل للإمام الشافعيّ إنّ أناساً لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة تُذكر

(١) الصواعق المحرقة ٨٧.

(٢) نفسه ١٣٩.

(٣) الشفا، للقاضي عياض ٣: ٥٠٥.

(٤) شرح الشفا، للقاضي الخفاجيّ ٣: ٥٠٦.

لأهل البيت؛ فإذا رأوا أحداً يذكر شيئاً من ذلك قالوا: تجاوزوا عن هذا فهو رافضي! فأنشأ الشافعي رحمه الله تعالى يقول:

إذا في مجلسٍ نذكر عليّاً وسبطيه وفاطمة الزكيّة
يُقال: تجاوزوا يا قومُ هذا فهذا من حديث الرافضيّة!
برئتُ إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرّفْضَ حبَّ الاطميّة ^(١)
فالشافعي لا يجد حرجاً أن يُرمى بتهمة الرّفْض ومشايعة أهل البيت ﷺ ويبرأ من أعدائهم
وشائقيهم. وله أيضاً:

قالوا: ترَفَضْتَ؟ قلت: كلاً ما الرّفْضُ ديني ولا اعتقادي
لكن تولّيتُ - غير شكٍّ خيرَ إمامٍ وخيرَ هادي
إن كان حبُّ الوليِّ رِفْضاً فإنّي أرَفُضُ العباد ^(٢)
وله أيضاً شعر يفيض حبّاً لهم ﷺ ومكابدة من أولئك الذين يقفون معاً في صراطهم
المستقيم، ويهتف معلناً بأنه رافضي:

يا راكباً قِفْ بالمُحَصَّبِ من مَنى واهتُف بساكنٍ خيفها والناهض
سَحْراً إذ فاضَ الحجيجُ إلى مَنى فَيُضاً كُمَلَّتِمْ الفرات الفاض
إن كان رِفْضاً حبُّ آلِ مُحَمَّدٍ فَلْيَشْهَدْ الثَّقَلانِ أنّي رافضي! ^(٣)

(١) نور الأبصار، للشبلنجي ٢٣٢.

(٢) نور الأبصار، للشبلنجي ٢٣٢.

(٣) نفسه ٢٣٢.

ومن شعر ابن العربيّ في أهل البيت عليه السلام :

رَأَيْتُ وَلَائِي آلَ طَه فَرِيضَةً
فَمَا طَلَبَ الْمَبْعُوثُ أَجْرًا عَلَى الْهَدَى
وَلَهُ أَيْضًا:

فَأَهْلُ الْبَيْتِ هُمْ أَهْلُ السَّيَادَةِ
فُبُغْضُهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ خُسْرٌ حَقِيقِيٌّ، وَحُبُّهُمْ عِبَادَةٌ^(١)

هذه هي أقوال لعلماء المذاهب التي يلوذ بها ابن تيمية، وسِتّ النعم نفاقاً منه في حال شرّ العارة على خصومه: ابتداءً من الله تعالى علوّاً كبيراً، ومروراً بالرسول الكريم ﷺ، وأهل بيته بيت العصمة عليه السلام؛ وحتّته التي يصول بها ويجول هو قوله: هذا قول أهل السنّة والجماعة...، فإذا رجعنا إليهم وجدناهم على خلافه تماماً ولذا نجد أنفسنا مضطّرين إلى إعادة القول والتذكير بأنهم شدّدوا عليه النكير وعاقبوه وبدّعوه وطافوا به سكك دمشق على بغلة بالمقلوب مضروباً بالدرة وحبسوه ثلاث مرّات بالأحكام التي مرّ ذكرها: التّفاق والزندقة والفسق والكفر؛ فماذا أبقى لإبليس؟! وفي كلّ نوبة يُعلن التوبة فيخرج ثمّ يرجع لأنّ الذي فيه لا يفارقه فيحركه ويثير الفتنة من جديد ليرجع إلى مستراحه «السجن» وهكذا حتّى هلك في الثالثة في سجنه.

وزيادةً في إغاضة التيمائيين نذكر ما جاء في الإصابة، قال: إنّ كُدَيْر

(١) الصواعق المحرقة ١٠١.

(٢) نفسه.

الصَّبِيِّ كَانَ يُصَلِّي وَيَقُول: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى النَّبِيِّ وَالْوَصِيِّ. ^(١) وذكر الهيثمي نقلاً عن الطبراني، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كُلَّ دَعَاءٍ مَحْجُوبٍ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ» ^(٢).

وفي ذخائر العقبى، عن جابر رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ يَقُول: لَوْ صَلَّيْتُ صَلَاةً لَمْ أُصَلِّ فِيهَا عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ مَا رَأَيْتُ أَنَّهَا تُقْبَلُ» ^(٣). وفي تفسير قوله تعالى: (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى) ^(٤).

قال نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان، بهامش تفسير الطبري في آية المودة: كفى شرفاً لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وفخراً ختم التشهد بذكرهم، والصلاة عليهم في كل صلاة. ^(٥)

وقال صلى الله عليه وآله: معرفته آل محمد براءة من النار، وحب آل محمد جواز على الصراط، والولاية لآل محمد أمان من العذاب» ^(٦).

قال القاضي عياض: قال بعض العلماء: معرفتهم هي معرفة مكاتبتهم من النبي صلى الله عليه وآله وإذا عرفهم بذلك عرف وجوب حقهم وحرمتهم بسببه ^(٧).

(١) الإصابة ٣: ٧٣٨٦/٢٨٩.

(٢) مجمع الزوائد ٣: ٢٨٩.

(٣) ذخائر العقبى ١٩.

(٤) الشورى: ٢٣.

(٥) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٥: ٥١٩.

(٦) الشفا ٣١.

(٧) نفسه.

بعد كلّ هذا: أئقبل من ابن تيميه صلاة، إن كان من المصلّين! وهل لا يحجب دعاءه بغضه وناصبته لأئيرالمؤمنين عليّ ؑ وأهل بيته الطّاهرين وشيعتهم، وكذلك حال يتاماه في كلّ قرن حتّى عصرنا، فما قُطع قرن حتّى ظهر آخر؛ فهل معه ومع أيتامه الذين أضلّهم جوازّ على الصراط وبراءة من النّار وأمان من العذاب؟!

كلام أحمد بن حنبل في قوله أئيرالمؤمنين ؑ: «أنا قسيم النار»: قال القاضي ابن أبي يعلى الحنفى: سمعت محمد بن منصور يقول: كنّا عند أحمد بن حنبل فقال له رجل: يا أبا عبدالله ما تقول في هذا الحديث الذي يروى أنّ عليّاً قال: أنا قسيم النّار؟ فقال أحمد: وما تنكرون من ذا؟ أئيس قد روينّا أنّ النّبيّ ﷺ قال لعليّ: «لا يُحبّك إلّا مؤمن ولا يُغضّك إلّا منافق»؟ قلنا: بلى، قال: فأين المؤمن؟ قلنا: في الجنّة، قال: وأين المنافق؟ قلنا: في النار، قال: فعليّ قسيم النّار.^(١)

فأحزموا أنفسكم بالأزيمة النّاسفة وأمامكم إمامكم ابن تيميه لعلكم تنسفون أنفسكم قبل أن يأخذ أخو رسول الله ﷺ ووصيه عليّ بأيديكم إلى النّار.

وأخرج الحاكم عن شريك، عن قيس بن مسلم، عن أبي عبد الله الجدليّ، عن أبي ذرّ قال: «ما كنّا نعرف المنافقين إلّا بتكذيبهم الله ورسوله والتخلّف عند

(١) طبقات الحنابلة، للقاضي ابن أبي يعلى ١: ٣٢٠.

الصلوات والبغض لعلّي بن أبي طالب»^(١). هذا الحديث وله شواهد نذكرها أنكره ابن تيمية في منهاج ضلاله، وعلة ذلك واضحة فهو إمام الناصبة، ما من فضيلة أو خصوصية لأمر المؤمنين عليه السلام إلا وأنكرها، وإذا وجد نفسه ملزماً بذكرها عمد إلى قطع بعض ألفاظها وقال: هذه الزيادة لم تصح من غير أن يقيم برهاناً على قوله أو أنه يصرف اللفظ إلى معنى غير المعنى الذي وضع له ويأوله تأويلاً بعيداً.

وما يدرينا زيادةً على ما تقدّم في سبب إنكاره الحديث هو الحكم الصادر بحقه أنه منافق لقوله: أن علياً [عليه السلام] أسلم صغيراً لا يدري ما يقول، وإسلام الصغير لا يُقبل منه! فمارس وحسب منهجه إسقاط ما في نفسه على أمير المؤمنين عليه السلام، فظهر نفاقه ببغضه لعلّي عليه السلام. وعن أبي سعيد الخدري قال: «ما كنّا نعرف منافقي هذه الأمة إلاّ ببغضهم عليّاً»^(٢). وأبو الزبير عن جابر بن عبد الله الأنصاري ولفظه نفس حديث أبي سعيد^(٣).

وفي المصنّف لابن أبي شيبة ٦٤/٥٠٥/٧ - فضائل عليّ - حدّثنا خلف ابن خليفة عن أبي هارون قال: كنت مع ابن عمر جالساً إذ جاءه نافع بن الأزرق

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ٤٣/١٣٩.

(٢) سنن الترمذي - في المناقب ح ٣٨٠٠ -، و تاريخ الإسلام، للذهبي ٣: ٤٣٤.

(٣) الاستيعاب ٣: ٤٦ و ٤٧، وتاريخ الإسلام ٣: ٦٣٤، ومختصر تاريخ دمشق. ثمّة ملاحظة مفارقة بين قول ابن الأزرق هنا وبين احتجاجه على ابن الزبير إذ وصف الإمام عليّ عليه السلام بأجل الأوصاف على ما مرّ بنا! ففعل هذا بعد استعراض ابن الأزرق الناس للقتل؟!

- أحد رؤوس الخوارج - فقال: والله إني لأبغض علياً! قال: فرفع ابن عمر رأسه فقال: أبغضك الله، تُبغض رجلاً سابقة من سوابقه خيرٌ من الدنيا وما فيها.

وفي صحيح مسلم، بسندٍ عن زُرِّ بن حُبَيْش قال: قال عليٌّ [عليه السلام]:
«والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهدُ النبي الأُمِّيِّ إليَّ أن لا يُحِبَّنِي إِلَّا مُؤْمِنٌ ولا يُبْغِضُنِي إِلَّا مُنَافِقٌ»^(١). وبنفس السند والمتن في سنن ابن ماجه^(٢).

وهذه بعض المصادر التي ذكرت حديث حبِّ عليٍّ وأنَّ إيمانه، وأنَّ بغضه نفاق: مسند الحميدي ح ٥٨، وأنساب الأشراف ١: ٣٨٣، ومسند أبي يعلى ١/ ٢٥١: ٢٩١، وخصائص أميرالمؤمنين للنسائي ح ١٠٠ و ١٠٢، وصحيح ابن حبان ١٥/ ٣٦٧: ٦٩٢٤ ومعرفة علوم الحديث للحاكم ١٨٠، وشرح السنة، للبخاري ١٤/ ٣٩٠٩، وحلية الأولياء ٤: ١٨٥، ومجمع الزوائد ٩: ١٣٣.

خلاصة: العجب من ابن تيمية، ثمَّ ابن سِتِّ النِّعم، أن يُنكر حديث: حبِّ عليٍّ [عليه السلام] إيمان، وبُغضه نفاق، وأسانيد الحديث لا مطعن فيها وهي تنتهي بأمرالمؤمنين عليٍّ [عليه السلام]، وأبي سعيد الخُدري، وجابر بن عبد الله، وأبي ذر.

والحكم في النقل للعلماء المتقدمين عهداً لا للجهلة المتأخرين زمناً، أفعرض عن أصحاب الصحاح والمسانيد والسُنن والتاريخ صفحاً ونتمسك بصاحب عاهات لا يفقه ما يقول أطلِّ بقرنه بعد أولئك بمئات السنين؟! إنَّ الفاصلة الزمنية بين ابن تيمية وبين الحميدي الذي ذكر الحديث في مسنده

(١) صحيح مسلم ٢: ٦٤.

(٢) سنن ابن ماجه ١: ٤٢ ح ١١٤.

لا تزيد على (٤٩٦) سنة، فقد توفّي الحميدي سنة (٢١٩) وتوفّي ابن تميمه سنة (٧٢٨)، ولكننا مدينون للحميدي أكثر من ابن تميمه لتقدّم الحميدي فهو ابن العقد الأول للقرن الثالث الهجريّ قد سمع من الأوائل وسبق ابن تميمه بخمسة قرون إلا أربع سنين. هذا من الناحية الزمنية؛ وأمّا السيرة: فلم نجد في سيرة الحميدي إلا الحميد فأصبح مسنده أحد المصادر التي يرجع إليها، فيما عرفت من سلوك وعقيدة الثاني وما انتهى إليه أمره.

وما قلناه عن الحميدي، نقوله عن بقيّة مشيخة السلف: فهذا ابن أبي شيبة أبو بكر، علّم لا يتخطّاه مشايخ الصحاح والمسانيد والسُنن ... فقد أكثروا عنه واعتبروه حجة، وهو وإن كان متأخراً عن الحميدي، إلا أنّه أيضاً توفّي في النصف الأول من القرن الثالث الهجريّ، فقد كانت سنة وفاته (٢٣٥ هـ) وقد ذكر الحديث كما ذكرنا. فكم تكون الفاصلة الزمنية بينه وبين الخارجي الثاني ابن تميمه، بل كم تكون بينه وبين خارجة عصرنا؟

إنّما تصل اثني عشر قرناً وهم ينفخون بوق إمامهم الذي عكفوا عليه من دون أصحاب الصحاح والتصانيف والسُنن والمسانيد ...، ولو بُعث ابن تميمه ونُشر من قبره لا ندري ما يصنع هؤلاء ومن قبل كانت نبوة سجّاح التميمية النجدية، ونبوة مسيلمة التميمي النجديّ الكذاب الذي اشترى نبوة سجّاح بنكاح مشبوّه! واتّبعهم من أسلافكم أكثر أهل بُخْد وشكّلوا خطراً على الإسلام حتّى قتل الله مسيلمة، وارتدّ طليحة وارتدّت معه قبائل كثيرة ثمّ فرّ إلى الشام؛ فأنتم ينطبق عليكم قول الخوارج: تتبعون الرجال على أسمائهم فما قولكم وقول إمامكم ابن

تَيَمِّيه في أحمد بن حنبل؟ هل عاصرتوه، أم عاصره إمامكم وما الذي خلصتم إليه من القول وهو يذكر كثيراً من فضائل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومنها حديث حبه وبغضه وأنه علامة الإيمان والذي كذبه إمامكم فكذبتموه وبذا كذبتهم أحمد بن حنبل إمام الحنابلة، وترعمون أنكم سلفيون!

إنّ أحمد توفي سنة (٢٤١ هـ) أي قبل وفاة ابن تيميه ب (٤٨٧ سنة)، وبينه وبينكم مثل الفاصلة بين ابن أبي شيبة وبينكم. ولعلكم تقولون: ما لنا ولأحمد فلقد صبا فصار رافضياً! أو القول ما قاله ابن سِتّ النعم وما قولكم بصحيح مسلم وصاحبه المتوفى سنة (٢٦١ هـ) فهو ابن النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ وفاهُ وسابق على ابن تيميه مثل أحمد وأما صاحب الصحيح مسلم وهو ممن ذكر الحديث، فلم يتأخّر وفاهُ عن أحمد، فقد توفي سنة (٢٦١ هـ)؛ وتأخّر عنهم ابن ماجة والترمذيّ والبلاذريّ وقد ذكروا الحديث وهم جميعاً توفوا في النصف الثاني من القرن الثالث الهجريّ. فلقد توفي ابن ماجة سنة (٢٧٥ هـ) والترمذيّ سنة (٢٧٩ هـ) ومثله البلاذريّ. وأما الذهبيّ الحنبليّ وهو ممن ذكر الحديث فهو متأخّر إذ توفي سنة (٧٤٨ هـ) وهو حجّة عليكم لأنّه تلميذ ابن تيميه لسنين طويلة إلاّ أنّه لما عرف من حاله ومن عقيدته ابتعد عنه وندم على السنوات التي أمضاها معه وكتب إليه رسالةً طويلةً يؤنّبه ويعاتبه وقد أثبتناها ضمن فصل أصحاب الردود على ابن تيميه.

لقد استوجب ابن تيميه ومن والاه الحكم بالتّفاق لبغضه لأمر المؤمنين عليّ عليه السلام ، على لسان رسول الله صلّى الله عليه وآله ، لنفيه فضائله وخصائصه بكلّ عناد وذهبت به

وقاحته إلى القول: أنَّ الرافضي لا يمكنه أن يثبت إيمان عليّ وعدالته وأنّه من أهل الجنّة، ورماه بالتّفاق وأنّه أوقد نار الفتنة في قتل أصحاب محمّد [انظر من غير تسميته بالنبوة والرسالة!!] بُغضاً له [أي للنبي ﷺ !] وأنّه كان مباطناً للمنافقين ... وغير ذلك مما مرّ ذكره.

وكذلك استوجب وأتباعه الحكم بالتّفاق بموجب القرار الذي أصدره قضاة المذاهب الإسلاميّة المالكيّة والحنفيّة والشافعيّة والتي انضمّ إليها أخيراً القاضي الحنبليّ؛ فصار الحكم إجماعاً، ولم يُرفع فهو ماضٍ فيه وفي من اعتقد عقيدته في ذات الله جلّ وعزّ، وفي رسول الله ﷺ وأهل بيته الكرام والأولياء ومسألة الزيارة ومجموع أفكاره التي أحيها الوهابيون الإرهائيون ممّن لا يخاف المعاد، عاملهم الله بعدله في الدنيا والآخرة.

الإسلام ييسط سلطانه على حرّان

دخلت حرّان ظلّ الإسلام أيّام عمر بن الخطّاب (رض)^(١)، على يد الصحابيّ: «عياض بن غنم بن أبي شدّاد بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبّة بن الحارث بن فهر، أسلم قبل الحديبيّة وشهد الحديبيّة مع رسول الله ﷺ»^(٢).

(١) المصادر جميعاً.

(٢) التّسب، لابن سلام ٢٢٠، والمُحَبَّر، لابن حبيب ٤٣٢، وطبقات ابن سعد ٧: ٣٩٨، ومختصر تاريخ دمشق ٢٠: ٦٠. وذكره خليفة بن خياط وشكّك في انتسابه إلى (غنم). وقال: فتح عاتمة الجزيرة. وذكره ابن الكلبيّ في جمهرة التّسب ولم يُترجم له.

وأختلف في سنة وأسلوب فتح حَرَّان وما والاها من أرض الجزيرة. فقد ذكر خليفة في تاريخه في أحداث سنة «ثمان عشرة» قال:

«قال ابن إسحاق: وفي سنة ثمان عشرة فُتحت الرُّها^(١)، وحدثني حاتم بن مسلم أنَّ أبا موسى الأشعريَّ افتتح الرُّها وسمَّيَ ساط^(٢) صلحاً وما والاها عنوةً.

قال: وكان أبو عبيدة بن الجراح وجَّه عياض بن غنم الفهري^(٣) إلى الجزيرة، فوافق أبا موسى بعد فتح هذه المدائن، فمضى ومضى معه أبو موسى، فافتتحا حَرَّان ونَصِيبين^(٤) وطوائف الجزيرة عنوةً^(٥)؛ ويقال: وجَّه أبو عبيدة خالد بن الوليد

زاد ابن حبيب: (أم الحكم) بنت أبي سفيان، كانت عند عياض بن غنم بن شدَّاد الفهري، ولحقت بالمشركون. (المختَر ٤٣٢)

(١) الرُّها: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام؛ بينهما سِتَّة فراسخ (انظر معجم البلدان ٢: ١٠٦). وظلَّت تعرف بهذا الاسم إلى وقت انتقالها إلى أيدي الترك العثمانيَّين فصارت تُعرف باسم (أورف)؛ قيل: إنَّ هذا الاسم تحريف (الرُها) العربي. (انظر بلدان الخلافة الشرقيَّة ١٣٥). وموقعها اليوم في الجنوب الشرقي من تركيا على بضعة أميال من سورية.

(٢) سُمِّيَ ساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم على غربي الفرات (انظر معجم البلدان ٢: ٢٥٨) وموقعها اليوم إلى الشمال الغربي من الرُّها.

(٣) ذكر ابن عساكر: وقيل: كان عياضُ ابنِ امرأة أبي عبيدة بن الجراح. (مختصر تاريخ دمشق ٢٠: ٦١).

(٤) نَصِيبين: من بلاد الجزيرة، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ (معجم البلدان ٥: ٢٨٨، وبلدان الخلافة الشرقيَّة ١٢٤، وموقعها اليوم إلى الجنوب الشرقي من تركيا، وهي معدودة من أراضيها ومحاذية للحدود السورية شمالي القامشلي).

(٥) تاريخ خليفة بن خيَّاط (ت ٢٤٠ هـ) ٩٦.

إلى الجزيرة، فوافق أبا موسى قد افتتح الرُّها وسميساط فوجّه خالد أبا موسى وعباضاً إلى حَرَآن فصالحا أهلها ^(١). ثمّ مضى خالد إلى نصيبين فافتتحها. ثمّ رجع إلى آمد ^(٢) فافتتحها صلحاً، وما بينهما عنوة. وحُدِّث أنّ عياض كتب لهم كتاباً وهو عندهم اليوم يُسمّى باسم عياض ^(٣).

الطبريّ: وفي تاريخ الطبريّ ذكر روايتين في فتح حَرَآن، وافق في إحداها خليفة بن خياط، فجعل فتحها سنة ثمان عشرة، وأنّ الفتح كان على يد عياض ابن غنم؛ وخالفه في الأخرى - والتي لم يذكرها خليفة، فجعلها في السنة التاسعة عشر ولم يقل على يد من! وإن كانت القرائن ترجّح حملها على يد عياض.

قال الطبريّ في أحداث سنة ثمان عشرة:

وزعم الواقديّ (ت ٢٠٧ هـ) أنّ الرقّة والرهاء وحَرَآن، فُتحت في هذه السنة على يدي عياض بن غنم، وأنّ عَيْنُ الوردّة ^(٤) فُتحت فيها على يدي عمير بن سعد ^(٥).

(١) نفسه.

(٢) آمد: أعظم مدن ديار بكر، بلد حصن قديم على نشز دجلة ... (معجم البلدان ١: ٥٦) تقع اليوم في الجنوب الشرقي من تركيا وتسمّى ديار بكر (بلدان الخلافة الشرقية ١٤٠).

(٣) تاريخ خليفة ٩٦.

(٤) عَيْنُ الوردّة: وهي رأسُ العين، من مدن الجزيرة، وهي محاذية للحدود السورية التركية وإلى الشمال الشرقي من الرقّة. فيها كانت الوقعة المشهورة بين التّوّابين الأحرار الذين خرجوا للأخذ بثار دم الحسين عليه السلام من بني أميّة. (معجم البلدان ٥: ٢٨٨، وبلدان الخلافة الشرقية ١٢٥).

(٥) تاريخ الطبريّ ٣: ١٩٤.

رواية الطبري الثانية

قال: قال ابن اسحاق: كان فتح الجزيرة والرّهاء وحرّان ورأس العين ونصيبين في سنة تسع عشرة^(١).

ابن عساكر محدّث الشام يروي خبر فتح الجزيرة:

قال ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ): وفي سنة تسع عشرة كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص، أن ابعتُ جنداً إلى الجزيرة وأمر عليهم أحد الثلاثة: خالد بن عُرْقُطَة، أو هاشم بن عتبة، أو عياض بن غنم؛ فلما انتهى إلى سعد كتابُ عمر قال: ما أختَرُ أمير المؤمنين عياضاً إلا أن له فيه هوى أن أوليه، وأنا مولّيه. فبعثه وبعث معه أبا موسى وابنه عمر بن سعد، وهو غلامٌ حدّث السنّ، وعثمان بن أبي العاص ابن بشر الثّقفيّ في سنة تسع عشرة؛ فخرج عياض إلى الجزيرة فنزل بجنده على الرّهاء، ثمّ بعث أبا موسى إلى نصيبين ووجّه عمر بن سعد إلى رأس العين في خيلٍ ردءاً للناس، وسار بنفسه إلى دارا فافتتحها، وافتتح أبو موسى نصيبين، وذلك في سنة تسع عشرة، ثمّ وجّه عثمان بن أبي العاص أرمينية الرابعة، فكان عندها شيء من قتال ...، ثمّ صالح أهلها عثمان بن أبي العاص على الجزيرة.

ولما وجّه أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة يقال إنّه وجّه خالد بن الوليد إلى الجزيرة، فوافق أبا موسى قد افتتح الرّهاء ومُيسّط ... ثمّ ذكر عيّن الخبر الذي في الطبري^(٢).

(١) نفسه.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٠: ٦٢ - ٦٣.

إنَّ قصدنا ممَّا ذكر وما سنذكر سواء من بيئته الأسريَّة مجهولة المعالم إلى شخصه علماً فيه أكثر من سؤال وآخر لافَت للنظر إلى ضياع منحدره القبليّ الذي منع التاريخ من الكتابة فيه كما منع الأوائل من كتابة الحديث النبويّ الشريف! في حين كان كتابته جارية في حياة النبيّ ﷺ، إلى تربيته البيئيَّة وما اشتبكت عليها الأزمان وضربتها الفتن بأجرانها فورث خلاصة ضلالها وباء ببوائق فتنها.

وإذا كانت جارة حُرَّان والبوابة التي يبدأ بها كلُّ فاتح إلى حُرَّان، (الرُّها) كلَّهم نصارى وفيها كنيسة عظمى ...، فحُرَّان وقد علمنا أنَّها موطن الصابئة والصابئين منذ أقدم عصورهم. وكما ذكرنا تلك المبهمات في شأن ابن تيميَّة، فقد وجدنا اختلافاً في الأمير: أبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص ...؛ الفتح عنوةً أو صلحاً. والقيادة وفي بعضها خالد ابن عُرقطة عوضاً من خالد بن الوليد ...، إلّا أن المُجمع عليه أنَّ ذلك كان أيام عمر بن الخطَّاب. وحتىَّ سنة الفتح جرى فيها اختلاف بين سنة ثمان عشرة وتسع عشرة. هذا شيء من تاريخ حُرَّان. وسنذكر شيئاً من تاريخها زيادةً في البيان، مع ما ذكرناه سابقاً لإعطاء صورة أوضح عنها.

النفوذ الأمويّ في الشام وانطباع الجزيرة بأثر ذلك

بدأ النفوذ الأمويّ يمدُّ جذوره في بلاد الشَّام والأصقاع المجاورة صدر

الإسلام، وتحديدًا أيام أبي بكر الذي كان عهده تمهيداً، وعصر عمر تشيئاً وتركيزاً، وعهد عثمان توسيعاً...

ففي سنة اثنتي عشرة جهّز أبوبكر الجيوش إلى الشام، فبعث عمرو بن العاصي قِبَل فلسطين، وبعث يزيد بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشُرَحْبِيل ابن حَسَنَة على البلقاء من علياء الشام (١).

ذكر الطبري: وحَدَّثني عمر بن شَبَّه بإسناده قال: ثمَّ وَجَّه أبوبكر الجنود إلى الشام أوَّل سنة ثلاث عشرة، وأوَّل لواء عقده لواء خالد بن سعيد بن العاصي ثمَّ عزله قبل أن يسيرَه! ووَلَّى يزيد بن أبي سفيان، فكان أوَّل الأمراء الذين خرجوا إلى الشام. وكان سبب عزل أبي بكر خالد بن سعيد، فيما ذكر ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر أن خالد بن سعيد حين قدم من اليمن بعد وفاة رسول الله ﷺ، تَرَبَّص ببيعته شهرين يقول: قد أَمَرَنِي رسول الله ﷺ لم يعزلني حتَّى قبضه الله؛ وقد لقي عليَّ بن أبي طالب وعثمان بن عفَّان فقال: يا بني عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أَمركم يليه غيركم! فأَمَّا أبوبكر فلم يَخْفَلْهَا عليه وأَمَّا عمر فاضطَّعْنَهَا عليه ثمَّ بعث أبوبكر الجنود إلى الشام وكان أوَّل مَنْ استعمل على رُبْع منها خالد بن سعيد فأخذ عمر يقول: أَتَوَمَّرُه وقد صنع ما صنع وقال ما قال فلم يزل بأبي بكر حتَّى عزله وأَمَرَ يزيد بن أبي سفيان (٢).
وخالد قدسَ الإسلام أسلم بمكَّة من كبار الصحابة بالإسلام. وقد ذكر

(١) تاريخ الطبري ٢: ٥٨٦.

(٢) نفسه ٢: ٥٨٦.

أبو اليقظان وغيره أنّ خالد بن سعيد أسلم قبل أبي بكر، وذلك لرؤيا رآها ^(١). وكان يكتب لرسول الله ﷺ في حاجاته ^(٢)...، وقد بعثه رسول الله ﷺ عاملاً على صدقات اليمن، وأخاه عمراً على تيماء وخيبر، وأخاهما أبناً على البحرين، فلما توفي رسول الله رجعوا عن أعمالهم فقال لهم أبو بكر: ما لكم رجعتُمْ؟ فقال خالد: لا نعمل لأحدٍ بعد رسول الله ﷺ، فخرجوا إلى الشام فقتلوا جميعاً ^(٣).

وقد امتنع خالد بن سعيد وأخواه عمرو وأبان عن بيعة أبي بكر، إذ كان هواهم في بني هاشم وكانوا يرون أنّ الإمامة لعليّ بن أبي طالب، ولم يبايعوا أبا بكر حتّى بايعه بنو هاشم، وهذا الذي أوغر قلب عمر بن الخطّاب عليهم...

وخالد بن سعيد أحد الاثني عشر الذين أنكروا على أبي بكر وحاجّوه في يوم الجمعة وهو على المنبر، وهم: سلمان الفارسيّ، وأبوذرّ الغفاريّ، والمقداد الكنديّ، وعمرّ بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذوالشهادتين، وأبو أيّوب الأنصاريّ...

لم تهدّد استرجاع الراية من عزيمة خالد وإيمانه وجهاده؛ فلما بعث أبو بكر الجنود إلى الشام عقد لخالد وجاء باللواء إلى بيته! فكلم عمر أبا بكر وقال: أتويّ خالداً وهو القائل ما قال؟! فلم يزل به حتّى أرسل أبا أروى الدوسيّ فقال:

-
- (١) كتاب الثقات، لابن حبان ١: ٣٠١، والمستدرک علی الصحیحین ٣: ٢٧٨ / ٥٠٨٦، والإصابة ١: ٤٠٦، والموفقیات، للزبير بن بكار: ٥٩٤ وقال: هو وأخوه عمرو أول من أسلم من قريش وأسلمت مع خالد زوجته.
- (٢) الوزراء والكتاب، للجهشياري ١٢.
- (٣) الموفقیات: ٣٣٣، والمستدرک علی الصحیحین ٣: ٢٧٨، والاستيعاب ١: ٤٠١، وأسد الغابة ٢: ٢٧٨.

إنّ خليفة رسول الله يقول لك: اردد إلينا لواءنا، فأخرجه فدفعه إليه وقال: والله ما سرتنا ولايتكم ولا ساءنا عزلكم وإنّ المليم لغيرك. فما هو إلّا قليل حتّى دخل أبوبكر على خالد يعتذر إليه ويعزم عليه إلّا يذكر عمر بحرف! ^(١)

ثمّ إنّ أبابكر كتب إلى خالد بن الوليد في العراق أن يعجل في مدّ جيوش الشام، وقد عارضه عمر وقبح فعلته بمالك بن نؤيرة وهو مسلم إذ قتله خالد ودخل بزوجه ليلة مقتله! فقال أبوبكر: إنّ خالدًا تأوّل فأخطأ! فقال: اعزله، قال: ما كنتُ أغمدُ سيفاً سلّه الله عليهم!! ^(٢)

ومن مفارقات خالد وهو يخوض حروب الشام ولما بلغه وفاة أبي بكر واستخلاف ابن خاله عمر، قال: الحمد لله الذي قضى على أبي بكر! الموت وكان أحبّ إليّ من عمر، والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض إليّ من أبي بكر، ثمّ ألزمني حُبّه! ^(٣)

خرج أبوبكر يشيّع قوّاده الذين ذكرنا وفيهم يزيد بن أبي سفيان ويحمل رايته أخوه معاوية بن أبي سفيان.

وقعة أجنادين

كانت وقعة أجنادين - ويقال بكسر الدال - سنة ثلاث عشرة، ذلك أن أبا

(١) طبقات ابن سعد ٤: ٩٧، والمستدرك على الصحيحين ٣: ٢٧٩، ومختصر تاريخ دمشق ٧: ٣٤٨.

(٢) تاريخ ابن الوردي ١: ١٣٦.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٥٩٨.

بكر بعث عمرو بن العاص قبّل فلسطين؛ ويزيد بن أبي سفيان، وأبا عبيدة بن الجراح، وشُرْحِبِيل بن حسنة وأمرهم أن يسلكوا على البلقاء، وهي كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى. وكتب أبوبكر إلى خالد بن الوليد، فسار إلى الشام فأغار على غَسَّان بِمَرَج رَاهِط فقتل وسبي. ثم ساروا جميعاً قبّل فلسطين، فالتقوا بأجنادين بين الرملة وبين بيت جبريل، والأمراء كلّ على جنده، ويقال: إنّ عمرو بن العاص كان عليهم جميعاً. وكان الروم زهاء مائة ألف فهُزِمُوا شرّ هزيمة وقتل قائدهم. وبعدها تُوفّي أبوبكر ^(١).

وقعة مرج الصفر

بعد وقعة أجنادين بعشرين يوماً، كانت وقعة مرج الصفر. ومرج الصفر خارج دمشق في جنوبها قرب قرية شقحب، حيث اجتمعت فيها الروم اجتماعاً عظيماً وأمدّهم هرقل بمَدَدٍ بعد مدد، فلقّاهم المسلمون وهم متوجّهون إلى دمشق، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتّى جرت الدماء وطحنت بهم الطاحونة، وخرج من المسلمين زهاء أربعة آلاف. وقتل خالد بن سعيد بن العاص، وقاتلت يومئذ امرأة

(١) تاريخ خليفة ٧٩ - ٨٠، وفتوح البلدان ١٢٠ - ١٢١، والفتوح ١: ١٣٢ - ١٤٧، ومختصر تاريخ دمشق ١: ٢٠١.

خالد فقتلت سبعة نفر. وولّت الروم منهزمين إلى دمشق وبيت المقدس ^(١).

يوم فِخْل

كانت وقعة فِخْل من الأردنّ، لليلتين بقيتا من ذي الحِجّة بعد خلافة عمر بخمسة أشهر ^(٢). وأمير الناس يومئذ أبو عبيدة عارم بن الجراح، وكان عمر قد كتب إليه بولايته الشام وإمرة الأمراء وعزل خالد بن الوليد عن ذلك، ويقال: إنّ ولايته أتته في الحرب والناس محاصرون دمشق فكتّمها خالداً أَيْاماً؛ لأنّ خالداً كان أمير النَّاس في الحرب ... وكان سبب هذه الوقعة أنّ هِرْقُل لما صار إلى أنطاكية استنفر الرّوم (وأهل الجزيرة) وبعث إليهم رجلاً من خاصّته وثقاته في نفسه فلقوا المسلمين بفِخْل من الأردنّ، فقاتلوهم أشدّ القتال وأبرحه حتّى أظهرهم الله عليهم، وقُتل بطريقهم، وزهاء عشرة آلاف معه، وتفرّق الباقون في مدن الشّام ولحق بعضهم بهِرْقُل. وتخصّن أهل (فِخْل)، فحصرهم المسلمون حتّى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمنوهم على أنفسهم وأموالهم وأن لا تُهدم حيطانهم. وتولّى عقْد ذلك أبو عبيدة بن الجراح، ويقال:

(١) تاريخ خليفة ٨٠، والفتوح ١: ١٥٠، وفتوح البلدان ١٢٥، وتاريخ الطبري ٣: ٩٦، ومختصر تاريخ دمشق ١: ٢٠١. وقد خالف البلاذريّ في تاريخ الوقعة فقال: أوّل المحرّم سنة أربع عشرة. أمّا الطبريّ فذكرها في أحداث سنة خمس عشرة.

(٢) فتوح البلدان ١٢٢.

تولاه شُرْحَبِيل بن حسنة ^(١).

وقد ذكرنا أنَّ الوقعة كانت سنة ثلاث عشرة، إلا أنَّ هناك رواية عن ابن الكلبي تقول أنَّ وقعة «فِخْل» كانت يوم السبت لثمانٍ بقين من ذي الحجة سنة أربع عشرة ^(٢). وعن ابن إسحاق قال: صالح أبو عبيدة في رجب. ^(٣)

وقعة اليرموك

كانت وقعة اليرموك من أشدِّ الوقائع التي شهدتها الشام. كانت الوقعة يوم الإثنين لخمس ماضين من رجب سنة خمس عشرة. واليرموك نهر من أنهار الأردن. بعد استيلاء المسلمين على مدينة حمص، نزل بملك الروم همّ شديد، فجمع للمسلمين جمعاً لم يُر مثله، فقد قيل إنَّ عدد الروم ومن والاهم كانوا ثلاثمائة ألف، وقيل أربعمائة ألف فارس وراجل وأما المسلمون فلم يزد عددهم على خمسة وأربعين ألفاً. ونزل الروم على نهر اليرموك وعليهم وزير الملك يقال له «ماهان» من أهل فارس تنصّر وانضمَّ إلى الروم. وكان مع الروم جبلة بن الأئهم الغساني في مستعرة الشام من حنم وجندام وغيرهم. ولما بلغ المسلمين ما جمع لهم هرقل من الجموع ردّوا على أهل حمص ما

(١) تاريخ خليفة ٨٠، وفتوح البلدان ١٢٢، والفتوح ١: ١٨٩ - ١٩٥.

(٢) تاريخ خليفة ٨٥.

(٣) نفسه.

كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا: قد شغلنا عن نُصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص: لولا يُتُّكم وعدُّكم أحبُّ إلينا ممَّا كنَّا فيه من الظلم والعُشْم، ولنُدفعنَّ جند هِرَقْل مع عاملكم. ونهض اليهود، فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هِرَقْل مدينة حمص إلاَّ أن تُغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها. وعيَّ الجمعان صفوفهما، وجعل أبو عبيدة النساء ومعهن الأطفال والصغار على التلِّ وقال لهنَّ: خُذن بأيديكنَّ أعمدة السيوف وأعمدة البيوت والفساطيط، واجمعن الحجارة بين أيديكنَّ، وحَرِّضن المؤمنين على قتال المشركين. ووقف أبو عبيدة في القلب تحت رايته، وكان على الدراجة شُرحبيل بن حَسَنَة، وعلى الميمنة يزيد بن أبي سفيان، وعلى جناح الميسرة قيس بن هبيرة المراديّ. ثمَّ خرج معاذ بن جبلة ففعل مثله. وكان قد انفرد من عظماء الرُّوم وفرسانهم ثلاثون ألفاً، حفروا لهم حفائر ونزلوا فيها وشدّوا خيلهم بالسلاسل، واقترن كلَّ عشرة في سلسلة وحلفوا بعيسى ومريم والصليب ان لا ينهزموا أو يقتلوا العرب عن آخرهم.

والتحم الجيشان في معركة قلَّ نظيرها، فقتل «جرجيس» أمير من أمراء الرُّوم، قتله أبو عبيدة بن الجراح. فلمَّا رأى «ماهان» أنَّ جرجيس قد قُتل، برز بنفسه فقتل اثنين من المسلمين ثمَّ برز إليه مالك بن الحارث النَّخعيّ فضربه فلمَّا أحسَّ بحرارة الضربة ولم تكن قاتلة ولَّى منهزماً. ثمَّ حمل الأمراء بمنَّ معهم بالتكبير والتهليل والنكشفت الروم منهزمة وأخذهم السيف من ورائهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ووقع في الأسر أعداد هائلة وغرق منهم في الماء أمم لا تُحصى

وغنم المسلمون غنائم كثيرة. فلما أصبحوا لم يجدوا من الروم أحداً، وأراد أبو عبيدة أن يُحصي عدد القتلى من الروم فلم يقدر أن يحصي ذلك إلا بالقصب، فجعل على كل ألف قصبه، وعدّ القصب فكان عدد القتلى مائة ألف وخمسة آلاف، وأسروا أربعين ألفاً. وقُتل من المسلمين أربعة آلاف ونيف. وانبث المسلمون في الجبال والأودية يطلبون الروم حتى أدركوا ماهان في أربعين ألف فارس متوجّهاً إلى حمص، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وقتلوا ماهان.

ولما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدوّ، يعني أرض الشام لكثرة مراعيها ^(١).

فتح دمشق

سنة أربع عشرة، سار أبو عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد فأحاطوا بدمشق. قال خليفة بسنده: صالحهم أبو عبيدة على أنصاف كنائسهم ومنازلهم وعلى رؤوسهم على أن لا يُمنعوا من أعيادهم ولا يُهدم شيء من كنائسهم. صالح على ذلك أهل المدينة، وأخذ سائر الأرض عنوة ^(٢).

(١) تاريخ خليفة ٨٩، وفتوح البلدان: ١٤٠ - ١٤٣، والفتوح ١: ٢١٨ - ٢٧١، وتاريخ الطبري ٥٩٠ - ٦٢٨،

ومختصر تاريخ دمشق ١: ٢١٢ - ٢٢٣.

(٢) تاريخ خليفة ٨٤.

قال: قال ابن الكلبي: كان الصلح يوم الأحد للنصف من رجب سنة أربع عشرة، صالحهم أبو عبيدة^(١).

وراح أبو عبيدة يثّ البعوث لفتح الشّامات، فافتتح شرحبيل بن حسنة الأردن كلّها عنوةً ما خلا طبريّة فإنّ أهلها صالحوه وذلك بأمر أبي عبيدة، وذلك سنة خمس عشرة. وفيها بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد فغلب على أرض البقاع وصالحه أهل بعلبك وكتب لهم كتاباً. صالحهم على أنصاف منازلهم وكنائسهم ووضع الخراج.^(٢)

ثمّ خرج أبو عبيدة يريد حمص، وقدم خالداً أمامه فقاتلوه قتالاً شديداً، ثمّ هُزمت الرّوم حتّى دخلوا مدينتهم، فحصرهم فسألوه الصلح على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وعلى أرض حمص على مائة ألف دينار وسبعين ألف دينار.

وحدّثني عبد الله بن مغيرة عن أبيه قال: صالحهم أبو عبيدة على المدينة على ما صالحهم عليه أهل دمشق وأخذ سائر مدائنهم عنوةً^(٣).

وبعث أبو عبيدة بعد حمص خالد بن الوليد إلى «قنّسرين» فزحف إليه الرّوم وعليهم «ميناس» وهو رأس الرّوم وأعظمهم بعد هرقل، فالتقوا بالحاضر^(٤)، فقتل ميناس ومن معه مقتلة عظيمة لم يُقتلوا مثلها. فأما الرّوم فماتوا على دمه حتّى لم

(١) نفسه ٨٥، ومختصر تاريخ دمشق ١: ٢٠٢.

(٢) تاريخ خليفة ٨٨، ومختصر تاريخ دمشق ١: ٢١١.

(٣) تاريخ خليفة، مصدر سابق، وتاريخ الطبري ٣: ٩٨.

(٤) الحاضر: قريب من حلب يجمع أصنافاً من العرب. (معجم البلدان ٢: ٢٠٦).

يقيق منهم أأء! وأما أهل الءاضر فأرسلوا إلى ءالء فعقء لهم على إءراب المءىنة فأءربها^(١). وءكر ءلiffe أنّ أبا عبيءة بعء عمرو بن العاصي بعء فراغه من اليرموك إلى قنّسرين، فصالح أهل ءلب ومنيء وأنطاكية، وافتءء سائر أرض قنّسرين عنوءً. وءلك سنة ست عشرة^(٢).

وفي سنة ثمان عشرة وءه أبو عبيءة البعوء إلى الءزيرة، ففءءء ءرّان ونصيبين وطوائف الءزيرة والرّها وميساط...؛ وقء ءكرنا تفصيل ءلك في أوّل الفصل هذا لانتساب ابن تيميه إلى تلك الءبار، ومن ثمّ إلى ءرّان، وقاءنا البءء إلى تتبع موطن نشأته فكان بعء ءرّان: الشام؛ وئمّة موطن لابء من الءءء عنه لأنّ ابن تيميه أمضى فيه بعضاً من عمره وتأءر بأءءائه، ءلك هو مصر.

فتح مصر

سنة عشرين كءب عمر إلى عمرو بن العاصي أن سر إلى مصر، فسار وبعء عمر الزبير بن العوّام وبسر بن أبي أرطاة وعُمير الءمءحي مءءاً لعمرو، ففءءوا مصر والإسكندرية عنوءً بعء قتال شءيء^(٣).

(١) الطبري ٣: ٩٨، وءاريخ ابن الورءي ١: ١٣٧، قالا: سنة ءمس عشرة. وءاريخ ءلiffe ١: ١٣٧ وقال: سنة ست عشرة.

(٢) ءاريخ ءلiffe ٩٣.

(٣) ءاريخ ءلiffe ١٠٠ - ١٠١، وفتوح البلدان ٢١٤ - ٢٢٥، وءاريخ الطبري ٣: ١٩٥ - ١٩٩، وءاريخ ابن الورءي ١: ١٤١.

ولاية عمر: توفي عمر بن الخطاب وواليه على مصر هو عمرو بن العاص وعلى الشام جميعاً معاوية بن أبي سفيان!؛ وكان على الجزيرة عياض بن غنم الذي بعثه أبو عبيدة ففتحها، على ما ذكرنا، فلما توفي صارت الجزيرة تابعة لمعاوية وخلفه ^(١) ... ولما انتهى الأمر إلى عثمان بن عفان جعل ولاية الأمصار الإسلامية جميعاً من بني أمية وآل مروان مما أدى إلى ثورة الأقاليم الإسلامية انتهت بقتل عثمان.

الخليفة يعزي أبا سفيان

ذكر البلاذري: «ولما توفي يزيد بن أبي سفيان كتب عمر إلى معاوية بتوليته ما كان يتولاه فشكر أبوسفيان ذلك له وقال: وصلّك يا أمير المؤمنين رحم!» ^(٢). وفي تاريخ ابن عساکر: «وعزّي عمر أبا سفيان بابنه يزيد، فقال له أبوسفيان: من جعلت على عمله؟ قال: جعلت أخاه معاوية؛ وابنك مصلحان، ولا يحلّ لنا أن ننزع مصلحاً!» ^(٣). ويبدو أن الخليفة كان مفتتناً بمعاوية: «كان عمر بن الخطاب إذا رأى معاوية قال: هذا كسرى العرب» ^(٤).

(١) تاريخ خليفة ١١٢، وتاريخ الطبري ٣: ٣٠٣، ومختصر تاريخ دمشق ٢٥: ١٧.

(٢) فتوح البلدان ١٤٦.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ١٨.

(٤) أنساب الأشراف ٥: ١٥٥، ومختصر تاريخ دمشق ٢٥: ١٩.

وكان عمر قول: تعجبون من دهاء هِرَقْل وكسرى وتَدْعُونَ معاوية! ^(١).

ولأجل العلاقة الخاصة بين الخليفة والبيت الأمويّ وتعيينه ليزيد بن أبي سفيان أرقى المناصب وهي ولاية عموم الشّام وإلحاق الجزيرة بها، وتعزيتة أبا سفيان الذي ما صحّ منه إسلام! بوفاة ابنه يزيد، وتعويضه بأدهى خلف لسلف مع كَيْل المديح له وما أعقبه من سيرة عثمان بن عفّان على خطى أسلافه وتعدي الحدود، فما من قطر إلّا واليه أمويّ مرواني طريد...، ممّا طبع تلك الأقطار البعيدة عن نور الرسالة ووجود الأمثال من الصحابة، طبعها بطابع الهوى الأمويّ الذي عمل على طرح كتاب الله تعالى للبيع في الأسواق! ومنع من تدوين الحديث بأمرٍ من معاوية، فخضع لفتوى السلطان الفاسق حتّى أنّ كثيراً منهم لا يعرف من هو عليّ بن أبي طالب!

الخليفة يتوعّد الشورى بمعاوية:

ولمعرفة عمر بحقيقة معاوية وأهل الشّام فإنّه كان يتهدّد الآخرين بهم قال محدّث الشّام ابن عساكر:

وعن عمر قال ك إِيّاكم والفرقة بعدي، فإنّ فعلتم فاعلموا أنّ معاوية بالشّام وستعلمون إذا وُكِّلتم إلى رأيكم كيف يستبرها دونكم ^(٢).

وبأخذنا العجب! فالخليفة يتوعّد الصحابة في مدينة رسول الله ﷺ بما

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ١٩.

(٢) مختصر تاريخ دمشق: ٢٥. ويستبرها: يتفرّد بها.

يذكّرنا بالذي كان في السقيفة ولكن هذه المرة قد أناب مكانه معاوية الطليق اللصيق وأعلى كعبه على كبار الصحابة ليتفرد بالخلافة؛ وهذا هو التمهيد والتمكين لنفوذ حكم بني أمية، فإذا جاء عثمان بسط سلطاهم في كل مكان!

ومن قول عمر لأهل الشورى: إن اختلفتم دخل عليكم معاوية بن أبي سفيان من الشام، وبعده عبد الله بن أبي ربيعة من اليمن، فلا يريان لكم فضلاً إلاّ سابقتمكم^(١).

عجب لهذا المنطق! متى صار الطليق ابن الطليق المتقلب في المثالب وممن سنّ لذوي العاهات مبدأهم، فكان ابن تميمه فاردهم! وابن عبد الوهاب حاديهم والشيطان سائقهم!!

أقول: متى صار ابن هند؛ وهذا ما يُعرف به أكثر ممّا يُعرف بابن أبي سفيان، شعراً وأدباً، على ألسنة محبيه ومناوئيه، بل وعلى لسانه هو وسنورد الشواهد المئات على ذلك مع قصّة فيه؛ متى صار الذي أدخل الله تعالى الإسلام بيت أبي سفيان رغم أنفه مع الفتح المبين لمكة وما صحّ لأبي سفيان وبقي ملعوناً وبنيه على لسان رسول الله ﷺ، وإن صحّ في حقّ معاوية من شيء من الفضائل، فضيلة واحدة هي قول النبي لمعاوية: «لا أشبع الله بطنه»^(٢)، سلطان يخيف به الخليفة

(١) نفسه. وعبد بن أبي ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي، عامل عمر على اليمن. (تاريخ خليفة ٥٤، وطبقاته ١١٠).

(٢) الاستيعاب ٣: ٤٠١، وأسد الغابة ٥: ٢١٠، وتذكرة الخواص ١٨٢، وأنساب الأشراف ٥: ١٣٣ - ١٣٤، ووفيات الأعيان ١: ٥٩ (ترجمة النسائي).

الصحابة الأوائل ومنهم المبشرة بالجنة؟ وهل سلطانه مستمد من دار الخلافة الشرعية ومركزها مدينة رسول الله ﷺ، إن شاء الخليفة فيها أقره وإن شاء بدّله؟!

وفي أهل الشورى عليّ بن أبي طالب أخو رسول الله ونفسه في آية المباهلة، وأبو سبطيه الحسن والحسين أبناء رسول الله، أيضاً في آية المباهلة، وزوج بضعته التي هي نساء النبي؛ كذلك في آية المباهلة، وهم مطهرون بصريح القرآن الكريم، وعليّ من النبي بمنزلة هارون من موسى؛ وهارون أخو موسى، وعليّ أخو رسول الله بالمؤاخاة التي صنعها النبي، وعليّ هتف الوحي باسمه وبسالته إذ جئ غيرهِ ففرّ من ملاقاته العدو فيما تقدّم أبو الحسنين يفلق الهام ويشطر الأبدان، ويوم الأحزاب تُحّ صوت ابن عبد ودّ ولم يكن مجاباً إلاّ عليّ، وهل غير عليّ لمثل ابن عبد ودّ! فلم يمهله فارس التقوى سليل الشجرة الهاشميّة المباركة أن ضربه ضربةً فلقت البيضة والمغفر وألقت نصفه جنبيه فهو ميزان عدلٍ لا عيّن فيه.

ولم يكن غير عليّ يصلح لتبليغ براءة، ولم يفرّ يوم خيبر مثلما فعل غيره إذ فتروا يُجَبّن أحدهم الآخر! فقال رسول الله ﷺ: «لأعطينّ الرّاية غداً رجلاً يُحِبُّ الله ورسوله ويُحِبُّه الله ورسوله كراؤ غير فزار». وكان أمير المؤمنين عليّ أزمّد العين فلما كان الغد دعا به رسول الله فوضع من ريقه على عينه فشفاها، ثمّ أعطاه الرّاية فأخذها أبو الحسنين ومضى يُهرول حتّى ركزها في أطم من أطام اليهود فاطّلع يهوديّ من فوق الحصن وسأله من أنت؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب، فقال اليهوديّ: علّوتم وربّ الكعبة! ثمّ خرج إليه فارس خيبر: مرّحب،

فضربه أبو الحسين ضربةً قدّدت البيضة والمغفر وعضت بين الأضراس وهوى مرحب مبيتاً ثم إنَّ عليّاً عاجل باب حصنٍ من حصونهم حتّى قلعه وأتخذة ترساً يدافع به عن نفسه ثم جعله جسراً إذ وضعه على ظهره وعبر عليه المسلمون فكان الفتح على يديه، وليس من مفخرة تبرّ فداءً عليّ لرسول الله إذ بات على فراشه متلفعاً بغطائه ليلة هجرته ﷺ وقد أحاطت قريش بدار النبي للفتك به، ولقد فرض الله تعالى ولاية عليّ وجعلها متفرعةً من ولايته سبحانه وتعالى وولاية رسوله ﷺ [المائدة/ ٥٦] وقد أخذ له النبي البيعة يوم غدیر خمّ، في حجة الوداع وعمر حاضر فيها. وأما السبق إلى الإسلام؛ فعمر هو خامس وأربعون مّم دخل الإسلام وعليّ أول من أسلم، والعجب من عمر يتوعد أهل الشورى بمعاوية الذي قال فيه النبي إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه، وأنّ معاوية لا يرى لهم إلاّ السابقة وعدا ذلك فلا فضيلة لهم فله أن يفعل بهم الأفاعيل عبر جيوش أهل الشام!! ولا ندري حقاً صدر هذا عن عمر، فيعترض عليه حينها أنّه وطأ الأمر لمعاوية وناصب عليّاً وحسده فأنكر حقل فضائله العلوية؟! وهل الشجرة الملعونة في القرآن ابتداءً من الجذر «أميّة» تصغير «أمة» القبطي المتبنّي اللصيق مروراً بزنادقة قُريش - مجازاً، وإلاّ فهم أقباط - وفساقهم وزناهم من ذوي الرايات رجالاً ونساءً، والمستهزئين برسول الله والمجلبين عليه الحرب وقادة الأحزاب؛ وجدّ الأسرة صخر والسهل خير من الصخر، وهو ابن حرب والسلم أفضل من الحرب، جدّته حمّامة، اسمٌ خلّو لعاهرٍ من ذوات الرايات، وصخر نكح صلتة الحَدّ (هَند) فأنجبت معاوية وفيه قصّة ولذلك لما جاءت آكلة

الأكباد «هند» تباع النبي ﷺ، قال فيما شرط على قبول بيعتهن: على أن لا يزينا، فقالت هند: وهل تزني الحرّة؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ونظر إلى عمر؛ وفي جروه يزيد، بل للناقص قصّة كذلك إذ لم يجدها بكرة كما ذكرت بعض المصادر...، بيت تزكم جيفته الأنوف، كفر صريح ونفاق عجيب وزندقة معرقة وضياع أنساب وتبني أبناء الزنا وعدوان على بيت الله الحرام وهتك حرمة وهدم الكعبة وحرقتها وإباحة المدينة المنورة ثلاثة أيام قتلاً ذريعاً لم ينج منه حتّى طفل رضيع أخذه أحد الأبدال - كذا - جنديّ شاميّ من حضن أمّه فضرب به الحائط فتناثر دماغه، وحبلت ألف امرأة من غير زوج... كلّ ذلك وغيره ممّا سنذكره في محلّه واحدة من مفاصد ناقص بن معاوية الحميمير ملاعب القردة الجامع بين الأخنتين، حكم ثلاث سنوات في الأولى قتل سيّد شباب أهل الجنّة سبط رسول الله ﷺ، وأهل بيته وصحبه الكرام، وفي الثانية حرق الكعبة، وفي الثالثة استباح المدينة على ما أشرنا إليه وما فعلوا، وهي وقعة الحرّة الدامية...

ولم يسلم من الشجرة الملعونة إلّا خالد بن سعيد بن العاص وأخواه، عملوا لرسول الله ﷺ، فلمّا توفّي وكان الذي كان من أمر السقيفة، رجعوا وامتنعوا من بيعة أبي بكر والعمل له وكانوا يرون أنّ الخليفة هو الذي أوصى به النبيّ وهو عليّ، فكانوا في جملة المعارضين لأبي بكر، ولم يبايعوا حتّى بايع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وممن لم يؤثّر به عامل الوراثه لما أراد الله تعالى به من الخير: عمر بن عبد العزيز الذي أبطل السنّة المعاوية (التّيمّاتية) إذ أصدر معاوية أيّام استيلائه على الحكم أمراً أن يُخطب بعد الصلاة يُشتم في هذه الخطبة أمير المؤمنين نفس

رسول الله عليّ بن أبي طالب وتُعلن البراءة منه! والبراءة منه براءة من رسول الله ومن الإسلام الذي جاء به!!

وعمّم معاوية إلى الأقطار للعمل بذلك، فما زالت تلك البدعة يُعمل بها وأنها متممة للصلاة! حتّى جاء الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز فأزالها؛ إلاّ حرّان فقد ضجّ أهلها متمسّكين بلعن أبي تُراب! ^(١)

في خضمّ أحداث الشام، كان لا بدّ لمدن الجزيرة ومنها الرّها وحرّان أن تتأثّر بتلك الأحداث وتنطبع بطابعها فيغلب عليها الهوى الأمويّ. وقد علمنا أنّ فتوحها كان أيّام عمر، وأنّ جاراتها الشامات قد ولّاهنّ عمر معاوية، وطالت حاكميّة معاوية حتّى بلغت عشرين سنة إلاّ أشهراً، وامتدّ الحكم الأمويّ حتّى سنة مائة واثنين وثلاثين، فقد ظهرت قوّة جديدة تلك هي دعوة بني العبّاس التي أسقطت الكيان الأمويّ... ورغم ذلك فقد استمرّ هوى الجزيرة والشام أمويّاً نتيجةً للنشأة والتربية التي اتّبعها الأمويّون، مضافاً إلى التقاء الطبائع النفسانيّة للأمويّين وسكّان تلك المناطق.

ذكر المسعودي:

«أنّ النسل لا بدّ له من تخصيص قوّته بشيء يميّزه ويبينه من سواه، فصار الجفاء والغلظ في الرّوم وأصحاب الجبال، والأكثر من أهل الشام، وأوباش مصر، واللّؤم في الخزر وأهل حرّان من بلاد ديار بكر...، وهذا الذي وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة وخواص تأثير الأشخاص الغلوّية والأجسام

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٧: ١٢٢.

السماءية...»^(١).

السياسة الأموية وآثارها الاجتماعية في الشام

استنّ معاوية ابن هند سنّة طيلة حاكميّة الطويلة، وامثلها الحاكمون من آل خُزْب وآل مروان، تركت آثاراً سيّئة للغاية في المجتمع الشاميّ أبعدته إلى حدّ كبير عن الأصالة الإسلامية. ولقد أنبأ الصادق المسدّد بالوحي؛ رسول الله ﷺ بما سيكون من معاوية: عن الحكم بن عُمير الثُمالي - وكانت أمّه مريم بنت أبي سفيان بن حرب: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لأصحابه ذات يوم: يا أبابكر كيف بك إذا وليت؟، قال: لا يكون ذاك أبداً. قال: فأنت يا عمر؟، قال: حجراً إذا لقيتُ شراً، قال: فأنت يا عثمان؟، قال: آكلٌ وأُطعم وأقسم ولا أظلم. قال: فأنت يا عليّ؟ قال: أقسم التّمرة وأحمي الجُمرة^(٢)، وأكل القوت. قال: أمّا إنكم سيّلي، وسيرى الله عملكم. قال: فأنت يا معاوية؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: أنت رأس الخطم، ومفتاح العِظم، يهرم فيها الكبير، ويرو فيها الصغير، وتتخذ السيّئة حسنة، والحسنة قبيحة؛ أجلك يسير وجُرمك عظيم إلا أن يرحمك ربّك عزّوجلّ!^(٣) فرسول الله ﷺ أنبأ بما سيكون من فتنة معاوية وفساده وجُرمه العظيم على

(١) مروج الذهب، للمسعودي ٢: ١٤٧.

(٢) الجمرة: القبيلة. اللسان (جر).

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٢٦ - ٢٧.

رؤوس أبي بكر وعمر و عثمان وعلي؛ ومع ذلك وجدنا الثلاثة يعتمدون معاوية بين مُمَهِّدٍ، ومرسِّخٍ موسَّعٍ، وبين مُطْلِقٍ ليدِهِ مِمَّا منحه فُرْصَة الخروج على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فكانت صفّين وما تبع صفّين ...

وذكر البلاذري، قال: حدّثني إسحاق وبكر بن الهيثم قالا: حدّثنا عبد الرزّاق بن همام أنبأنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنت عند النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: «يطلع عليكم من هذا الفَجّ رجلٌ يموت على غير ملّتي، قال: وكنت تركتُ أبي قد وُضِعَ له وُضوءٌ، فكنتُ كحابس البُؤل مخافة أن يجيء، قال: فطلع معاوية فقال النبيّ: هو هذا» ^(١).

قال: وحدّثني عبد الله بن صالح حدّثني يحيى بن آدم عن شريك عن ليث عن طاووس عن عبد الله بن عمرو قال: كنت جالساً عند النبيّ صلّى الله عليه وآله فقال: «يطلع عليكم من هذا الفَجّ رجلٌ يموت يوم يموت على غير ملّتي، قال: وكنت تركتُ أبي يلبس ثيابه فحشيت أن يطلع، فطلع معاوية» ^(٢). وقطعاً لفتنة معاوية، فقد منع صلّى الله عليه وآله أن يرقى منبره فإذا فعلَ فعلى المؤمنين إزاحته بالسيف، فلمّا لم يفعلوا استفحل أمره وطالت محنته وعمّتهم فتنته.

البلاذري: حدّثنا يوسف بن موسى وأبو موسى إسحاق الفَرُوي قالا: حدّثنا جرير بن عبد الحميد حدّثنا إسماعيل والأعمش عن الحسن، قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه»؛ فتركوا أمره فلم يُفْلحوا ولم

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٣٤.

(٢) نفسه.

ينجحوا^(١).

ولعلهم يأتون بالمعاذير: أنّ معاوية مُعتمدُ العاصمة الإسلامية؛ ولكن هذا القول مردود لأنّ أمر رسول الله ﷺ واجب إنفاذه أولاً، وما أحدثه معاوية ممّا سنقف عليه وقد خالف فيه الشريعة وصريح بزندقته! وهتك حرمة مَنْ قُلامه ظفره أرفع شأناً منه. ثانياً؛ وتصريح العاصمة بأنّ الأمر هذا لا يكون للطُّقاء وأبنائهم، ومع ذلك سلّطوا الطُّلقاء ورفعوا من شأنهم وكانوا بهم مفتونين، فلمّا أبطأ الناس عن إنفاذ حكم رسول الله ﷺ، تفرّد معاوية ومَنْ بعده بالشّام فكانت لها هويّتها الخاصّة وانماث الإيمان فيها مثلما ينماث الملح في الماء.

عن أبي سعيد الخدريّ قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم معاوية على هذه الأعواد فاقتلوه» فقام إليه رجل من الأنصار وهو يخطب بالسيف، فقال أبو سعيد: ما تصنع؟ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا رأيتم معاوية يخطب على الأعواد فاقتلوه». فقال أبو سعيد: إنّنا قد سمعنا ما سمعت ولكنّا نكره أن يُسلّ السيف على عهد عمر حتّى نستأمره: فكتبوا إلى عمر في ذلك، فجاء موته قبل أن يجيء جوابه^(٢).

إنّ كلام أبي سعيد مبنيّ على ما كان يسمعه من عمر في معاوية: هذا كسرى العرب، وهرقل العرب. وإطلاق يده على الشّام وتهدّده أصحاب الشورى بمعاوية...، فهو يخاف مغبّة قتل معاوية لذلك.

(١) نفسه ١٣٦.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٤٦.

إنَّ العجب ليأخذنا من عمر وقد سمع تلك الأحاديث، وسمع ما نقله البلاذري عن خَلَف بن هشام البَرَّاز حدَّثنا أبو عَوانة عن الأعمش عن سالم بن أبي الجُعْد قال، قال رسول الله ﷺ: «معاوية في تابوت مقفل عليه في جهنم»^(١).

وأيضاً خَلَف حدَّثنا عبد الوارث بن سعيد بن جُمهان عن سَفينة مولى أُمِّ سَلَمَة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كان جالساً فمرَّ أبوسفيان على بغير ومعه معاوية وأخُّ له، أحدهما يقود البعير والآخر يسوقه، فقال رسول الله ﷺ: «لعن الله الحامل والمحمول والقائد والسائق»^(٢).

قد سمع كل ذلك؛ وهو الذي يقول: هذا الأمر في أهل بدر ما بقي منهم أحد، ثمَّ في أهل أُحُد ما بقي منهم أحد، وفي كذا وفي كذا، وليس فيها لطيق ولا لولد طليق ولا لمُسلمة الفتح شيء^(٣). ثمَّ لا يجد للشَّام إلَّا القائد والسائس، متابعاً لأبي بكر الذي بعث بهما ضمن أمراء فتوح الشَّام، فلمَّا مات يزيد بن أبي سفيان أوصى إلى أخيه معاوية وأقرَّه بعد عمر ثمَّ ضمَّ إليه الشَّام جميعاً وانتزع عثمان مصر من عمرو بن العاص فضمَّها إليه على ما مرَّ بنا.

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٣٦.

(٢) نفسه.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٤٢.

معاوية يصدق بحقيقته

عن سعيد بن سويد قال: صَلَّى بنا معاوية بالنُّخَيْلَة ^(١) الجمعة في الضُّحَى، ثُمَّ خطبنا فقال: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلُّوا ولا لتحجُّوا ولا لتزكُّوا، قد عرفتُ أنَّكم تفعلون ذلك، ولكن إنَّما قاتلتكم لأنَّامر عليكم، فقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون ^(٢).

صدق معاوية! فهو لم ينصر ابن عمَّه عثمان إذ استنصره فيما نصره أبوالحسنين عليّ عليه السلام ففرَّق عنه وفود الأقاليم الَّتِي جاءت تشكو سيرة ولاته من بني أُمَيَّة، فلمَّا كانوا في منتصف الطريق إذا بغلامه فمسكوه وفتشوه فوجدوا معه كتاباً إلى عامله أن إذا وصولاً اقطع يد فلان و...، وكان بختمه، فرجعوا، وكان الذي يلعب به مروان بن الحكم وهو الذي سرق خاتمه، وذكرنا تفاصيل ذلك وأنَّ عليّاً عليه السلام أرسل الحسن والحسين عليهما السلام للدفاع عن عثمان فجرحا، وأدخل الماء عليه

...

فلمَّا قُتِل عثمان بعثت إليه أُخته أُمُّ حبيبة قميص وشعر عثمان فنشره معاوية على منبر مسجد دمشق مستغلاً غفلة وتخلَّف أهل الشام الذين حجبهم معاوية عن معرفة الحقائق وأبعدهم عن روح الإيمان، فنادى فيهم أنَّ الخليفة قُتِل مظلوماً وأنَّه ابنُ عمِّه والطَّالِب بشاره من عليّ بن أبي طالب لأنَّه هو الذي

(١) النُّخَيْلَة: موضع قرب الكوفة على سمت الشام. (معجم البلدان ٥: ٢٧٨، ومعجم ما استعجم ٤: ١٣٠٥).

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ٤٣.

قتله، فكان أهل الشام يداً واحدةً معه في ذلك.
وقوله ك ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلُّوا...؛ فهذا أمر واقع حق، وقد أفصح عن مكنونه
فصرَّح بأنَّها الإمارة، إلَّا أنَّه جعلها عطيةً من الله تعالى، وليست بمباركة العاصمة على ما رأينا.
(وذكر معاوية عند عمر بن الخطَّاب فقال: دعونا من ذم فتى قريش وابن سيدها، من يضحك
في الغضب، ولا ينال على الرضا، ومن لا يأخذ ما فوق رأسه إلَّا من تحت قدميه) ^(١).
فرسول الله ﷺ يذم معاوية وأباه، وعمر يمجدهما ويُعطيهِما الفتوة والسيادة والتعقُّف!
ولم يكن أخوه يزيد بن أبي سفيان أحد قادة فتح الشام مع أبي عُبيدة عامر ابن الجراح، طاهر
الذيل كريم السيرة وقد مرَّ بنا من الأحاديث المشتركة فيه وفي أبيه وأخيه؛ وهذا شيء من سيرته:
عن ابن عمر قال: لما عقد أبوبكر الأمراء على الشام كنت في جيش خالد ابن سعيد بن
العاص (أحد معارضي أبي بكر)، فصلَّى بنا الصبح بذي المروة ^(٢)، وهو على الجيوش كلَّها. فإِنَّا
لعنده إذ أتاه آت فقال: قدَّم يزيد بن أبي سفيان، فقال خالد بن سعيد: هذا عمل عمر بن
الخطَّاب، كلَّم أبابكر في عزلي، وولَّى يزيد بن أبي سفيان، فقال ابن عمر: فأردتُ أن أتكلَّم، ثمَّ
عزم لي على الصمت،

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٥: ١٨.

(٢) ذو المروة: قرية بوادي القرى. (معجم البلدان ٥: ١١٦).

قال: فتحولنا إلى يزيد بن أبي سفيان، وصار خالد كرجل منهم^(١).

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: شيعني أبوبكر حين بعثني إلى الشام فقال: يا يزيد، إنك رجلٌ تُحِبُّ قرابتك وإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: مَنْ وَلَّى قرابةً محاباةً، وهو يجد خيراً منه لم يجد راحة الجنة^(٢).

وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبوبكر حين بعثني إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عَسَيْتَ أَنْ تُؤْثِرَهُم بالإمرة، وذلك أكبر ما أخاف عليك، فإن رسول الله صَلَّى الله عليه (وآله) وسلم قال: «مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً، فَأَمَرَ عَلَيْهِمْ أَحداً محاباةً لهم له، فعليه لعنة الله، لا يقبل منه صَرفاً ولا عدلاً، حَتَّى يَدْخُلَهُ جَهَنَّمَ، وَمَنْ أَعْطَى رجلاً مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْئاً محاباةً له فعليه لعنة الله، أو قال: برئت منه ذمة الله، وإن الله دعا الناس إلى أَنْ يُؤْمِنُوا بالله، فيكونوا في حمى الله، فَمَنْ انتَهَكَ في حمى الله شَيْئاً فعليه لعنة الله، أو قال: برئت منه ذمة الله»^(٣).

وعن ابن عمر:

إنَّ أبابكر بعث يزيد بن أبي سفيان إلى الشام فمشى معهم نحواً من ميلين، فقليل له: يا خليفة رسول الله: لو انصرفت، فقال: لا، إني سمعتُ رسول الله صَلَّى الله عليه (وآله) وسلم يقول: «مَنْ اغْبَرَّتْ قدماه في سبيل الله حَرَّمَهُمَا الله على

(١) مختصر تاريخ دمشق ٢٧ ك ٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه. والحديث في مسند أحمد ١: ٦.

النار»^(١).

إنَّ أبا بكر يعلم سَلَفاً أنَّ يزيد ينتهك حُرمة الله بإثرته أقاربه بالإمرة؛ ومع ذلك ينتزع خالد بن سعيد عامل رسول الله ﷺ وقد توفِّي رسول الله وهو راضٍ عنه، ولم يكن حارصاً على الإمارة كما مرَّ بنا، وأمر يزيد بن أبي سفيان ومعاوية يحمل رايته. ولعلَّه معذور في ذلك! فربَّما لم يسمع الأحاديث في لعن الراكب والسائق والقائد؟ ولا الأحاديث الخاصَّة بلعن معاوية وآل الحكم؛ أو أنَّه اجتهد فاكْتَفَى بالقرآن الكريم وأما الحديث وإن كان قد رواه وحَدَّث يزيد بن أبي سفيان من مَغَبَّة نتيجته، فقد رأى في ذلك قطعاً للعدو وإقامةً للحجَّة، وربَّما لم يجد في أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ هو كفواً ليزيد وأخيه معاوية شجاعةً وفقهاً وورعاً!

وقد وقع الأمر الذي أنبأ عنه أبو بكر، ذلك أنَّ يزيد أوصى إلى أخيه معاوية فلمَّا مات يزيد صار ما بيده إلى معاوية.

قال أبو مسلم: غزا يزيد بن أبي سفيان بالناس فغنموا، فوقعت جاريه نفسة في سهم رجل، فاغتصبها يزيد، فأتى الرجل أباذر فاستعان به عليه، فقال: رُدَّ على الرجل جاريته، فتلکَّا عليه ثلاثاً فقال: لئن فعلت ذلك لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَوَّلُ مَنْ يُدَلُّ سُنَّتِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي أُمَيَّة يُقَالُ لَهُ يَزِيدٌ»، فقال له يزيد بن أبي سفيان: نشدتك بالله أنا منهم؟ قال: لا، قال: فردَّ على الرجل جاريته^(٢).

(١) نفسه. والحديث في مجمع الزوائد ٥: ٢٨٦.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٧: ٣٦٦.

هذا سلوك القائد يغتصب جارية...، وهذا يزيد الآخر الذي افتتن به ابن تميمه وتابعه خارجة
عصرنا فسمّوه أمير المؤمنين!

وذكر محدث الشام ابن عساكر، قال: رأى عمر بن الخطاب يزيد بن أبي سفيان كاشفاً عن
بطنه، فرأى جلدة رقيقة، فرفع عليه الدرة وقال: أجلده كافر؟! ^(١).

آفة معاوية تسري إلى يزيد

الروايات معقودة على أنّ النبي ﷺ قد دعا على معاوية أن لا يُشبعه الله تعالى؛ وذلك
لمناسبة، فكان معاوية يأكل ولا يشبع، وبلغ من عظم بطنه أنّه كان يُقعدّها على فخذه، ووصف
بأنّه كريم بالمال بخيل بالطعام، وله في ذلك أخبار كثيرة. ويبدو أنّ هذه الآفة سرت إلى أخيه يزيد
بعد تولّيه الإمارة، إن لم يكن قبلها! «بلغ عمر بن الخطّاب أنّ يزيد بن أبي سفيان يأكل ألواناً
من الطعام، فقال عمر لمولاه يرفأ: إذا حضر عشاؤه فأعلمني، فلمّا حضر أعلمه، فأناه عمر فسلم
عليه فقرب عشاءه، فجأؤوه بشريد بلحم، فأكل معه عمر، ثمّ قدّم شواء فبسط يزيد يده، وكفّ
عمر يده ثمّ قال: تالله يا يزيد أطعام بعد طعام؟ والذي نفس عمر بيده لئن خالفتهم سنّتهم
ليخالفنّ بكم عن طريقهم» ^(٢).

وقال المدائني: لما توفّي أبوبكر وولي عمر، ولّى يزيد بن أبي سفيان بعد وفاة أبي عبيدة بن الجراح
الشام، فقدم معاوية من الشام على عمر فدخل عليه

(١) نفسه.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٧: ٣٦٦.

معاوية فقال له عمر: متى قدمت؟ قال: الآن، وبدأت بك، قال: فأنت أبوك وأبدأ بهند، فانصرف معاوية فبدأ بهند، فقالت له: يا بُنيّ، إنّه والله قلّ ما ولدت حرّةً مثلك، وقد استنهضكم هذا الرجل فاعملوا بما يوافقه واجتنبوا ما يكرهه ^(١)...

إنّ معاوية يرى في عمر وليّ نعمته فبدأ به قبل أبيه. وقول عمر: وأبدأ بهند له شأن يذكّرنا ببيعة النساء لما جئن بياعين النبي ﷺ فاشترط عليهنّ أن لا يزينن، فاعترضته هند وقالت: وهل تزني الحرّة؟ فنظر النبي ﷺ إلى عمر وابتسم.

وأخرج ابن عساکر: لما وليّ عمر بن الخطّاب يزيد بن أبي سفيان ما ولّاه من الشام خرج إليه معاوية، فقال أبوسفيان لهند: كيف رأيت ابنك صار تابعاً لابني. فقالت: إن اضطرب جبل العرب فستعلم أين يقع ابنك ممّا يكون فيه ابني ^(٢).

وأنّ معاوية على سرّ أبيه! فقول معاوية: (ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلّوا ولا لتحجّوا ولا لتزكّوا...)، هو إنفاذ لوصيّة أبيه: روى هشام بن محمّد الكلبيّ عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم أنّ أبا سفيان دخل على عثمان وهو مكفوف، ثمّ خرج من عنده وهو يقول: تلقّفوها يا بنيّ أميّة تلقّف الكرة فما الأمر على ما تقولون ^(٣).

(١) أنساب الأشراف ٥: ١٧.

(٢) مختصر تاريخ دمشق ٢٢: ٤٠٢.

(٣) نفسه ١٩.

وروي عن هشام بن حسان عن ابن سيرين قال، قال أبوسفيان حين قُبض رسول الله ﷺ :
تلقفوها الآن تلقف الكرة فما من جنة ولا نار ^(١) . فما أشبه كلام الابن بأبيه، والنتيجة: ما صحَّ
منهما إسلام ترجم ذلك القول والفعل.

[معاوية يمنع من نشر حديث رسول الله ﷺ]

كان معاوية متشدداً في المنع من حديث رسول الله ﷺ ، مستنأ في ذلك بستة أولياء نعمته؛
ولو لا هم لما جرأ على ذلك.
ولقد كانت الهمة لدى الجميع منصرفة إلى إخفاء الأحاديث النبوية الدالة على خلافة عليّ
وأهل بيته عليه السلام .

فاعتدت تلك السياسة على السنة والحديث فأخفتها وأبادتها، وتجاوزت كرامة الصحابة
فأهدرتهم، وأهمتهم! وتعدت على خرياتهم فحبستهم ونقتهم ومنعتهم من بث علومهم. وأخطر
ما فيها أنها كادت أن تؤدي إلى وأد حق أمير المؤمنين عليّ وأهل بيته في الخلافة والإمامة؛ وهذا
أسوأ آثار سياسة المنع.

أبو بكر يحرق أحاديث رسول الله ﷺ

لم يكن لمنع التدوين ذكر قبل جلوس أبي بكر على كرسي الحكم، وعلى العكس من ذلك،
فإن أبا بكر قام هو بعملية التدوين أول حكمه.

نقل الذهبي: أن أبا بكر جمع أحاديث النبي ﷺ في كتاب فبلغ عددها

(١) نفسه.

خمسمائة حديث، ثم دعا بنارٍ فأحرقها. ^(١)

ولم يكن لأبي بكر نصٌّ شرعيّ يستند إليه في إتلافه هذا الكتاب، وإنما ذهب إلى القول بأنّه: أتلّفه مخافة أن يكون كتب شيئاً لم يحفظه جيّداً ^(٢).

ثمّة سؤال: هلاّ جمع أبوبكر عليه الصّحابة ومَن إليهم المنع ومنهم عدلُ القرآن - على لسان رسول الله ﷺ - ونفس الرسول في آية التطهير، وأخو رسول الله الذي هو منه بمنزلة هارون من موسى؛ فعرض عليهم تلك الأحاديث فأثبت ما أثبتوه وأحرق الباقي عوض أن يحرم الأُمّة ثروة هائلة من تراث النبي ﷺ؟!!

وروى القاسم بن محمّد، من أئمّة الزيدية عن الحاكم؛ بسنده عن عائشة قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ فكانت خمسمائة حديث فبات ليلة... فلما أصبح قال: أي بُنية، هلّمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنارٍ فحرقها.

فقلت: لم حرقتها؟!!

قال: خشيتُ أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به، ولم يكن كما حدّثني فأكون قد نقلتُ ذلك ^(٣).

هناك ذريعته في إحراقه حديث النبي ﷺ: خوفه من أنّه لم يحفظه جيّداً؛ وهنا علل حرق الحديث بمجرد خشيته المخالفة، مع تصريحه بأمانة الناقل

(١) تذكرة الحفاظ، للذهبي ١: ٥، وعلوم الحديث ومصطلحه، للدكتور صبحي الصالح ٣٩.

(٢) نفسه.

(٣) الاعتصام بحبل الله المتين، القاسم بن محمّد الزيدي ١: ٣٠.

ووثاقته، إن كان بينه وبين النبي ﷺ واسطة «ناقل»!

وهل كان ممكناً له أن يجمع أولئك الذين نقل عنهم فيعرض عليهم ما سمع منهم فيصح موضع الاختلاف، إن وُجد، ويُثبت ما ليس فيه اختلاف.

ولنا أن نقول له: عشت مع النبي ﷺ، فما سمعته أثبتته وما لم تسمعه احذفه حتى لو كان ما عندك خمسة أحاديث مثلاً، ويأتي عمر بحديثين أو كذا سمعتهما، وهكذا حتى يجتمع لنا عدد كذا على نحو السماع! ودعنا من الوثاقة والأمانة، وإن كان ثمة معترض يقول أحكمكم ليس بأمين ولا ثقة وهنا نبدأ في مشكلة مع المشككين...!

روى الذهبي: أن الصديق - أي أبابكر - جمع الناس بعد وفاة نبيهم، فقال: إنكم تُحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدَّ اختلافاً، فلا تُحدثوا عن رسول الله شيئاً فمن سألكم فقولوا: بَيَّنَّا وَبَيَّنَّكُمْ كتابُ الله، فاستحلَّوا حلاله وحَرَّموا حرامه ^(١).

ولا ندري من هم الناس، هل هم عوام الناس فله أن يرشدهم بالرجوع إلى من هم أولى بالحديث وفيهم باب علمه؛ أخص الناس وأكثرهم به لزوقاً، الذي كان ينتجيه رسول الله ﷺ فيختصه بكثير من علومه حتى أثار ذلك حفيظة بعض الصحابة!

عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: ناجى رسول الله ﷺ علياً عليه السلام - يوم الطائف فطال نجواه، فقال أحد الرجلين: لقد أطال نجواه لابن عمه! فلمّا

(١) تذكرة الحفاظ ١: ٣، ترجمة أبي بكر، الأنوار الكاشفة، لعبد الرحمن المعلمي اليماني: ٥٣.

بلغ ذلك النبي، قال: «ما أنا انتجيتُهُ، ولكن الله انتجاه»^(١)، وأيضاً أعلام الأُمَّة ممَّن لا يُنكر فضلهم في هذا الأمر.

إنَّ منع أبي بكر بهذه الصورة وقوله: بيننا وبينكم كتاب الله، نظير حديث «الأريكة»، واجتهاد عمر في المنع وسيأتي تفصيله.

وقوله: (فلا تُحدِّثوا)، فإنَّه منع نقل حديث رسول الله ﷺ، روايةً وكتابةً، وأثر الكتابة أشدَّ لبقائه وانتشاره أكثر ممَّا هو أثر النقل.

ولم يقدِّم أبوبكر دليلاً شرعياً على المنع من حديث رسول الله ﷺ، وعلى العكس: فإنَّ رسول الله دعا إلى كتابة حديثه وفعله الصحابة: أخرج الحاكم قال: حدَّثنا أبوبكر إسماعيل بن محمَّد بن إسماعيل الضرير بالري، حدَّثنا أبو حاتم محمَّد بن إدريس، حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني الليث بن سعد.

وأخبرنا أبوقتيبة سلم بن الفضل الأدمي بمكة، حدَّثنا عبد الله بن محمَّد بن ناجية، حدَّثنا عبدة بن عبد الله الخزاعي، حدَّثنا زيد بن حباب، حدَّثنا ليث بن سعد المصري، حدَّثني خالد بن يزيد، عن عبد الواحد بن قيس، عن عبد الله بن عمرو قال: قالت لي قريش: تكتب عن رسول الله ﷺ، وإمَّا هو بشرٌ يغضب كما

(١) مناقب الإمام علي، لابن المغازلي: ١٢٥. ويرد الحديث في مصادر أخرى بنفس اللفظ أو اختلاف يسير في اللفظ، في: صحيح الترمذي ٥: ٦٣٩، تاريخ بغداد ٧: ٤٠٢، المناقب، للخوارزمي: ١٣٨، شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢: ٤٣١، كفاية الطالب: ٣٢٨، أسد الغابة ٤: ١٠٧، جامع الأصول ٩: ٤٧٤، كنز العمال ١١: ٥٩٩، البداية والنهاية ٧: ٣٥٦، العمدة، لابن البطريق: ١٩٠.

يغضب البشر؟، فأتيْتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إنَّ قريشاً تقول: تكتب عن رسول الله، وإنَّما هو بشر يغضب كما يغضب البشر، قال: فأومأ لي شفتيه فقال: «والذي نفسي بيده ما يخرج مما بينهما إلَّا حقٌّ فاكُتِبْ».

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد أصل في نسخ الحديث عن رسول الله ﷺ، ولم يخرجاه ^(١).

قال: ولهذا الحديث شاهد قد اتَّفقا على إخرجه على سبيل الاختصار، عن همام بن منبّه، عن أبي هريرة أنّه قال: ليس أحد من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثاً مِنِّي إلَّا عبد الله بن عمرو، فإنَّه يكتب وكنت لا أكتب ^(٢).

فأما حديث الشاهد:

فحدَّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، أنبأ محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنبأ ابن وهب، أخبرني عبد الرحمان بن سلمان، عن عقيل بن خالد، عن عمرو ابن شعيب: أنَّ شعيباً حدَّثه، ومجاهداً أن عبد الله بن عمرو حدَّثهم: أنّه قال: يا رسول الله أكتب ما أسمع منك؟ قال: «نعم»، قلت: عند الغضب وعند الرضا؟ قال: «نعم، إنَّه لا ينبغي لي أن أقول إلَّا حقّاً» ^(٣).

وأخرج الحاكم بسنده عن عمرو بن العاص: أنَّ رسول الله ﷺ: «مَنْ كَتَمَ

(١) المستدرک على الصحيحین ١: ٣٥٧/١٨٦، ووافقه الذهبي في التلخيص.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه ٣٥٨/١٨٧.

عِلْمًا أَجْمَهَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِحَاجٍ مِنْ نَارٍ» ^(١).

وبسنده عن عبد الله بن بريدة قال: قال عليّ عليه السلام: تذاكروا الحديث، فإنّكم إلّا تفعلوا يندرس ^(٢).

وكذلك بسنده عن أبي يحيى الحماني، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة قال: قال عبد الله تذاكروا الحديث، فإنّ ذكر الحديث حياته ^(٣).

وعن سفيان، عن أبي إسحاق، عن البراء بن عازب قال: ما كلّ الحديث سمعنا من رسول الله صلّى الله عليه وآله: كان يحدّثنا أصحابنا وكنا مشغولين في رعاية الإبل ^(٤).

وعن فضيل بن عياض، عن الأعمش، عن عبيد الله بن عبد الله، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «تسمعون، ويُسمع منكم، ويُسمع من الذين يسمعون منكم» ^(٥).

وذكر مثله بسند آخر عن جرير، عن الأعمش عن... ^(٦) قال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، وليس له علّة، ولم يخرّجاه، وفي الباب أيضاً عن عبد الله بن مسعود، وثابت بن قيس بن شماس، عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وابن جريج عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول

(١) نفسه ١٨٢ / ٣٤٦.

(٢) نفسه ١٧٣ / ٣٢٤.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ح ٣٢٥.

(٤) نفسه ح ٣٢٦. قال الذهبي في التلخيص: هذه الأحاديث صحاح.

(٥) نفسه ١٧٤ / ٣٢٦.

(٦) نفسه، ح ٣٢٧.

الله ﷺ: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ» قلت: وما تقييده؟ قال: «كتابته»^(١).

ويسند عن عبد الله الأنصاري، حدثني أبي، عن ثمامة، عن أنس: أنه كان يقول لبيه: قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ^(٢).

فائدة

لقد كان فعل أبي بكر بحرق أحاديث رسول الله ﷺ ثمّ منعه من التحديث عنه ﷺ بقوله: «فَمَنْ سَأَلَكُمْ فَقُولُوا: ...» مخالفاً للقرآن الكريم الذي يأمر بطاعة النبي ﷺ (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)^(٣)، ولا تختلف السنّة عن القرآن في الحجية، وما الحديث إلّا مفسّراً للقرآن وشارحاً لمراذه، فما جاء من النبي ﷺ كلّه وحي، إمّا بلفظه وهو القرآن الكريم لأتّه مُعْجِز، أو أحكام وبيان بلفظ وكلام رسول الله ﷺ؛ فكيف يُؤخذ نصف الوحي ويُهمل نصفه الآخر؟!

إنّ القرآن الكريم عدا كونه معجزة النبي، ففيه أحكام وعبادات ذُكرت إجمالاً نَحْدُ تفصيلها في أحاديث النبي ﷺ وسيرته ...

أخرج الحاكم بسنده عن الحسن قال: بينما عمران بن حصين يحدث عن سُنّة نبينا ﷺ إذ قال له رجل: يا أبا نجيد، حدّثنا بالقرآن، فقال له عمران: أنت وأصحابك يقرأون القرآن، أكنتَ محدّثي عن الصلاة وما فيها وحدودها، أكنتَ

(١) نفسه ١٨٨ / ٣٦٢.

(٢) نفسه، ح ٣٦١.

(٣) الحشر: ٧.

محدثي عن الزكاة في الذهب والإبل والبقر وأصناف المال؟ ولكن قد شهدت وغبّت أنت، ثم قال: فرض علينا رسول الله ﷺ في الزكاة كذا وكذا، وقال الرجل: أحيتني أحياءك الله. قال الحسن: فما مات ذاك الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين^(١).

وإن فعله هذا مخالف لسنة النبي ﷺ، فإذا كان القرآن مبهماً له كما هو شأن آية الكلاله، والعمّة! فإنّ حديث النبي ﷺ خاصّة في هذا الأمر لا يحتاج إلى بيان، وجوابه ﷺ «اكتب» للذين سألوهم يفهمها الصغير والكبير، إلّا أن يقول أبوبكر لم أكن حاضراً حينما سأله كلّ أولئك! ولا بلغني أيضاً عنهم، وحتى لو بلغني فقد قدّمت المَعذرة وقلت إنّ خفت الخلاف وإن بلغني من ثقة فأحرقتها!

والأحاديث والروايات الواردة بلفظ «قيّدوا العلم بالكتاب» فتقييده بالكتاب، أي كتابته، لا يختلف فيه أحد، والعلم هنا واضح: هو السنّة والحديث فكيف يحرقها؟! وقد جرت سنّة البشر في تتبّع آثار الناس العاديين وحفظ أقوالهم اعتزازاً بها فيكتبونها لئلاً تضيع؛ فهل يجوز أن تُترك أحاديث رسول الله ﷺ، بل تُحرق؟! واعتذار أبي بكر بأنّه أحرق الأحاديث خوف الخلاف تحوطاً، فقد سمعها من ثقات ولكن لا يدري هل سجّلها على مثل ما حدّثه الثقة، وفي قول: مخافة أن يكونَ كتبٌ شيئاً لم يحفظه جيّداً؛ قد نسفه أمر رسول الله ﷺ بكتابة حديثه ومارسه الصحابة في حياته، وحديث عمران بن حصين مع الرجل الذي طلب

(١) المستدرک علی الصحیحین ١: ١٩٢ / ٣٧٢.

منه أن يحدّثه بالقرآن، فحدّثه بالسُنّة - وقد مضى - مصداق صادق عن اجترأه أبي بكرٍ إثمًا عظيمًا في حرّقه أحاديث رسول الله ﷺ فإنّه إن لم يكن الأدب واللياقة حكمًا في احترام أثر الرسول؛ فإن الله تعالى أمرنا بطاعته وليس لنا الخيرة بعد قضاء الله ورسوله؛ (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) ^(١).

وقد أمر الرسول ﷺ بكتابة حديثه، فإن قلت: بل أقرّ، فتقريره وأمره وفعله وقوله سنّة. وقوله ﷺ: «قيّدوا العلم». فلمّا سئل ما تقييده؟ قال: «كتابته». فهذا أمر صريح بالكتابة، ولكن كتابة ماذا وأي علم؟ إنّها أحاديثه ﷺ لا يُنكر ذلك عاقل!

وحديث ابن عباس عنه ﷺ: «تسمعون، ويُسمع منكم ويُسمع من الذين يسمع منكم». حتّى من النبي ﷺ على التحرّز في حفظ حديثه ونقله بأمانة ومما يعين على ذلك كتابته ز ولم يقل لهم إن أنا متُّ كفاكم كتاب الله!!، فما مستند أبي بكر في قوله: «بيننا وبينكم كتاب الله؟!»، الذي يذكّرنا بقول عمر بن الخطّاب ليلة الرزيّة - سنذكرها - لما اعترض رسول الله ﷺ في كتابة الكتاب، فرفع عمر صوته: «حسبنا كتاب الله» ولما كثّر اللّغط طردهم رسول الله من رحمة الله فراحوا إلى حلبة الصراع في سقيفة بني ساعدة ولم يبق مع النبي ﷺ إلّا عليّ عليه السلام يمرّضه مسنده إلى صدره ورسول الله يسرّه حتّى فاضت نفسه الزكيّة بين سحر ونحر عليّ عليه السلام. ولقد تنبأ رسول الله ﷺ بما سيكون بعده من الحيلولة دون حديثه الشريف

(١) الأحزاب: ٣٦.

والتذرع في ذلك بكتاب الله المجيد وقطع الطريق أمام أولئك بقوله: «إنما حرّم رسول الله كما حرّم الله»، وذلك أنّ رسول الله لا ينطق عن الهوى؛ إن هو إلّا وحيّ يوحى، قرآنًا أو حديثًا. وهذه بعض الأحاديث في ذلك:

أحاديث الأريكة

بسنَدٍ عن المقدم بن مَعْدٍ يَكْرِبُ الكنديّ؛ أنّ رسول الله ﷺ قال: «يُوشِكُ الرجلُ منكم مُتَّكِئًا على أريكته يُحدِّث من حديثي فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله عزّ وجلّ. فما وجدنا فيه من حلالٍ استحللناه. وما وجدنا فيه من حرامٍ حرّمناه. إلّا وإنّ ما حرّم رسولُ الله مثلُ ما حرّم الله»^(١).

«يوشك» من أفعال المقاربة، والأريكة رمز للحكم والحاكميّة، والاتّكاء: الاستيلاء والاستقواء...؛ وكلّ ذلك تحقّق في أبي بكر ثمّ عمر ومَن استنّ بسنّتهما في المنع من حديث رسول الله ﷺ. فأبوبكر صار إلى الأريكة «الحكم» في سقيفة بني ساعدة...، وكانت الأحاديث فيها تبيان وتفصيل للعبادات، وفيها الكثير من الحديث عن منزلة عليّ أمير المؤمنين وأنه الوصيّ وقتاله كفر وأنه من النبيّ ﷺ بمنزلة هارون من موسى عليه السلام، وأنه بابُ مدينة علم النبيّ وأحبُّ الخلق إليه

(١) مسند أحمد ٤/ ١٣١، سنن أبي داود (كتاب السنّة) باب (٥) لزوم السنّة (٤/ ٢٠٠، ح ٤٦٠٤)، سنن ابن ماجه ١/ ٦، ح ١٢، سنن الدارمي (١/ ١١٧ ح ٥٩٢)، سنن البيهقي (٩/ ٣٣١) دلائل النبوة له (١/ ٢٥١)، صحيح ابن حبان (١٤٧/ ١) سنن الترمذي، كتاب العلم (٢/ ١١٠)، الحازمي في: الاعتبار (٧)، الخطيب في (الكفاية ٣٩ - ٤٠) و (الفقيه والمتفقه ١/ ٨٨)؛ المستدرک على الصحيحين ١/ ١٩١ / ٣٧١).

والذي لم يكفر طرفة عين وأسبق الناس إلى الإسلام...، هذه وغيرها من الخصائص التي تليق بالحاكم والحاكمية؛ فضلاً عن حديث القرطاس. وهو من دلائل النبوة، إذ لو لم يبادر أبوبكر فيحرق أحاديث النبي ﷺ ويقول: «بيننا وبينكم كتاب الله، ويتبعه عمر فيشدّد ويحرق الأحاديث ويجبس الصحابة لئلا يخرجوا إلى الآفاق فيحدّثوا، وكذلك عثمان الذي بلغت به الجرأة بتسيير فضلاء الصحابة المعارضين لسياسته إلى الشام ليحدوا فيها مَنْ هو أعظم جرأة على الله ورسوله ذلك هو معاوية الذي هتك حرمتهم وكان أكثر نكيراً على رواة الحديث على ما سنرى.

لَفَتْ نَظَر

ومهما قدّم البعض من ذرائع لفعل أبي بكر أو عمر...؛ فإنّ النبي ﷺ حدّر من فعل هؤلاء بتستّرهم بالقرآن الكريم، فقطع الطريق عليهم بقوله: «أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ». فالقرآن وحيٌّ بلفظه ومعناه، والحديث وحيٌّ بمعناه ولفظه للنبي ﷺ. وقد ذكرنا أنّ الحديث مفسّر للقرآن شارح لمراذه؛ فالسنة امتدادٌ للقرآن وتطبيق عمليّ لمؤداه واتباعها اتباع للقرآن.

وعقد الدارمي باباً ترجمه: «باب أنّ السنة قاضية على كتاب الله» نقل فيه

عن ابن أبي كثير شيخ الأوزاعي ^(١) قوله: «السُّنَّة قاضية على القرآن، وليس القرآن بقاضٍ على السُّنَّة» ^(٢).

ونقل عن مكحول قوله: القرآن أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن ^(٣).
قول الدارمي، وقول مكحول؛ ذلك أنَّ القرآن الكريم كما ذكرنا جاء معجزاً في أصله مبنياً على الإعجاز البلاغي في إثبات رسالة الإسلام وما فيه من أحكام وعقيدة جاءت بمحملة كلَّف الله تعالى نبيه ﷺ تفصيلها.

وقد جاء مَنْ قال لعمران بن الحصين: ما هذه الأحاديث التي تحدّثونها وتركتم القرآن؟ لا تحدّثونا إلّا بالقرآن!

فقال عمران: أرايتَ لو وُكِّلْتَ أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد الطواف بالبيت سبعاً، والطواف بالصفاء والمروة؟

وبطريق آخر أضاف: والموقف بعرفة؟ ورمي الجمار، كذا، واليد من أين تُقَطَّع؟ أمّن هاهنا؟ أم هاهنا؟ أهاهنا؟ ووضع يده على مفصل الكفّ، ووضع يده عند المرفق، ووضع يده عند المنكب.

(١) يحيى بن أبي كثير الطائفي، مولاهم. قال عليّ ابن المديني، عن سفيان بن عُيينه، قال: قال أُتُوب: ما أعلمُ أحداً بعد الزُّهري أعلم بحديث أهل المدينة من يحيى بن أبي كثير. (المعرفة والتاريخ للفسوي ١ / ٦٢١).

قال شُعبة: يحيى بن أبي كثير أحسن حديثاً من الزُّهري. (الجرح والتعديل ٩ / الترجمة ٥٩٩) وقال العجلي: ثقة، كان يُعَدُّ من أصحاب الحديث. (ثقافته ٤٧٥ / الترجمة ١٨٢٣).

(٢) سنن الدارمي (١ / ١١٧) الباب ٤٩ ح ٥٩٤.

(٣) الكفاية في علوم الرواية، للخطيب البغدادي: ٤٧.

ثم قال: اتبعوا حديثنا ما حدّثناكم، وخذوا عنّا، وإلاّ والله ضللتكم^(١).
وعن أيّوب السخيتاني، قال: إذا حدّث الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا، وحدّثنا من القرآن؛ فاعلم أنّه ضالٌّ مضلٌّ^(٢).
وأورد في كتابه (الفقيه والمتفقه) أحاديث استدللّ بها على أنّ السنة معتبرة في عرض الكتاب الكريم^(٣).

مزيّد من النصوص النبويّة في وجوب رواية الحديث

ذكرنا بعض أحاديث رسول الله ﷺ في جواز وأخرى وجوب كتابة حديثه الشريف، ونذكر بعضاً آخر:
بسندٍ عن زيد بن ثابت: «نَضَرَ اللهُ امرأَ سَمِعَ مقالتي فبلّغها. فُرِبَ حاملِ فقهٍ غيرِ فقيهٍ. وُرِبَ حاملِ فقهٍ إلى مَنْ هو أَفْقَهُ منه»^(٤).
ومحمّد بن إسحاق، عن الزهري، عن محمّد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: قام رسول الله ﷺ بالخييف من مَنى^(٥) فقال: «نَضَرَ اللهُ عبداً سَمِعَ مقالتي فوعاها ثمّ أدّاها إلى مَنْ لم يسمعها، فُرِبَ حاملِ فقهٍ لا فقه له، وُرِبَ حاملِ فقهٍ

(١) نفسه: ٤٨.

(٢) الكفاية في علوم الرواية، للخطيب البغدادي: ٤٩.

(٣) الفقيه والمتفقه، للخطيب (١/ ٨٦ - ٩٠).

(٤) سنن ابن ماجه ١: ٢٣٠/٨٤، مسند أحمد ١: ٤٣٧ و ٤: ٨٠.

(٥) (الخييف من مَنى) الخييف، الموضع المرتفع عن مجرى السيل المنحدر عن غلظ الجبل. ومسجد منى سَمَّى مسجد الخييف لأنّه في سفح جبلها.

إلى مَنْ هو أفقه منه...»^(١).

وقال ﷺ: «من رغب عن سنّي مَيّ»^(٢) وقال ﷺ: «مَنْ سئِلَ عن عِلْمٍ فكتمه، أَلجمه الله بِلجامٍ من نار يوم القيامة»^(٣).

وقد روى حذيفة بن اليمان، قال: دخلتُ على رسول الله ﷺ في مرضه الذي قُبِضَ فيه، فرأيتُه يتساند إلى عليّ، فأردتُ أن أُنَحِّيَه وأجلس مكانه، فقلت: يا أبا الحسن، ما أراك إلاّ تعبت في ليلتك هذه، فلو تنَحَّيتَ، فأعنتُكَ.

فقال رسول الله ﷺ: دَغُهُ، فهو أحقُّ بمكانه منك، أذنْ مَيّ يا حذيفة، مَنْ أطعم مسكيناً لله عزَّ وجلَّ دخل الجنة».

قال: قلتُ: يا رسول الله، أكتُم أم أتحدّث؟!

قال: «بل تُحدّث به»^(٤).

توجيهٌ غيرُ مقبولٍ من الذهبيّ

بعد أن نقل الذهبيّ كلام أبي بكر في المنع من الحديث، عَقَّبَ على ذلك بقوله: إنّ مراد الصديق الثبُتُ في الإخبار، والتحريّ، لا سدّ باب الرواية... ولم يُقَلْ «حسبنا كتابُ الله» كما تقول الخوارج^(٥).

(١) المستدرك على الصحيحين ١: ١٦٢/٢٩٥.

(٢) مسند أحمد (٢/ ٢٦٣ و ٣٠٥ و ٣٥٣ و ٤٩٥).

(٣) الفقيه والمتفقه (١: ١٤٤).

(٤) مختصر تاريخ دمشق ١٨: ٢٩٥.

(٥) تذكرة الحفاظ ٣/١.

وقول الذهبي، مع علمه غريب! فقلوه: «إنَّ مراده التَّثَبُّت في الإخبار والتحري ... لا سدَّ باب الرواية» لا دليل عليه ولا وجود له في النصّ، ولم ترد كلمة واحدة في هذا المعنى: التَّثَبُّت والتحري، كأن يقول: لا تحدّثوا بكلّ ما تسمعون أو تروون. أو لا تحدّثوا بما لا تثبتون ويأمرهم بالاحتياط عن الخطأ والاشتباه.

وأما سدَّ باب الرواية عن رسول الله ﷺ ومنع نقل الحديث عنه مطلقاً؛ هل أوضح بياناً ودلالةً على عموم المنع من جملة: «لا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً»؟

وقوله: «بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله، وحرموا حرامه» قرينة واضحة على أنّ مراده نَبَذُ السُّنَّة مطلقاً، والاكتفاء بكتاب الله تعالى؛ لا سيّما إذا نظرنا إلى النهي الذي تقدّمها: «لا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً».

وأما قول الذهبيّ ولم يقل أبوبكر: «حسبنا كتاب الله كما تقول الخوارج». فمن البديهيّ: أنّ كلّ جملة يقولها إنسان تؤدّي هذا المعنى فهو يمنع الاستناد إلى الحديث ويكتفي بكتاب الله تعالى. وكلام أبي بكر: «لا تحدّثوا عن رسول الله شيئاً» وبعده: «بيننا وبينكم كتاب الله، فاستحلّوا حلاله وحرموا حرامه»، يؤدّي نفس معنى: «حسبنا كتاب الله» تماماً!

وإذا كُبر على الذهبيّ، أو أراد أن يوجّه أو قل: اجتهد فأخطأ في فهم كلام أبي بكر؛ فدعنا نستريح هنيهةً من «حسبنا»، ولنكتفِ بجملة: «بيننا وبينكم كتاب الله» التي قالها أبوبكر، وقبلها الذهبيّ، فنقول: إنّ هذه الجملة هي عينها التي

قالها رسول الله ﷺ مجذراً من صاحب الأريكة - أي الحُكم - الذي عهده قُربَ وأَنه يحذف حديث النبيّ ويمنع منه ويقول: «بيننا وبينكم كتاب الله عزّ وجلّ» وقد ذكرناه مع مصادره. وأما ذكر الذهبيّ للخوارج في هذا الموضع فعجيب منه! إذ لم نعهد من الخوارج ذكرهم جملة «حسبنا كتاب الله» وإنما شعارهم «لا حُكَمَ إلّا لله» وأما جملة «حسبنا كتاب الله» فهي معروفة من كلام عمر أكثرهم تشدّداً في منع تدوين حديث رسول الله، وأسبغهم إلى ذلك! فهو الذي منع من تقديم «القرطاس» إلى رسول الله ﷺ ليكتب لهم كتاباً لن يضلّوا بعده، ومضى على هذه السياسة بعد رحلة رسول الله ﷺ وتشدّد بها وحبس الصحابة من الخروج إلى الأمصار خوفاً من نشر الحديث وكتب كتاباً بالمنع إلى الآفاق...

إنّ النبيّ ﷺ، أراد وهو يُودّع أُمته ويودّعها تركته:

الثَّقَلَيْنِ، كتاب الله وعترته الطّاهرة، وفي سعيّ منه لتوكيد ما عهدهُ إليهم سابقاً، أراد أن يكتب لهم كتاب هداية وعصمة، إلّا أَنه جُوبه بمعارضةٍ شديدة أطلقت فيها كلمة لا تنبغي في حقّ مسلم محترم، فكيف بالنبيّ؟!!

عن عبد الله بن عبّاس، قال: لما احتضر النبيّ ﷺ وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطّاب، قال: «هَلُمّ أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده». فقال عمر: إنّ النبيّ غلبه الوجع، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله واختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم من يقول: قرّوا يكتب لكم رسول الله كتاباً لن تضلّوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر!! فلمّا أكثروا اللّغط والاختلاف عند رسول الله ﷺ، قال: قُوموا عني

فكان ابن عباس يقول: إنّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغظهم^(١).

وليس الخبر بهذا اللفظ الذي هدّبه بعض الأقلام! ولكنّه كافٍ وبهذا اللفظ لتوضيح عمق المأساة! فإنّ ميتاً من عَرَضَ المجتمع يتنادى دُؤوه وأصدقاؤه وتقع جلبة ويُحمل نعشه إلى مشواه الأخير ظاهرة عليهم آثار الحزن والأسى لفقده؛ وهذا سيّد الخلق طرّاً خاتم الأنبياء والرسل يعيش لحظاته الأخيرة مع أصحابه ويريد أن يُتمّ لهم نصيحته وهدايته لئلاّ يضلّوا من بعده فيتعرّضوا لغضب الله تعالى كما حدث لليهود والنصارى، إلاّ أنّ البعض منهم قدّم بين يديه وقطع كلامه، وهو أمرٌ منهّي عنه في القرآن الكريم؛ وخالف سنّته وهو حيٌّ يمارس وظيفته في التبليغ، فكيف يكون الأمر بعد وفاته؟! وكيف كانت المقاطعة والردّ؟ كان نايباً، فإنّ «غلبه الوجع» تساوي «يَهْجُر» التي تعني: يَهْذِي - والعياذ بالله! كما أنّ حالة اللغو واللغظ والاختلاف الناتجة عن هذا التصرف سوء أدب في حضرة النبي ﷺ، وقد نهى القرآن عن رفع الأصوات فوق صوت النبي وعن الجهر له بالسوء؛ «وإنّ النبيّ ليهجر»، أو «غلبه الوجع» ما هو إلّا جهر بالسوء ثمّ ماذا يعني قول النبيّ ﷺ لهم: «قوموا عني»؟ إنّه يعني أنّه ساخط وغير راض عنهم، ورضاه من رضى الله تعالى وسخطه من سخطه!

ثمّة سؤال: لماذا اعترض عمر على رسول الله ﷺ في كتابة الكتاب؟ هل

(١) صحيح البخاري ١: ٣٧، ٥: ١٣٨، ٨: ١٦١، طبقات ابن سعد ٢: ٢٤٢، صحيح مسلم ١٢: ٩٥، المصنّف، لعبد الرزاق ٥: ٤٣٨ و ٤٣٩ مسند أحمد ١: ٣٣٦، دلائل النبوّة، للبيهقي ٧: ١٨١.

كان يُدرك ما سيكتبه؟

ورواية ابن عباس تؤكّد أنّه قال: أهُجَرَ. عن سفيان، عن سليمان بن أبي مسلم، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: يومُ الخميس وما يوم الخميس! قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعُه فقال: «اثنوني أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعدي أبداً». فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبي أن يُتنازع - فقالوا: ما شأنه أهُجَرَ؟ استفهموه! فذهبوا يُعيدون عليه، فقال: دُعُونِي، فما أنا خيرٌ ممّا تدعونني إليه. وأوصى بثلاث، قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفدَ بنحوٍ مما كنتُ أجيزهم، وسكت عن الثالثة عمداً أو قال: فنسيها. ^(١)

نعم، يومُ الخميس وما يوم الخميس؟! اشتدّ برسول الله ﷺ وجعُه، واشتدّ بقومٍ وجُدْهم إلى أمورٍ، فأسأؤوا إلى نبيّهم بالقول الفاحش ذلك قولهم: ما شأنه؟!

أليق هذا بالنبي ﷺ! أنكره هو؟ هلاًّ تأدّبوا فخاطبوه بما يليق بمقامه العظيم إن لم تطاوعهم أنفسهم فيسارعوا مطيعين فيقدّموا القرطاس والقلم؛ فإن لم يفعلوا فعليهم أن، يقولوا: يا رسول الله، لو بيّنت لنا مرادك...، مثلاً. ثمّ جاؤوا بها صلعاء لا توارها عمامة؛ تلك هي مقولتهم: أهُجَرَ؟ وهي شتيمة! ذكر ابن السكّيت في كتابه «تَهذِيبُ الْأَلْفَاظِ باب رَفْعِكَ الصَّوْتِ بِالْوَقِيعَةِ فِي الرَّجُلِ وَالشَّئَمِ لَهُ» قال: وَأهُجَرَ إِهْجَاراً، إذا قال القبيح ^(٢).

فهل يجوز على رسول الله ﷺ أن يقول القبيح، فعند من تجد الأمة الحسن

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٣٦.

(٢) تهذيب الألفاظ، لابن السكّيت: ٢٦٤.

- إذن - لتأخذه منه فلا تضلّ؟ ومتى كان كتاب الهداية والعصمة من الضلالة هُجراً؟!
والزاوي لم يُعيّن صاحب هذا الكلام المُستهجن، فقد استعمل لفظ الجماعة «فقالوا»!
تري ماذا تعني كلمة «استفهموه» الواردة في الخبر، وماذا يعني أنّ القوم ما زالوا يعيدون سؤالاً
ما على النبي ﷺ حتى ردّهم؟ أيّ سؤال هو؟ هل هو الوصية الثالثة التي سكت عنها ابن
عبّاس عمداً؟! فلماذا سكت؟! أمّا هذا الاستدراك: «أو قال: فنسيها» فهو ممّا لا يليق بمن ابن
عبّاس بكثير، فكيف بخبر الأمة؟!

غير أنّ المرويّ عن ابن عبّاس - كما في البخاريّ وطبقات ابن سعد، ذكرناه - ينصّ على أنّ
صاحب القول هو عمر بن الخطّاب، وحسب تلك الرواية وقول عمر فيها: «وعندكم القرآن
فحسبنا كتاب الله» يتّضح أنّ النبيّ قد اوصى باثنين متلازمين، هما: كتاب الله وأهل بيته، وهو ما
كان يُعيدده على مسامعهم في أكثر من مناسبة.

وعن عمر بن الخطّاب قال: لما مرض النبيّ ﷺ قال: «ادعوا لي بصحيفة ودواة أكتب كتاباً
لا تضلّوا بعده أبداً» فقال النّسوة من وراء السّتر: ألا تسمعون ما يقول رسول الله؟! فقلت: إنكّر
صواحبات يوسف: إذا مرض رسول الله عَصَرْتُنَّ أَعْيَنَكُنَّ، وإذا صحَّ رَكِبْتُنَّ غُنْفَه! فقال رسول الله:
«دَعُوهُنَّ، فَإِنَّهُنَّ خَيْرٌ مِنْكُمْ»^(١).

(١) المعجم الأوسط، للطبراني ٥: ٢٨٨، كنز العمال ٥: ٦٤٤، مجمع الزوائد ٩: ٣٤.

حصحص الحق وثبت أن عمر هو الذي قدّم بين يدي النبي ﷺ . ومع أنه لم يذكر في هذه الرواية اعتراضه على رسول الله في كتابة الكتاب، إلا أن قول النسوة: «ألا تسمعون ما يقول رسول الله؟» بيّن الدلالة على هذا المعنى، وذلك بعد أن صلّ أسماعهنّ لعلّ الرجال واختلافهم على أثر الكلام الذي قاله عمر كما في الروايات السابقة، فزجرهم النساء على سوء سلوكهم هذا. ويؤيد أن عمر هو صاحب الاعتراض على النبي ﷺ ؛ رفع صوته من جديد لئسمع النسوة مقالته فيهنّ، إذ اللّغط الدائر بين الرجال ووجود السّتر بينهم وبين النساء يقتضي مناداتهنّ بصوت عالٍ، وإلا لم ردّ عليهنّ دون غيره من الحاضرين؟ وقوله: «إنكّن صواحيات يوسف...» فيه تنقيص لهنّ، ومن هنّ؟ إنهنّ أمّهات المؤمنين، وحاضنة الرسول، والصّحابت المبايعات، والمعصومة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام بنت النبي ﷺ ؛ ووصف هؤلاء بالنسوة اللاتي شغفنّ بجمال يوسف النبي ﷺ ، أراد بذلك: إنكّن ما كرات وأتباع لذة!! وكلامه لم يتنقّص من النساء وحسب، وإنما تناول به على النبي ﷺ وانتهاك حرمة إذ ذكره بصيغة الغائب النكرة من غير ما ينبغي له من النعت بالنبوة والرّسالة. «ركبئث غنقه» فيها ما فيها من المعاني السلبية والتجاوز على شخص رسول الله ﷺ ، ووصفه بالشخص الضعيف أمام النساء - والعياذ بالله...؛ ومن هنا جاء جواب رسول الله ﷺ : «إنهنّ خير منكم» في البعد عن الاعتراض والتقديم بين يدي رسول الله، والاعتراض عمّا أراد، وإنما على العكس اعترضن سبيل أولئك الذين آذوا رسول الله بلغوهم وتنازعهم في أن يقدّموا أو لا يقدّموا القرطاس والقلم وكان زعيم جبهة الراضين، بل لم يحفظ لنا

التاريخ اسماً بعينه إلا عمر بن الخطاب.

«وخير منكم»، إذ لم يكن من أصحاب السقيفة؛ وما كان من الأحداث الساخنة بعد ذلك إلا امتداد لرزية الحميس والحيلولة بين النبي ﷺ وكتابه الكتاب وما وقع في السقيفة وتمخض عنها من أمور منها: المنع من كتابة حديث رسول الله.

وطرد رسول الله إياهم إلا علياً، له من المعاني: أنه طردهم من رحمة الله، وفي ذلك: لئلا يقول أحدهم إنني تشرفت بتمريض النبي وبدفنه كما تشرفت بصحبته، فقطع عليهم الطريق بذلك. صحيح أن سوء الأدب الذي أبدوه يستوجب ذلك الطرد، ولكن نستجلي ضمناً هذا المعنى مثلما نستجلي أن لم تكن له ذرية إلا من خديجة رضي الله عنها ثم من فاطمة الزهراء ﷺ بينما حرمت زوجاته حتى الالتي في عمر الصبا فالشباب من الحمل، وإلا لكان الويل لأمة محمد ﷺ في ذلك الحمل! ثم كان من حكمة الله تعالى: أن حرّم الزواج من زوجات النبي ﷺ فجعلهن بمنزلة أمّهات المؤمنين.

وفي الصحابة من هم أنقياء الثوب إلا أن الفتنة عمّت، ومنهم من كان بعيداً عن الحدث، فأفرد علياً ﷺ يناجيه ويختصّه وهذه ليست أول مرة يفرده فيناجيه، إلا أن هذه الليلة لها خصوصية فهو ﷺ في آخر عهده من الدنيا، فكان لعليّ ﷺ شرف الانفراد برسول الله ﷺ فهما شيء والناس شيء آخر، هما الرسالة والناس خليط بين بعيد عن ساحة الأحداث وبين مصطرع في سقيفة بني ساعدة من أجل (الأريكة) فصدق من لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، مضى

أولئك في مهمتهم من أجل الأريكة، ومضى عليّ في مهمته بعد أن سمع توجيهات الوحي على لسان النبي ﷺ، فتولّى غسل النبيّ وتكفينه...، فيما حُرِم أولئك من كلّ هذا.

فرسول الله يخطّط لعلّي السبق في كلّ شيء: السبق في الإسلام، والسبق في الفداء، والسبق في الصحبة (إلى الطائف فلم يصحبه غير عليّ) وبعد ميّته على فراش النبيّ وأدائه ودائع الناس التي كانت عنده التحق بالنبيّ ﷺ، وكان النبيّ قد افترق عن أبي بكر لما وصل إلى قُباء ولم يدخل المدينة، فنزل أبو بكر على خارجة بن زيد، فيما نزل النبيّ على كُثُوم بن هُذَم، فلمّا التحق به عليّ عليه السلام، دخلا المدينة ^(١).

ولقد جرّت أحاديث ومحاورات بين ابن عبّاس وعمر بن الخطّاب - بعد وفاة النبيّ ﷺ - أقرّ فيها عمرُ أنّه الذي منع النبيّ من كتابة الكتاب؛ من ذلك: قال عمر لابن عبّاس: هل بقي في نفْس عليّ شيء من أمر الخلافة؟ فقال ابن عبّاس: نعم. قال عمر: ولقد أراد رسولُ الله في مرضه أن يُصرّح باسمه فمَنَعْتُهُ من ذلك إشفاقاً وحيطةً على الإسلام ^(٢).

إنّ الله تعالى أعلم بمواطن الحيطة على الإسلام فيوحي بها إلى نبيّه، ومن ذلك التبليغ بإمامة عليّ وخلافته في كلّ مَوْطن، ومنه المهرجان الكبير يوم عيد غدير خُـمْ، وفي مرضه لما أراد أن يكتب كتاباً فَمَنَعَهُ عمر. ولكنّ ما الذي وجده

(١) السيرة النبويّة، لابن هشام ٢: ١٣٨.

(٢) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٢: ٢١.

عمر من نقص في عليّ فتخوّف منه على مستقبل الإسلام، وهو الذي سلّم عليه بالإمارة يوم خُم؟! فهلاًّ عابه يومئذٍ؟!

أم أنّه ندم على ما كان منه من التسليم على عليّ أمير المؤمنين ﷺ بالإمرة بقوله: بَخِ بَخِ لك يا ابنَ أبي طالب! أصبحت مولاي ومولى كلّ مؤمنٍ ومؤمنة، قالها على رؤوس الأشهاد يوم غدِير خُم، والآن يعلم أنّ رجالاً يأتّمرون في الخفاء على إزواء الخلافة عن عليّ ﷺ وكتبوا بذلك عهداً، فتخوّف فشل الخطّة؟!

إنّ ما ذهبنا إليه لم يكن كلاماً يُقال جُزافاً، فالذي يقدّم بين يدي الله ورسوله، وهو أمرٌ منهّي عنه في القرآن إذ لا يجوز له إلّا التسليم لأمر الله سبحانه وأمر رسوله ﷺ، ولا يعترض. وكيف كان الاعتراض؟ بتلك الصورة القاسية وهتك حرمة النبي ﷺ؛ فلمّا طرده النبيّ ومن معه صاروا إلى «السقيفة» ودخل في صراع مرير تمهيداً لـ «الأريكة» التي حدّر رسول الله ﷺ منها ومن صاحبها الذي يوشك أن يُعلن صاحبها المنع من حديث رسول الله ﷺ، وها هو يمنع ورسول الله موجود بين المسلمين؛ فكيف سيكون الأمر بعدك يا رسول الله صلّى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيّبين الطّاهرين؟! هذا ما سنراه. ولكن: كلمة عجلى، إنّ حديث رسول الله ﷺ يتضمّن أحكاماً وعبادات وسُنن...، فهل المنع يهدف ويقصد مثل هذه الأحاديث؟ قطعاً لا. فما بقي إلّا الوصيّة والخلافة وهو الأمر الذي أقرّ به عمر وأنّه الذي حمّله على منع النبيّ من كتابة الكتاب والتصريح باسم عليّ ﷺ خليفة من بعده؛ وقد مرّ ذكرُ ذلك. ثمّ صارت سنّة لأصحاب الأريكة ممّن هم وشيخوا عهدٍ برسول الله ﷺ، وامتدّت ليلقفها معاوية ومن جاء

بعده من الشجرة الملعونة في القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله ﷺ ، فلم يكتفِ بمنع الحديث في فضائل عليٍّ وأهل البيت عليه السلام ، وإنما امتدّت يدُ النَّصب لوضع الأحاديث المكذوبة للنيل من أمير المؤمنين وتفضيل أعدائه! وسنّ سنّته البغيضة في لعن الإمام عليٍّ عقب كلّ صلاة، فعاشت الشام بعيدة عن روح الإسلام تجهل مَنْ هو عليٌّ؟! وفضائل أهل البيت، أمويّة ناصبيّة أجيالاً طويلة لا يمكن أن تتمحي آثارها. فإذا جاء ابن تيميّه بإرثه الخارجيّ وسوء تربيته وضياع نسبه وتأثير محيطه وبيئته الأولى: حرّان، ليحطّ رحاله في بيئته الجديدة؛ كان أشدّ من معاوية على عليٍّ وأهل البيت عليه السلام في المنع من الحديث! وكان معاوية أكثر إنصافاً من ابن تيميّه؛ ذلك أنّ معاوية إذا أُخْصِر في الحِجَاج أقرّ لأبي الحسن عليه السلام فضله، أمّا ابن تيميّه فقد عاهد الشيطان إلاّ شنّ الغارة على أهل البيت بعد ما تجاوز حرمة الرسول والمرسل!!

وإذا كان مَنْ سبق معاوية اكتفوا بمنع حديث رسول الله ﷺ وحبسوا الصحابة - على ما ستقف على معنى الحبس هنا - فإنّ معاوية قد أحلّ الحرام وانتَهك حرمة كبار الصحابة لأجل ذلك وكان أكثر جرأةً وصراحة من غيره لما خطب فقال: «ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلُّوا ولا لتحجُّوا ولا لتزكُّوا، قد عرفْتُ أنّكم تفعلون ذلك، ولكن إنّما قاتلتكم لأتأمّر عليكم...».

حديث رسول الله؛ وردّ عمر بلفظ آخر

ويأتي حديث رسول الله ﷺ بلفظ مقارب لما ذكرناه سابقاً، وأمّا ردّ عمر

واعتراضه فإنه يرد أكثر جفوة، فقد ذكروا: لما مات رسول الله قال قبل وفاته بيسير: «اثنوني بدواةٍ وبياضٍ لأكتب لكم كتاباً لا تختلفوا فيه بعدي». فقال عمر: دَعُوا الرجلَ، فإنه لَيَهْجُرَ ^(١)!

الله أكبر!، دَعُوا الرجلَ، وليس النبي ﷺ؛ أي اتركوه وتحلوا عنه ولا تلتفتوا إلى قوله، فإنني أُؤكِّد لكم «لَيَهْجُرَ» أنه يهذي ولا يدري ما يقول - معاذ الله يا رسول الله أن نقول شيئاً من ذلك - وهي أبلغ من كلِّ العبارات التي مضت في الثُّبُح والشتيمة! وهذا النصُّ أقرب إلى القبول؛ وإن كان التقديم أي الاعتراض على رسول الله ﷺ منهياً عنه في القرآن الكريم وليس من أدب الإسلام في شيء، واللَّغَط الذي حدث بسبب ذلك، وشتيمة عمر للنسوة اللَّاتِي اعترضن عمر وشيعته وطلبن استجابة أمر رسول الله ﷺ...، فإنَّ هذه الأمور كافية لطرد رسول الله للقوم: إلاَّ أنَّ في العبارة هذه زيادة على ما تقدَّم: فَصَّم العُرَى بينهم وبين الرسول، من خلال دَعُوا الرجلَ؛ فلا معنى بعد ذلك لكلام عمر: «حسبنا كتابُ الله». إذ أركان الإسلام ثلاثة: التوحيد، والنبوة، والمعاد؛ فَمَنْ أنكر واحدة منها فليس بمسلم، وهذه الدعوة صريحة لإنكار أحد الأركان والتخلِّي عنه وهو النبي ﷺ كلَّ هذا ورسول الله بينهم يروونه بوجهه الوضيء بنور النبوة ويسمعون

(١) مسند أحمد ٣: ٣٤٦، صحيح البخاري - كتاب العلم، باب كتابة العلم، المجلد الأول صفحة ٣٩، والمجلد ٤ باب قول المريض... صفحة ٥، و ٦ باب مرض النبي ووفاته صفحة ١١، و ٤ كتاب الجهاد - باب جوائز الوفاء، صفحة ٨٥، شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٢: ٥٣٦. مجمع الزوائد ٤: ٣٩٠ و ٣٩١، الكامل، لابن الأثير ٢: ٢١٧، طبقات ابن سعد ٢: ٢٤٣، تذكرة الخواص: ٦٥.

صوته، فكيف بهم إذا قبضه الله تعالى ورفعهم إلى أعلى عِلِّيِّين؟!

أنعجل ونقول: سيرتدّ بعضهم القهقري؟

لا نحافي الحقيقة ولا نعدوها إن قلنا: نعم؛ فاللذي وقع من عمر وأصحابه بحقّ رسول الله ﷺ، وطرد رسول الله ﷺ إياهم من ساحة رحمته فلم يعتذروا بل لجّوا في طغيانهم ففارقوه إلى السقيفة ولم يرجعوا إليه ﷺ؛ إلا وقد قبض الله تعالى نفسه الزكيّة إليه - هذا في أحسن الأحوال وتنزلاً في قبول الرواية، وإلا فالمرويّ عن عائشة قولها: لم نعلم بوفاة رسول الله ﷺ إلاّ بوقع المساحي والرجال يحفرون ليلاً...، وكان أمير المؤمنين في ثلّة من بني هاشم قد تولّوا دفنه -؛ ولقد كان ﷺ حذرهم الرّدّة والتبديل.

أحاديث النبي في الرّدّة

أخرج مسلم بنسده عن أبي حازم قال: سمعتُ سهلاً يقول: «سمعت النبي ﷺ يقول: أنا فَرَطُكُمْ على الحوض مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أبداً، وَلَيَرَدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ»، قال أبو حازم: فسمِعَ الثُّعْمَانُ بن أبي عِيَّاش وأنا أُحَدِّثُهُمْ هذا الحديث فقال: هكذا سمعتُ سهلاً يقول؟ قال: فقلتُ نعم قال: وأنا أشهدُ على أبي سعيدٍ الخُدريّ لسمِعْتُهُ يزيدُ فيقول: «إِنَّهُمْ مَيِّ، فيُقال: إِنَّكَ لا تدري ما عملوا بعدَكَ فأقولُ سُحْقاً سُحْقاً لِمَنْ بَدَّلَ بعدي»^(١).

فأيّ تبديل أعظم من رفض سنّته في حياته، ثمّ المنع من تدوينها

(١) صحيح مسلم، بشرح النووي المجلّد ٨، الجزء ١٥: ٥٤.

والتحديث بها وحبس الصحابة على ذلك بعد وفاته ﷺ!

وعن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي عَلَى الْحَوْضِ حَتَّى أَنْظَرَ مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ مِنْكُمْ وَسَيُؤْخَذُ أَنْاسٌ دُونِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ مَنِّي وَمَنْ أُمَّتِي، فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بِعَدِكَ مَا زَالُوا يَرْجِعُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ» (١).

وعن أمِّ سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي لَكُمْ فَرَطٌ عَلَى الْحَوْضِ فَإِنِّي لَا يَأْتِيَنَّ أَحَدُكُمْ فَيُذَبُّ عَنِّي كَمَا يُذَبُّ الْبَعِيرُ الضَّالُّ فَأَقُولُ: فِيمَ هَذَا؟ فَيُقَالُ إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بِعَدِكَ فَأَقُولُ: سُحْقًا» (٢).

فالذي أحدثوه «بعده» من جنس «الأريكة»، والذي يرد فيه لفظ «يوشك». ومن حديثه ﷺ في عِظَمِ الخطر المحدث بأصحاب الأريكة:

عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ يَوْمًا فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلَاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْبَرِ فَقَالَ: «إِنِّي فَرَطٌ لَكُمْ وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي وَلَكِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا» (٣).

وهذا الذي وقع ليلة وفاته ﷺ، فبعد ما أساءوا الأدب كما لحظنا، راحوا إلى سقيفة بني ساعدة فكان ممَّا يندى له الجبين من أجل «الأريكة»، وغُصبت الزهراء الطاهرة ﷺ إرثها من أبيها ﷺ واعتدوا عليها وكادوا يحرقوا بيتها وهي

(١) نفسه: ٥٦.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه: ٥٧. وانظر الجمع بين الصحيحين، وتاريخ دمشق ٨: ١٠٩ و ٣: ٨ و ٤٧: ١١٧.

فيه! وقولت قبائل قد امتنعت من بيعة أبي بكر وكانت ترى أنّ الخليفة الشرعيّ هو عليّ عليه السلام ...

والأحاديث في هذا الحقل من الوفرة ممّا يضعنا أمام الواقع الصعب الذي كان يعاني منه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو الذي لا ينطق عن الهوى إنّ هو إلّا وحيّ يوحى.

إنّ ما وقع من القوم في حجرة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وفيما أحدثوه بعده، سبقتها وقائع مرّة! فقد استجابوا لهتاف الشيطان وفرّوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل بهم بيان من الله سبحانه يوجّههم على ذلك. وفرّوا بالزّاية يوم خيبر، ولم نسمع أنّهم جرحوا بطلاً فضلاً عن جندلة أبطال! ويبقى عليّ عليه السلام بعيداً عن كلّ هذه اللّوثة في جمعٍ من الأتقياء ممّن لم يبدّلوا ولم يغيّروا. وكان عليّ عليه السلام يستبق الأحداث وكيف لا؟ وسرّ النبيّ صلى الله عليه وآله عنده.

عن عمرو بن طلحة، عن أسباط بن نصر، عن سيماك، عن عكرمة عن ابن عبّاس: أنّ عليّاً قال في حياة النبيّ إنّ الله عزّ وجلّ يقول: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ) ^(١)، والله لا ننقلب على أعقابنا أبداً بعد أن هدانا الله، والله لئن مات أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتّى أموت، والله إني لأخوه ووليّه وابن عمّه ووارثه، فمن أحقّ به منّي ^(٢)!

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) الفضائل، لأحمد، حديث ٢٣٢، خصائص التّسائي: ١٣٠ ح ٦٥، المستدرک على الصحيحين ٣: ١٢٦، المعجم الكبير، للطبراني ١: ١٠٧/ ح ١٧٦، وعنه أبو نعيم في معرفة الصحابة ١: ٢٣، =

وقد ترجم عليه السلام كلامه هذا في مواقفه الخالدة في سوح الجهاد فكرّ وما فرّ وشهد الوحي له بذلك! فيما قعد غيره وفروا وخلّوا بين رسول الله صلى الله عليه وآله وعدّوه، فأصابه ما أصابه حتى دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

يوم أُخذ: وهو يوم الفخر والعزة لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولأمير المؤمنين عليه السلام، وثلة ممن لم يستترّهم الشيطان بصراخه: ألا إنّ محمداً قد قُتل. ولما كنّا قد عقدنا بحثاً مفصّلاً في ذلك، وفي الفرار يوم خيبر!! فنذكر موجزاً من ذلك لمناسبته ما نحن فيه من خُلُق القوم في التعامل مع النبي صلى الله عليه وآله ذكر البخاري أنّ عمر بن الخطّاب انهم يوم أُخذ فيمنّ انهم ^(١).

وكثيراً ما تحدّثوا عن شجاعة الحواريّ الزبير، فلمّا عصى الرّماة أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وغادروا العسكر طمعاً في الغنيمة وجاءهم العدو من خلفهم وصرخ الصارخ انكفأ الزبير مثل غيره ولم يبق مع عليّ أبي الحسن عليه السلام يذبّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله ويفديه بمهجته: «عن عبد الله بن الزبير، عن أبيه قال: ...، إذ مالت الرّماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلّوا ظهورنا للخيل فأتينا من أدارنا وصرخ صارخ ألا إنّ محمداً قد قُتل فانكفأنا وانكفأ القوم علينا ^(٢)

...

فالحواريّ كان في المنهزمين الفارين عن رسول الله صلى الله عليه وآله. والحواريّ من

= مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٣١٤، فرائد السمطين ١: ٢٢٤ باب ٤٤/ ١٧٥ مجمع الزوائد ٩: ١٣٤، الرياض النضرة ٢: ٣٠٠.

(١) صحيح البخاري ٥: ١٠١.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٣: ٨٢، تاريخ الطبري ٢: ١٩٦، تاريخ خليفة: ٣٦.

صفاته الحسد! وتلك الموبقة هي التي جعلته يقاتل أمير المؤمنين علياً عليه السلام. ويوم أُخذ عرض رسول الله سيفاً فأعطاه أبا دُجانة ومنعه من الزبير؛ فغضب الزبير، ولما التقى أبو دُجانة مع أحد المشركين دعا الزبير بهلاك أبي دُجانة، فقتل أبو دُجانة المشرك ^(١)، وقد ذكرنا قصته مفصلةً في حديث الراية وفتح خير.

أصحاب الصخرة

وذكرنا خبرهم مطوّلاً في حديث الراية، ومن قصّتهم: أنّ عمر بن الخطّاب وطلحة بن عُبيد الله، ورجال من المهاجرين والأنصار، قد استجابوا لصراخ الشيطان: ألا إنّ محمّداً قد قُتل، ففرّوا ولجأوا إلى صخرة ^(٢)...

وذكر الطبري: أنّ بعض أصحاب الصخرة قال: ليت لنا رسولاً إلى عبد الله ابن أبيّ «رأس المنافقين» فيأخذ لنا أمانةً من أبي سفيان، يا قوم إنّ محمّداً قد قُتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم ^(٣).

فليس بغريب إذن على أصحاب الحُجرة تسمية رسول الله صلّى الله عليه وآله باسمه أو الرجل من غير ما يستحقّه من نبيّ الله ورسوله...، فقد قالوها على الصخرة! والذي ذكرناه من هدمهم لركن النبوة في الحجرة في ردّهم على رسول الله صلّى الله عليه وآله؛ فإنّ مقدّماته أفصح من خلال قولهم يوم أُخذ: إنّ «محمّداً، الرجل الذي تعرفونه

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ٣: ٧٢ - ٧٣.

(٢) نفسه ٣: ٢٠٣، تاريخ الطبري ٢: ١٩٩.

(٣) تاريخ الطبري ٢: ٢٠٣.

بهذا الاسم»، «قد قُتل، وانتهى أمره ولسنا بطالبي ثأره»، «فارجعوا إلى قومكم ...، مَنْ هو مِنْ عَدِيٍّ يرجع إليهم؛ والذي من تَيْمٍ يرجع إليهم ... فليس فيكم هاشميٌّ يُقتل دونه!». عثمان: ولم يكن عثمان مع أصحاب الصخرة، فقد فرّ في عدّة من الرجال حتّى بلغوا الجُلْعَب جبلاً بناحية المدينة فأقاموا به ثلاثاً ...^(١) فيما وجدنا يهودياً اسمه: مُحْيِرِيْق يُقاتل دون رسول الله ﷺ فيقتل شهيداً! وكان خَبِراً من أحبار اليهود^(٢).

مشهد امرأة: ولعلّ في قول عمر للنسوة: «إتكن صويحبات يوسف يكمن خلفه أكثر من سرّ، من ذلك: أنّ الذين فرّوا كانوا ذكوراً لا نسوة! فيما جاهدت امرأة خلّدها التاريخ هي: نُسبية بنت كعب المازنية، شهدت يوم أُخِذَ هي وزوجها وابناها، خرجت تسقي الجرحى: فلمّا فرّ الذكور قاتلت فجرحت اثني عشر رجلاً بسيفٍ ورمح، وضربها ابن قَمِيْثَة بالسيف على عاتقها؛ فكان رسول الله ﷺ يقول: «ما التفتُ يميناً وشمالاً يومَ أُخِذَ إلّا رأيتها تقاتل دوني»^(٣).

فمثلما حسد الزبيرُ أبا دُجّانة على ما ذكرنا حتّى تمّت قتلته! فكذلك حال أصحاب الصخرة. فيومُ أُخِذَ وما أدراك ما يومُ أُخِذَ، الرزّة كلّ الرزّة، والفضيحة كلّ الفضيحة يومُ أُخِذَ. صرخ الشيطان فأجابه أصحاب الصخرة والجُلْعَب وشايعوهم في هدم

(١) نفسه ٢: ٢٠١.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام ٣: ٩٤، أنساب الأشراف ١: ٣٩٧.

(٣) السيرة النبوية ٣: ٨٩ و ٩٤، أنساب الأشراف ١: ٣٩٧.

ركن النبوة ... ولما علموا بسلامة النبي ﷺ عادوا إليه.

بسالة أمير المؤمنين يوم أُحد

لم يفلح الشيطان أن يستزلَّ أمير المؤمنين عليّاً، وأتى له ذلك وأمير المؤمنين عليّ عليهما السلام نفس رسول الله ﷺ، مطَّهر بصريح القرآن الكريم؛ عدل القرآن وترجمانه ...، بطل بدر؛ فماذا يوم أحد؟

وأيضاً نقول: لقد تعرَّضنا لهذا المطلب في ردِّ الناصبيِّ عدوِّ نفسه: ابن تيمية، في حديث الراية وفتح خيبر، فنوجزه شاهداً:

فيوم أُحد قتل أمير المؤمنين عليّ عليهما السلام أصحاب الألوية، وأجهز على عدد من أبطال قريش فعجل بهم إلى النار. فكان عدَّة الذين حصدهم ذو الفقار «ستة عشر» من أبطال قريش وعُتاتهما. فقال جبريل عليهما السلام: يا رسول الله، إنَّ هذه للمُواساة، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّه مِنِّي وأنا منه». فقال جبريل: وأنا منكما. فسمعوا صوتاً يقول:

لا سـيـفَ إلَّا ذو القـُـرار ولا فـيـئـتـي إلَّا علـيـ^(١)

إنَّ الرِّدة والانقلاب على الأعقاب التي حدَّر منها رسولُ الله ﷺ، وأثبتها الوقائع؛ وأنزل الله سبحانه وتعالى بياناً في ذلك. قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ

(١) ذكرنا أسماء من قتلهم أمير المؤمنين عليّاً يوم أُحد، ومصادر الهتاف في حديث الراية وفتح خيبر.

يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) ^(١).

من تفسير قتادة، قال: ذلك يوم أُحُد حين أصابهم القرع والقتل، فقال أناس منهم: لو كان نبياً ما قُتِل! فقال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) الآية، يقول: ارتددتم على أعقابكم كفاراً... ^(٢)

وعن حالة الارتداد والانقلاب على الأعقاب يوم أُحُد في قوله تعالى: (... انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ)، قال مقاتل بن سليمان في تفسيره: يعني رجعتُم إلى دينكم الأول الشِّرك ^(٣). قال ابن إسحاق في قوله تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ) الآية. قال: أي لقول الناس: قُتِل مُحَمَّدٌ ﷺ وانخرامهم عند ذلك وانصرافهم عن عدوهم.

وفي قوله تعالى: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) الآية. قال: رجعتُم عن دينكم كفاراً كما كنتم! قد بيّن لكم فيما جاءكم به عني أنّه ميّت ومُفارقكم ^(٤).

هذا هو حال الذين استترّهم الشيطان فأطاعوا أمره: (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا) ^(٥) الآية.

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) تفسير ابن أبي زمنين ١: ١٢٩.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ١: ١٩٤.

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام ٣: ١١٧.

(٥) آل عمران: ١٥٥.

أزالهم الشيطان عن مواضعهم بذنوبهم ومعصيتهم النبي ﷺ فأبعدهم إلى الصخرة والجلع، ولم يكن فيهم عليّ أمير المؤمنين عليه السلام الذي يؤس الشيطان أن يقربه؛ فكان في صفّ (وَسَيِّجَرِي الله الشَّاكِرِينَ)، أي: مَنْ أطاعه وعَمِلَ بأمره^(١).

ويوم الأحزاب «الخنْدَق» إذ جاءت جيوش الشرك واليهود يقودها الأمويّ أبوسفیان مصمّمون على احتشاث الإسلام والمسلمين وتمكّن عمرو بن عبدودّ في جماعةٍ من عبور الخندق ورفع صوته مطالباً مَنْ يبارزه، فنهض أبو الحسن عليّ عليه السلام فما حنّس غيره، فأجلسه النبي ﷺ، وهكذا ثانية وثالثة وفي كلّ مرّة اتّقلّ مَنْ حول النبي ﷺ إلّا أمير المؤمنين عليه السلام، فبرز إليه فضربه ضربةً قدّت البيضة على رأسه والمغفر وشطّر بدنه نصفين وولّت خيول المشركين هاربة فعبرت الخندق وكفى الله المسلمين بعليّ عليه السلام القتال وتنقّس المرتابون الصعداء!

ومواقف الخلاف والعار والفرار كثيرة، من ذلك: يوم خيبر، لما أراد رسول الله ﷺ أن يُظهر حقائق القوم، فشاء الله تعالى بحكمته أن يكون عليّ عليه السلام يومئذ أرمداً، فدفع النبيّ الرّاية إلى أبي بكر ففرّ هو وجماعته، فأعطاه إلى عمر ففرّ هو وجماعته، فقال ﷺ: «لأعطينّ الرّاية غداً رجلاً يُحِبُّ الله ورسوله ويُحِبُّه الله ورسوله يفتح الله له ليس بفرّار». فلمّا كان الغد دعا عليّاً عليه السلام فتقلّ في عينه فبرأ، ثمّ هزّ الرّاية ودفعها إليه، فذهب بها يهرول فقتل مَرْحَب عظيم اليهود وقلع باب حصنهم وكان الفتح على يديه. وقد ذكرنا تفاصيل ذلك ومصادره في حديثنا في الردّ على الناصبيّ الجاهل ابن تيميّه، في حديث الرّاية وفتح خيبر.

(١) السيرة النبويّة ١: ١١٨.

إنَّ أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام وهو ربيب رسول الله ﷺ قد بلغ إيمانه حدَّ اليقين، فهو يعلم أنَّ رسول الله ﷺ يموت، ولكن الله تعالى حيٌّ لا يموت والشرعة خالدة ما دامت السماوات والأربعون؛ ولذا لم يكن لإذاعة الشيطان أثر في نفس أمير المؤمنين عليه السلام إلاَّ المضيَّ قدماً في الذبِّ عن رسول الله ﷺ وقهر الشرك وجندلة صناديده. ومضى عليٌّ عليه السلام على هذه السيرة، هو في سوح القتال شهد له الوحي في السماء والعدوُّ في الأرض، وهو عليه السلام كان يقول في حياة النبي: إنَّ الله تعالى يقول: (أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ)، والله لا ننقلب على أعقابنا أبداً بعد أن هدانا الله، والله لئن مات أو قُتل لأقاتلن على ما قاتل عليه حتى أموت ...

ولم يخضع عليٌّ أمير المؤمنين عليه السلام لسيرة أصحاب «الأريكة» في بثِّ حديث رسول الله ﷺ، فيما خضع عدد من الصحابة لمشيتهم فامتنعوا من التحديث، بل عمد بعضهم إلى تلف ما لديهم من أحاديث! وتعرَّض عدد آخر للحبس لئلاَّ ينشروا الحديث!

عمر يقتفي سَنَة أبي بكر

ولما ترنَّع عمر على أريكة الحكم أبدى في بداية أمره رغبةً في جمع الحديث وكتابة السُّنن، إلَّا أنَّه بعد مدَّة منع من التدوين وبشدةٍ للغاية إلى حدِّ أنَّ عمَّ ذلك في أمر رسميَّ على الجميع. وإزاء سياسة عمر المتشدِّدة فقد تبعه عددٌ من الصحابة هم: أبو سعيد

الْحُدْرِيَّ، وعبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري^(١). وَحَتَّى أَوْلَئِكَ الْقَلَّةُ الْمَانِعَةُ نَجْدَهُمْ يَكْتُبُونَ الْحَدِيثَ بَعْدَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ^(٢).

والذي يعترض طريقنا في هذا المضمار جملة أمور:

١ - لم يكن لعمر وَمَنْ تبعه في المنع نص شرعي يستند إليه، حالهم في ذلك حال أبي بكر الذي وجد كتابة الحديث معمول بها في أيام رسول الله ﷺ، بل وأمر ﷺ بوجوب كتابة أحاديثه ونشرها، فقام أبو بكر أولاً إذ انتهت إليه الأريكة بعملية تدوين الأحاديث وجمعها ثم عدا عليها فحرقها ولم يكن له ما يتذرع به من حجة شرعية إلا قوله: «حشيتُ أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به، ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذلك». ذكرنا كلامه هذا سابقاً.

٢ - مخالفة الصحابة، وهم الأكثر عدداً، لإجراء المنع، مع أنَّ هذا العدد مَنْ هو أكثر اتصالاً بالنبي ﷺ من أقاربه وخاصته، مثل أمير المؤمنين عليّ ؑ؛ وأيضاً أنس بن مالك خادمه، وعائشة زوجته.

فلو كان التدوين ثابتاً - شرعياً - أنه الحرمة والمنع، لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام، وأنس وأمثاله يخفى عليهم ذلك الحكم. ولقد كان هؤلاء من المصرين على إباحة التدوين ومزاولين له وقد أُرِثَ عنهم كتبٌ ومؤلفات في الحديث. ولو كان إجراء عمر شرعياً لما خالفوه.

(١) مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث: ٢٩٦.

(٢) دراسات في السنة النبوية الشريفة، للدكتور صديق عبد العظيم أبي الحسن: ١٠٤.

ربّما يُقال: إنّ الصحابة اختلفوا في تدوين الحديث، فمنهم من ترك ذلك ومنهم من فعلها أو أباحها؛ ولا يمكن والحال هذه تقديم الترك على الفعل، لأنّ دلالة الفعل نصّ ودلالة الترك ظاهر، لأنّه أعمّ من الحرمة وتقديم النصّ على الظاهر أولى.

ونظراً لذلك يمكن الجزم بأنّ إجراء المنع إنّما رأيّ خاصّ بعمر لتحقيق غرضٍ خاصّ به. والنصوص في حديث عمر وأتباعه، صريحة بنفسها على أنّهم لم يكن لهم أصل شرعيّ وإنّما هو رأيّ رأوه لتحقيق أمرٍ ما. فوجب دراسة النصوص:

«قال عُروة بن الزبير: إنّ عمر بن الخطّاب أراد أن يكتب السنن فاستشار في ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق عمر يستخير الله فيها شهراً! ثمّ أصبح يوماً، وقد عزم الله له! فقال: إنّني كنت أردت أن أكتب السنن، وإنّي ذكرت قوماً قبلكم كتبوا كتباً، فأكتبوا عليها، فتركوا كتاب الله تعالى وإنّي والله لا ألبس كتاب الله بشيءٍ أبداً»^(١).

يدلّ هذا النصّ على أمور غاية في الأهمية:

١ - إنّ الكتابة في الأصل لم تكن حراماً ولا ممنوعة، وإلاّ كيف أراد عمر أن يكتب السنن؟

(١) تقييد العلم، للخطيب البغدادي: ٤٩. (والغريب أنّ النصّ يحتوي على نسبة ذلك إلى الله تعالى بقوله: ثمّ أصبح وقد عزم الله له. قال أبو شعبة: ولكن الله لم يرد له. دفاع عن السنّة: ٢١، لابن شعبة.

والنص يدل على أن عمر لم يعرف من النبي ﷺ نهيًا عن التدوين، فأخذ يستشير الصحابة، مضافاً إلى أنه لم يستدل بالنهي الشرعي، وإنما علل بغير ذلك، كما سيحيى. قال المعلمي في ذلك: فلو كان النبي ﷺ نهي عن كتابة الأحاديث مطلقاً لما همّ بها عمر، وأشار بها عليه الصحابة ^(١).

٢ - إن أصحاب رسول الله ﷺ، أو عامتهم، أشاروا عليه أن يكتبها.
٣ - إن عمر - بالرغم من أنه استشار الأصحاب فأشاروا عليه أن يكتب الحديث - خالفهم ولم يأخذ بآرائهم، بل منع الكتابة.
وقال «يحيى بن جعدة: إن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنة ثم بدا له أن لا يكتبها، ثم كتب في الأمصار: «من كان عنده منها شيء فليمنحه» ^(٢).
وبملاحظة هذا النص نجد أنه يحتوي على:

١ - إرادة عمر لكتابة السنة. وهذا معناه أن الكتابة لم يكن فيها حرج أو منع في أصل الشرع.

٢ - إن قوله: «أراد» وقوله: «بدا له» يدلان بوضوح على أن إقدام عمر كان عن رغبة شخصية، وأنه كان يعمل ما يبدو له، كما دل عليه النص السابق، وإلا لاستند إلى إرادة الشارع ونهيه.

وقال «القاسم بن محمد بن أبي بكر: إن عمر بن الخطاب بلغه أنه قد ظهر

(١) الأنوار الكاشفة، للمعلمي اليماني: ٣٨.

(٢) تقييد العلم: ٥٣.

في أيدي الناس كُتِبَ، فاستنكرها وكرهها، وقال: أيُّها الناس، إنَّه قد بلغني أنَّه قد ظهرت في أيديكم كُتِبَ، فأحبُّها إلى الله أعدُّها وأقومُها، فلا يُيقِنَ أحدٌ عنده كتاباً إلاَّ أتاني به، فأرى فيه رأيي.

قال: فظنُّوا أنَّه يُريد أن ينظر فيها ويُقوِّمها على أمرٍ لا يكون فيه اختلاف، فأتَّوَّه بكتبهم، فأحرقها بالنار.

ثمَّ قال: أُمْنِيَّة كَأُمْنِيَّة أَهْل الْكِتَاب ^(١).

وفي بعض النقول: مَثْنَاءُ كَمَثْنَاءِ أَهْل الْكِتَاب ^(٢).
المستفاد من النص:

١ - قوله: «قد ظهرت في أيدي الناس كُتِبَ».

يدلُّ هذا على أنَّ الكتب كانت منتشرة بين الناس لا يجدون حرجاً من تداولها، ولو كانت ثمة حرمة في ذلك وهم أبناء الصدر الأوَّل للإسلام، والكتب فيها ما كتبه الصحابة...

وهذا - في نفسه دليل على أنَّ حكم التدوين - أوَّلاً، وقبل منع عمر هو الجواز والإباحة.

٢ - قوله: فاستنكرها، وكرهها.

وهذا يعني أنَّ الأمر راجع إلى عمر وسلوكه وكرهته لتلك الكتب دونَ أن يكون فيها ما يوجب الكراهة والاستنكار؛ وذلك: لأنَّ عمر إنما كره الكتب

(١) نفسه: ٥٢.

(٢) طبقات ابن سعد ١: ١٤٠ (طبع ليدن). والصواب مشناه - بالشين والهاء، كما سيأتي -.

واستنكرها قبل أن يراها!، كذلك وجود الكتب في أيدي الناس، وكما ذكرنا أنهم أبناء الصدر الأول للإسلام إما صحابة أو أخذوها عن صحابة، واحتفاظهم بها، دليل على عدم احتوائها على ما يُنكر ويكره، وإلاّ لصرّح عمر بما فيها ليكون شافعاً في حرقها، مع تحفظنا من مسألة الحرق لاحتواء الكتب على ألفاظ الجلالة وآيات القرآن الكريم!

٣ - قوله: فظنّوا ...

دلالتة ظاهرة في الفرق الكبير بين الناس وعمر. فالناس ظنّوا به خيراً وأحضروا إليه أعزّ ما يملكون «الكتب»، وعمر عمل بما لا يأملونه منه فخاب ظنّهم إذ أحرق كتبهم، ولو علموا ذلك، لما أحضروا إليه الكتب ولأخفّوها عنه.

وأخيراً: فإنّ لجوء عمر إلى «حرق كتب السنّة بالنار» عملٌ غريب لأكثر من إشكال: فالكتب تلك هي أموال الناس الخاصّة ولا يجوز التصرّف فيها فضلاً عن حرقها من دون رضاهم. ولا ندري هل علماء الإسلام موافقون بالإجماع على هذا العمل خصوصاً وأنّ عمر قد صرّح باحتمال احتوائها على «الأعدل، والأقوم»، وقطعاً أنّ فيها كثيراً من سنن رسول الله ﷺ، لفرض أنّ الكتب كانت صادرةً من الناس الذين فيهم علماء الصحابة.

فإذا كان عدد الأحاديث التي صرّح أبو بكر بحرقها هي «خمسمائة»، فإنّ الذي أتلفه عمر أكثر بكثير من ذلك! والذين وافقوا عمر لكن لا بالإحراق وإنّما بالغسل بالماء كما فعل أبو موسى الأشعري وابن مسعود وغيرهما. ثمّ خفّت

(والحمد لله!) فيما تلا ذلك من العصور، من الإحراق والغسل، إلى مجرد الدفن!.
قال إبراهيم بن هاشم: دفنّا لبشر بن الحارث ثمانية عشر ما بين قمطر وقوصرة^(١).

أحمد، وابن الجوزي يُنكران دفن الكتب

قال أحمد بن حنبل: «لا أعلم لدفن الكتب معنى»^(٢).

وجعل ابن الجوزي «دفن كتب العلم، وإلقائها في الماء» من تلبيس إبليس على جماعة من القوم، وقد كان جماعة منهم تشاغلوا بكتابة العلم، ثم لبس عليهم إبليس وقال: «ما المقصود إلاّ العمل» ودفنوا كتبهم. وأضاف: إنّ العلم نور، وإنّ إبليس يُحسّن للإنسان إطفاء النور، ليتمكن منه في الظلمة، ولا ظلمة كظلمة الجهل، ولما خاف إبليس أن يعاود هؤلاء مطالعة الكتب، فرمّا استدّلوا بذلك على مكايده حسّن لهم دفن الكتب وإتلافها.

وهذا فعلٌ قبيحٌ محظورٌ، وجهلٌ بالمقصود بالكتب.

وقال: وأعلم أنّ الصحابة ضَبَطَت أَلْفَاظَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ... فإذا كانت الصحابة قد روت السُنَّة، وتلقّاها التابعون وسائر المحدثين، وقطعوا شرق الأرض وغربها لتحصيل كلمة من هاهنا، وكلمة من هاهنا، وصحّحوا ما صحّ وزيّقوا ما لم يصحّ، وجرحوا الرواة وعدّلوا، وهذبوا السنن وصنّفوا.

(١) تقييد العلم: ٦٢ - ٦٣.

(٢) نفسه.

ثمّ مَنْ يغسل ذلك، فيضَيِّع التعب، ولا يعرف حكم الله في حادثة؟! فما عوندت الشريعة بمثل هذا!.

أفترى، إذا غُسِلَت الكتب، ودُفِنَتْ؛ على مَنْ يُعْتَمَدُ في الفتاوى والحوادث ^(١)؟! إنَّ استنكار أحمد، وابن الجوزيَّ للدفن، الذي هو واحدٌ من طُرُق إبادة الحديث، وهو أهون من طريق حرق الكتب أو غسلها بالماء حيث لا يمكن بعد استعادتها، أمّا المدفونة فربّما أُخرجت قبل أن تتلف. وعلى هذا، إذا كان ابن حنبل، وابن الجوزيَّ يستنكران دفن الكتب، فهما بالأولى يستنكران الإحراق بالنار أيّما كان فاعله! إنَّ إتلاف كتب الغير من غير رضئ، محرمٌ شرعاً وموجب للضمان وضعاً. وهو إضافة إلى المسؤولية الشرعية، فهو مسؤولية حضارية تستوجب الحساب والعقاب مهما كانت منزلة الفاعل الاجتماعية.

موافقوا عمر في رأيه وفعله

خضع نفر من الصحابة لدستور عمر وعملوا به، بعد أن كانوا يكتبون حديث رسول الله ﷺ، من غير حرج، فصاروا متشددين في المنع، ومنهم مَنْ رجع إلى مزاولته بعد وفاة عمر! قال أبو نضرة: قلنا لأبي سعيد - الحُدريّ - اكتتبنا من حديث رسول

(١) تلبس إبليس، لأبي الفرج ابن الجوزي: ٣١٤ - ٣١٦.

الله ﷺ ؟

قال: انْحَهِ (١).

قال عبد الرحمان بن أبي مسعود: كُنَّا نَسْمَعُ الشَّيْءَ فَنَكْتِبُهُ، ففَطَنَ لَنَا عبد الله - يعني: ابن مسعود - فدعا أُمَّ ولده، ودعا بالكتاب، وبإجانة من ماءٍ، فغسله (٢).
وقال أبو بُردة: كان لأبي موسى - الأشعريّ - تابعٌ، فقذفه في الإسلام، فقال لي: يُوشِكُ أبو موسى أن يذهب ولا يُحْفَظُ حديثه، فاكتب عنه.

قال: قلتُ: نَعَمْ ما رأيتَ.

قال: فجعلتُ أكتبُ حديثه.

قال: فحدّث حديثاً فذهبتُ أكتبُه كما كنتُ أفعل، فارتاب بي وقال: لعلّك تكتب حديثي؟
قال: قلت نعم.

قال: فأتني بكلّ شيءٍ كتبتُه.

قال: فأتيته به، فمحاؤه، ثمّ قال: احفظ كما حفظتُ (٣).

وهؤلاء حالهم حال عمر، فهم:

- ١ - لم يحاولوا أن ينسبوا شيئاً إلى الشرع، أو يستدلّوا بنصٍّ عن رسول الله ﷺ.
- ٢ - إنّ إقدام هؤلاء لم يكن إلّا رأياً منهم، فلم يكن ملزماً للآخرين، لأنّه:

(١) تقييد العلم: ٣٨.

(٢) سنن الدارمي ١: ١٠٢.

(٣) طبقات ابن سعد ٤: ١١٢.

أولاً: مخالفٌ لما نُبِتَ في الشرع من إباحة التدوين، على ما سلف من الكلام. وخلاصته أنه اجتهاذٌ - في تحسين العبارة! - في مقابل النص؛ وإلاّ فهو الخلاف والهلاك الذي قال عنه ابن عباس:

روى سعيد بن جبّير، عن ابن عباس، قال: تمتّع النبي ﷺ .

فقال عروة بن الزبير: نهى أبوبكر، وعمر عن المتعة!

قال: ابن عباس: ما يقول عروة؟!

قال: يقول: «نهى أبوبكر، وعمر عن المتعة»!.

فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول: «قال النبي ﷺ». ويقول: «نهى أبوبكر وعمر»

(١).

وكان عبد الله بن عمر يُفتي بالذي أنزل الله عزّ وجلّ من الرخصة بالتمتّع، وبما سنّ رسولُ الله

ﷺ فيها، فقال ناسٌ لابن عمر: كيف تُخالفُ أباك، وقد نهى عن ذلك؟.

فقال لهم: ويْلَكم، ألا تتقون الله؟ إن كان عمر نهى عن ذلك، فبُيتغى فيه الخير؟!

فلم يُحرّمون ذلك، وقد أحلّه الله، وعمل به رسول الله عليه الصلاة

(١) مسند أحمد - طبعة شاكر - ٥: ٣١٢١/٤٨ وطبعة مصر (٦ أجزاء) ١: ٣٣٧، الفقيه والمتفقه ١: ١٤٥، السنة

قبل التدوين: ٨٨. [آل الزبير عندهم عُقدة شديدة من المتعة، ومناظرات عبد الله بن الزبير مع ابن عباس كثيرة في هذا الأمر حتّى أخرج ابن عباس وأثبت له أنّه ابن مُتعة! وتكلّمنا بما فيه الكفاية في موضعه عن ذلك].

والسلام؟!

أفرسول الله ﷺ أحق أن تتبعوا سنته؟ أم سنة عمر ^(١)؟!

وللشافعي في ذلك قول قاطع، قال:

لقد ضلّ من ترك قول رسول الله ﷺ لقول من بعده ^(٢) . وقال ابن حزم: ومن جاءه خبر عن رسول الله ﷺ ، يُقرُّ أنه صحيح، وأنّ الحجّة تقوم بمثله، أو قد صحّح مثل ذلك الخبر في مكان آخر، ثم ترك مثله في هذا المكان، لقياس، أو لقول فلان وفلان؛ فقد خالف أمر الله ورسوله، واستحقّ الفتنة، والعذاب الأليم ^(٣) .

وقال الدكتور عبد الغني عبد الخالق: لا يصحّ لنا أن نقول بالتعارض بين قول صحابيٍّ، وبين قول النبي ﷺ والإجماع، فإنّهما مقدّمان عندنا. وقال: إنّ عمل الصحابيٍّ، أو قوله، ليس بحجّة ^(٤) .

أساليب عمر في المنع

«قال قرظة بن كعب: بعثنا عمر بن الخطّاب إلى الكوفة، وشيّعنا إلى موضع قرب المدينة، يقال له: «صِرار»، وقال: أتدرون لم شيّعتمكم، أو مشيت معكم؟ قال: قلنا: نعم؛ لحقّ صُحبة رسول الله، أو: نحن أصحاب رسول الله ﷺ ،

(١) مسند أحمد - طبعة شاكر - ٨: ٧٧ / ٥٧٠٠ . وإسناده صحيح ونقله ابن كثير في البداية والنهاية ٥: ١٤١ ،

السنة قبل التدوين: ٩٠ .

(٢) الفقيه والمتفقه ١: ١٤٩ .

(٣) الأحكام، لابن حزم ١: ٩٨ .

(٤) حجة السنة، عبد الغني عبد الخالق: ٤٦٥ .

ولحق الأنصار.

قال عمر: لكتي مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به، فأردت أن تحفظوه لمشاي معكم: إنكم تُقدمون على قوم، أو تأتون قوماً تهنأ ألسنتهم بالقرآن اهتزاز النخل - أو: للقرآن في صدورهم هزير كهزير المزجل، أو: لهم دوي بالقرآن كدوي النخل - فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم، وقالوا: أصحاب محمد ﷺ - أو: فيأتونكم، فيسألونكم عن الحديث -؟ فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم^(١)!

وفي المستدرک علی الصحیحین، بسنده عن قرظة بن كعب قال:

خرجنا نريد العراق، فمشى معنا عمر بن الخطاب إلى صرار، فتوضأ ثم قال: لم مشيت معكم؟ قالوا: نعم، نحن أصحاب رسول الله ﷺ مشيت معنا، قال: إنكم تأتون أهل قرية لهم دوي بالقرآن كدوي النخل، فلا تبدونهم بالأحاديث فيشغلونكم، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ وأمضوا وأنا شريككم. فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا، قال: نهانا ابن الخطاب.

هذا حديث صحيح الإسناد له طرُق تُجمع ويُذكر بها، وقرظة بن كعب الأنصاري صحابي سمع من رسول الله ﷺ، ومن شرطنا في الصحابة أن لا

(١) ذكرناه بألفاظه المختلفة من مصادره:

طبقات ابن سعد: ٦، سنن الدارمي: ١: ٧٣ ح ٢٨٥ و ٢٨٦، سنن ابن ماجه: ١: ١٢ ح ٢٨، باب التوقي في الحديث، شرف أصحاب الحديث، للخطيب: ٩٢، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر: ٢: ١٢٠، تذكرة الحفاظ: ١: ٧، كنز العمال: ٢: ٢٨٤ - ٢٨٥/رقم ٤٠١٧.

نطويهم، وأما سائر رواته فقد احتجّا به ^(١).

عجب! أناس لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل، فلماذا أرسل عمر إليهم عدداً من صحابة رسول الله ﷺ؟ ألا يكفيهم كتاب الله تعالى أم أنهم مفتقرون إلى من صحب رسول الله ﷺ وعلم سننه ممّا ليس في القرآن الكريم، وسمعوا منه ﷺ تفصيل المَجْمَل من كتاب الله تعالى؛ فهم بهذا حملة قرآن كريم وحديث شريف، فلمّ النهي الشديد عن حديث رسول الله ﷺ، والدخول من قِبَل صاحب الأريكة في شراكة مع وفده في ذلك المنع؟! وما هذا التعلّل بتجريد القرآن؟! أي أن لا يتحدثوا بأحاديث رسول الله ﷺ، لئلاّ يختلط بالقرآن!!

قومٌ ليسوا من البربر ولا أقاصي الصين والهند، إنّما هم جمجمة العرب وأشهر أمصارها «الكوفة» حاضرة العلم والفقهاء... وبعد: فهم قوم لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل - بوصف عمر -، فكيف والحال هذه يغيب عليهم ما هو من القرآن أو من غيره؟

والقرآن جاء معجزاً ببلاغته ولفظه، فكيف يجاريه حديث بشر حتّى وإن كان من حديث رسول الله ﷺ؟! إنّ القرآن الكريم الذي بأيدي الصحابة وبأيدي أولئك الذين لهم دويّ بالقرآن كدويّ النحل؛ القرآن هو نفس القرآن الذي بأيدينا اليوم، وسيبقى نفسه إذ تكفل الله تعالى بحفظه حتّى قيام الساعة: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(٢).

(١) المستدرک علی الصحیحین ١: ١٨٣/٣٤٧. قال في التلخيص ذيل المصدر: صحيح وله طرق.

(٢) الحجر: ٩.

فالقرآن غير الكتب السابقة التي امتدّت إليها يدُ التحريف والتغيير وأمّا القرآن فالإجماع حاصل على أنّه لم ترد فيه سورة ولا آية، بل ولا كلمة ولا نقطة؛ ولم يسقط منه شيء من كلّ ذلك، فهو معصوم بمشيئة الله تعالى.

إلاّ أن يكون مصحف الفاروق عمر فيه اختلاف وزيادات غابت عن أهل الكوفة وغيرهم وثبتت في مصحفه لعنايته الفائقة بالقرآن، فأراد أن يفيدهم بها - هذا في أحسن الظنّ -، فضلاً عن سوء ظنّه بالناس! وأنّهم سيعرض لهم ما عرض له - أي لعمر - من تجربة التهوك، فنهرو رسول الله ﷺ على رؤوس الأشهاد أخذَه من اليهود ونَبّهه أن لا يعود لمثل ذلك ولا يُلبس القرآن بغيره ممّا يجده بأيدي اليهود، لا بأحاديث رسول الله ﷺ لأنّ الأخيرة لفظها مُباين لألفاظ أهل الكتاب، ولأنّ الصحابة قد سمعوها وميّزوها، وسيأتي الكلام عن التهوك.

مُصحف عمر بن الخطّاب

عن سعيد بن المسيّب قال: لما أفاض عمر من مِثْنِ أناخ بالأبطح فكوم كومة من بطحاء وطرح عليها طرف ثوبه ثمّ استلقى عليها ورفع يديه إلى السماء وقال: اللّهمّ كُبرْتُ سِنِّي وضعُفت قوَّتِي وانتشرت رعيَّتِي، فاقبضني إليك غيرَ مضِيع ولا مفرّط. فلما قدم المدينة خطبَ الناس فقال: أيّها الناس، قد فُرِضت لكم الفرائض وسُنّت لكم السُّنن وتُركتم على الواضحة، ثمّ صَفَقَ يمينه على شماله، وقال: إلاّ أن تَضَلُّوا بالناس يميناً وشمالاً، ثمّ إِيّاكم ان تهلكوا عن آية الرجم وأن يقول قائل: لا نُحَدِّثُ حَدِيثَين في كتاب الله، فقد رأيت رسول الله ﷺ [

رجم ورجمنا بعده، فوالله لو لا أن يقول الناس أحدثَ عمرُ في كتاب الله، لكتبته في المصحف، فقد قرأناها، والشيخُ والشيخةُ إذا زنيا فارجموهما البتّة. قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة حتى طعن (١).

إنَّ عمر يؤكّد على مسألة خطيرة تلك هي نقصان القرآن الكريم من آية فتعطّل بذلك حكم من أحكام الشريعة!

وإذا كان قد ذكر هنا أنّه قد سقطت من القرآن آية واحدة، فإنّه ذكر أنّ كثيراً من القرآن قد سقط!

«أخرج عبد الرزّاق في المصنّف عن ابن عبّاس قال: أمر عمر بن الخطّاب مناديه فنادى أنّ الصلاة جامعة، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا أيّها الناس، لا تجزئنّ من آية الرّجم، فإنّها آية نزلت في كتاب الله وقرأناها، ولكنّها ذهبت في قرآن كثير ذهب مع محمّد (٢)!! وهنا المصيبة أعظم وأدعى من وجهين أولهما:

أنّه لم يكتفِ بالتشكيك بصحّة القرآن الكريم وأنّه على حاله الذي أنزله الوحي الكريم وتكفّله الربّ العظيم، فلم يشبع رغبته في ذلك آية الرجم المزعومة، وإنّما ذهب إلى القول: لكنّها ذهبت في قرآن كثير! ولم يحدّد هذا الكثير ممّا يفتح الباب لمن يزعم بعده أنّ هذا كان من القرآن وقد سقط، ويأتي بكلامٍ من عنده!

(١) طبقات ابن سعد ٣: ٢٥٥.

(٢) الدرّ المنثور ٥: ١٧٩.

ومسألة أخرى: أنه لم يذكر من هذا الكثير الذي كان من القرآن الكريم ثم سقط إلا آية الرجم للشيخ والشيخة، وما ذكره من سقوط سورتين من القرآن!! وتحريفه لنص آية - سنأتي على ذلك -؛ فلو أنه ذكر ذلك الكثير أو الكثير من الكثير، فعله أفاد المسلمين بذلك؟!

واعتراض آخر: أين غاب طليعة السبق إلى الإسلام، وأول سابق هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي تربى في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يفارقه ليلة الخميس فيلتحق في صف أهل السقيفة التي وطأت الأمر لأهل «الأريكة»، وكان عليه السلام يسمع الوحي ويراه إلا أنه ليس بنبي كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . هلاً سمع وسمع صاحبه «أبو بكر» وأفاضل الصحابة ما سمعه عمر؟!!

الطامة العظمى: وكما أن عمر كان من المتهوكين كما قال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ كان من المفتنين بأهل الكتاب وأحضر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نسخاً من كتبهم أعجبه فنهزه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغضب - يأتي بيانه -، وأنه هدم ركن النبوة كما ذكرنا في أكثر من موضع من ذلك يوم أحد حينما كان مع طلحة ومجموعة فلما سئلوا قالوا: قُتل محمد! ويوم الرزية وما أحدثه من الجلبة في معارضته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتابة الكتاب وقوله: إن الرجل ليَهْجُر، أي يهذي لا يدري ما يقول - معاذ الله -، وكما سمّاه وجماعته «محمد»! من غير أن يكلفوا أنفسهم أن يقولوا: قُتل رسول الله، أو قُتل نبي الله؛ فهو هنا أيضاً سلك ذات المسلك، فإنّ محمداً صلى الله عليه وآله وسلم رجل جاء بشيء اسمه قرآن فلما ذهب؛ وهذه لا تخلو من سوء، فهي تعني انتهى أمره...؛ ذهب معه كثير ممّا جاء به من قرآن!.

ومّا جاء في مصحف عمر: ما ذكره في كنز العمّال، من مسند عمر، عن المِسْوَر بن مَخْزُمة قال: قال عمر لعبد الرحمان بن عَوْف: أَلَمْ نَجِدْ فيما أنزل علينا أن (جاهدوا كما جاهدتم أوّل مرّة)؟، فإنّا لم نجدها، قال: أُسْقِطْ من القرآن ^(١)!.

غفرانك ربّنا أن نقول ما قالوا، ونبرأ إليك من ذلك.

ومن ذلك: عن عدي بن عدي بن عميرة بن فَرَوَة ^(٢) عن أبيه عن جدّه، أنّ عمر بن الخطّاب قال لأبي: أو ليس كنّا نقرأ من كتاب الله: أنّ انتفاءكم من آبائكم كفر؟ فقال: بلى، ثمّ قال: أو ليس كنّا نقرأ: الولد للفراش وللعاهر الحجر؟ فقد فيما فقدنا من كتاب الله؟ قال: بلى ^(٣).

آيةٌ أخرى

وأخرج في كنز العمّال «من مسند عمر» عن حذيفة، قال: قال عمر بن الخطّاب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلتُ: اثنتين أو ثلاثاً وسبعين، قال: كانت

(١) كنز العمّال ٢: ٤٧٤١/٥٦٧.

(٢) ذكره العجليّ فقال: ثقة (تاريخ الثقات: ٣٣٠/١١١٦). عمل لمّر بن عبد العزيز مات سنة (١٢٠). تاريخ البخاري الكبير (٤: ١: ٤٤) والثقات، لابن حبان ٥: ٢٧٠، الجرح والتعديل: ٧/ الترجمة ٦،

(٣) كنز العمّال ٦: ٣٧٢١٥/٢٠٨.

لتقارب سورة البقرة، وإن كان فيها آية الرِّجْم ^(١). ومثله ذكر ابن مَرْذُويه بسنده عن حُذيفة ^(٢). وعن زِرِّ - بن حُبَيْش، قال: قال لي أبي بن كعب: يا زِرِّ، كأَيِّن تقرأ سورة الأحزاب؟ قلتُ ثلاثاً وسبعين آية، قال: إن كانت لتضاهي سورة البقرة، أو هي أطول من سورة البقرة، وإن كنّا لنقرأ فيها آية الرِّجْم. وفي لفظ آخر في آخرها الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله. والله عزيزٌ حكيم. فرفع فيما رُفِع ^(٣).

وعن عمر قال: قرأ رجلان من الأنصار سورةً أقرأهما رسولُ الله ﷺ وكانا يقرآن بها فقاما يقرآن بها ذات ليلة يصلّيان، فلم يقدرَا على حرفٍ منها، فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك له فقال رسول الله ﷺ: إثمهما ممّا نُسَخ أو نُسِيَ فاهوّا عنها ^(٤). وقد شايعه ابنُه عبد الله مع اختلاف في آخره، قال: وأنسي. رواه الطبراني في الأوسط ^(٥).

(١) نفسه ٢: ٤٨٠/٤٥٥٠، مسند أحمد ٥: ١٣٢؛ المستدرک علی الصحیحین ٢: ٤١٥، و ٤: ٣٥٩، سنن البيهقي ٨: ٢١١.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه: ٥٦٧.

(٤) مجمع الزوائد ٦: ٣١٥.

(٥) نفسه ٧: ١٥٦.

تحريفُ كتاب الله عزّ وجلّ

أنزل الله تعالى القرآن العظيم وتكفل حفظه وصوّته من التحريف الذي مارسه اليهود والنصارى وغيرهم بما أنزل الله عزّ وجلّ: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(١)، (الرَّتِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) ^(٢)، (الرَّكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) ^(٣) فالقرآن الكريم نزل به جبريل الأمين على النبيّ الصادق الأمين من لدن حَكِيمٍ في أقواله، خبير بعواقب الأمور. فأياته محكمة في لفظها، مصونة من أيّ دخل؛ مفصّلة في معناها، فهو كامل صورةً ومعنىً، ولذا بقي على الصورة التي نزلت على رسول الله ﷺ رغم محاولات البعض العبث ببعض ألفاظه فذهبت محاولاتهم هباءً منثوراً.

محاولات البعض: من طُرُقٍ مختلفة، أنّ عمر بن الخطّاب كان يقرأ «فاسعوا» في سورة الجمعة «فامضوا».

ذكر مالك في الموطأ، قال: حدّثني يحيى عن مالك أنّه سأل ابن شهاب - الزهريّ - عن قول الله عزّ وجلّ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) ^(٤) الآية؛ فقال ابن شهاب: كان عمر بن الخطّاب يقرأها: إذا

(١) الحجّ: ٩.

(٢) يونس: ١.

(٣) هود: ١.

(٤) الجمعة: ٩.

نودي للصلاة من يوم الجمعة فامضوا إلى ذكر الله. ^(١)

ومثله ذكر البخاري ^(٢).

وأخرج الطبري بسنده، قال: حدثنا عبد الحميد بن بيان السكري، قال: أخبرنا سفيان، عن الزهري، عن سالم - بن عبد الله بن عمر -، عن أبيه، قال: ما سمعتُ عمر يقرأها قطّ إلا فامضوا ^(٣).

والطبري: حدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا ابن عدي، عن شعبة، قال: أخبرني مغيرة، عن إبراهيم أنه قيل لعمر: إن أباي يقرأها: «فاسعوا»، قال: أما إنّه أقرؤنا وأعلمنا بالمنسوخ، وإنما هي «فامضوا» ^(٤).

هذا بعض ما ورد عن عمر بشأن القرآن؛ فجمع بذلك أمرين:

الأول: هو المنع من حديث رسول الله ﷺ، ومارسه عملياً بجمع كتب الحديث لدى الناس فأحرقها، ففقد بذلك كثير من أحكام الله تعالى!.

والثاني: نسبته إلى القرآن ما ليس منه، وتحديده لله تعالى بهتكه حرمة القرآن الكريم، بزعمه سقوط الكثير منه، فخالف هذا قول الله تعالى بتكليفه صون القرآن وحفظه.

ولعل ما كان من عمر بشأن القرآن هو الذي شجّع غيره على ممارسة

(١) الموطأ، لمالك ١: ١٠٦/١٣.

(٢) صحيح البخاري ١: ١٠٦/١٣ - باب تفسير القرآن -.

(٣) تفسير الطبري ٢٧: ١٢٧/٢٦٤٢٨.

(٤) نفسه/٢٦٤٢٩.

إساءاتٍ في تحريف بعض آيات القرآن المبين؛ أو تأييد قول عمر، وقد ذكرنا قول أبي بن كعب: إنَّ سورة الأحزاب كانت أطول من سورة البقرة، ثمَّ زعم أنَّ آية الرِّجْم منها؛ وهو قول عمر، ثمَّ قرأ آيةً مفتعلة.

وذكرنا تأييد ابن عمر لأبيه في زعمه أنَّ سورتين من القرآن نُسختا أو نُسيتا.

أُمّهات المؤمنين يُحرّفن آية

حدّث يحيى بن يحيى التميمي، قال: قرأتُ على مالك عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي يونس مولى عائشة أنّه قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً وقالت: إذا بلغت هذه الآية فاذني: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) ^(١)، فلمّا بلغتْها أذنْتُها فأملت عليّ «حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين» قالت عائشة: سمعتها من رسول الله ﷺ ^(٢).

ويسندين عن أمّ حميد بنت عبد الرحمان، أنّها سألت عائشة عن الصلاة الوسطى، قالت: كنّا نقرأها في الحرف الأول عهد رسول الله ﷺ، «وحافظوا على الصلوات الوسطى صلاة العصر وقوموا لله قانتين» ^(٣).

(١) البقرة: ٢٣٨.

(٢) تفسير الطبري ٢: ٦٦٥، و ٦٧٥.

(٣) نفسه ٢: ٦٦٥.

وعن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن حفصة زوج النبي ﷺ أنها قالت لكتاب مصحفها: إذا بلغت مواقيت الصلاة فأخبرني حتى أخبرك بما سمعت رسول الله ﷺ، فلما أخبرها، قالت: اكتب، فإني سمعت رسول الله ﷺ - يقول: «حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى وهي العصر»^(١).

أيضاً عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، أن حفصة أمرت مولاً لها أن يكتب مصحفاً فقالت: إذا بلغت هذه الآية (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى) فلا تكتبها حتى أمليها عليك! كما سمعت رسول الله ﷺ يقرأها، فلما بلغها أمرته فكتبها «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو^(٢).

ومن الصحابة ممن اقتدى بأُمّهات المؤمنين ثم رجع عن ذلك: البراء بن عازب، قال: نزلت هذه الآية «حافظوا على الصلوات والصلاة العصر»، قال: فقرأتها على عهد رسول الله ﷺ أن نقرأها، ثم إن الله نسخها فأنزل: (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)^(٣).

أحاديث التهوك

كان من المبررات التي احتج بها عن منع تدوين الحديث، وشايعة آخرون

(١) نفسه: ٦٦٦.

(٢) تفسير الطبري ٢: ٢٧٤.

(٣) نفسه: ٦٧٣.

على ذلك، هو التَخَوُّف من ترك القرآن والاشتغال بغيره، ذلك قوله: «إِنِّي كُنْتُ أَرَدْتُ أَنْ أَكْتُب السنن، وَإِنِّي ذَكَرْتُ قَوْمًا كَانُوا قَبْلَكُمْ كَتَبُوا كِتَابًا فَأَكْبَوْا عَلَيْهَا، وَتَرَكُوا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنِّي - وَاللَّهِ - لَا أَلْبَسُ كِتَابَ اللَّهِ بِشَيْءٍ أَبَدًا»^(١).

وكان عبد الله بن مسعود يؤكد على تبرير المنع بهذا.

عن إبراهيم التيمي، قال: بلغ ابن مسعود أنَّ عند ناسٍ كتاباً يُعجبون به، فلم يزل معهم حتَّى أتوه به فمحاها، ثمَّ قال: إِنَّمَا هَلَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ أَقْبَلُوا عَلَى كُتُبِ عُلَمَائِهِمْ، وَتَرَكُوا كِتَابَ رَبِّهِمْ^(٢).

والروايات عن ابن مسعود في هذا الميدان عدَّة نكتفي بالرواية السابقة وما سنذكره من رواية: عن سليم بن الأسود، قال: كنتُ أجالس أبا ناسٍ في المسجد، فأتيَتْهم ذات يوم، فإذا عندهم صحيفة يقرؤونها، فيها ذِكْرٌ، وحمدٌ، وثناءٌ على الله، فأعجبني، فقلتُ لصاحبها: أعطنيها، فأنسخها.

قال: فَإِنِّي وَعَدْتُ بِهَا رَجُلًا، فَأَعَدَّ صَحْفَكَ، فإذا فرغ منها، دفعْتُها إِلَيْكَ. فأعددتُ صحفي، فدخلتُ المسجدَ ذات يومٍ، فإذا غلامٌ يتخطَّى الخُلُق، يقول: أجيئوا عبد الله بن مسعود في داره.

فانطلق الناس، فذهبتُ معهم، فإذا تلك الصحيفة بيده، وقال: أَلَا إِنَّ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ فِتْنَةٌ، وَضَلَالَةٌ، وَبِدْعَةٌ، وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ -

(١) تقييد العلم: ٤٩.

(٢) سنن الدارمي ١: ١٠٠ ح ٤٧٥.

بأبائهم الكتب، وتركهم كتاب الله، وإني أُحَرِّج على رجلٍ يعلم منها شيئاً إلاّ دلّني عليه، فوالذي نفسُ عبد الله بيده، لو أعلم منها صحيفة بدّير هندٍ لأتيْتُها، ولو مشياً على رجلي، فدعا بماءٍ فغسل تلك الصحيفة ^(١).

وروى الدارمي ذلك، ومحتوى الكتاب في روايته: «سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلاّ الله، والله أكبر». فقال عبد الله: إنّ ما في هذا الكتاب: بدعة، وفتنة، وضلالة، وإمّا أهلك من كان قبلكم هذا وأشباه هذا، إنهم كتبوها، فاستلذّتها ألسنتهم وأشربتها قلوبهم ^(٢).

وعن أبي موسى الأشعريّ، قال: إنّ بني إسرائيل كتبوا كتاباً واتّبعوه، وتركوا التوراة ^(٣). وقد ذكر الخطيبُ البغداديّ هذا التبرير، وقال: فقد ثبت أنّ كراهة مَنْ كره الكتاب من الصدر الأوّل إمّا هي لئلاّ يُضاهى بكتاب الله تعالى غيره، أو يُشتغل عن القرآن بسواه. وهُي عن الكتب القديمة أن تُتخذ، لأنّه لا يُعرف حقّها من باطلها وصحيحها من فاسدها، مع أنّ القرآن كفى عنها، وصار مهيمناً عليها ^(٤).

(١) تقييد العلم: ٥ - ٦٥.

(٢) سنن الدارمي ١: ١٠٢ ح ٤٨٥.

(٣) تقييد العلم: ٥٦.

(٤) نفسه: ٥٧.

نقدُ التبرير

أولاً: لا يخفى أنّ بعض هذا التبرير حقّ، وبعضه باطلٌ، وقد أراد أصحابه الخلط بينهما؛ فالمفروض في كلامهم أمران:

١ - إنّ ترك القرآن منهيّ عنه، وحرامٌ شرعاً.

وهذا حقّ لا ارباب فيه.

٢ - إن الاشتغال بغير القرآن يؤدّي إلى ترك القرآن، وهو أيضاً حرام، وهذا ليس بإطلاقه صحيحاً، بل:

إن كان الاشتغال بغير القرآن مؤدياً إلى ترك القرآن، كان حراماً. وإلاّ، فإن لم يكن الاشتغال بغير القرآن مؤدياً إلى ترك القرآن، فهو ليس بحرام قطعاً!

فانظر رحمك الله! مَنْ جعل الفرض الأوّل، كالفرض الثاني - في الحكم - وإطلاق أنّهما يؤدّيان إلى ترك القرآن، فهو خلطٌ بين حقّ وباطل وإيهام وإغراء قبيح! ونجدهم قد استعملوا كلمات «الاشتغال» و «الانكباب» و «الانهماك» ليضخّموا ويهوّلوا الأمر ويزيدوه تبشيعاً.

وإلاّ، فليس في مجرد كتابة شيءٍ من الحديث «اشتغال» أو «انكباب» أو «انهماك» عن القرآن، ولا يؤدّي إلى «ترك» القرآن.

ومن هنا، نجد بشاعة قول ابن مسعود: إنّ الصحيفة المحتوية على قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر» بدعة وفتنة وضلالة!! ولماذا، متى كانت هذه الكلمات الأربع باطلة؟! وهي من الأذكار التي جاء بها الإسلام،

ومفرداتها إنما هي كلماتٌ وجُمْل من القرآن، توحيد الله تعالى وتسبيح وحمدٌ وتكبير؛ فأَيُّ باطل فيها، وكيف تُؤدِّي إلى ترك القرآن؟!

ثانياً: إن ترك القرآن - وهو فعل محرّم باطل عند المسلمين - مَنْ هو المتّهمُ به من بين المسلمين الذين أرادوا جمع الحديث، وتأليفه، وتدوينه وتقييده؟ وهم في ذلك العصر، بين صحابيٍّ جليل، أو تابعيٍّ فاضل، أو مؤمن طالب للعلم الذي هو حديث رسول الله ﷺ؛ أو كلمة ذكرٍ وثناءٍ وتمجيدٍ لله، كما كان في صحيفة ابن مسعود؟

أليس اتّهام أهل تلك الطبقة، اتّهاماً لأهل خير القرون وهم سلف المسلمين وهتكاً لحرماتهم؟ فلا يبقى مَنْ يتصوّر أنّ ترك القرآن والاشتغال بغيره بحقّهم، إلّا القلائل من الشذاذ الجهلة، أو الذين دخلوا الإسلام طمعاً أو خوفاً، أو بغرض التشويش بين المسلمين كالمتهوِّكين، وخاصّة من أهل الديانات الأخرى وحتّى من الجاهليّة، ممّن لم يكن يرغب في تدوين السنّة وكتابة الحديث قطعاً!

ثالثاً: إنّ ما يؤدِّي إلى ترك القرآن من الكتب هو ما كان منافياً للقرآن في أهدافه ومحتوياته، من عقائد، وأحكام، وأخبار. وأشهرها آنذاك كتب الضلالة التي كان يتداولها أهل الكتاب من يهود ونصارى، وهي: التوراة، والإنجيل المخرّفان، وما دار حولهما من أساطير. وقد جاء التصريح بذلك في أكثر كلمات المانعين بهذا التبرير. فقد ذكر عمر

ذلك - لما أحرق كتب الناس - فقال: أمنية كأمنية أهل الكتاب ^(١)، أو: مشاة كمشاة أهل الكتاب ^(٢).

ويلاحظ أنّ كلمة «مشاة» إنّما هو مصطلح يهوديّ عبّروا به عن التوراة المبدّلة المحرّفة، في قبال التوراة التي لم تبدّل، وقد فسّر الكلمة بهذا المعنى أبو نعيم الإصفهاني ^(٣).

وكان ابن مسعود تلميذ عمر في هذه السياسة لا يتخطّاها. وقد علّق مُرّة - الذي نقل عن ابن مسعود أنّه محاكاتباً - بقوله: «لو كان من القرآن أو السنّة لم يححه، ولكن كان من كتب أهل الكتاب» ^(٤).

ولا ريب أنّ الاعتماد على كتب أهل الكتاب يؤدّي إلى ترك القرآن، لما بين القرآن وتلك الكتب من التناقض البين.

(١) تقييد العلم: ٥٢.

(٢) طبقات ابن سعد ٥: ١٤٠ - طبع ليدن -، والصواب (مشاة) ويلاحظ أنّ عمر هو أوّل من أطلق (مشاة) على السنّة المحمّديّة والحديث النبويّ، حيث استعملها في مقام تشبيه ما كتبه الناس من الحديث بما كتبه اليهود. ولا حظ بهذا الصدد: الإسلام عقيدةً وشريعةً لمحمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر (٤٩٢ - ٤٩٤)، والسنّة النبويّة وعلومها لأحمد عمر هاشم (١٨ - ١٩). وعن ارتباطه بالتوراة وسائر الكتب اليهوديّة، وبأخبار اليهود في المصنّف، لعبد الرزّاق (١٠: ٣١٣) وسنن الدارمي (١: ١١٥) وتقييد العلم: ٥٢.

(٣) دلائل النبوة، لأبي نعيم - طبعة حلب: ٦٣٨، ذيل رقم ٤٢٨.

(٤) سنن الدارمي ١: ١٠٢.

فالقرآن جاء ناسخاً لتلك الكتب، والإسلام جاء ناسخاً لتلك الأديان. مع عدم وضوح ما في تلك الكتب من الحق والباطل، وكفاية القرآن عن حقها - كما يقول الخطيب البغدادي^(١). ويكون نفس الالتزام بتلك الكتب دليلاً على الضلال، حيث يكون الملتزم بها غير مُعتقِدٍ بحقيّة القرآن أو بطلان تلك الكتب، أو أنّ ميله إليها وإعجابه بها - على الأقلّ - يكشف عن تردّده في الإسلام، وشكّه في القرآن، وهو «التهوؤك» الذي أغضب النبيّ ﷺ، فحدّر عنه بأساليب، هذه بعض الروايات في ذلك:

١ - روي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال للنبيّ ﷺ: إنّنا نسمع أحاديث من يهود، تُعجبنا! أفترى أن نكتبها؟

فقال النبيّ ﷺ: أمتهوؤكون أنتم؟ كما تهوؤكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقيةً^(٢).

٢ - روى الخطيب البغداديّ بسنده، عن عبد الله بن ثابت الأنصاريّ - خادم النبيّ ﷺ - قال: جاء عمر بن الخطّاب إلى النبيّ ﷺ ومعه «جوامع من التوراة» فقال: مررتُ على أخٍ لي من قُرَيْظَةَ، فكتب لي جوامع من التوراة، أفلا أعرضها عليك؟ فتغيّر وجهه رسول الله ﷺ، فقال الأنصاريّ: أما ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضيتُ بالله ربّاً وبالإسلام ديناً ومحمّداً رسولاً.

(١) تقييد العلم: ٥٧.

(٢) تقييد العلم: ٥٧.

فذهب ما كان بوجه رسول الله ﷺ . فقال ﷺ : والذي نفسي بيده لو أنّ موسى أصبح فيكم ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم؛ أنتم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين ^(١) .

وعن بعض المصادر: إنّ الذي ردّ على عمر هو عبد الله بن زيد - الذي أري الأذان - قال لعمر: أمسخ الله عقلك؟ ألا ترى الذي بوجه رسول الله ﷺ ^(٢) .

٣ - وقال عمر: انطلقت أنا، فانتسخت كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أدبي.

فقال لي رسول الله ﷺ : ما هذا في يدك يا عمر؟

قلت: يا رسول الله، كتاب انتسخته، لنزداد به علماً إلى علمنا! فغضب رسول الله ﷺ ، حتى احمرت وجنتاه، ثم نودي بـ «الصلاة جامعة».

فقال الأنصار: أغضب نبيكم صلى الله عليه، السلاح السلاح، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ .

فقال: يا أيها الناس، إني أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي اختصاراً، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية، فلا تتهوؤوا، ولا يقربنكم المتهوؤون. قال عمر: فقمْتُ، وقلت: رضيْتُ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبك رسولاً! ثم نزل رسول

(١) الأسماء المبهمة، للخطيب: ١٨٨ - ١٨٩ رقم ٩٥، مجمع الزوائد ١: ١٧٤ عن أبي الدرداء. وفي ثلاث روايات برقم ١٠١٦٣ - ١٠١٦٥ - والمعتز على عمر في الثانية (عبد الله بن ثابت).

(٢) الأسماء المبهمة، للخطيب البغدادي: ١٨٩، رقم ٩٥.

الله ﷺ (١).

٤ - وروى ابن أبي شيبه، بسنده عن جابر: أنَّ عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ كتاباً حسناً من بعض أهل الكتاب... إلى آخره (٢).

٥ - روى أبو داود عن أبي قلابة: أنَّ عمر مرَّ بقوم من اليهود، فسمعهم يذكرون دعاءً من التوراة، فاستحسنه، ثم جاء به النبي ﷺ فجعل يقرؤه، ووجه النبي ﷺ يتغير. فقال رجل: يا ابن الخطاب، ألا ترى ما في وجه رسول الله ﷺ؟ فوضع عمر الكتاب. فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ بعثني خاتماً، وأعطيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختصر لي الحديث اختصاراً، فلا يُلهينكم المتهوِّكون؟ قلت لأبي قلابة: ما المتهوِّكون؟

قال: المتحيِّرون (٣).

٦ - ذكر عبد الغني عبد الخالق رواية عن الدارمي، عن جابر بن عبد الله: أنَّ النبي ﷺ حين أتاه عمر فقال: إنَّا نسمع أحاديث من يهود تُعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟

(١) تقييد العلم: ٥٢، وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ٢: ٤٢.

(٢) المصنّف، لابن أبي شيبه ٩: ٤٧ رقم ٦٤٧٢، مجمع الزوائد ٨: ٢٦٢، جامع بيان العلم ٢: ٤٢.

(٣) المراسيل، لأبي داود السجستاني ٣: ٢٢٤، رقم ١.

فقال ﷺ: أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى؟ لقد جئكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أتباعي.

وقال: قال في جواهر الكلام «ص ١٣٣» التهوك: السقوط في هوة الردى ^(١).

وقال الجوهري: في الحديث - عن طريق آخر - أن عمر أتاه بصحيفة، أخذها من بعض أهل الكتاب، فغضب ﷺ وقال: أمتهوكون فيها، يا ابن الخطاب؟ ^(٢)

وقال أبو عبيدة في معنى متهوكون، معناه: أمتهوون في الإسلام حتى تأخذوه من اليهود؟ وقال ابن سيدة: يعني أمتهوون؟ وقيل معناه: أمتردون ساقطون ^(٣). هذا ورسول الله ﷺ بينهم، فيأتيه أشد الناس منعاً لحديثه فيما بعد «عمر» بصحفٍ وأحاديث وأدعية من عند يهود قد أجبتة، ومن أخ له من «فريضة» كما صرح عمر، وبجوامع من التوراة أعطاه إياها أخوه اليهودي، وبكتابٍ من كتب اليهود انتسخه ليزداد به المسلمون علماً إلى علمهم...؛ ممَّا أسخط رسول الله ﷺ وخاطب عمر ومن يمكن أن يكون على شاكلته بالتشكيك والسقوط في هوة الردى، كما حصل لأصحاب التوراة والإنجيل.

والوقائع فيما بعد تؤكد كلام رسول الله ﷺ مع عمر: «أمتهوكون»؟ فلما أراد ﷺ أن يكتب كتاباً لن تضل أمته بعده، وذلك في مرضه الذي قبض فيه،

(١) حجة السنة: ٣١٧.

(٢) الصحاح للجوهري (هوك)، ولسان العرب ١٢: ٤٠٠.

(٣) لسان العرب ١٢: ٤٠٠.

تصدى له عمر، وانضم إليه جم من المتهوِّكين، فمنعوه من كتابة الكتاب، لعلمهم بما سيكتب إذ قدّم لهم ﷺ النصح والوصية بالتزام الثقلين كتاب الله العزيز، وعترته أهل بيته، وأنهم لن يضلّوا ما داموا متمسكين بهما...، ثمّ أراد أن يُثبت ذلك في كتاب فثارت نائرة عمر و كانت الرزية.

ولم تنقطع سلسلة ذلك العمل الذي بدأه أبوبكر بحرق أحاديث النبي ﷺ، وأكبّ عليه عمر بشدّة وآزره نفرٌ كانوا يكتبون حديث رسول الله ﷺ، ثمّ عدلوا عن ذلك فصاروا نسخة ثانيةً لعمر في التشدّد في المنع وكانت حجة عمر في المنع كما ذكرنا هو التحوّف من ترك القرآن والاشتغال بغيره - أي الحديث - مع استعمالهم مصطلح «مشناه» وهو مصطلح يهودي عبّروا به عن التوراة المبدّلة في قبال التوراة التي لم تبدّل. وذكرنا أنّ عمر هو أوّل من استعمل هذه الكلمة في مقام تشبيه ما كتبه الناس من الأحاديث النبويّة بما كتبه اليهود. وعمر أعرف بلغة اليهود، فله فيهم إخوان وهو معجب بكتبهم وعلمهم، ويريد من رسول الله ﷺ الإفادة منها.

وأيضاً بعد مضيّ رسول الله ﷺ، بدّل في كلمات القرآن مع زعمه بوجود آيات وسور كانت على عهد النبي ﷺ، فسقطت. وعاضده في ذلك بعض أمّهات المؤمنين، ونفر من الصحابة.

فلو أخذ المسلمون بأقواله، ولو لا الحفظ الربّانيّ للقرآن، لوجدنا قرآنًا غير الذي بين أيدينا.

والحاصل أنّ ترك القرآن - والمراد به عدم الاعتقاد به - إنّما يترتّب على

الالتزام بكتب الأديان الأخرى، التي جاء القرآن نافياً لها وكافياً عنها، ليس على كتابة شيء آخر مما لا يعارض القرآن ولا ينافيه. وأمّا الحديث الشريف فلا يمكن أن يتصور فيه أنّه معارض للقرآن. وقد صرح القرآن نفسه بأنّ النبي (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ) ^(١).

وعن حسان بن عطية، قال: كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه القرآن، ويعلمه كما يعلمه القرآن ^(٢).

ونقل عن أحمد بن حنبل قوله: السنة تفسر القرآن وتبينه، والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ، والسنة تفسير القرآن، وهي دلائل القرآن ^(٣).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: الرجل إلى الحديث أحوجّ منه إلى الأكل والشرب، لأنّ الحديث يفسر القرآن ^(٤).

وقال ابن حزم لما بيّن أنّ القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع، نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ ووجدناه عزّوجلّ يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ^(٥)، فصحّ لنا بذلك أنّ الوحي ينقسم

(١) النجم: ٣ - ٥.

(٢) المراسيل: ٢٤٩ ح ٢.

(٣) حجية السنة: ٣٣٢.

(٤) نفسه.

(٥) النجم: ٣ - ٤.

من الله عز وجل إلى رسوله على قسمين:

أحدهما: وحي، متلو، مؤلف تأليفاً معجز النظام، وهو القرآن.

والثاني: وحي، مروي، منقول، غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو، لكنه مقروء، هو الخبر الوارد من رسول الله ﷺ، وهوالمبين عن الله عز وجل مراده^(١).

وقال الشيخ أبو زهو: السنة هي أحد قسمي الوحي الإلهي الذي نزل به جبريل الأمين على النبي الكريم ﷺ، والقسم الثاني هو القرآن الكريم^(٢).

وقال: وقد وكل الله إلى نبيه ﷺ أن يبلغ القرآن الكريم للناس وأن يُبين لهم بقوله وفعله ما يحتاج إلى البيان، وهو ﷺ إذ يُبين للناس كتاب الله لا يُصدِر عن نفسه، ولكنه يتبع ما يوحى إليه من ربه، فالسنة النبوية وظيفتها تفسير القرآن الكريم والكشف عن أسرارهِ، وتوضيح مراد الله تعالى من أوامره وأحكامه^(٣).

وقال الشيخ عبد الغني عبد الخالق: السنة مع الكتاب في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية، ولا نزاع أنّ الكتاب يمتاز عن السنة بأن لفظه منزل من عند الله، متعبد بتلاوته، معجز، ولكن ذلك لا يوجب التفصيل بينهما من حيث الحجية^(٤).

إنّ السنة الشريفة امتداد للقرآن، وتطبيق عملي لمؤداه، وليس اتباع السنة

(١) الاحكام في أصول الأحكام، لابن حزم ٩٣: ١.

(٢) الحديث والمحدثون: ١١.

(٣) الحديث والمحدثون: ٣٨.

(٤) حجية السنة: ٤٨٥.

إِلَّا اتَّبَاعاً لِلْقُرْآنِ، وَتَطْبِيقُ عَمَلِيٍّ لِمُؤَدَّاهُ، وَلَيْسَ اتِّبَاعُ السُّنَّةِ إِلَّا اتِّبَاعاً لِلْقُرْآنِ، حَيْثُ أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِذَلِكَ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ بِالْأَخْذِ بِمَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ؛ فَقَالَ: (مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ^(١).

وَلَا تَخْتَلِفُ السُّنَّةُ عَنِ الْقُرْآنِ فِي الْحُجَّةِ، وَقَدْ أَجْمَعَ عَلَى ذَلِكَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ، وَعَقَدَ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي كِتَابِهِمْ أَبْوَاباً تَدُلُّ تَرَاجُمَهَا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ تَرَجَّمَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ أَوَّلَ أَبْوَابِ كِتَابِهِ «الْكَفَايَةِ» بِعَنْوَانِ «بَابِ مَا جَاءَ فِي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ حُكْمِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَحُكْمِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»، فِي وَجُوبِ الْعَمَلِ، وَلِزُومِ التَّكْلِيفِ ^(٢).

وَتَرَجَّمَ الْبَابَ الثَّانِي مِنْهُ بِعَنْوَانِ «بَابِ تَخْصِصِ السُّنَنِ لِعُمُومِ مُحْكَمِ الْقُرْآنِ، وَذِكْرِ الْحَاجَةِ فِي الْمَجْمَلِ إِلَى التَّفْسِيرِ وَالْبَيَانِ» ^(٣).

وَأُورِدَ فِي كِتَابِهِ «الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهَ» أَحَادِيثٌ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ السُّنَّةَ مَعْتَبَرَةٌ فِي عَرْضِ الْكِتَابِ ^(٤).

مَنْهَجُ عَمْرِ فِي الْمَنْعِ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ

لَقَدْ انْتَهَجَ عَمْرٌ مَنْهَجاً مُتَعَدِّدَ الْأَطْرَافِ لِتَحْقِيقِ هَدَفِهِ فِي مَنَعَ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ ذَلِكَ:

(١) الْحَشْرِ: ٧.

(٢) الْكَفَايَةُ: ٣٩.

(٣) الْكَفَايَةُ: ٤٥.

(٤) الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهَ ١: ٨٦.

أولاً: منع وفد الصحابة الذين أرسلهم إلى الكوفة من الرواية عن رسول الله ﷺ...، وقد مضى الكلام عن ذلك.

ثانياً: منع عمر صحابة عن الحديث:

- فمنع أبا هريرة:

قال عمر لأبي هريرة: لتترك الحديث عن رسول الله ﷺ، أولاً لحقنك بأرض دؤس^(١).
وقال له أيضاً: لتترك الحديث عن رسول الله ﷺ أو لألحقنك بأرض الطنيح - يعني أرض قومه -^(٢).

وقال له: لتترك الرواية - أو الإكثار من الرواية - أو لألحقنك إلى جبال دؤس^(٣).
وقال ابن أبي الحديد: ضربه عمر بن الخطاب - في خلافته - بالدرّة، وقال له: لقد أكثرت الرواية، وأحر بك أن تكون كاذباً على رسول الله ﷺ^(٤).
- ومنع ابن مسعود، وأبا مسعود:

بعث عمر إلى أبي مسعود الأنصاري، وابن مسعود، فقال: ما هذا الحديث

(١) المحدث الفاصل بين الرواي والواعي، للرامهرمزي (المتوفى ٣٦٠ هـ): ٥٥٤، رقم ٧٤٦، البداية والنهاية ٨: ١٠٦.

(٢) أخبار المدينة المنورة، لابن شبة ٣: ٨٠٠.

(٣) الاعتصام بحبل الله المتين، للقاسم بن محمد الزيدي ٢: ٢٩، تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٣.

(٤) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٤: ٦٨.

الذي تُكثرونه عن رسول الله ﷺ (١).

ونقله ابن عديّ، وفيه: بعث عمر بن الخطّاب إلى عبد الله بن مسعود، وإلى أبي الدرداء، وإلى أبي مسعود الأنصاري، فقال: ما هذا الحديث الذي تُكثرون عن رسول الله ﷺ، فحبسهم بالمدينة حتّى استشهد (٢).

- ومنع أبا موسى الأشعريّ - لما بعثه إلى العراق - بمثل ما ورد في حديث قرظة بن كعب. «ذكرناه مع مصادره».

- ومنع عمرُ عامّة الناس عن الحديث:

خطبَ عمرُ، وقال: ألا، لا أعلمنّ ما قال أحدكم: إنّ عمر بن الخطّاب منعنا أن نقرأ كتاب الله، إنّّي ليس لذلك أمنعكم.

ولكن، أحدكم يقوم لكتاب الله، والناس يستمعون إليه، ثمّ يأتي بالحديث من قبل نفسه! إنّ حديثكم هو شرُّ الحديث، وإنّ كلامكم هو شرُّ الكلام.

مَن قام منكم، فليقيم بكتاب الله، وإلاّ فليجلس، فإنّكم قد حدّثتم الناس حتّى قيل: «قال فلان، وقال فلان» وترك كتاب الله (٣).

وقفه قصيرة مع خطبة عمر

إنّ ظاهر هذه الخطبة المنع من حديث المتكلّمين خلال القرآن، ولم يصرّح

(١) تاريخ دمشق ٣٩: ١٠٨.

(٢) الكامل، لابن عديّ ١: ١٨.

(٣) تاريخ المدينة المنورة، لابن شبة ٣: ٨٠٠.

فيه بالمنع من حديث رسول الله ﷺ ، لكن يمكن أن يفهم ذلك بملاحظة أمور:

١ - إيراد ابن شبة لهذه الخطبة في سياق ما نقله من منع عمر للصحابة من نقل الحديث والرواية عن رسول الله ﷺ .

٢ - ظهور الخطبة - وخاصة الفقرة الأخيرة منها - في تأكيد عمر على ترك كل حديث ما سوى كتاب الله، وهو نفس المقولة المعروفة عن عمر «حسبنا كتاب الله» ويؤدي مؤداها. إن عمر كان يردّد «حسبنا كتاب الله» في مقابل الحديث وروايته، كما يظهر من تعليقه المنع من الحديث بالمحافظة على القرآن وخوف تركه الاشتغال بغيره. وهو ما عرفناه منه مراراً في أقواله التي تضمنت منع التدوين، كقوله: إني لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً.

٣ - إن حسن الظنّ بالمحدثين في ذلك العصر، يقتضي أنّ الشيء الذي ينقلونه خلال قراءتهم للقرآن الكريم، وإلى جنب آياته، بحيث يقبله المسلمون إذا استمعوا إليه أن يكون مقدساً، وحقاً، لا كلّ كلام صدر من أي أحدٍ وبأي محتوى.

ولا يُعقل من معلّم القرآن، ولا بدّ أن يكون فيهم مجموعة من الصحابة إن لم يكن كلّهم منهم، ومجموعة من التابعين الكبار، أن يقرأوا القرآن، ويحدّثوا الناس في أثناء تلاوتهم بأشياء باطلة، وبأشياء تكون «شرّ الحديث» كما عبّر عنها عمر! ومع هذا يقبل المسلمون ذلك ولم ينتبهوا إلى بطلانه! إلّا بتنبيه مر؟!

إنّ أفضل تفسير لذلك: أن يكون ما ينقلونه من حديث رسول الله ﷺ ، غير

أنه من الأحاديث التي لم ترق السلطة الحاكمة، ومما يعارض سياستها.

ثالثاً: عمر يُهدّد الصحابة على الحديث ويهينهم

- أخرج الفسويّ بسنده قال: حدّثنا أبو نُعَيْم، أخبرنا طلحة بن يحيى، عن أبي بُردة، قال: جاء أبو موسى - الأشعريّ - إلى عمر فقال: أيدخل الأشعريّ؟ أيدخل عبد الله بن قيس؟ أيدخل أبو موسى؟ ثمّ انصرف. فبعث عمرُ على أثره، فقال أبو موسى: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ليستأذن أحدكم ثلاثاً فإنْ أذنض له، وإلاّ فليرجع». قال: لئن لم تأتني على ذي بَيِّنَةٍ لأعاقبنك ولأفعلنّ بك كذا وكذا! ^(١).

وفي لفظ: «أقم عليه البيّنة وإلاّ أوجعتك» ^(٢).

فجاء بأبيّ بن كعب، فقال: يا عمر! أبعثت تُعذّب أصحاب محمّد؟، سمعتُ النّبِيَّ ﷺ يقول ذلك ^(٣).

ويسنده أخرج مسلم عن طلحة بن يحيى عن أبي بُردة عن أبي موسى الأشعريّ، قال: جاء أبو موسى إلى عمر بن الخطّاب فقال: السلام عليكم هذا عبدُ الله بن قيس، فلم يأذن له، فقال: السلام عليكم هذا أبو موسى، السلام عليكم هذا الأشعريّ، ثمّ انصرف، فقال رُدّوا عليّ رُدّوا عليّ فجاء. فقال: يا أبا موسى ما

(١) المعرفة والتاريخ ١: ١١٠. ومسند أحمد ٤: ٣٩٨ طبعة دار صادر - بيروت، سنن الدارمي ٢: ٢٢٧٤ طبعة

الاعتدال - دمشق، سنن أبو داود ٢: ٥١٤ رقم ٥١٨١.

(٢) الموطأ ٢: ٩٦٤، صحيح مسلم ٧: ١٣١، الرسالة، للشافعي: ٤٣٠.

(٣) المعرفة والتاريخ، للفسويّ ١: ١١٠.

رَدَّكَ، كُنَّا فِي شُعْلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْإِسْتِئْذَانُ ثَلَاثٌ فَلِإِنْ أُذِنَ لَكَ وَإِلَّا فَارْجِعْ» قَالَ: لَتَأْتِيَنِي عَلَى هَذَا بَيِّنَةٌ، وَإِلَّا فَعَلْتُ وَفَعَلْتُ! فَذَهَبَ أَبُو مُوسَى. قَالَ عُمَرُ: إِنْ وَجَدَ بَيِّنَةٌ تَجِدُوهُ عَنِ الْمَنْزِلِ عَشِيَّةً، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ بَيِّنَةً فَلَمْ تَجِدُوهُ. فَلَمَّا أَنْ جَاءَ بِالْعَشِيِّ وَجِدُوهُ، قَالَ: يَا أَبَا مُوسَى مَا تَقُولُ أَقْدَ وَجَدْتُمْ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَبِي بَنَ كَعْبٍ، قَالَ: عَدْلٌ. قَالَ: يَا أَبَا الطُّفَيْلِ مَا يَقُولُ هَذَا؟! قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ ذَلِكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ فَلَوْ تَكُونَنَّ عَذَابًا عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّمَا سَمِعْتُ شَيْئًا فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَتَثَبَّتَ! (١)

لَقَدْ تَذَرَّعَ بِأَنَّهُ خَشِيَ الْكَذِبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَرَادَ الْإِحْتِيَاظَ فِي الْحَدِيثِ وَالرَّوَايَةِ. إِلَّا أَنَّهَا ذَرْبَةٌ بَاطِلَةٌ، إِذْ إِنَّ الصَّحَابِيَّ الْعَادِلَ إِذَا سَمِعَ شَيْئًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجِبَ عَلَيْهِ تَبْلِيغُهُ وَأَدَاؤُهُ إِلَى الْآخَرِينَ، لِأَنَّهُ سَنَّةٌ، وَالسَّنَّةُ شَرِيعَةٌ، وَالصَّحَابَةُ مِنْ حَقَّازِيهَا. فَكَيْفَ يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ هَكَذَا؟ وَلَوْ فَارَضْنَا أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَنْ سَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَشْهَدُ لَهُ، فَهَلْ يَجُوزُ أَنْ يُهَانَ وَيُكَذَّبَ وَيُهَدَّدَ؟!

وَمَا الْجَوَابُ فِي عَدَمِ رَدِّهِ سَلَامَ أَبِي مُوسَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَمْوَافِقَ لِحُلُوقِ الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ، أَمْ مَخَالَفَ؟!!

أَلَيْسَ هَذَا سَدًّا لِبَابِ الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ وَهَذَا مَا صَرَّحَ بِهِ

(١) صحيح مسلم ٧: ١٣٤ - ١٣٥.

أبوهريرة جرّاء ما حديث له من تهديد عمر له، وفي روايات أنّه ضربه بالدرة، كما ذكرنا، حتّى امتنع أبوهريرة من حديث رسول الله ﷺ تماماً، أو بما يوافق مزاج السلطة. وقبل أن نأتي على ذكر ما يخصّ ما كان بين عمر وأبي هريرة بشأن الحديث؛ نذكر نصوصاً أخرى بما جرى لأبي موسى:

أخرج ابن ماجه، قال: حدّثنا أبوبكر، حدّثنا يزيد بن هارون. أنبأنا داود بن أبي هند عن أبي نصرّة عن أبي سعيد الخدريّ، أنّ أبا موسى استأذن على عمر ثلاثاً، فلم يؤذن له، فانصرف. فأرسل إليه عمر: ما ردّك؟ قال: استأذنت الاستئذان الذي أمرنا به رسول الله ﷺ ثلاثاً، فإنّ أذن لنا دخلنا، وإن لم يؤذن لنا رجعنا. قال، فقال: لتأتيني على هذا بيّنة، أو لأفعلن. فأتى مجلس قومه فناشدهم. فشهدوا له. فخلّى سبيله ^(١).

ولا تعليق لنا على الرواية أكثر ممّا مضى إلّا أن نقول: إنّ التهديد قد أخذ من أبي موسى مأخذه! وهو يسمع التوكيد على أن يأتي بشاهد على قوله «لتأتيني» وإنهاؤها بالوعيد والتهديد «أو لأفعلن». مما حمّله على مناشدة قومه ليشهدوا له عند عمر، بصدق دعواه، لينجوا من عقوبته المرتقبة. فلمّا تحقّق له ذلك، نبّأ بجلده من الدرة!

وممّا يُعبّر عن الحالة النفسيّة المضطربة جرّاء تهديدات عمر الجادّة بشأن الصحابة في مجرّد روايتهم حديث واحد لرسول الله ﷺ فقد أخرج مسلم رواية

(١) سنن ابن ماجه ٢: ١٢٢١، باب ١٧ (باب الاستئذان) رقم ٣٧٠٦.

أبي موسى، قال: حدّثني عمرو بن محمّد بن بكير التّاقّد، حدّثنا سُفيان بن عُيَيْنَة حدّثنا يزيد بن خُصَيْفَة عن بُسر بن سعيد، قال: سمِعْتُ أبا سعيد الخُدريّ يقولُ كنتُ جالساً بالمدينة في مجلس الأنصار، فأتانا أبو موسى فزِعاً أو مدعوراً! قلنا: ما شأنك؟ قال: إنّ عمر أرسل إليّ أن آتيه فأتيتُ بابَه فسَلَّمْتُ ثلاثاً فلم يردّ عليّ فرجعتُ، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع» فقال عمر: أقم عليه البيّنة وإلاّ أوجعُكَ. فقال أبيُّ بن كعبٍ: لا يقومُ معه إلاّ أصغرُ القوم. قال أبو سعيد: قلتُ انا أصغرُ القوم، قال: فاذهب به. قال أبو سعيد: فقمْتُ معه فذهبتُ إلى عمر فشهدْتُ (١).

فلماذا الفرع أو الذعر الذي ركب الصحابيُّ أبا موسى، أحربٌ جرت أم خطرٌ أهدق ببيضة الإسلام؟ لا هذا، ولا ذاك. وإمّا هو تهديد عمر له بعد أن أدّله بالوقوف على بابَه واستئذانه ثلاثاً فلم يأذن له، علماً أنّه في هذه الرواية هو - عمر - هو الذي أرسل إليه أن يأتيه فأطاعه! فلمّا ذهب صار إلى حسابه! فلمّا أجابه أنّه أتاه فسَلَّم على بابَه ثلاثاً فلم يردّ عليه فرجع، ثمّ ذكر حديث رسول الله ﷺ، عندها ثارت نائرة عمر! فلعلّه أحسنّ نفسياً وكأنّ أبا موسى يقول له: قد خالفت السنّة؟! فتهدّده وطلب البيّنة على صدقه وإلاّ أوجعه عقوبةً، والحمدُ لله أنّه اكتفى بشهادة أبي سعيد الخُدريّ ولم يطلب شاهداً آخرًا، فكفّ عن أبي موسى. وألفاظ التهديد بعضها أشدّ من بعض، فغير ما ذكرنا:

(١) صحيح مسلم ٧: ١٣٠ - ١٣١.

أخرج مسلم بسنده عن بُسر بن سعيد أنه سمع أبا سعيد الخُدري يقول: كنا في مجلسٍ عند أبي بن كعبٍ فأتى أبو موسى الأشعري مُغضباً حتى وقف فقال أنشدكم الله هل سمع أحدٌ منكم رسولَ الله ﷺ يقول: «الاستئذانُ ثلاثٌ فإن أذن لك وإلا فارجع» قال أبي: وما ذاك؟ قال: استأذنتُ على عمرَ بن الخطابِ أمسٍ ثلاثَ مرّاتٍ فلم يُؤذن لي فرجعتُ. ثم جئتُ اليومَ فدخلتُ عليه فأخبرتهُ أبي جئتُ أمسٍ فسلمتُ ثلاثاً ثم انصرفتُ. قال: قد سمعناك ونحنُ حينئذٍ على شغلٍ فلو ما استأذنتَ حتى يُؤذنَ لك، قال: استأذنتُ كما سمعتُ رسولَ الله ﷺ. قال: فو الله لأوجعنَّ ظهرك وبطنك أو لتأتينَ بمن يشهدُ لك على هذا، فقال أبي بن كعب: فو الله لا يقومُ معك إلا أحدُنا سناً. فم يا أبا سعيد، فقمْتُ حتى أتيتُ عمرَ فقلت: قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول هذا.

غريب! فأبو موسى يُسلم ثلاثاً، ولا يسمع جواباً، فإذا كان اليوم الثاني أخبر عمر بذلك، ولعلّه يأمل أن يجد عنده عذراً! فكان على غير ما أمّل فإن عمر كان على شغلٍ أعاقه عن ردّ السلام! ولم يقف عند هذا وإنما علّق ما كان منه بعنق أبي موسى بحجة أنّه لم يستأذن! وقبل أن يجيب أبو موسى، بُحِب نحن: إنّ عمرَ كان في شغلٍ منعه عن تأدية واجب وهو ردّ السلام المأمور به في القرآن الكريم والسنة الشريفة، والسلام بهذه الصورة - ثلاث مرّات - استئذان فلما لم يرده عمر فهذا يعني أنّه لم يأذن له.

وأما أبو موسى وهو صحابيٌّ مثل عمر، فقد أجاب بأنّه استأذن رسولَ الله ﷺ، أي أنّه مستنّ بسنّته ﷺ. وهذا الذي أثار حفيظة عمر فتهدّد أبا موسى

بالضرب الموجه على الظهر والبطن! إلا أن يُقيم له بَيِّنَةٌ على صدقه! والحمد لله أنه رضى منه شاهداً واحداً.

بقي الفحص عن الشغل الذي منع عمر من ردّ السلام ومن الإذن لأبي موسى؛ فأول ما ييدر إلى الذهن هنا أنه يخصّ مصلحة الإسلام والمسلمين العامة والمهمّة للغاية من قبيل تحصين الثغور ومواجهة الأعداء ودراسة الحالة الاقتصادية للمجتمع و...، فدعنا من كلّ ذلك ولنسمعه من لسان عمر نفسه:

ذكره مسلم وفيه: «... فقام أبو سعيد فقال: كُنَّا نُوْمِرُ بهذا؛ فقال عمر: خَفِيَ عَلَيَّ هذا من أمر رسول الله ﷺ، أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ (١).

قال النووي في شرحه لصحيح مسلم: قوله «أَلْهَانِي عَنْهُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ» أي التجارة والمعاملة في الأسواق (٢).

اتّضح الأمر! فإنّ الباعث على تفجّر غضب عمر وابتعاده عن السنّة هو اشتغاله بالأسواق والتجارة، فلم يسمع ما سمعه غيره من الصحابة من أحاديث رسول الله ﷺ، فصاروا لديه موضع شبهة وشكّ غنم نقل غير ذلك! مضافاً إلى الإرث الثقافي لعمر في إعجابه بأحاديث أهل الكتاب وخاصة اليهود وهو ما عبّر عنه النبي ﷺ بـ «التَهْوُوكَ»، ولذلك عارض النبي ﷺ بشدّة في كتابة الكتاب الذي ضمن رسول الله ﷺ أنه لو كتبه فلن تضلّ أمّته من بعده أبداً، ووضح من مقدّمات كلام رسول الله ﷺ إذ أوصى بالتقليل كتاب الله وعترته أهل بيته، ما أن

(١) صحيح مسلم ٧: ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) شرح النووي بهامش المصدر نفسه.

تمسكوا بهما لن يضلوا أبداً؛ ثم دعا بالقلم والقرطاس لكتابة الكتاب المانع من الضلالة، فصار واضحاً أنه سيثبت ما قاله كتباً، فكان الاعتراض واللغظ والطرذ من رحمة الله تعالى. مع التذكير بحديث «الأريكة» وتحذير النبي ﷺ من قُرب عهد مَنْ يجلس على سدة الحكم يمنع من حديثه ﷺ. فتتابعت الأحداث سريعةً من حرق للأحاديث ومحو بالماء ودفن في الأرض، إلى تهديد الصحابة وحبسهم، فلماذا؟! أبو هريرة يمتنع من الحديث امتثالاً لمشية عمر على إثر التهديد القولي والعقوبة العملية الشديدة التي نالته من عمر، جعلته يخاف ظله في أن يتحدث بحديث رسول الله ﷺ.

بسند عن الزهري، عن أبي سلمة، قال: سمعتُ أبا هريرة قال: ما كنا نستطيع أن نقول: قال رسول الله ﷺ حتى قُبض عمر، قال أبو سلمة: فسألت: بم؟ قال: كنا نخاف الشياطين، وأوماً بيده إلى ظهره (١)!

قال: ثم يقول أبو هريرة: أفانا كنّا محدّثكم بهذه الأحاديث وعمر حيّ، إذاً والله لا بقيت، إنّ المخففة ستباشر ظهري.

فإذا كان أبو موسى الأشعري قد أصابه الفزع والهلع لتهديد عمر إتياء فراح يناشد قومه ليشهدوا بصدقه عند عمر فيحفظ ظهره وبطنه من الضرب الموجه! ومن ثمّ عاهد نفسه أن يسير في ركاب عمر بشأن الحديث؛ فإنّ أبا هريرة ما زال يتحسّس آلام ظهره التي ألحقها به سيات عمر «كنا نخاف الشياطين، وأوماً إلى ظهره»، فكيف يحدّث وعمر حيّ، والمخففة لا تبارح ناظره يخاف أن تباشر

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٤، وسير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٢ - ٦٠٣، البداية والنهاية ٨: ١٠٧.

ظهره، كما قال!

- وبسند عن محمد بن عجلان، أن أبا هريرة كان يقول: إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر - أو عند عمر - لشجّ رأسي^(١).

أيّ أحاديث هذه التي لو حدث بها أبو هريرة عند عمر لشجّ رأسه، أي من جنس الفضائل المتضمنة حق أهل البيت عليه السلام، وأحاديث الغدير، والثقلين، والمنزلة، والراية، والسيادة...؟! والانصراف بعد أن أعطاهم الرخصة في الحديث فيما لا يخاف منه:

«قال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري، قال: قال عمر: أقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إلا فيما يعمل به^(٢)». ولكن بماذا يعملون وقد أحرق أبو بكر خمسمائة حديث؟! «ذكرناه». وعمر، أراد أن يكتب السنن، فاستشار في ذلك الصحابة، فأشاروا عليه أن يكتبها...، وبعد ترددٍ لمدة شهر أصبح فقال: إني كنت أردت أن أكتب السنن، وإني ذكرتُ قوماً قبلكم كتبوا كتباً، فأكتبوا عليها، فتركوا كتاب الله تعالى، وإني لا ألبس كتاب الله بشيء أبداً. وهذا التردد هو «التهؤك» الذي أشار إليه رسول الله ﷺ فصدق. والرواية من طريق عروة بن الزبير وقد ذكرناها مع مصدرها سابقاً، وذكرنا حرقه لكتب الناس

(١) تاريخ دمشق ٦٧: ٣٤٣، البداية والنهاية ٨: ١٠٧. وأورده الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠١ وقال: (قلت: هكذا هو كان عمر، يقول: أقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ وزجر غير واحدٍ من الصحابة عن بث الحديث، وهذا مذهبٌ لعمر وغيره!).

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٤، البداية والنهاية ٨: ١٠٧.

المتضمنة أحاديث رسول الله ﷺ ، وإصداره دستوراً إلى الأقاليم «من كان عنده منها - الستة - شيء فليمحه».

وامثل ابن مسعود - كما ذكرنا - فمحا بالماء صحفاً، وتتابعت عمليات الإبادة بالحو بالماء وبالدفن في الأرض!!، فماذا بقي مما يعمل به؟!

«عن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة أنه كان يقول: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثته وأما الآخر فلو بثته لقطع هذا البلعوم»^(١).

ومن طريقي عدة عن أبي هريرة قال: يقولون إن أبا هريرة قد أكثر الحديث، والله الموعد! ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه؟ وسأخبركم عن ذلك: إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضيهم، وأما إخواني من المهاجرين فكان يشغلهم الصنف بالأسواق^(٢)، وكنت امرأة مسكيناً أصحب - أو ألزم - رسول الله ﷺ على ملء بطني؛ فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا...^(٣).

ولفظه في أحمد: «إنكم تقولون أكثر أبو هريرة، عن النبي ﷺ، والله الموعد؛ إنكم تقولون: ما بال المهاجرين لا يتحدثون عن رسول الله ﷺ بهذه الأحاديث،

(١) طبقات ابن سعد ٤: ٢٤٧.

(٢) الصنف: التجارة، وهو الذي أشغل عمر عن رد السلام على أبي موسى ثم رجع فحاسبه على ذهابه فاستدعاه وحاسبه وهذده... على ما مر.

(٣) صحيح مسلم ١٦: ٥٢، ٥٣، ٥٤، تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٣٠ - ٣٣٤ سير أعلام النبلاء ٢: ٥٩٤ - ٩٩٥، حلية الأولياء ١: ٣٧٨ - ٣٧٩، ٣٨١.

وما بال الأنصار لا يحدّثون بهذه الأحاديث؛ وإنّ أصحابي من المهاجرين كانت تشغلهم صفقاتهم في الأسواق، وإنّ أصحابي من الأنصار كانت تشغلهم أرضوهم والقيام عليها، وإنّي كنتُ امرأةً معتكفاً، وكنتُ أكثر مجالسة النبي ﷺ، أحضر إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا...^(١).

وعن أبي هريرة قال: حفظتُ عن رسول الله ﷺ ثلاثَ جُرب حديث، أخرجتُ منها جرابين، ولو أنّي أخرجتُ الثالثَ خرجتُ عليّ بالحجارة^(٢)!

ما الذي يحتويه الجراب الثالث الذي لو أخرجه لخرجوا عليه بالحجارة؟!
علماً أنّه لم يحدّث بعد لسع الشياطين! إلّا أواخر أيام عمر ولذلك قصّة، ثمّ مُنع بعد ذلك حتّى اقتضت السياسة الأمويّة أن يُحدّث بالمسموح دون الممنوع!! وأنت عالم ما هو الممنوع ومع ذلك ورد بعضه في نزرٍ يسير!

وعنه قال: لو أُحدّثكم بما أعلم لرميتُموني بالحجارة^(٣)!
وعنه قال: لو حدّثت الناس بما سمعت لرموني بالخرق^(٤) وقالوا: مجنون!^(٥)
عن يزيد بن الأصم، قال: قيل لأبي هريرة: أكثرت أكثرت، قال: لو حدّثتكم بكلّ ما سمعت النبي ﷺ لرميتُموني بالقشع^(٦)، وما ناظرتموني^(٧).

(١) مسند أحمد ٢: ٥٣٦ رقم ٧٦٤٨ مسند أبي هريرة.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٣٨.

(٣) نفسه، المستدرک علی الصحیحین ٣: ٦١٦٢/٥٨٣، التلخيص.

(٤) الخرق: السهام النافذة، من خرق السهم إذا أصاب الرقبة ونفذ فيها. (لسان العرب).

(٥) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٣٨.

(٦) القشع: بفتح وسكون - الجلد اليابس، والقشعة: النخامة والزبالة.

إنَّ قوله «وما ناظرتموني»، صريح أنَّ تلك الأحاديث التي كتمها أبو هريرة هي التي كانت تُخيف السلطات ولا تروق لها! فكيف تسمح له بنشرها وقد عاقبته فألهبت ظهره بالسياط من قبل دون مناظرةٍ ونقاش؛ وهل من حاجة إلى البرهان وهو خادم رسول الله ﷺ، لم ينشغل بالصفق بالأسواق عن حفظ الحديث.

عن محمد بن عُمارة بن حَزْم: أنَّه قعد في مجلس فيه أبو هريرة وفيه مشيخة من أصحاب النبي ﷺ كثير؛ بضعة عشر رجلاً، فجعل أبو هريرة يحدثهم عن النبي ﷺ بالحديث فلا يعرفه بعضهم، ثم يتراجعون فيه فيعرفه بعضهم، ثم يحدثهم الحديث فلا يعرفه بعضهم ثم يعرفه، ثم فعل ذلك مراراً، قال: فعرفتُ يومئذٍ أنَّ أبا هريرة أحفظُ الناس عن رسول الله ﷺ. ^(١)

في هذه الرواية مبالغة كبيرة! وإنما أوردناها حجةً واستئناساً بما على خصوم الصحابة ممن عُرفوا بالخلاف على أهل البيت عليه السلام! وأنهم مع السلطان خاصةً ما عُلم من سيرة أبي هريرة وممالأته لمعاوية ومروان بن الحكم، فقد استخلفه مروان على المدينة مراراً ^(٢).

عن سعيد بن المسيّب قال: كان أبوهريرة إذا أعطاه معاوية سكت، وإذا

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٣٨.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٣٩، المستدرک علی الصحیحین ٣: ٥٨٥ / ٦١٧١.

(٣) طبقات ابن سعد ٤: ٢٥٠، تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٧٢، سير أعلام النبلاء ٢: ٦١٤، الكنى والأسماء ١: ١٨٤، البداية والنهاية ٨: ١٢٢.

أَمْسَكَ عَنْهُ تَكَلَّمَ (١).

وإلا فأهل الدار أعلم بما فيه، وسيدهم سيد العرب، وباب مدينة علم النبي ﷺ، نفس رسول الله ﷺ عليّ ﷺ احتضنه النبي ﷺ فكان مع النبي ﷺ حيشما كان، لم يسجد لصنم قطّ ولم يُباشر إثماً قطّ وكان يرى الوحي ويسمعه ويتبع أثره، فلم يسبقه إلى الإسلام سابق، وكان رسول الله ﷺ يؤثره بخلوات يُعطيه من علومه حتى قالوا في ذلك فقال:

«ما أنا انتجيتُهُ، ولكن الله انتجاه»، وأبو هريرة أسلم عام خير!

ومع ذلك يبقى له فضله، وكونه خادماً لرسول الله ﷺ لم يُشغله عن الصَّفَقِ بالأسواق، فحفظ من أحاديث النبي ﷺ ما لم يحفظ أقرانه من الصحابة.

عن ابن عمر أنّه مرّ بأبي هريرة وهو يحدث عن النبي ﷺ: مَنْ تَبَعَ جَنَازَةً فَلَهُ قِيرَاطٌ، فَإِنْ شَهِدَ دَفْنَهَا فَلَهُ قِيرَاطَانِ أَكْثَرُ مِنْ أَحَدٍ. فقال ابن عمر: يا أبا هريرة انظر ماذا تُحدث عن رسول الله ﷺ فقام إليه أبوهريرة حتى انطلق إلى عائشة فقال لها: يا أمّ المؤمنين أنشدك الله أسمعني رسول الله ﷺ يقول: مَنْ تَبَعَ جَنَازَةً فَصَلَّى عَلَيْهَا...؟ فقالت: اللَّهُمَّ نَعَمْ، فقال أبو هريرة: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَشْغَلُنَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَرَسٌ وَلَا صَفَقٌ بِالْأَسْوَاقِ إِمَّا كُنْتَ أَطْلُبُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَلِمَةً يُعَلِّمُنِيهَا أَوْ أَكَلَةً يُطْعَمُنِيهَا. فقال ابن عمر: يا أبا هريرة كنت ألزمت رسول الله ﷺ

(١) تاريخ مدينة دمشق ٧: ٣٧٣، سير أعلام النبلاء ٢: ٦١٥، البداية والنهاية ٨: ١٢٢، رواه ابن كثير عن ابن حنبل.

وأعلمنا بحديثه ^(١).

عن عائشة أنها دعت أبا هريرة فقالت له: يا أبا هريرة ما هذه الأحاديث التي تبلغنا أنك تحدث بها عن النبي ﷺ، هل سمعت إلا ما سمعنا وهل رأيت إلا ما رأينا؟ قال: يا أمّاه، إنه كان يشغلك عن رسول الله ﷺ المرأة والمكحلة والتصنع لرسول الله ﷺ، وإني ما كان يشغلني عنه شيء ^(٢).

رابعاً: عمرُ يحبس الصحابة لئلا ينشروا الحديث ومن الوسائل التي اتبعتها لمنع حديث النبي ﷺ: إنّه حبس جماعة من كبار الصحابة مصرّحاً بأنّ السبب في ذلك هو روايتهم الأحاديث عن رسول الله ﷺ، ولذا حبسهم لمنعهم من الرواية. وهذه بعض الآثار في ذلك:

١ - إنّ عمر بن الخطّاب حبس بعض أصحاب النبي ﷺ، فيهم: ابن مسعود، وأبو الدرداء، فقال: قد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ! قال ابن البري: يعني منعهم الحديث، إذ لم يكن لعمر حبس ^(٣).

٢ - شعبة، عن سعيد بن إبراهيم، عن أبيه: أنّ عمر بن الخطّاب قال لابن

(١) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٤٧، مسند أحمد ٢: ٢٠٠ رقم ٤٤٥٣، وعنه في البداية والنهاية ٨: ١١٥، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥٨٤/٦١٦٧، التلخيص، طبقات ابن سعد ٤: ٢٤٧.

(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦٧: ٣٥٣، المستدرك على الصحيحين ٣: ٥٨٢/٦١٦٠، التلخيص، سير أعلام النبلاء ٢: ٦٠٤، البداية والنهاية ٨: ١١٦.

(٣) المحذّر الفاصل: ٥٥٣ رقم ٧٤٤، الإلماع ٢١٧.

مسعود، ولأبي الدرداء، ولأبي ذرٍّ: ما هذا الحديث عن رسول الله ﷺ؟! وأحسبه حبسهم بالمدينة حتى أُصيب.

قال الحالكَم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي في التلخيص^(١).

٣ - قال الذهبي: إنَّ عمر حبس ثلاثة: ابن مسعود، وأبا الدرداء، وأبا مسعود الأنصاري، فقال: لقد أكثرتم الحديث عن رسول الله ﷺ^(٢).

٤ - قال عبد الرحمان بن عوف: ما ماتَ عمر بن الخطَّاب، حتَّى بعث إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فجمعهم من الآفاق: عبد الله - بن مسعود - وحذيفة، وأبا الدرداء، وأبازر، وعقبة بن عامر، فقال: ما هذه الأحاديث التي أفشيتم عن رسول الله ﷺ في الآفاق؟! قالوا: ننَّهانا!

قال: لا، أقيموا عندي، لا والله، لا تُفارقوني ما عشتُ، فنحنُ أعمل، نأخذ عنكم ونردَّ عليكم.

فما فارقه حتَّى مات^(٣).

ورواه ابن عساكر، وأضاف: وما خرج ابن مسعود إلى الكوفة بيعة عثمان

(١) المستدرك على الصحيحين ١: ١٩٣ رقم ٣٧٤ وبذيله التلخيص.

(٢) تذكرة الحفاظ ١: ٧.

(٣) كنز العمال ١: ٢٣٩ (طبعة الهند).

إلا من حبس عمر في هذا السبب ^(١).

عثمان ورواية الحديث

اقتفى عثمان بن عفان سيرة سلفه: أبي بكر، وعمر، في المنع من الحديث. قال محمود بن لبيد: سمعت عثمان على المنبر يقول: لا يحل لأحدٍ يروي حديثاً عن رسول الله ﷺ، لم يُسمع به في عهد أبي بكر، ولا عهد عمر ^(٢). وهذا يدل على أنّ المنوع في عهد عثمان، هو المنوع في عهد أبي بكر وعمر. وقد تعرّض أبو هريرة إلى تهديد عثمان بسبب رواية الحديث، فقال له: ما هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، لقد أكثرت، لتنتهين أو لألحقنك بجال دؤس ^(٣). وقبل الانتقال إلى سياسة معاوية وبني أمية وولاتهم وشيعتهم، مع الحديث النبوي الشريف، في إخفاء وإخفاف! إخفاء للحديث، وإخفاف لمن يحمل الحديث ويتحدث به خصوصاً ما فيه من فضائل أهل البيت ﷺ. وعمدوا إلى شراء الذمم لتزوير التاريخ ووضع أحاديث مكذوبة في الفضائل؛ عاملهم الله بعدله. فقبل هذا الباب، رأينا أن نتكلّم عن مسألة تمسك بها كل من منع من الحديث، تلك هي: الخوف من اختلاط القرآن بغيره! والخوف من الاشتباه،

(١) مختصر تاريخ دمشق ١٧: ١٠١.

(٢) طبقات ابن سعد ٣: ٤٠، مسند أحمد ١: ٣٦٣/٢.

(٣) المحذّث الفاصل: ٥٥٤، رقم ٧٤٦، السنة قبل التدوين: ٤٥٩، أضواء على السنة، لأبي رية: ٥٤.

والخوف من ترك القرآن والاشتغال بغيره. حتّى أنّنا نجد الناقص «يزيد» يكتب إلى أبيه معاوية: قد نُشر في مضري حديث، فقد تركوا القرآن! فتوعّد معاوية صاحب الكتاب أشد الوعيد. وقد تكلمنا عن هذه الدعوى فأثبتنا بُطلانها! ذلك أنّ كلام رسول الله ﷺ مسدّد بالوحي ولا ينطق عن هوى إن هو إلّا وحيّ يوحى، وأنّ السيرة ترجمان للقرآن وتفصيل له وفي السيرة ما ليس في القرآن، فإذا ألغى كلّ ذلك؛ ماذا بقي من الإسلام؟!

وحان أن نقف عند ذريعتهم بالدفاع عن القرآن من أن يشوبه شيء، لنر صدقهم في ذلك. إنّ القرآن الكريم، ولو لا العناية وتكفّل الله تعالى بحفظه لوجدنا قرآنًا غير الذي بين أيدينا، ذلك: أنّ أولئك الرجال الذين هتكوا حرمة السنّة، جاؤوا بقراءاتٍ شاذّة، وأبدلوا حروف بعض الكلمات، وأضافوا كلماتٍ إلى بعض الآيات، وزعموا سقوط آيات كثيرة من القرآن الكريم؛ في حين ادّعوا أنّ سورتين ليستا منه!!

فلو أخذت الأئمة الإسلامية بأقوال ذلك السلف الرافض لحديث رسول الله ﷺ، لوجدت قرآنًا يصحّ تسميته: «مصحف رافضة الحديث» ز

ويبرز عبد الله بن مسعود في طليعة هذه المجموعة، وقد أفاد من حديث نُسب إلى رسول الله ﷺ، فقال: **فصّال وجال!**

بسندٍ عن عمر بن الخطّاب، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ**

القرآن غَضًّا، كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد»^(١). يعني بذلك عبد الله بن مسعود. إنَّ عبد الله بن مسعود، أحد الذين وافقوا عمرَ، بل كان أشدهم متابعة له في منع الحديث؛ فكان هذا الحديث جزاءً، والذي سنجدّه بعيداً عن الواقع! ولذا لم يذكره الذهبي في «التلخيص». وأمّا تصديق كلامنا، فهو سيرة ابن مسعود؛ إذ نجدّه يعظّم نفسه كثيراً، فيما يحطّ من منزلة صحابة، وحقّره! وذلك لما أرادوا أن يجمعوا المصحف الشريف على قراءة واحدة؛ فكان في نسخة ابن مسعود تصحيّف كلمات كتبها على غير ما هي عليها الآن، وحذف من مصحفه الكثير، كان من جملة ما حذف سوراً بكاملها؟! فلماذا يكون هذا من صحابيٍّ مثل «عبد الله بن مسعود؟!».

إنَّ عبد الله بن مسعود، لم يكن وحيداً في هذا الأمر، فإنَّ سيّده في ذلك: عمر بن الخطّاب، وقد مات ولم يجمع القرآن، أي لم يحفظه! أخرج البلاذريّ بسندٍ عن ابن سيرين قال: قُتل عمر ولم يجمع القرآن. قال روح: يعني أنّه لم يحفظه^(٢). فلا ندري، لعدم حفظه، أو لعلّه أُخرى كان يقرأ نصوصاً ويزعم أنّها كانت من القرآن؟! ذكر ابنُ إسحاق، عن عبد الرحمن بن عوف، قال: إنَّ عمر بن الخطّاب، جلس على المنبر، فخطب فجاء في خطبته:

(١) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٤٧/٢٨٩٤.

(٢) أنساب الأشراف ١٠: ٣٤٩.

«إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةُ الرِّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَلَّمْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، وَرَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللَّهِ مَا نَجِدُ الرِّجْمَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيُضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةِ أَنْزَلَهَا اللَّهُ...؛ ثُمَّ إِنَّا كُنَّا نَقْرَأُ فِيمَا نَقْرَأُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ: «لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَإِنَّهُ كَفَرُكُمْ أَنْ تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ»^(١).

وعن المسور بن مخزومة، قال: لقي عمرُ بن الخطاب عبد الرحمن بن عوف، فقال: أليس كنا نقرأ: «قاتلوهم في آخر الأمر كما قاتلتموهم في أول الأمر؟!». قال: بلى، ذلك إذا كان الأمراء بني أُمَيَّةَ والوزراء بني مخزوم^(٢).

وعن أبي بن كعب أنه كان يقرأ (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ - وَلَوْ حَمَيْتُمْ كَمَا حَمَوْا لَفَسَدَ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ؟! - فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ)^(٣) الآية.

فبلغ عمر، فاشتدَّ عليه، فبعث إليه وهو يهناً ناقة له فدخل عليه فدعا ناساً من أصحابه فيهم زيد بن ثابت فقال: مَنْ يقرأ منكم سورة الفتح، فقرأ زيد قراءتنا اليوم فغلظ له عمر؟!

فقال له أبي: أأتكلم؟ فقال: تكلم. فقال: لقد علمتُ أبي كنتُ أُدخل على النبي (ﷺ) ويُقرئني وأنتم بالباب، فإن أحببتُ أن أقرئ الناس على ما أقرئني

(١) السيرة النبوية، لابن هشام ٤: ٣٠٨.

(٢) الغارات ٢: ٥٧٢.

(٣) الفتح: ٢٦.

أقرأت وإلا لم أقرأ حرفاً ما حييت. قال: بل أقرأ الناس^(١)!

وقفه تأمل: لم نعلق على الآيات المزعومات السابقة. أمّا هنا فإنّ أبيّ لما افتري على كتاب الله العزيز فأضاف سبع كلمات إلى الآية، وبلغ ذلك عمر ابن الخطّاب، غضب ودعا ناساً فيهم زيد بن ثابت، فلمّا قرأها زيد على النحو الصحيح، غضب عمر على زيد!!

فلم يسلم من غضب عمر، لا أبيّ، ولا زيد، مع الفارق الكبير بينهما! إلا أنّ المفارقة الأكبر حينما تحدّى أبيّ عمر بن الخطّاب، فرجع عمر وأجاز قراءة أبيّ!!

ابن مسعود: تعرّفنا على منهج عبد الله بن مسعود المتشدّد في منع الحديث وبخاصّة الحديث الذي فيه فضيلة من فضائل أهل البيت ﷺ. وأمّا منهجه مع القرآن الكريم وقراءه فغريبٌ للغاية!

ابن مسعود يحذف المعوذتين: ذكر ابن شبة (ت ٢٦٢ هـ) بسنده، قال: حدّثنا أبو عاصم قال: حدّثنا سفيان، عن أبي إسحاق، عن عبد الرحمان بن يزيد قال: رأيتُ ابن مسعود يحكّ المعوذتين من المصحف، ويقول: لا يحلّ قراءة ما ليس منه^(٢).

وأيضاً ابن شبة: حدّثنا عبد الأعلى قال: حدّثنا هشام، عن محمّد: أنّ أبيّ ابن كعب كتبهنّ في مصحفه خمّسهنّ، أمّ الكتاب، والمعوذتين، والسورتين

(١) المستدرک علی الصحیحین ٢: ٢٨٩ / ٢٨٩١. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

(٢) تاريخ المدينة المنورة، لابن شبة ٣: ١٠١٠ - ١٠١١.

(ظاهراً: قل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون)، وكتب ابنُ عَقَّان فاتحة الكتاب، والمعوذتين، وترك السُّورَتَيْنِ^(١).

ويسند عن ابن كعب بن عجرة، عن أبيه، عن جدّه قال: كنتُ عند عمر بن الخطّاب، فقرأ رجلٌ من سورة يوسف «عَتَا حِينَ» فقال عمر: مَنْ أقرأك هكذا؟ قال: ابن مسعود. فكتب عمر إلى ابن مسعود: أما بعد، فإنّ الله أنزل هذا القرآن بلسان قريش، وجعله بلسانٍ عربيٍّ مُبين، فأقْرِئِ الناسَ بلغةَ قريش ولا تُقرئهم بلغة هُذيل والسلام^(٢).

قد يُقال: لا تغفر لابن مسعود حذفه خمس سور، أو ثلاثاً، أو سورتين من القرآن، مع إعلانه تكفير من قرأ شيئاً ممّا حذف!! وأمّا «عَتَى حِينَ»، فهي قراءة لهجيّة خاصّة بهُذَيْل، وابن مسعود من هُذَيْل؛ إلّا أنّ ذلك لا يشفع له وإنّما الواجب عليه أن ينتقل من لهجته الخاصّة إلى اللسان الذي نزل به الوحي «عَلَيْهِ السَّلَام»، شأنه في ذلك شأن المعلّم المقتدر دائماً، فكيف بعامة الناس وتعدّد القراءات ممّا يجعل كلاًّ يتمسّك بقراءته وربما كفر بعضهم الآخر بذلك، وقد حصل وسرى! وإذا قال قائل: إنّ قراءة ابن مسعود لا بأس بها ولا تضرّ لأنّها مجرّد قراءة من القراءات؛ وجوابنا موجزاً: شتان بين عَتَى، التي هي من العُتُوّ، الظاهرة في الطغيان والإصرار على المعاصي والمروق عن أمر الله تعالى، وأمثال ذلك. وأمّا: حَتَّى، فهي تأتي حرفاً جازاً يدلّ على الانتهاء أو تأتي حرف عطف بمعنى الواو،

(١) نفسه ٣: ١٠٠٩.

(٢) نفسه: ١٠١٠.

أو حرف ابتداء.

فالأنسب للآية هو المثبت في لفظ الوحي المبين، لا في لفظ عبد الله بن مسعود، وهو (حَتَّى جِينِ) ^(١).

أحب السُّور إلى رسول الله ﷺ

وجدنا عبد الله بن مسعود يناضل شديداً في إنكار أن تكون المعوذتان من القرآن، ويكفر من يقول إنهما منه! بل ويُنكر سُوراً أخرى؛ فإنَّ رسول الله ﷺ يؤكد على عظمة المعوذتين، حتى أنه لما سُئل عن سُورٍ أُخرى، صرف الكلام إلى المعوذتين وبينَّ حبه لهما، وكأنَّه ﷺ قد أنبأ بما سيكون من بعض الصحابة من العدوان على القرآن، فكما حصَّن السنَّة، كذلك حصَّن القرآن الذي تكفل الله تعالى أن تمتد إليه يدُ عابث في التحديِّ البلاغيِّ، إلَّا أنَّهم قدَّموا وأخروا في سوره - كما سنرى - وكذبوا في إنكار سور، وأدخلوا كلماتٍ في مصاحفهم ذهبَت مع ذهابهم وحفظ الله تعالى كتابه، وهو العزيز القدير.

ابنُ شَبَّة: حدَّثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل بن قيس، عن عُقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ: أنزل عليَّ آيات لم ترَ مثلهنَّ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) إلى آخر السورة، و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) إلى آخر السورة ^(٢).

وأخرج بسندٍ آخر عن أبي عمران عن عُقبة بن عامر، قال: تعلَّقتُ بقدم

(١) يوسف: ٣٥.

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠١١.

رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أقرئني سورة هود، وسورة يوسف. فقال: يا عتبة إنك لن تقرأ سورة هي أحب إلى الله وأبلغ عنده من (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) ^(١).

قال: حدثنا أحمد بن عيسى قال: حدثنا عبد الله بن وهب، قال: أخبرنا خيرة بإسناده؛ مثله - أي مثل الذي قبله - قال: وكان أبو عمران لا يتركها: لا يزال يقرأها في صلاة المغرب ^(٢).
وبسند آخر عن عتبة بن عامر قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«أعلمك يا عتبة سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس. قال: فاقرا: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) فلما أقيمت الصلاة تقدم فقرأ بهما، فلما سلم مررت بي فقال: كيف رأيت يا علقمة، اقرأ بهما كلما نمت وقمت ^(٣).

وبسند عن عتبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ فقال: ألا أعلمك سوراً ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلهن؟ (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ^(٤).

وبسند عن ابن عباس الجهني، قال: قال لي النبي ﷺ: يا ابن عباس ألا أدلك ما أفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: (قُلْ أَعُوذُ

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه: ١٠١٢.

(٤) نفسه: ١٠١٢ - ١٠١٣.

يَرْبِّ الْفَلَقِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) هاتين السورتين (١).

هذا هو شأن السُور القرآنية وعظمتها، وكلّ ما في القرآن عظيم، فهو نظمٌ واحد من لدن مصدر مهيم عظيم واحد هو الله تعالى، تحدّى ببلاغة كلّ الثقلين كلّهم أن يأتوا بمثله، فعجزوا؛ فتحذاهم أخرى أن يأتوا بعشر سُورٍ مفتریات، فبُهِتوا، وأخيراً تحدّاهم أن يأتوا بسورةٍ واحدة من مثله: سواء من مثل سورة الإخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، أو سورة الفلق (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) أو سورة الناس (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ)؛ وهي وغيرها سُورٌ حذفها عبد الله بن مسعود من مصحفه وحرم على من يجعل المعوذتين من القرآن، كما مرّ ذكره.

وبذا بطلت مقولة ترك الحديث لئلاّ ينشغل الناس عن القرآن بغيره، ولئلاّ يدخل القرآن ما ليس منه ...، وهي أمور تحمّس لها عمر، وعاقب عليها جماعة فصاروا أشدّ حماساً منهم: عبد الله بن مسعود، وعثمان بن عفّان، وجماعة نذكرهم. وأمّا معاوية! فلقد وجد في سياسة من سلفه فرصة لأن يطلب بثارات الجاهليّة وأيام بدر وأحد وحنين وغيرها. وإذا أعجلتنا المواقف للكلام بشأن عبد الله بن مسعود، وبخاصّة بشأن القراءة، فبماذا يُجيبنا ابن أمّ عبد عن قوله:

«أقرأني رسولُ الله (ﷺ): (إني أنا الرزاقُ ذو القوّة المتين) [الذاريات: ٥٨]. فهل هذه قراءة هُذيل لتكون محلّ نقاش وحوار؛ مع رفض التعدّد في القراءة وبخاصّة الشاذّة كما مرّ. فكيف بنا وابن مسعود قد غير نصّ ثلاث كلماتٍ من

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠١٣.

الآية؟!

وهذا هو نصّها في المصحف المتداول بين المسلمين: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) ^{(١)، (٢)}.

ويعترض طريقنا في البحث: أكان ابن مسعود معذوراً...؟! والجواب: لا! والدليل عليه تقريع عمر الشديّد له وقد مرّ بنا، وكان ذلك في اللهجة. وهنا فقد تجرّأ فغيّر ثلاث كلمات في آية واحدة وليس ثمّة أثر للهجة في ذلك، وإنّما كان عامداً! فإنّ الذي يحذف سوراً كاملةً ويكفر من يقرأها، جدير به أن يغيّر في آية، بل آيات. وإنّ نظرتّه الاستعلائية لنفسه على حساب الصحابة، وثأره من زيد بن ثابت لما أوكلت إليه مهمّة نسخ المصحف عوضاً عن بن مسعود أثارت الثاني، فجعلته يصرّح بأنّه علّ في المصحف، ودعا الآخرين أن يغلّوا؟!!

ثورة ابن مسعود على زيد

عن الزهريّ، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله: أنّ ابن مسعود كره أن وليّ زيد نسخ كتاب المصاحف، وقال: أيّ معشر المسلمين أأعزل عن نسخ كتاب المصاحف فيؤلّوها رجل، والله لقد أسلمت وإنّه لفي صلب رجل كافر! وعند ذلك قال عبد الله: يا أهل العراق غلّوا المصاحف والقوا الله بها...، وإني غالّ مصحفي،

(١) الذاريات: ٥٨.

(٢) المستدرک علی الصحیحین ٢: ٢٥٥/٢٩١٩ ولم يصحّحه، ولم يذكره الذهبيّ في التلخيص.

فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَغُلَّ مَصْحَفَهُ فَلْيَفْعَلْ ^(١).

صحابي! تُؤخذ منه وظيفة نسخ المصحف وتوكل إلى آخر؛ فتحمله سَوْرَة غضبه أن يكلم جمهور المسلمين عن هذه المصيبة العظمى مذكراً بسابقته إلى الإسلام، فيما زيد ما زال في صلب أبيه الكافر!! متغافلاً عن «الإسلام يجب ما كان قبله» وابن مسعود نفسه لم يكن مسلماً ثم هداه الله تعالى فدخل الإسلام.

وإذا حمله انفعاله النفسي أن يشن حرباً كلامية على زيد بن ثابت فكيف ساغ له أن يدعو إلى الغل في المصحف، والغل الخيانة في كل شيء.

«وبسندٍ عن حمزة بن عبد الله قال: بلغني أنه قيل لعبد الله بن مسعود: ما لك لا تقرأ على قراءة فلان؟ فقال: لقد قرأت على رسول الله ﷺ سبعين سورة فقال لي لقد أحسنت، وإن الذي يسألون أن أقرأ على قراءته في صلب رجلٍ كافرٍ ^(٢).

الحِمْياني، قال: حدّثنا شريك، عن ابن إسحاق، عن أبي الأسود، قال: قيل لعبد الله: ألا تقرأ على قراءة زيد؟ قال: ما لي ولزيد ولقراءة زيد؛ لقد أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليهوديٌّ له ذؤابتان ^(٣).

إن ابن مسعود، كان يرى في نفسه أنه أعلمُ الصحابة بكتاب الله؛ ولا ندري

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٥.

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٦.

(٣) نفسه: ١٠٠٨. وانظر مسند أحمد ١: ٣٨٩، ٤١١، الاستيعاب ١: ٣٧٣، شرح نهج البلاغة ٣: ٤٥ (من غير لفظ يهودي).

لعلَّ مَرَدَّ ذلك إلى ما رواه عمر بن الخطَّاب بأنَّ يأخذوا القرآن بقراءة ابن أمَّ عبد - أي ابن مسعود -؟!^(١)

بسندٍ عن شقيق بن وائل قال: لما شَقَّ عثمان المصاحفَ بلغَ ذلك عبد الله بن مسعود فقال: قد عَلِمَ أصحابُ محمَّدٍ أبيّ أَعْلَمُهُم بكتابِ الله، وما أنا بخَيْرِهِم، ولو أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بكتابِ الله مِنِّي تُبَلِّغُنِيهِ الْإِبِلُ لِأَيَّتِهِ ^(٢).

هذه نظرة ابن مسعود الاستعلائية لنفسه، وتلك نظرتة التحقيرية لزيد. وقد علمنا من حال ابن مسعود ومصحفه ما لا حاجة لإعادة ذكره. كما ذكرنا حديث الغُلُول، ونذكره هنا بصورة أخرى: بسندٍ عن حمير بن مالك، قال: لما أُمِرَ بالمصاحفِ أن تَعَيَّرَ ساءَ ذلك عبد الله بن مسعود فقال: مَنْ استطاع منكم أن يَغُلَّ مصحفاً فليَفْعَلْ؛ فإن من غلَّ شيئاً جاء بما غلَّ يومَ القيامة، ثم قال: لقد قرأتُ القرآن من في رسول الله سبعين سورة، وزيد صبيٌّ، أفأتركُ ما أخذتُ من في رسول الله صلى الله عليه وآله ^(٣)؟!^(٤)

عجب ثمَّ عجب لابن مسعود وهو يروي هذا الكلام! وقد غلَّ في مصحفه فكتب بلهجة هذيل وليس بلفظ الوحي، وغير ثلاث كلمات في آية واحدة - مرَّ بنا - وحذف من مصحفه سوراً كاملة!!

وبسندٍ عن توبة بن أبي فاختة، عن أبيه قال ك بعث عثمان إلى عبد الله أن يدفع المصحف إليه. قال: ولم؟ قال: لأنَّه كتب القرآن على حَرْفٍ زيدٍ. قال: أمَّا

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٧.

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٦.

أن أُعطيَه المصحف فلن أُعطيَكُمُوه؛ ومن استطاع أن يُعلِّ شيئاً فليفعل، والله لقد قرأتُ من في رسول الله صلى الله عليه (وآله) سبعين سورة، وإن زيدا لذو ذؤابتين يلعب بالمدينة ^(١).

إن صدق ابن مسعود فيما ادَّعاه، أفلم يكن حريّاً به أن يُعطيهم المصحف الذي سمعه من في رسول الله ﷺ ليطابقوه مع ما عندهم من مصحف، أم أنّ روح الأنانيّة استحوذت عليه؛ أم روح الاستعلاء التي أشرنا إليها منه قبل، أم النقصان والتلاعب بألفاظ القرآن جعلته في خشية من أن يطاله الحساب؟! وهو مع ذلك يتّهم الآخرين بالغل؟!!

فإذا أعرضنا عن الحديث، وأخذنا بالقراءات الشاذّة التي سنذكر بعضاً آخر منها، وقرأنا الآيات مع إدخال ابن مسعود وتبديله بعض الكلمات ووقفنا مع المشكّكين القائلين بسقط الكثير منه - معاذ الله! -؛ تركنا إسلامنا الأصيل كما ترك اليهود والنصارى دياناتهم بسبب تحريف كتبهم، ولكنّ الله تعالى ضمن حفظ كتابه العزيز، فحمله رجال أمناء وطبقة من النساء لم يكن بمنأى عن النيّ ﷺ ولم يشغلهم عالم السياسة عن حفظ القرآن وحمله كما سمعنهم من في رسول الله ﷺ بلفظ الوحي المبين!

أبيّ بن كعب

وقد ذكرنا خبره وهو يقرأ الآية «٢٦» من سورة «الفتح»، فزاد فيها سبع

(١) نفسه: ١٠٠٥ - ١٠٠٦.

كلماتٍ، فلمّا بلغ عمر بن الخطّاب، بعث إليه ودعا ناساً فيهم زيد بن ثابت، فقرأ زيد سورة الفتح، فغضب عمر...، وانتهى الأمر بموافقة عمر لأبيّ بقوله: بل أقرئ الناس! وأخرج الحاكم بسنده عن أبيّ بن كعب قال: كانت سورة الأحزاب توازي سورة البقرة! وكان فيها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ^(١).

إنّ عدد آيات سورة الأحزاب «٧٣» آية، وأمّا عدد آيات سورة البقرة فهو «٢٨٦» آية، فيكون الساقط - معاذ الله أن نجرؤ فنقول هذا القول - بحسب رواية أبيّ، هو «٢١٣» آية؟! ولعلّه مكذوب عليه لأغراضٍ سياسيّة! فهلاًّ سُئل عن تلك الآيات لإثباتها والتعبّد بتلاوتها؟! وأين غاب بقيّة الصحابة وفي طليعتهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي هو مع القرآن والقرآن معه، كان يرى الوحي ويسمع كلامه...

وأخرج الحاكم عن ابن عبّاس قال: قرأتُ على أبيّ بن كعب «ولا تُقبل منها شفاعَةٌ» بالتاء، في تُقبل ^(٢). والذي في المصحف (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) ^(٣)، بالياء.

أخرج ابن شُبّة في سنده عن الليث بن سعد في خبر جمع عثمان القرآن على قراءة واحدة، قال: وكان حين جمع القرآن جعل زيد بن ثابت، وأبيّ بن

(١) المستدرك على الصحيحين ٢: ٤٥٠ / ٣٥٥٤. وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قال الذهبي: صحيح. التلخيص.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٥٤ / ٢٩١٦.

(٣) البقرة: ٤٨.

كعب يكتبان القرآن، وجعل معهم سعيد بن العاص يقيم عَرِيَّتَهُ. فقال أُبَيُّ: التَّابُوه، وقال سعيد بن العاص: إِنَّمَا هُوَ التَّابُوت. فقال عثمان: اكتبوه كما قال سعيد، فكتبوا التَّابُوت ^(١). وقال ابن شهاب الزهري: اختلفوا يومئذ في التابوت، فقال زيد: التابوه، وقال ابن الزبير وسعيد وعبدالرحمان: التابوت، فرفعوا اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه التابوت فإنه بلسان قريش ^(٢).

وترد لفظة التَّابُوت في موضعين من القرآن الكريم: سورة البقرة، آية ٢٤٨؛ وسورة طه، آية ٣٩.

إنَّ زيد بن ثابت الذي عَوَّلُوا عليه كثيراً في كتابة ونسخ المصحف، واحتقره عبد الله بن مسعود بالنعوت التي مرَّ ذكرها، وجدناه يكتب التَّابُوت - بناءً طويلة منقوطة -، يكتبها: التَّابُوه - بالهاء غير المنقوطة - وزعم زيد فقدان آية وذلك لما جمع المصحف:

عن عمارة بن غزية، عن ابن شهاب، عن خارجة بن زيد، عن زيد بن ثابت، قال: عرضتُ المصحف فلم أجد فيه هذه الآية (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) ^(٣) الآية، قال: فاستعرضتُ المهاجرين أسألم عنها فلم أجد لها مع أحد، ثم استعرضتُ الأنصار أسألم عنها فلم أجد لها مع أحد، حتَّى وجدتها مع

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٢.

(٢) نفسه ١٠٠١.

(٣) الأحزاب ك ٢٣.

خزيمة بن ثابت الأنصاريّ فكتبتهما، ثمّ عرضته مرّة أخرى فلم أجد فيه هاتين الآيتين (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) الآية - إلى آخر السورة^(١). قال: فاستعرضت المهاجرين أسألهم عنهما فلم أجدهما مع أحد منهم، ثمّ استعرضت الأنصار أسألهم عنهما فلم أجدهما مع أحد منهم، حتّى وجدتهما مع رجل آخر يدعى خزيمة أيضاً من الأنصار فأثبتهما في آخر (براءة). قال زيد: ولو تمّت ثلاث آيات لجعلتها سورة واحدة، ثمّ عرضته عرضة أخرى فلم أجد فيه شيئاً.

فأرسل عثمان إلى حفصة يسألها أن تعطيه الصحيفة، وجعل لها عهد الله ليرُدّها إليها، فأعطته إيّاها، فعرضت الصحف عليها فلم تخالفها في شيء فرددتها إليه وطابت نفسه، فأمر الناس أن يكتبوا المصاحف^(٢).

ابن شهاب الزهريّ، من المعدودين في المنحرفين عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وزيد بن ثابت عثمانيّ. وابن شبة غير رافضيّ بل ولا شيعي الهوى، وقد أثبت الرواية في كتابه. وهو ليس متأخراً (١٧٣ - ٢٦٢ هـ)، بصريّ.

أقول: هذا كلامهم في القرآن، يكتبونه بلهجاتٍ مباينةٍ للفظِ الوحي الفصيح البليغ؛ فيكفر بعضهم بعضاً لتعدّد اللّهجات، ويضيفون إليه ما ليس منه كلاماً ركيكاً، ويزعمون ضياع الكثير منه واندرس؛ ومنه ما ضاع ولكن بعد طوافٍ طويل بين المهاجرين فلم يجده عندهم، ثمّ بين الأنصار حتّى وجده عند أحدهم

(١) التوبة: ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠١ - ١٠٠٢.

والسؤال: صحابة في الصدر الأول لا يعرفون كتابهم ولكن يحفظون أنسابهم؟!
فإمّا أن تكون هذه الروايات مكذوبة فنطرحها! وإمّا أن تكون صادقةً وقد بلغت عند حدّ التواتر، فكيف نطمأنّ إلى رواياتهم ونجعلها من المسلّمات وبخاصّة تلك المتعلقة بهدم أهم ركن من أركان الإسلام وهو النبوة الذي يأتي بعد التوحيد، ولولاه لما عرفنا الله تعالى حقّ معرفته، ولا إيمان بالنبّي ﷺ بالنطق بالشهادة فقط وإمّا حمل وبثّ وتقييد أحاديثه ﷺ .
وكما عدا أولئك التفر على السنّة بالحجّة التي أشرنا إليها؛ فقد عدّوا على القرآن بالشواهد التي ذكرناها ممّا يعني صدق دعوانا فيما خلصنا إليه من نتيجة: العمد إلى طمس معالم العترة الطاهرة وما لها من حقوق سياسيّة.

قلنا: إنّ الناس كان يُكفّر بعضهم بعضاً بسبب القراءات، حتّى جمع عثمان الناس على مصحفٍ واحد، ولكن أساء الأدب إلى كتاب الله تعالى - كما سنعرض له -
عن أنس بن مالك قال: اجتمع لغزوة أرمينية وأذربيجان أهل الشام وأهل العراق وكان معهم خذيفة بن اليمان ففرّج من اختلافهم في القراءة، فقدم على عثمان فقال: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا في القرآن اختلاف اليهود والنصارى! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا الصحف نُنسخها في المصاحف ثمّ نردّها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر عثمان زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمان بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرّهط القرشيّين الثلاثة:

إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإِذَا أنزل بلسانهم، ففعلوا ذلك، حتَّى إذا نُسخَ المصحفُ ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة وأرسل إلى كلِّ أَقْصٍ بمصحفٍ ممَّا نَسَخُوا، وأمر بما سِوَاهُ من القرآن في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يُحرق^(١).

نتوقّف قليلاً مع الرواية: فقد قلنا إنّ النَّاسَ يكفّر بعضهم بعضاً بسبب القراءات، وكان أولئك التّفَرُّ وفي طليعتهم عبد الله بن مسعود، الذي أحسن عمرُ تأديبه! فامتنع من الحديث ومن ثمّ صار أشدّهم منعاً للحديث؛ فاستحقّ تلك الرواية، بالأخذ بقراءته! حتَّى وإن غيّر وبدّل في ألفاظ الآيات وأنكر سُوراً كاملةً؛ فأناس ملتزمون بقراءته وآخرون بقراءة غيره، فيكفّر بعضهم بعضاً باختلاف القراءات.

والمسألة الأخرى: إنّ عثمان قد جمع الناس على مصحفٍ واحد، ولكنّه أساء الأدب كما قلنا من قبل وذلك من خلال حرقه المصاحف!! فهلاًّ جمعها فجعلها في خُزانة في مكان أمين؟! وكما أنّ العدوان على سنّة رسول الله ﷺ والاستهانة بها بعد ما بلغهم توكيده ﷺ بما يقطع معاذيرهم؛ فهو عدوانٌ على شخصه الكريم!، فكذلك الحال بالنسبة إلى القرآن الكريم، لا يجوز هتُكُ حرمة بأيّ لونٍ: بالحرق، أو الدفن، أو الحرق؛ تلك الأساليب التي مُورست مع سنّة المرسل ﷺ، فاختار عثمان أبشعها وهي:

«الحرق» إذ لو دُفِنَتْ - مع اعتراضنا الشديد على هذا الفعل المنكر - زُبَّما

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ٩٩١ - ٩٩٢. وانظر فتح الباري ٩: ١٧، سنن البيهقي ٢: ٤١.

تُخرج بعد ذلك سالمة...

أما الذي حدث للقرآن العظيم، فأمرٌ مهول تكاد السماوات ينفرطن - بالنون - وليس بالتاء، إذ هذه لها قراءة بالتاء عند بعضهم! - للذي كان من عثمان بحرق العراق، ويأتي بلفظ تمزيقه...! وفي كل سوء أدب، وجاهليّة، ومروق على أمر الله تعالى وطاعته.

«وبسندٍ عالٍ عن زيد بن ثابت، أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم من غزوة غزاها بفرج أرمنية فحضرها أهل العراق وأهل الشام، فإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود ويأتون بما لم يسمع أهل الشام؛ ويقرأ أهل الشام بقراءة أبي بن كعب، ويأتون بما لم يسمع أهل العراق. قال: فأمرني عثمان أن أكتب له مصحفاً فكتبته. فلما فرغت منه عرضَه (١).

هذا حال المسلمين في صدر الإسلام وهم قريبو عهد بالنبي ﷺ يُكفّر أحدهم الآخر بسبب القراءة لما أشاعته السياسة المانعة من الحديث بأنّ النبي ﷺ أوصى بالأخذ بقراءة ابن مسعود، وأشاع آخرون أن أئبياً هو سيّد القراء - ستعرف -؛ ولذا تمسك أهل العراق بقراءة ابن مسعود وكلّما سمعوا شيئاً غيره فهو جديد عليهم وظنّوه كفراً وخروجاً على القرآن؛ وكذا حال أهل الشام. ولكن لم هذا التعميم؟! وأين الطبقة السابقة إلى الإسلام وأسبقها عليّ أمير المؤمنين عليه السلام، من غير خلاف والذي كان يهتف ويمدّ بها صوته: أنا الصديق الأكبر وفاروق هذه الأمة صلّيت مع رسول الله ﷺ سبع سنوات ولم يصل معنا

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ٩٩٣، فتح الباري ٩: ١٤ - ١٥، الجامع للأصول ٤: ٣٣.

أحد». هلاً رجع عثمان إليه فاستشاره ماذا يفعل بالمصحف، مثلما كان يستشير أبو بكر، وعمر في أمورهم المهمة مثل الحروب؟! ويقتدي بفعل رسول الله ﷺ إذ ائتمن أمير المؤمنين علياً عليه السلام على ودائع قريش التي كانت عنده حينما هاجر وأمر علياً عليه السلام بالمبيت على فراشه؟! أو جعلها عنده أمانة إلى حين؟...

عثمان يُشقق المصاحف

عن سوار بن شبيب قال: دخلتُ على ابن الزبير في نفر فسألته عن عثمان ابن عفان، لم شقق المصاحف، ولم حمى الحِمَى؟ فقال: قوموا حُرُورِيَّةً^(١)، قلنا: لا والله ما نحن حرورية. قال: قام إلى أمير المؤمنين عمر رجلٌ فيه كذبٌ وولع، فقال: يا أمير المؤمنين إنَّ الناس قد اختلفوا في القراءة، فكان عمر قد همَّ أن يجمع المصاحف فيجعلها على قراءة واحدة، فطُعن طُعْنَةً التي مات منها. فلما كان في خلافة عثمان قام ذلك الرجل فذكر له، فجمع عثمان المصاحف، ثم بعثني إلى عائشة فجئتُ بالصُّحُف التي كتب فيها رسول الله ﷺ القرآن فعرضناها حتى قَوَّمَناها، ثم أمر بسائرهما فشُقِّقَتْ^(٢).

إن تشقيق المصحف وحرقة سواء، فهما عدوان على القرآن الكريم وهتك حرمة فعله هذا من الكبائر!

(١) الحرورية: طائفة من الخوارج تُنسب إلى حروراء بقرب الكوفة فقد كان اجتماعهم بها لأوّل مرّةً للتحكيم حين خالفوا أمير المؤمنين علياً عليه السلام وتشددوا في أمرهم ... (الوسيط للمجمع اللغوي).

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٣: ٩٩١.

اختلاف وزيادة ونقصان!

حدّثنا عبد الأعلى بن الحكم الكلبيّ، قال: أتيتُ دار أبي موسى الأشعريّ فإذا حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن مسعود، وأبو موسى الأشعريّ فوق إجار^(١) فقلتُ: هؤلاء والله الذين أُريد، فأخذت أرتقي لهم حتّى جلسْتُ إليهم فإذا عندهم مصحف أرسل به عثمان فأمرهم أن يقيموا مصاحفهم عليه.

فقال أبو موسى: ما وجدتم في مصحفي هذا من زيادة فلا تنقصوها، وما وجدتم من نقصان فاكتبوه فيه! فقال حذيفة: فكيف بما صنعنا والله ما أحدٌ من أهل هذا البلد يرغبُ عن قراءة هذا الشيخ. يعني ابن مسعود، ولا أحدٌ من أهل اليَمَن يرغب عن قراءة هذا الآخر، يعني أبا موسى. وكان حذيفة هو الذي أشار على عثمان أن يجمع المصاحف على مُصحفٍ واحد^(٢).

يعتمدُهم عثمان في كتابة المصحف، فإذا أحدهم يُصرّ على مصحفه زيادةً ونقيصةً!! وحذيفة الذي أشار على عثمان بفكرة جمع المصاحف على مصحفٍ واحد، غدا في حيرةٍ من أمره، فالناس في كلّ بلد متمسّكون بقراءة شيخهم وهو يختلف عن الآخر؟!

عن أبي محمّد القرشيّ: أنّ عثمان بن عفّان كتب إلى الأمصار: أما بعد، فإنّ نفرًا من أهل الأمصار اجتمعوا عندي فتدارسوا القرآن، فاختلفوا اختلافًا شديدًا؛ فقال بعضهم قرأتُ على أبي الدرداء، وقال بعضهم قرأتُ على حرف عبد الله بن

(١) الإجار: والأجار، السطح الذي لا سترة عليه. (اللسان)

(٢) نفسه ٩٩٩.

مسعود، وقال بعضهم قرأت على حرف عبد الله بن قيس - أي أبو موسى الأشعري -، فلمّا سمعتُ اختلافهم في القرآن - والعهدُ برسول الله ﷺ حديث - ورأيتُ أمراً منكراً، فأشفقتُ على هذه الأمة من اختلافهم في القرآن، وخشيتُ أن يختلفوا في دينهم بعد ذهاب مَنْ بقي من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قرأوا القرآن في عهده وسمِعوه من فيه، كما اختلفتِ النَّصارى في الإنجيل بعد ذهاب عيسى ابن مريم، وأحببتُ أن ندارك من ذلك؛ فأرسلتُ إلى عائشة أن ترسل إلي بالأدم الذي فيه القرآن الذي كتب عن فم رسول الله ﷺ حين أوحاهُ الله إلى جبريل، وأوحاه جبريل إلى محمد، وأنزله عليه، وإذ القرآنُ غضٌّ، فأمرت زيد ابن ثابت أن يقوم على ذلك ...، وكان زيد بن ثابت أحفظنا للقرآن، ثم دعوتُ نفرًا من كتاب أهل المدينة وذوي عقولهم، منهم نافع بن طريف، وعبد الله بن الوليد الخزاعي، وعبد الرحمان بن أبي لُبابة، فأمرتهم أن ينسخوا من ذلك الأدم أربعة مصاحف وأن يتَحَقَّطُوا^(١).

هنا خرج عثمان على التعريف بأحفظ الصحابة عن قول عمر الذي كان يدعو إلى عبد الله بن مسعود، والذي بدوره لم يكن يرى في الصحابة مَنْ هو أعلمُ بالقرآن مطلقاً، فكان مصحفه محتوياً على قراءات مغايرة لقراءة الوحي، وآياتٍ بدّل في كلماتها، وناقصاً سوراً كاملةً ... وأما زيد الذي عرّفه عثمان بأنّه أحفظ الصحابة وأوكل إليه كتابة المصحف، فصحّف كتابة «التابوت» وكتبها «التابوه» حتّى اشتدّ عليه عثمان فكتبها «التابوت».

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ٩٩٧ - ٩٩٨.

وفقد آيات راح يجول بين المهاجرين والأنصار حتى أصابها أخيراً مع رجل من الأنصار. فلا ندري كيف نوّق بين ما روي عن عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْخُذَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَأْخُذْهُ مِنْ فِي ابْنِ مَسْعُودٍ»، وبين نسخ زيد في رجال ليس فيهم ابن مسعود للمصحف الذي أوحاه الله تعالى إلى جبريل فأوحاه جبريل إلى رسول الله ﷺ. وإذ القرآنُ غَضٌّ «لم تدخله قراءة هُدِيل ولا زيادة أبي موسى أو تبديل وزيادة ابن مسعود ولا حذفه لسور ولا قراءة التابوه».

ترتيب عثمان لسور القرآن

عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من السبع - في المستدرك من المثني - فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» فقال: إنّ رسول الله ﷺ، كان يأتي عليه الزمان تنزل عليه السور ذات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء قال: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن، وكانت قصّتها شبيهةً بقصّتها، وقُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يُبَيِّنْ لنا، وظننّت أنّها منها؛ فمن أجل ذلك قرّنتُ بينهما، ولم أكتب سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتها في السبع

الطَّوَال^(١) .

هل هذا من قبيل القياس المذموم في الرواية في الحديث؟! سورة مَكِّيَّة من أوائل القرآن، تُقرن بسورة مدنيَّة من آخر القرآن وليس من دليل يهتدون به لهذا النظم إلَّا زعمهم أنَّ النبي ﷺ قُبِض ولم يُيَنَّ، أي يوضَّح لهم أين تكون هذه السورة أو تلك ...؟! أي ذريعة هذه؟ هلَّا رجع عثمان إلى كبار الصَّحابة وعظيمهم أمير المؤمنين هارون الأُمّة عليّ ؑ؟ ومتى كان جمع المصحف خاضعاً لمزاج الرجال فيضمّون السورة إلى ما يشبهها - كذا - بحذف البسملة من أوّل السورة الثانية؛ فمن أعطاه هذه الصّلاحيّة في التصرّف؟! كلّ هذا لو أحسنّا الظنّ بالرجل وصدّقنا دعواه! وإلّا كيف يترك رسول الله ﷺ كتاب الله العزيز وقد ائتمنه عليه فكان إذا نزلت الآية قال وضعوها في السورة كذا وهكذا ولم يُقبض إلَّا والقرآن مودع عند طبقة واسعة مؤمنة مجاهدة من أجله صالحة لا تفرط به.

وسنجد في سيرة بني أُمَيَّة تشدّداً على الحديث وغلظة على من ذكر شيئاً من فضائل وسيرة أهل البيت ؑ، وإساءة إلى القرآن الكريم تأسيّاً بشيخهم عثمان.

عن شعبة، عن يعلى بن عطاء قال: سمعته يقول: سمعت القاسم بن ربيعة يقول: سمعت سعداً - بن أبي وقاص - يقرأ (ما ننسخ من آية أو ننسها) [البقرة: ١٠٦] قال فقلت: إنّ سعيداً يقرأها أو ننسها. قال: فقال: إنّ القرآن لم ينزل على

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠١٥ - ١٠١٦، المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٤١ / ٢٨٧٥، التلخيص وقال: على شرط البخاري ومسلم.

المسيّب ولا على ابنه وحفظي أنّه قرأ (سُنْفِرُكَ فَلَا تَنْسَى) [الأعلى: ٦] (وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا
نَسِيتَ) [الكهف: ٢٤].
ذكره الحاكم^(١).

العجب من سعد وهو صحابيّ يقرأها بما يوجب الكفر! ذلك أنّ قراءته توجب النسيان لله
جلّ وعلا. فإذا دُكِّرَ بالقراءة الصحيحة والتي تعني أنّ الله تعالى سنسخ أو ينسي ...، فهو فاعل
سبحانه، غضب سعد وفحش على سعيد بن المسيّب وعلى أبي سعيد!!
وخلاصة القول: إنّ القرآن الصحيح هو القرآن الذي تركه رسول الله ﷺ مكتوباً مقيداً
بلسان الوحي ويشهد له قومٌ شهد القرآن بعصمتهم في آية التطهير؛ وفي آية المباهلة، فكان القرآن
الكريم مُعْجِزاً ببلاغته للتقليل وحتى تقوم الساعة، وكانت تلك الوجوه الكريمة: عليّ، وفاطمة،
والحسن، والحسين عليهما السلام معجزة رسول الله ﷺ يوم المباهلة، بهم غلب نصارى بُحْران وأثبتته
القرآن الكريم. فلهذا وغيره من الخصوصيات، فهم أعرف بالوحي إذ هم أهله، وقد صرّحوا بذلك
كابراً عن كابر. ولقد كان أمير المؤمنين عليّ يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني...» وما قالها غيره
إلاّ افْتَضَحْ! وكان يصرّح بأنّه يعرف كلّ آية في القرآن، وسبب نزولها وفيمن نزلت، أيّ ليل نزلت
أم في نهار...، وبعد هذا البيت الطاهر تأتي طبقة واسعة ممّن لم تُحَرَفْ ولم تُبدَلْ ومضت على
عهد رسول الله ﷺ فتابعت أهل بيته ووفت ببيعته، فاستحقت بذلك اسم الصحبة إذ الصحابيّ
هو من عاش ومات

(١) المستدرک علی الصحیحین ٢: ٢٦٤ / ٩٥٢. قال في التلخيص: على شرط البخاري ومسلم.

ولم يُبدّل. هؤلاء حفظوا القرآن كما أنزل وقرأوه كما قرأه رسول الله ﷺ ولم يزعموا أنّ القرآن الكريم قد فُقد منه كثير كما زعم أولئك! والله تعالى قال: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) ^(١)، والقول قول الله تعالى لا قول أولئك. كما أنّ أهل البيت عليهم السلام ومن تبعهم لم يبدّلوا كلام الله كما فعل أولئك. وأخيراً لم ينسبوا إلى رسول الله ﷺ قراءاتٍ شاذّة ومغلوطة كما فعل أولئك!

كذب على رسول الله ﷺ ، في القراءة

لم يقف القوم عند حدود ما ذكرنا، وإنما بلغت بهم الجرأة أن نسبوا إلى رسول الله ﷺ قراءات مكدوبة!

عن ابن عمر: أنّ رسول الله ﷺ قرأ: (فَطَلَّقُوهُمْ فِي قَبْلِ عَدَّتِهِمْ). والصحيح: (فَطَلَّقُوهُمْ لِعِدَّتِهِمْ) ^(٢)، ^(٣) الآية.

يونس بن بُكير، حدّثنا محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد عن أبي سعيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تفتح يأجوج ومأجوج كما قال الله عزّ وجلّ: (مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ) ^(٤)». قال ابن إسحاق: في قراءة عبد الله: «من كلّ حدث ينسلون» بالجيم والشاء مثل قوله (مِنْ الْأَجْدَاثِ إِلَى

(١) الحجر: ٩.

(٢) الطلاق: ١.

(٣) المستدرک علی الصحیحین ٢: ٢٧٥ / ٢٩٩٠، التلخیص.

(٤) الأنبياء: ٩٦.

رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ^(١)، وهي القبور^(٢).

ولكنّها في قراءة الوحي في الآية الأولى «حدّب» بالدال، وفي قراءته في الثانية بالثاء، فنّبع الوحي لا الرجال لئلاّ نضلّ! أئمة قياس إذ لها نظير في آية أخرى فنُعرض عن الوحي فنبدّل ونقيس...؟! والحمد لله أنّ ابن مسعود لم ينسب القراءة إلى رسول الله ﷺ، وكان موضع ذكر هذه فيما مضى فسهونا عنها «حتّى حين!».

عن شهر، عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت النبي ﷺ يقرأ: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)^(٣) ولا يُيالي.

إنّ كلمتي «ولا يُيالي»، ليستا من الآية؟! وقد علّق عليه الحاكم قائلاً: هذا حديث غريب عال ولم أذكر في كتابي هذا عن شهر غير هذا الحديث الواحد^(٤).

عبد الرحمان بن غنم الأشعريّ، قال: سألتُ معاذَ بن جبل عن قول الحواريّين: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ)^(٥)، أو: هل يستطيع ربّك؟ فقال: أقرأني رسول الله ﷺ «هل يستطيع ربّك» بالثاء^(٦).

وعن هارون - قال عنه الذهبي «واه» وفي مكان آخر «هالك» عن ابن

(١) يس: ٥١.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٦٨ / ٢٩٦٦، التلخيص.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٧٢ / ٢٩٨٢.

(٥) المائدة: ١١٢.

(٦) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٦٠ / ٢٩٣٥، التلخيص.

عبّاس! أنّ النبي ﷺ كان يقرأ: (وكان أمامهم ملكٌ يأخذُ كلّ سفينةٍ صالحة غصباً) ^(١).

قال الحالكَم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

والآية فيها تغيير وزيادة، فحاشا ابن عبّاس أن يفترى على رسول الله ﷺ.

والآية: (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً) ^(٢). فكما ترى قد غيروا كلمة

«وراءهم» إلى «أمامهم» وأضافوا إلى الآية كلمة «صالحة» ونسبوا ذلك إلى ابن عبّاس.

وعن حصّين، عن عكرمة، عن ابن عبّاس قال: لا أدري، كيف قرأ رسول الله ﷺ «عتياً» أو

«جثياً» فإنهما جميعاً بالضم ^(٣)!

أن يكون الخبر صادر من أولئك الجماعة فيهن الخطب! أمّا من مثل ابن عبّاس فبعيد! وإن كان على شرط الشيخين! فالبون شاسع بين اللفظتين في مخارج حروفهما أولاً، وثانياً: في المعاني التي تؤدّي إليهما كلتا الكلمتين، فإنّ من معاني جثا: قال شيئاً يُغضب غيره، وأيضاً جلس بين يدي ...؛ وغير ذلك. وأما عتي: فطغى وتمردّ وخرج على الطاعة ...، وليس مثل ابن عبّاس اللبيب النسابة الحاذق من ينسى كيف قرأ رسول الله ﷺ!

(١) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٦٦ / ٩٥٩.

(٢) الكهف: ٧٩.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٢: ٢٦٧ / ٢٩٦٢. وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. وفي التلخيص: على شرط البخاري.

وعن ابن سيرين، عن أنس: أنَّ النبي ﷺ قرأ: (أَنْ تَكُونَ لَهُ أُسْرَى) - بالتاء - . والصحيح: (أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى) ^(١) - بالياء - . وحاشا لرسول الله ﷺ أن يشتبه في القراءة!

مروان يُشقق القرآن

استنَّ مروان بن الحُكَم بِسَنَةِ عثمان في عدوانه على القرآن. عن ابن شهاب، قال: حدثني أنس قال: لما كان مروان أمير المدينة أرسلَ إلى حَفْصَةَ يسألها عن المصاحف ليمزّقها وخشي أن يُخَالِف الكتابَ بعضُهُ بعضاً، فمنعَتْها إِيَّاه ^(٢).

قال الزهري: فحدثني سالم قال: لما تُؤَفِّيت حَفْصَةُ أرسل مروان إلى ابن عمر بعزيمةٍ لِيُرْسِلَنَّ بها، فساعةً رجعوا من جنازة حَفْصَةَ أرسل بها ابنُ عمر، فشَقَّقَها ومزَّقَها مخافةً أن يكون في شيء من ذلك خلافٌ لما نَسَخَ عثمانُ ^(٣)!

إشكالنا ليس على شخص مروان! فهو غَيِّيٌّ عن الوصف. ولكن: كما قلنا في المُمَهَّد «عثمان بن عفَّان» الأمويُّ في فعله الشنيع في هتك حرمة القرآن لكرام تمزيقاً وحَرْقاً، والذريعة: مخافة أن يختلف الناس في القراءة. فما حجّة مروان وقد جمع سَلَفُهُ وشيخُه الناس على مصحفٍ واحد، وسبقه إلى فضيلة!

(١) الأنفال: ٦٧.

(٢) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٣، المصاحف، للسجستاني ٢٥.

(٣) تاريخ المدينة المنورة ٣: ١٠٠٣ - ١٠٠٤.

حرق وتمزيق المصاحف.

وكان معاوية واحداً ممن انتهت إليه «الأريكة» ليحكم بالهوى ويعطل السنة ويتجاوز أحكام القرآن الكريم، ومع ذلك فهو يلوذ باسم القرآن في تعطيل السنة الشريفة.

معاوية يمنع الحديث

قال رجاء بن حيوة^(١): كان معاوية ينهى عن الحديث، يقول: لا تُحدثوا عن رسول الله ﷺ.^(٢)

وروى ابن عديّ، عن إسماعيل بن عبيد الله: أن معاوية نهى أن يُحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله بحديثٍ إلا حديث ذكر على عهد عمر، فأقره عمر. إن عمر كان قد أخاف الناس في الحديث عن النبي ﷺ^(٣). ورواه ابن عُليّة، عن رجاء بن أبي

-
- (١) رجاء بن حيوة الكنديّ الشاميّ. روى عن جابر بن عبد الله، وخالد بن يزيد بن معاوية، وعبد الله ابن عمرو بن العاص، وعبد الملك بن مروان، وعمر بن عبد العزيز، وأبي الدرداء ...
- روى عنه: حميد الطويل، وأبو إسحاق السبيعي، ومحمد بن عجلان، وقتادة بن دعامة ... قال ابن سعد: كان ثقةً فاضلاً كثير العلم (طبقات ابن سعد ٧: ٤٥٤). وقال العجلي: ثقة. (تاريخ أسماء الثقات ١٦٠ / ٤٣٩). وذكره ابن معين فقال: ثقة (تاريخ ابن معين ٢: ١٦٤).
- توفي رجاء بن حيوة سنة اثني عشرة ومائة (تاريخ خليفة ٣٤٣، وطبقاته ٣١٠ وطبقات ابن سعد).
- (٢) الفقيه والمتفقه ١: ٧.
- (٣) الكامل، لابن عدي ١: ٣٣ و ١: ١٨.

سلمة أنّه قال: بلغني أنّ معاوية كان يقول ... (١).

وروى ابن عساكر: كان معاوية يقول على منبر دمشق: إيتاكم والأحاديث عن رسول الله (ﷺ) إلا حديثاً ذكر على عهد عمر (٢).

وعن عبد الله بن عامر اليحصبي، قال: سمعت معاوية يقول: إيتاكم وأحاديث، إلا حديثاً كان في عهد عمر، فإنّ عمر كان يُخيف الناس في الله عزّ وجلّ (٣).

وكتب يزيد بن معاوية إلى أبيه: أنّ جُبَيْر بن نُفَيْر (٤) قد نشر في مِصْرِي حديثاً، فقد تركوا القرآن.

فبعث معاوية إلى جبير، فجاءه، فقرأ عليه كتاب يزيد، فعرف بعضه وأنكر بعضه. فقال معاوية: لأضربنك ضرباً أدعك لمن بعدك نكالاً (٥)!

تركنا التعليق على الروايات الواردة عن معاوية في منعه الحديث عن

(١) حجة السنة ٤٦٧.

(٢) تاريخ دمشق ٣: ١٦٠.

(٣) صحيح مسلم ٤: ١٢٧.

(٤) قيل أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره وقدم المدينة فأدرك أبا بكر (أسد الغابة ١: ٣٢٤ / ٧٠٠، طبقات ابن سعد ٧: ٣٠٦ / ٣٨٠٧، تاريخ الثقات، للعجلي ٩٥ رقم ٢٠١، المعرفة والتاريخ ١: ٣٢٨ و ٣٣٦ ومواقع أخرى، حلية الأولياء ٥: ١٣٣ - ١٣٨ رقم ٣١٥، سير أعلام النبلاء ٤: ٧٦ / ٢٣، شذرات الذهب ١: ٨٨، الوافي بالوفيات ١١: ٥٩، تاريخ الإسلام ٥: ٣٨٢، الجرح والتعديل ٢: ٥١٢ رقم ٢١١٦، تاريخ خليفة ٢٨٠؛ وقد أجمعوا على توثيقه.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤: ٧٧، تاريخ الإسلام ٥: ٣٨٢.

رسول الله ﷺ، فلفظها وعلتها واحدة ومشتركة مع أسلافه! إلا أننا لا نطبق قبل الرجوع لتحليل سبب الإصرار على المنع، دون أن نتكلم عما جرى بين يزيد وجبير وأخيراً ذلك الوعيد الصارم والتهديد الواعد من معاوية لجبير:

إنّ معاوية طليق ابن طليق ملعون هو وأبوه وأخوه يزيد بن أبي سفيان على لسان رسول الله ﷺ، كما في حديث الراكب والسائق والقائد. ورسول الله ﷺ دعا إلى قتل معاوية إذا رآوه على منبره، وقد ذكرنا كلّ ذلك فيما مضى.

وأما الناقص «يزيد»، فلا يزيد على شرب الخمر والضرب بالطنبور وملاعبة الفهود والجمع بين الأختين وألوان الزندقة والفسق، وهو «يتهوّك» على «أريكته» معارضاً شطر الإسلام الممثّل بسنة رسول الله ﷺ؛ ومتعللاً أنّ الناس قد «تركوا القرآن» وهي نفس مقولة القائل «يشغلوا عن القرآن بغيره» أي بسنة رسول الله ﷺ.

ولما كان معاوية وابنه ليسا من أهل الإسلام، فلم يوجّه ابنه التوجيه الصحيح كأن يقول له: ادعوا الناس وحثّهم على تعلّم القرآن وعلومه، وتعلّم سنن النبي ﷺ وحفظ أحاديثه لأنّها مفسّرة للقرآن وفيها كثير ممّا ليس في كتاب الله المجيد.

إنّ «الملك!» المكترش، لم يعمل بهذا، وذهب بعيداً في طغيانه وقد غرّته «أريكته»، فتوعّد جبير بن نفير بالضرب الموجه الذي يجعله عبرةً لغيره فلا يقدم على فعله، ويحمّله على الندم فلا يعيد ما فعل!!

ولا عجب هذا الكلام من مثل العاوية! فلقد دخل الإسلام بيتهم عام الفتح

وهم كارهون، وما حسن إسلامهم، فأبو سفيان الذي قاد قريش في حروبها ضد الإسلام، وقاد الأحزاب يهود أو مشركين ففشل... ثم أدخل النبي ﷺ الإسلام بيته كرهاً؛ فإنّ أبا سفيان يوم اليرموك إذا كانت الصلوة للمسلمين شجعهم، وإذا كانت الصلوة للروم قال: ويها بني الأصفر، يشجعهم!

وتعاقبت الأحداث، فخرج القاسط معاوية بخارجة الشام على سيّد الوصيّين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقتل خيرة الصحابة والتابعين وسنّ سنّة المقيّنة في لعن عليّ عليه السلام عقب كل صلاة مقابل سنّة رسول الله ﷺ بأنّ الصلاة لا تتمّ إلّا بالصلاة عليه وعلى أهل بيته!!

قد يُقال: إنّ معاوية قد استنّ بأسلافه في منع الحديث ونحن نوافقه على ذلك، إلّا أنّا ملزمين بالفحص عن السبب الذي لأجله شنّ أولئك الغارة على الحديث، وإنّنا تحدّثنا ملخصاً عن هذا الأمر الخطير وبحسب ما اقتضته الحاجة. وهذا يقتضي الكلام عن الأحاديث التي تمسّك بها المانعون، وأيضاً عن الجبهة الراضية للمنع والتي واصلت مسيرتها في كتابة السنّة:

وقبل ذكر ذلك، نذكّر بما مضى من تعلّلهم بالخوف من اختلاط القرآن بغيره! وبذريعة أخرى هي الاكتفاء بالقرآن وعدم الاشتغال بغيره. وقد أبطلنا الذريعتين، فالقرآن معصوم قد تكفّل الله تعالى بحفظه، وهو معجز في لفظه لا يرقى إليه كلام بشر. هذا بشأن الاختلاط، وأمّا بشأن الاستغناء بالقرآن عن السنّة فتكلّمنا عن ذلك بما فيه الكفاية، فالسنّة شارحة للقرآن ومفسّرة لها ومفصّلة لما فيه من أحكام، بل في السنّة ما ليس في القرآن الكريم، وإنّ إلغاء

السنة بأي صورة إلغاء للنبوّة! ووجدنا فيما سبق أنّ الحديث قد دُوّن زمن رسول الله ﷺ ، وأمر هو بتدوينه وتقييده.

ثمّة مسألة: إنّ استمرار الخلاف في أمر التدوين، وعدم خضوع المبيّحين لإجراءات المنع، دليل على أمرين:

١ - أنّ أحاديث النيه عن التدوين، ليست صحيحة؛ وإلاّ لم يكن أكثر الصحابة والتابعين على خلاف المنع، بل فيهم من قام بتدوين الحديث وجمعه في الصحف.

٢ - أنّ المنع، لم يكن شرعيّاً، بل كان رأياً ارتماه المانعون، لأُمورٍ خاصّة ظهرت لهم، ولم يوافقهم عليها سائر الصحابة.

وإذا كان المنع على أساس ما يراه الصحابيّ مصلحةً، فإنّ للصحابة الآخرين حقّ الاعتراض عليه، فلا يكون ما يراه الصحابيّ حجة على الصحابيّ الآخر، إلّا إذا أقام له الدليل الشرعيّ المقنع، كما هو حال المجتهدين.

وبعد التأمل العميق في ما يناسب أن يكون مصلحة للمنعم من قبل المانعين، علمنا أنّ المصلحة إمّا كانت تدبيراً سياسياً من قبل الخلفاء وخاصّة في الصدر الأول بعد وفاة رسول الله ﷺ . ويتّضح هذا ممّا أورده الخطيب البغداديّ، بسنده عن عبد الرحمان بن الأسود، عن أبيه، قال: جاء علقمة بكتاب من مكّة - أو اليمن - صحيفة فيها أحاديث، في أهل البيت - بيت النبي ﷺ -

فاستأذنا على عبد الله، فدخلنا عليه، قال: فدفعنا إليه الصحيفة.

قال: فدعا الجارية، ثمّ دعا بطست فيها ماء.

فقلنا له: يا أبا عبد الرحمان، انظر فيها، فإنّ فيها أحاديث حسناً فجعل يُميّثها فيها، ويقول:
(نَحْنُ نَقْصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ) ^(١).

القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن، ولا تُشغلوها بما سواه ^(٢).

وقبل الكلام في أصل الموضوع الذي لأجله أباد ابن مسعود الصحيفة، نذكّر بما قلناه: من أنّ ابن مسعود واحد من الذين خضعوا لدستور عمر في المنع من الحديث، قد محى من قبل صحيفة أحضرت إليه فيها «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وهي كلمات أتى بها القرآن الكريم، فلم يحترمها، فكيف إذا صار الأمر إلى خلاف سياسي؟! إنّ الصحيفة المعرضة للإبادة في هذه الرواية، واضحة المحتوى، فإنّ فيها أحاديث حسناً كما يقول علقمة.

كما أنّ موضوعها يرتبط بأهل البيت عليهم السلام، وكأنّ الراوي اعتنى بهذه المسألة، فاستعمل عطف البيان للتأكيد على المراد بأهل البيت، ولئلفت نظر عبد الله بن مسعود إلى أنّهم أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله. لكنّ عبد الله لم يُعزّ اهتماماً، وأباد الصحيفة.

وقبل الانتقال إلى إدانات أخرى لابن مسعود! نبقى عند كلامه واحتجاجه بالقرآن الكريم على أولئك الذين أحضروا إليه الصحيفة وفيها أحاديث في أهل البيت عليهم السلام فمحاها، فنقول له: ماذا تقول في آية التطهير الظاهرة في العصمة، ولو لا السنّة لما علمنا أنّهم محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأخوه عليّ، وبضعته فاطمة، وولده

(١) يوسف: ٣.

(٢) تقييد العلم ٥٤.

الحسن والحسين عليهما السلام .

وما قولك في آية المباهلة، وفيمن نزلت؟ مَنْ كان نفس رسول الله ﷺ يومئذ، هل كان غير عليّ عليه السلام؟! وَمَنْ كانت نساءه غير فاطمة عليها السلام؟ أو ليس الحسن والحسين أبناءه يومئذ؟ فكانوا معجزته التي قهر بهم وفد نصارى نجران وأعجزهم. من أين علمنا هذا يا ابن مسعود؟! أو ليس هذا أحسن القصص الذي احتججت به؟!

لكنّ عبد الله لم يُعزْ اهتماماً، وأبادَ الصحيفة. والتبريرات التي ذكرت لمنع التدوين، لا يجري شيء منها هنا. فلا اختلاط لما في الصحيفة، بالقرآن. وليس فيها ما يعارض القرآن وينافيه. ولا فيها من خرافات «مشناة» أهل الكتاب شيء. كما أنّ الاشتغال بها لا يؤدّي إلى ترك القرآن، لأنّ مجرد أحاديث في صحيفة، لا تُلهي عن القرآن.

ومع كلّ ذلك أباد عبد الله الصحيفة، محاولاً أن يُوهّم أنّ القرآن يُغني عمّا فيها! مع أنّه كان مخطئاً في فرضه أنّ الاشتغال بالحديث هو اشتغال بما سوى القرآن، لأنّ الحديث لا ينفصل عن القرآن، بل هو بعضه. ولو أمعنا النظر في هذا الحديث، وجدنا أنّ محتواه هو الذي كان يضّر السلطة الحاكمة وينافي سياستها القائمة، لأنّ الأحاديث الواردة في أهل البيت عليه السلام، إنّما تدلّ على فضلهم وتؤكد على خلافتهم عن النبي ﷺ، وتجعلهم قرناء للقرآن، ليكونوا هم وهو خليفته له، من بعده. وهذا ما يعرفه ابن مسعود جيّداً، لما سنبين من علته. وأمّا سائر أحاديث رسول الله ﷺ، سواء في الأحكام والفرائض، أو الآداب والسنن، فهي

لا تَمَسُّ كِيَانَ السُّلْطَةِ بِشَيْءٍ.

ولذا لم يشملها المنع بنحوٍ شديد:

قال عمر: أَقْلُوا الروَايةَ عن رسول الله، إِلَّا فيما يُعْمَلُ بِهِ ^(١).

قال الدارمي، في شرح منع عمر عن الحديث عن رسول الله ﷺ: معناه عندي الحديث عن

أيام رسول الله ﷺ ليس السنن والفرائض ^(٢).

وإن كانت أوامر المنع وإجراءاته عامة، فالأَنّ التدبير السياسي يقتضي منع الحديث بالعموم،

حتى يشمل الأحاديث المضرة بالسياسة.

وإنما لم يخص المنع بما دون غيره، فالأَنّ تخصيصها بالمنع يؤدي إلى وضوح الهدف من المنع،

وانكشاف المصلحة الموضوعة له.

والإعلان عن تلك المصلحة غير ممكن، لأنّه يوجّه الأنظار إليها بشكل أكثر تركيزاً، فيوجب

نقض الغرض المترقب من المنع، ويعكس المصلحة إلى مفسدة لا تُتدارك.

وإنما خُصَّ أهل البيت عليهم السلام بذلك:

لأنّهم كانوا يُعتبرون زعماء المعارضة السياسيّة الذين بقوا في الساحة، وكان المسلمون يتطلّعون

فيهم الخلافة ويعتقدون لهم الإمامة.

وحجّتهم في ذلك الأعداد المتضاربة من الأحاديث النبويّة التي تبلغ اليوم،

(١) البداية والنهاية ٨: ١٠٧.

(٢) سنن الدارمي ١: ٧٣ ح ٢٨٦، جامع بيان العلم ٢: ١٢١.

رغم بُعد الزمن، ورغم كلّ عمليّات المنع والإبادة والتحريف، تبلغ الآلاف ^(١).
فكيف بما تلك الأيام، وهي تمثّل لرواتها من الصحابة، بمنازلها وأحداثها ومناسباتها وأسبابها؟
والنبيّ ﷺ لا يزال حيّاً في الخواطر، يُحدّثهم بما لأهل بيته من فضل، وما لهم من منزلة؟!
ولا شكّ في أنّ كثيراً من تلك الأحاديث كانت تُشيد بعليّ ؑ - زعيم أهل البيت -
وتنصّ عليه بالولاية والإمامة ...

فلو كان مسموحاً للأمة أن يتداولوها، ويحدّثوا بها، ويكتبوها ويضبطوها، لارتسمت في
الأذهان، وتعلّقت بالأفكار، وانعقدت عليها القلوب وُئيت بها قواعد العقائد؛ فيكون لذلك تأثير
سياسيّ عميق على نظام الحكم، بلا ريب. فكان المنع الرسميّ للحديث أفضل تدبيرٍ سياسيّ،
للقوف في وجه ذلك.

والآ، فبرّك! ماذا يعني أن يأتي عمرٌ إلى رسول الله ﷺ بأحاديث وقصص من أخٍ يهوديّ له
من بني قُرَيْظَة، قد أعجبتَه! فيغضب رسولُ الله ﷺ وتحيط به الأنصار ثم يقول: «أُمْتَهُوْكُمْ أَنْتُمْ
...» أي في حال شكّ من نبوّتي؟! وقد ذكرناه.

ومضت سنون ورسول الله ﷺ يُحدّث ويأمر بنقل حديثه تحديثاً وتقبيداً كما ذكرنا وسنذكر،
فأين كان المانعون عن مجلس رسول الله ﷺ ليسمعوا ما سمعه غيرهم؟!
هل شغلهم الصّفقُ بالأسواق كما قال عمر - مرّ بنا -، والانشغال بالمرأة والمكحلة، كما قال
أبو هريرة لعائشة محتجّاً عليها لما أنكرت بعض الأحاديث

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٤: ٧٣.

التي يرويها وقالت أنّها لم تسمعها.

ومرّ بنا حديث «الأريكة»، وفيه قول رسول الله ﷺ: «يوشك رجل جالس على أريكته يقول: حسبنا كتاب الله...» منكرًا ﷺ على صاحب الحكم من بعده، مانعًا لحديثه متذرّعًا لئلا يختلط القرآن بشيء غيره! وقلنا: كلّ كلام أيّا كان مصدره، لا يرقى في بلاغته إلى بلاغة القرآن، والسنة معضّدة للقرآن شارحة له وفيها ما ليس فيه، فهدمها هدم للنصف الأكبر من الإسلام! إذن: فالمصلحة المنشودة من هذا التدبير، هي: إخفاء الأحاديث النبويّة التي تدلّ على خلافة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وإمامة أهل البيت عليهم السلام بعد النبي ﷺ.

وهذه المصلحة تحتوي على العناصر المطلوبة، التي ذكرناها:

١ - فهي خطرة للسلطة.

إذ لو نُشرت هذه الأحاديث وأذيعت، وتداولها الناس كما استقرّ الحكم، الذي اعتمد على أساليب أصدق ما يُقال فيها أنّها «فُلْتَةٌ»^(١).

(١) وقد روى البخاري في صحيحه، كتاب المتحارين، باب رجم الحبلى من الزنى، الحديث الوحيد في الباب - وهو طويل - من خطبة عمر يوم الجمعة وفيه قوله: بلغني أنّ قائلًا منكم يقول: (والله، لو مات عمر بايعت فلانًا) فلا يغترن امرؤ أن يقول: (إنما كانت بيعة أبي بكر فُلْتَةٌ ومَثَّ) ألا، وإنّما كانت كذلك، ولكن الله وفق شَرّها. وفي الحديث: من بايع رجلًا على [أو: عن] غير مشورة من المسلمين، فلا يبايع [أو: يتابع] هو ولا الذي يبايعه تغرّ أن يُقتل. =

فإذا تمكّن الإمام عليّ عليه السلام وأنصاره من إظهار النصوص الشرعية الكثيرة المسندة الدالة بوضوح على أنّ عليّاً عليه السلام :

هو وليّ الأمر من بعد النبي ﷺ .

وهو الذي جعله النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى، في كلّ شيء إلاّ النبوة.

وهو الذي قال فيه النبي ﷺ : «مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَهَذَا عَلِيٌّ مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ، وَانْصِرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ».

فإذا ظهرت هذه النصوص للناس، لما بقي الوضع على قراره ^(١).

٢ - إنّ هذا الإخفاء لم يقبل من قبل الإمام عليّ عليه السلام وأنصاره.

= صحيح البخاري - دار إحياء التراث العربي - ٨ : ٢١٠ - ٢١١. وقال الخطابي، في حديث عمر: أنّه قال: إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتنة، وفي الله شرّها. وبهذا اللفظ، ورد في مصادر كثيرة هذا بعضها.

المصنّف، لعبد الرزاق الصنعائي (٥ : ٤٤١ و ٣ : ٣٥٥)، مسند أحمد ١ : ٥٦، السيرة النبوية، لابن هشام ٤ : ٣٠٨، تاريخ الطبري ٣ : ٢٠٠ - ٢٠٥، الملل والنحل، للشهرستاني ١ : ٣٠ - ٣١، الرياض النضرة ١ : ٢٣٢، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢ : ٢٣، الكامل في التاريخ ٢ : ٣٢٦، النهاية ٣ : ١٧٥ و ٤٦٧، تاريخ الخلفاء ٥١.

والفلنة: فسرتها أهل الغريب بالأمر الفجائي يحدث من غير روية ولا إحكام. انظر الفائق، للزمخشري ٣ : ١٣٩، وغريب الحديث، لأبي عبيد ٢ : ٢٣١ و ٣ : ٣٥٦، والنهاية، لابن الأثير.

والإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يقول عن بيعة الناس له: إنّ هذه بيعة عامة من ردها رغب عن الإسلام، وإنّها لم تكن فلتنة (الأخبار الطوال ١٤٠). وفي الخطبة (١٣٦) من نهج البلاغة قوله عليّ عليه السلام : لم تكن بيعتكم إيتي فلتنة.

(١) تكلمنا عن هذه الأحاديث وخزّنا مصادرها في فصول قادمة.

بل تزعم الإمام القول بإباحة التدوين، ولم ينصع هو وأنصاره لأوامر المنع من التدوين، ولا منع نقل الحديث - كما سيأتي - فقاوموا ذلك بكلّ صلابة.

٣ - إن تلك الأحاديث فيها الكثير مما قرّن فيه النبي ﷺ بين عليّ وأهل بيته، وبين القرآن.

كما في حديث: «عليّ مع القرآن، والقرآن مع عليّ»^(١).

وحديث الثقلين، الذي فيه: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»^(٢).

٤ - إن الإخفاء قد أثر أثره العميق في الأمة في صدر القرن الأول وامتداد المنع الرسمي إلى نهاية القرن الأول كان كافياً لطمس معالم تلك الأحاديث بشكل كافٍ، فلذلك لم يعد لإظهارها بعد ذلك أيّ أثر معاكس على السلطات؛ فلذلك رُفع المنع المذكور.

إنّ وجود هذه العناصر في هذه المصلحة، وعدم تصوّر مصلحة أخرى، تؤكّد صحّة أن يكون السبب الأساس لمنع تدوين الحديث هو هذا التدبير السياسي.

وللمعلمي - من كبار علماء العاقبة المعاصرين - تعليق على مرسل ابن أبي مليكة، المحتوي

على منع أبي بكر للناس عن الحديث بعد وفاة رسول الله ﷺ، فقال:

(١) ذكرناها مع مصادرها في فصول قادمة.

(٢) ذكرناها مع مصادرها في فصول قادمة.

«إن كان لمُرسل ابن أبي مليكة أصلًا، فكوئنه عقب الوفاة النبوية يُشعر بأنّه يتعلّق بأمر (الخلافة).

كأنّ الناس عقب البيعة بقوا يحتلفون، يقول أحدهم: أبو بكر أهلها، لأنّ النبي ﷺ قال: «كيت وكيت» فيقول آخر: وفلان! قد قال له النبي ﷺ: «كيت وكيت». فأحبّ أبوبكر صرفهم عن الخوض في ذلك، وتوجيههم إلى القرآن^(١). ولذا لا نستبعد أنّه كان يتخوّف من اشتهاار أحاديث الرسول ﷺ في فضل عليّ عليه السلام وأبنائه عليهم السلام.

ويوضّح هذا الهدف ما رواه عروة بن الزبير (ت ٩٤ هـ)، بسنده عن عبد الرحمان بن يزيد، قال: قدم علينا سليمان بن عبد الملك حاجًا، سنة (٨٢)، وهو وليّ عهد، فمرّ بالمدينة، فدخل عليه الناس، فسلموا عليه، وركب إلى مشاهد النبي ﷺ، التي صلّى فيها، وحيث أصيب أصحابه بأحد، ومعه أبان بن عثمان، وعمرو بن عثمان، وأبوبكر بن عبد الله، فأثّوا به قُباء، ومسجد الفضيلخ، ومشربة أمّ إبراهيم، وكلّ ذلك يسألهم؟ ويُخبرونه عمّا كان. ثمّ أمر أبان بن عثمان أن يكتب له سيرة النبي ﷺ ومغازيه. فقال أبان: هي عندي، قد أخذتها مصحّحة، ممّن أثقّ به. فأمر بنسخها، وألقى بها إلى عشرة من الكتّاب، فكتبوها في رقّ، فلمّا صارت إليه، نظر، فإذا فيها ذكرُ الأنصار في العقبين، وذكر الأنصار في بدْرٍ.

(١) الأنوار الكاشفة ٥٤.

فقال: ما كنتُ أرى لهؤلاء القوم هذا الفضل! فإمّا أن يكون أهل بيتي غمّصوا عليهم^(١)، وإمّا أن يكونوا ليس هكذا.

فقال أبان بن عثمان: لا يمنّنا ما صنعوا أن نقول بالحقّ، هم على ما وصفنا لك في كتابنا هذا.

قال سليمان: ما حاجتي إلى أن أنسخ ذاك حتّى أذكره لأمير المؤمنين، لعلّه يخالفه، فأمر بذلك الكتاب فخرّق، وقال: أسأل أمير المؤمنين إذا رجعت، فإنّ يوافقه فما أيسر نسخه.

فرجع سليمان بن عبد الملك، فأخبر أباه بالذي كان من قول أبان، فقال عبد الملك: وما حاجتك أن تُقدّم بكتابٍ ليس لنا فيه فضل؟ تُعرّف أهل الشام أموراً لا تُريد أن يعرفوها! قال سليمان: فلذلك أمرتُ بتخريق ما كنتُ نسخته حتّى أستطلع رأي أمير المؤمنين. فصوّب رأيه^(٢).

فإذا كانوا لا يتحمّلون ذكر فضل الأنصار، فكيف يتحمّلون ذكر فضائل أهل البيت ﷺ، وسيدهم أمير المؤمنين ﷺ؟!!

واسمع ما روي عن خالد القسريّ - أحد ولادة بني أميّة - وقد طلب من أحدهم أن يكتب له السيرة، فقال له الكاتب: فإنّه يمرّ بي الشيء من سيرة عليّ

(١) غمّص عليه: عابه وطعن عليه. ومنه حديث توبة كعب «إلا مغموصٌ عليه النِّفاق» أي مَطْعُونٌ في دينه مُتَّهَمٌ بالنِّفاق. ومغموص: مختقر، ليس بشيء. (النهاية ٣: ٣٨٦).

(٢) مغازي رسول الله ﷺ، لعروة بن الزبير ٢٨، الموفقيّات، لزبير بن بكار ٢٢٢ - ٢٢٣.

ابن أبي طالب، أفأذكره؟

فقال خالد: لا، إلا أن تراه في قعر جهنم^(١)!!

ولذلك، لا نشك في أن السبب الأساسي لمنع تدوين الحديث هو هذا الهدف، لما حققناه من عدم وجود سبب صحيح آخر له، غيره.

مع التذكير مرة أخرى، وربما نُعيد التذكير! لخطورة الموقف وجسامته، بل والوقاحة التي أبداهها الرجال بحق رسول الله ﷺ، لما طلب أن يقدموا له قرطاساً وقلماً ليكتب لهم كتاباً لا يضلّوا بعده أبداً! فأنبرى عمر قائلاً: «كفى بكتاب الله» ومنع بشدة، وتابعه آخرون، لم يكن فيهم عليّ ع. وكثر اللغط حتى طردهم رسول الله ﷺ.

وذكرنا في موضعه: أن طاعة رسول الله من طاعة الله تعالى بأمر الله وصريح القرآن الذي يدعو إليه عمر! ومخالفته مخالفة لله تعالى وردّ عليه!

وذكرنا هناك أن ردّ السنة وإنكارها، ردّ للنبوّة وهدم لركن عظيم لولاه لما صدّقناه بالأركان الأخرى: التوحيد، والمعاد، وهي من وظائف النبي ﷺ في التبليغ. والتلازم واضح بين المرسل والرسالة والرسول.

فإنّ ما ذهبنا إليه من أن السبب السياسي هو الحاكم في حسم مسألة المنع من الحديث، تتجلى في ذلك الموقف العصيب «يوم الرزية»!

وأبي عاقل لا يفسّر موقف الذين منعوا رسول الله ﷺ من كتابة الكتاب، بعد أن تكلم فأوصى بكتاب الله تعالى، وعترته، وهو أمر جرى منه ﷺ قبل هذا

(١) الأغاني ٢٢: ٢٥.

الوقت والموقف أكثر من مرة؛ فلا يفسره بأنهم علموا أنه يريد أن يؤكد تلك الوصية في كتاب مكتوب تتداوله الأمة من بعده، فتفلت الزعامة وتضيع الأريكة! فكان ذلك الموقف، ثم تواصلت الحملة التي وجد فيها بنو أمية وشيعتهم ضالّتهم وعبروا بها عن أحقادهم الموروثة فلم يقفوا عند حدّ المنع من الحديث والمعاقبة عليه، وإنما صاروا إلى أمر أدهى ذلك هو الوضع في الحديث! فعمدوا إلى اختلاق أحاديث في الفضائل ما كان أصحابها ليرضوا بذلك لو كان في عهدهم! لعلمهم أنّ ذلك تنقيصاً لا تفضيلاً، ومدعاةً للسخرية والاستخفاف بهم. إلا أنّ معاوية وقد تربّع على «الأريكة»، قد جمع إليه رجالاً ممّن عُرفوا بانحرافهم عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وجعل لهم جعلاً يُرغب فيه. فكتبوا له ما يريد: من تعظيم الثلاثة وضمّوا إليهم كاتب الوحي وخال المؤمنين - كذا - معاوية، وورّعوا الجنة على هؤلاء و...، ووضعوا قبال هذه ما يتنقصون به أهل البيت عليه السلام، حتّى بات الشامي لا يعرف من هو علي عليه السلام فمهدوا لمن جاء بعد ليجد البيئة ناصية ملتعبة...

الإسكافي يفضح أسباب الفرقة عن علي عليه السلام

إنّ ابن تيمية، بحكم تربيته البيئية وما اشتبكت عليها الأعصُرُ وضربتها الفئُ بأجرانها..، فورث خلاصة ضلالها، وباء ببوائق فتنها، فهملج بموازنة باطلة ومغيار مجحف، إذ رمى الشيعة الذين سمّاهم: الرّوافض، بالضلال، وهو أوّل به! إذ وازن بين عليّ وأهل بيته عليه السلام، وبين معاوية وابنه يزيد، والحجاج، والخوارج؛ وإنّ

الشَّيْعَة لا تستطيع أن تثبت إيمانَ أهل البيت، فضلاً عن عدالتهم، ما لم تثبت مثل ذلك لأولئك!! وقد جاء من رفع عقيرته بأقوال ابن تيمية وتحمّس لها ونشرها بين الملأ؛ وظهرت جماعات شاكية السلاح تنشر الرُّعب وتعيثُ فساداً وتنقمُ ممن لم يأخذ بمبادئ ابن تيمية، وهذه الجماعات لها جذور تاريخية قذرة وأصول فاسدة في بيئة معقّدة لا تبعد عن بيئة ابن تيمية! ولإسكافي كلام جيّد مع مخالفني أمير المؤمنين عليه السلام، نذكر أكثره لما فيه من فائدة:

«باب سبب انحراف النَّاس عن عليّ هو الحقد والضَّغينة، والعداوة الطَّائفيّة، والحميّة الجاهليّة قال: ثمّ اعلّموا - سلّمكم الله من الهلكة وأيدكم بالاستقامة والصواب في المقالة - إنّ هذا باب قد كثر قولُ القائلين فيه وطالَ اختلافُهم وتشعّبَ أهواؤهم وتوغّرتْ من أجله صُدُورهم..؛ وذلك لأنَّ أوّله كان على الضغن والعداوة والعصبية والحمية، ولم يكن القول فيه على طريق الخطأ من أجلِ شُبْهَةٍ دخلتْ أو لبس حدث؛ فاتّصلتْ أسبابه على ذلك، وانشعبت فروعه على حسب ما ذكرناه من حدوث أصوله، فزرعتْ في القلوب الهوى والميل، فتكلّم كلُّ إنسان على قدر هواه وميله وما سبق إلى قلبه فنصر رأيه وناظرَ في تقوية قوله: فتأهوا على طول الأيام وألفوا الخطأ والضلال، وتعدّى ذلك إلى العوامّ من النساء والرّجال، فعظُمَ فيه الخطُوب وكثر القيل والقال وتوارثوا تلك الأضغان والأحقاد حتّى ظلَّ الرّاجع المبين لرُشْدِهِ مشتوماً قد نبذوه بالألقاب

ورموه بالبدعة والضلال!...»^(١).

قال: وأما أهل الحشو^(٢) من أصحاب الحديث وسائر العوامّ وعندهم من التعسف في هذا الباب، والعناية به والانكماش فيه على قدر جهلهم بأوّلِهِ وآخره وعلى حسب ما عندهم من قِلّة المعرفة بالنظر والتمييز بين السُنّة والفريضة والشّرع، إلى التقليد والقول بما دعت إليه ملوك بني أُمَيّة. وإنّ ملوك بني أُمَيّة وإنّ كانت قد بادت، فإنّ عامّتها وشيعتها فينا اليوم ظاهرة متعلّقة بما ورثوه من ملوكهم وأسلافهم الباغية.

فبلغ من عنايتهم بخطئهم في هذا الباب أن أخذوا معلّمهم بتعليم الصّبيان في الكتاتيب لينشئوا عليه صغيرهم ولا يخرج من قلب كبيرهم وجعلوا لذلك رسالة يتدارسونها بينهم، ويكتب لهم مبتدأ الأئمّة: أبو بكر بن أبي قحافة، وعمر ابن الخطّاب، وعثمان بن عفّان، ومعاوية بن أبي سفيان، حتّى أنّ أكثر العامّة منهم ما يعرف عليّ بن أبي طالب ولا نسبه، ولا يجري على لسان أحد منهم ذكّره!

ومّا يؤكّد هذا ما يُؤثّر عن محمّد بن الحنفية يوم الجمل، قال: حملتُ على رجلٍ فلمّا غشيتَه برمحي، قال: انا على دين عمر بن أبي طالب!! قال: فعلمتُ أنّه يريد عليّاً! فأمسكتُ عنه^(٣).

(١) المغيار والموازنة، أبو جعفر الإسكافي محمّد بن عبد الله المعتزلي، المتوفّى سنة ٢٤٠ هـ، صفحة: ١٧.

(٢) الحشوية طائفة من المبتدعة.

(٣) المعيار والموازنة ١٨ - ١٩.

قال: ومّا يدلّك على أنّ العامّة مخدوعة متحيّرة بفقد العلم، مغرورة في هذا الباب: أنّهم جميعاً يشهدون أنّ أبا بكر أفضل من عمر ويسندون تفضيل أبي بكر على عليّ إلى حديث عبد الله بن عمر فيقلّدونه الخبر.

وقد جاءهم الإسناد في تفضيل عليّ وتقديمه على كافّة النّاس عن محمّد ابن أبي بكر، وسلمان، وعمّار بن ياسر، وما كان من شهرة قيامهم مع عليّ بن أبي طالب، فلم يلتفتوا إلى ذلك!

فإن كانوا مالوا إلى تصديق عبد الله بن عمر لأنّه أفضل وأخير - وإن لم يكن عندنا على ذلك - فتقليد عليّ بن أبي طالب ومن ذكرناه أولى لأنّه خير من عبد الله بن عمر وأفضل، لا يشكّون في ذلك ولا يمترون. وإن كانوا مالوا إلى عبد الله بن عمر لأنّ أباه كان إماماً فاضلاً، فالميل إلى محمّد بن أبي بكر أوجب لتقدّمهم لأبي بكر على عمر وتفضيلهم إيّاه عليه^(١). ولا أجد لهم في ذلك علّة يوجبها التميّز والنظر غير ما ذكرنا من الخديعة وتقليد الخبر.

وأبّين من هذا في جهل الأنعام الضالّة والحمر المستنقفة: أنّ عائشة عندهم في أزواج نبيّ الله صلى الله عليه وآله أشهرّ وهي عندهم أعظم وأفضل من بنت أبي سفيان، وأكثر في الشهرة والمعرفة. فإذا ذكر أحد معاوية بسوء، غضبوا وأنكروا ولعنوا من ذكره بسوء، وعلّتهم أنّه خال المؤمنين! وإذا ذكر محمّد بن أبي بكر

(١) نفسه. (ولو كان غير عليّ هو الأفضل لطهره الله تعالى ورّوجه وبنّيه، وهي العصمة؛ ولباهل به وبزوجه وبولده ونصيبهم آية؛ ولأنّزله منزلة هارون من موسى والتي اختصّ بها عليّ، ولنزل بولايته آية كما نزل في عليّ لما تصدّق بخاتمته، ولا كلام في سابقته ومؤاخاته ...)

بسوءِ رضوا وأمسكوا ومالوا مع ذاكره، وخؤولته ظاهرة بائنة.

وقد نفرت قلوبهم من عليّ بن أبي طالب لأنّه حارب معاوية وقتله، وسكنت قلوبهم عند قتل عمّار ومحمّد بن أبي بكر، وله حُرمة الخؤولة، وهو أفضل من معاوية، وأبوه خير من أبي معاوية. فتدبّروا فيما ذكرناه لتعلموا أنّ علّة القوم الخديعة والجهالة، وإلّا فما بالهم لا يستنكرون قتل محمّد بن أبي بكر، ولا يذكرون خؤولته للمؤمنين؟ قاتلهم الله أنّى يُؤفكون.

وقد مالوا عن إمامة عليّ بن أبي طالب وضعّفوها، وبعضهم نفاها بما كان من خلاف عائشة وطلحة والزبير، وقعود ابن عمر ومحمّد بن مسلمة وأسامة بن زيد. وهؤلاء التّفر الذين أوجبوا الشكّ في عليّ عندهم وضعّفوا إمامته بقولهم؛ هم الذين طعنوا على عثمان وألبّوا عليه وذكره بالتبديل والاستيثار، وأولّهم بادره عليه عائشة كانت تُخرج إليه قميص رسول الله وهو على المنبر وتقول: يا عثمان هذا قميص رسول الله ﷺ لم يبلّ وقد أبليت سنّته. فوالله ما قدح الشكّ في قلوبهم في عثمان بقولهم ولا قصّروا عن تفضيله وتقديمه بطعنهم ولا أثر ذلك في صدورهم!

وعللهم في استنكارهم على عثمان مأثورة مذكورة مشهورة.

فلما قعدوا عن عليّ جعلتم قعودهم حجّة وطعنهم علّة في الشكّ والتنقيص وصرف الإمامة عنه، من غير أن يذكروا علّة تبديل ولا استيثار ولا تغيير أكثر من نكثهم وطعنهم.

وقد رويتم أنّ عثمان نفى أباذرّ، وقد عرفتم تقدّم أبي ذرّ وسابقته، وأقرّتم ما صنع عثمان بابن مسعود و غير من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ .

ولا تجدون أحداً مدّ عليّ بن أبي طالب إليه يده قبل أن يبدأ بالبغي والخلاف، ولا ذُكر عنه استيثار ولا خيانة ولا خطأ وجدوه عليه.

على أنّا نوجدكم لكلّ من ذكرتم معارضين في دعواهم مخطئين لهم في خلافهم وقعودهم. أمّا عائشة فقد عارضتها أمّ سلمة بالخلاف عليها والتخطئة لها بحُججٍ أوردتها لم تستطع إنكارها.

وأما عبد الله بن عمر فقد عارضه عبد الله بن عبّاس وهو أكبر منه علماً وفضلاً. وأمّا طلحة والزبير فقد أقرّا بالبيعة، ونكثا وهما أوّل من بايع. وأمّا محمّد بن مسلمة، فأكبرُ منه: سلمان.

فلِمَ ملّتم مع من ذكرنا وقد عارضهم من وصفنا؟ وزاد عليهم سبعون بدرّاً وسبع مائة من المهاجرين والأنصار منهم المقداد ابن الأسود، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبو أيوب الأنصاريّ، وأبو الهيثم ابن التّيهان، وغيرهم من أصحاب النّبي ﷺ .

وكيف تمّت بيعة أبي بكر عندكم بأبي عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطّاب مع خلاف سعد [بن عبادة] وامتناعة من البيعة، وخلاف الأنصار، وأبو بكر هو الساعي إليها والداعي لها؟! ولم تتمّ بيعة عليّ بن أبي طالب بالمهاجرين والأنصار والسابقين إلى الإيمان وهم الطالبون له والمجتمعون عليه وليس له

نظيرٌ يشاكله ويعادله.

أفٍ لهذا من مقال! ما أبين تناقضه وأقلّ حياء الدّائنين به! فخلافٌ من لم يبايع أبا بكر حتى مات أكثر في تضعيف الإمامة من خلاف من نكث البيعة وادّعى بعد الإقرار. فإن قلتم: إنّ الأنصار اتّفقت بعد خلافها، لا يمكنكم ادّعاء ذلك في سعد بن عبادة وما تروونه من قول سلمان.

ولا يمكنكم إنكار إقرار طلحة والزبير بالبيعة لأمر المؤمنين ﷺ ثم نكثهما بيعته بلا عذر مقبول في الدين بل ولا عند العقلاء المستقيمين ممّن لا يتدبّر بدین. وإن كان رجوعهما عن بيعتهما يدلّ بزعمكم على خطائهما في بدأ الأمر.

وأكبر منه: بكاء عائشة وندامتها، وتلهّف ابن عمر على ذلك، حتّى دعا ابن عمر ما استبان له من تقصيره إلى الغلو والإفراط في مبايعة الحجاج بن يوسف، واعتلّ بأنّه سمع النبی ﷺ يقول: «مَن مات ولا إمام له مات ميتةً جاهليّةً»! فهذا يدلّ على أنّه قد اعتقد إمامة عليّ بن أبي طالب ﷺ لأنّ من اعتقد إمامة الحجاج، لم يذهب عن إمامة عليّ بن أبي طالب ﷺ. فما رأيتُ خطأ أعظم ولا تقصيراً أبين من فعل ابن عمر المغفل. مع روايتكم عنه أنّه قال: ما آسي إلاّ على ثلاث: منها أنّي لم أكن قاتلتُ هذه الفئة الباغية^(١).

(١) المعيار والموازنة ٢١ - ٢٤. (لم نخرّج الأحاديث لاشتهارها وأيضاً تكلمنا خصوصاً بشأن عائشة، ولكن نضيف هنا: أن بكاءها لعلّه بسبب خسارتها الحرب! وليس ذكرها بعض فضائل =

ذكر أصناف المخالفين والمعاندين للإمام عليّ عليه السلام

وفي مقالة أخرى للإسكافي، كشف فيها المستور من سياسة ملوك بني أمية فقال: «قد علمتم أنّ أقوى الخطأ في هذا الباب - والذي أشكل على أهل النظر - من علماء المرجئة والمعتزلة، فبعضهم قدّم أبا بكر على عليّ، وبعضهم أمسك ودان بالوقف. وأفضح من هذا خطأ! موازنة عليّ بطلحة والزبير، والوقوف عندهم، وهو ما تعلّقت به خاصّة العامة.

وأعظم من هذا جهلاً وعمى موازنة عليّ بمعاوية، وهو ما ذهب إليه بعض العامة المتحيّرة وطعام الحشوية البائنة.

فإذا بدأنا بالقول الأوّل وبيننا باطله، وأوضحنا خطأه وصح ما بعده وبان. ولعليّ بن أبي طالب عند اختلاف الناس فيه مثلاً من عيسى بن مريم عليه السلام، فاختلفت الأمة في عليّ أصنافاً، كما اختلفت أمة عيسى عليه السلام فيه أصنافاً، وأفرط فيه قوم فعبدوه؛ وقصّر فيه قوم فشتموه وقذفوه.

فمنزلة النصاري في الإفراط، منزلة الروافض في الإفراط^(١) ومنزلة المرجئة في النصب في عليّ منزلة اليهود في التقصير وشتم عيسى ابن مريم عليه السلام.

وفي ذلك ما يؤثر عن النبي ﷺ أنّه قال لعليّ: «يهلك فيك رجلان: محبّ

= أهل البيت كافٍ فقد ذكرت أحاديث كاذبة بحقّ غيرهم! وأمّا ابن عمر فسيرته معروفة في عدائه لأهل البيت عليه السلام (!).

(١) مراده من الروافض هم القائلون بربوبية عليّ عليه السلام بقرينة تنزيل منزلتهم منزلة النصاري.

مفرط، ومبغض مفرط».

وأول ما يجب في هذا الباب من التنبيه على الحق قبل التلخيص والتفسير: أنكم تعلمون أن بلدان النصب والمقصرين عن فضل علي بن أبي طالب الشام والري والبصرة. وليعلم أن أموره تنكشف على طول الأيام، وأن الحق يعلو عند النظر بما ترادف من قوارع الحجج، فيمل الناس الجهل والتعصب والخطأ.

وأخرى أيضاً: أنك لم تر شيعياً قط رجع القهقري بل يزداد في الإفراط، ويغلو في القول ولا يرجع إلى التقصير حتى يصير بالإفراط رافضياً كبيراً!! ولذلك قال بعض الناس: أرنى شيعياً صغيراً أريك رافضياً كبيراً. وعلة ذلك: أنه إذا قال بالتشيع اتسعت عليه الفضائل وكثرت المناقب وترد عليه عند النظر من فضائل صاحبه، وتقدمه دلائل تبهر وتلوح كالقمر الأزهر وكالنجوم المضيئة، فيضيق عليه المخرج، فلا يكون عنده من الورع والتوقي ولطافة النظر والعلم بالمخرج ما يمنعه من الغلو ويتعده من الإفراط، فعندها ترفض.

وأفراط قوم في بغضه فلعنه وشتم وكفر.

وقال قوم بنبوته. وقال آخرون فيه مثل مقالة النصاري في عيسى ابن مريم. ولا تجد أحداً قال ذلك في أبي بكر وعمر. بل قد نجد القائلين بتقديم أبي بكر وعمر قد يرجعون إلى ترك المذهب، ويميلون إلى الاعتقاد الحسن والصواب في اعتقاد التشيع.

ولسنا نجعل إفراط من أفراط وشتم من شتم حجة في تقديم علي بن أبي

طالب على أبي بكر وعمر، وإثماً جعلنا ذلك تنبيهاً قبل النظر لتعلموا أنّ التمييز والمعرفة في تقديمه
يُجَنَّبان على الفحص والنظر، ولأنّ قوماً دعاهم التعصّب والحمق إلى أن جعلوا إفراط من أفرط فيه،
وخلاف من خالفه تنقّصا لأبي الحسن صلوات الله عليه؛ فأريناهم أنّ ذلك في الفضل أولى من
النقص، وعلى التقديم أدلّ منه على التقصير كما قلنا في عيسى ابن مريم.

وبلغ التوهّم إلى حدٍّ حتّى دعا قوماً إلى أن زعموا أنّ كثرة الخلاف عليه في عسكره وما حدث
من نكث الناكثين عليه يدلّ على أنّه لم يكن له نفاذ في التدبير ولا كان معه من حسن التأليف
ورجاحة السياسة ما كان مع غيره، على ما زعموا.

وهذا غاية ما يكون من التعدي في القول والإفراط في ترك قلة الإنصاف وذلك بأنهم لم
يوقفونا من سوء تدبيره وخطأ سياسته على أمر معروف ولا على حديث في ذلك مأثور ومشهور،
وإثماً أرادوا أن يوجّهوا ذلك بالقياس قصداً منهم إلى نصره الخطأ وميلاً إلى العصبية والحماء.

وهيهات أن ينالوا في عليّ ما قصدوا إليه، ولو كان ما ذهبوا إليه صواباً قلنا: فارتدأ العرب
قاطبةً، واجتماعها على الردّة في أيام أبي بكر أعظم وأدلّ على الخطأ في الرأي، والغلط في
السياسة، لأنّ الفتنة كانت أعظم في أيامه وكذلك فتنتهم أيام عثمان أشدّ، واختلافهم عليه أكبر
وأجلّ؛ فما قلتم على عثمان أوجب ومن أبي حسن أبعد لأنّ الخلاف عليه كان هو سببه وعلّته
وذلك مأثور مشهور في كتب العامة، فكيف في كتب الخاصة! وذلك لأنّ القوم خالفوه لما ظهر

من عواره وضعفه، ولما حدث عندهم من نهمته ودعوى من ادعى عليه تبديل السنن واستيثار
الفيء، وإيواء الطريد^(١)، ورجوعه عن رأيه مرة بعد مرة، ومن شيء بعد شيء، وإخراج أبي ذر
رضي الله عنه.

فهذا عليكم في عثمان قد وجب، وفي عليّ قد بطل، فالحمد لله على تعريفه بهت من كفر،
وقمع من عاند.

ومتى اعتلّ أهل الحيرة في تنقيص أبي حسن بما حدث في زمانه من الخلاف والفتن، فذلك
عليهم في أبي بكر أوجب ولعثمان ألزم. ومتى صوّبوا رأي عثمان رأي في كفه الحرب وخطأوا عليّاً
في إقدامه على القتال؛ لزمهم تخطئة أبي بكر في محاربه لمن منع الزكاة أن يلزموه الضلال والخطأ،
إذ زعم أنّه يسفك الدماء ويقتل الأنفس من أجل عقاب لو منعوه^(٢).

ومتى صوّبوا أبا بكر في رأيه، خطأوا عثمان في كفه عن الدفع عن نفسه ودينه.
فأين المفتر والمذهب وقد أحاطت بكم الحجج لو لا المعاندة والتعصّب!
وأبين من هذا أنّ أسامة بن زيد لما سُئل عن علّة قعوده عن نصرة أمير المؤمنين على أعدائه أنّه
قال: حلفت أيام النبي ﷺ أن لا أقاتل من قال: لا إله إلا الله. وذلك أنّه كان في سرية في بعض
محاربة المشركين فقتل رجلاً بعد أن قال:

(١) هو الحكم بن أبي العاص أبو مروان الذي كان يستهزئ برسول الله ﷺ.

(٢) أي أنّه قاتل القبائل التي رفضت خلافته ولم ترها شرعية وهي قبائل واسعة فمنعت إعطاءه الزكاة لذلك ... وقد
تكلّمنا عن هذا الأمر فيما مضى من هذا الفصل، وفي وقعة الجمل - سيأتي -.

أشهد أن لا إله إلا الله. فقال رسول الله: قتلته وهو يشهد أن لا إله إلا الله، فعاهد أسامة رسول الله ﷺ أن لا يقاتل أحداً يشهد الشهادتين.

فأخطأ أسامة في أول مرة في الحكم في قتل الكفرة، وغلط في حكم الله في محاربة أهل القبلة؛ لأن الكافر إنما وجبت محاربه لإنكاره الشهادة، وأهل الصلاة لم يجب قتالهم لإقرارهم وإنما وجب قتالهم لبغيهم؛ فالحكم في أهل الصلاة أن يكف عن قتلهم إذا رجعوا عن بغيهم، وفاؤا إلى أمر ربهم كما أن الحكم في أهل الكفر أن لا يقاتلوا إذا رجعوا عن كفرهم.

فلم يسلم أسامة من الخطأ في إقدامه ولم يُدرِك الصواب في إمساكه، فغلط أسامة الضعيف في الحكمين جميعاً.

على أن هذا القول من أسامة يدل على تخطئة أبي بكر في رأيه، لأن أبا بكر قد رأى محاربة من أقر بالشهادة وصلى القبلة.

والعجب أن الخلاف على أبي بكر كان في هذا الرأي أكثر، لأن عامة أصحاب النبي ﷺ أسندوا رأيهم في خلاف أبي بكر إلى النبي ﷺ، فقالوا: سمعنا النبي ﷺ يقول: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

فكان هذا من قولهم أكبر في الخلاف، وأعظم في الشبهة مما رواه محمد بن مسلمة أنه سمع النبي ﷺ يقول: إذا رأيت فتنة فاتخذ سيفاً من خشب واضرب

سيفك الحائط ^(١).

مع روايتكم الظاهرة أنّ النبي ﷺ قال: «عليّ مع الحقّ والحقّ مع عليّ» ^(٢).

فكيف تكون فتنة قائدها ودليلها عليّ بن أبي طالب؟!

وقول عليّ عليه السلام: «إنّه لعهدُ النبي ﷺ إليّ أن أقاتل الناكثين والفاسقين والمارقين» ^(٣).
وشهادة المهاجرين والأنصار له بما قال، وفيهم عمّار بن ياسر، وأبو أيّوب الأنصاري، وأهل
الفضل والسابقة.

وإنّما قدّمنا هذه المقدّمة لتعلموا أنّ شأن من ذهب عن فضل أمير المؤمنين ليس إلاّ المعاندة
واتّباع الهوى دون الحجّة ^(٤).

دستور معاوية في سبّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والبراءة منه

ذكر ابن أبي الحديد في ذلك، قال: إنّ معاوية، أمر الناس بالعراق والشام وغيرهما بسبّ عليّ
عليه السلام والبراءة منه.

وخطب بذلك على منابر الإسلام، وصار ذلك سنّة في أيّام بني أميّة إلى أن قام عمر بن عبد
العزیز رضي الله عنه فأزاله. وذكر شيخنا أبو عثمان الجاحظ أنّ معاوية كان يقول في آخر خطبة الجمعة:
اللّهم إنّ أبا ثراب ألحد في دينك، وصدّ عن

(١) قول هذا، مصداق قوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ
بِالْكَافِرِينَ). (التوبة: ٤٩)

(٢) ذكرناه ومصادره في موضع آخر من كتابنا هذا.

(٣) ذكرناه ومصادره فيما تقدّم من هذا الفضل وفي وقعة الجمل من كتابنا هذا.

(٤) المعيار والموازنة ٣١ - ٣٧.

سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعدّبه عذاباً أليماً.

وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يُشار بها على المنابر إلى خلافة عمر بن عبد العزيز^(١).

وذكر المبرّد في «الكامل» أنّ خالد بن عبد الله القسريّ، لما كان أمير العراق في خلافة هشام، كان يلعن عليّاً عليه السلام على المنبر، فيقول: اللهمّ ألعن عليّاً بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، صهر رسول الله ﷺ على ابنته، وأبا الحسن والحسين!! ثمّ يُقبل على التّاس فيقول: هل كنّيت^(٢)!

وروى أبو عثمان أيضاً أنّ قوماً من بني أميّة قالوا لمعاوية: إنّك قد بلغت ما أمّلت، فلو كففت عن لعن هذا الرجل! فقال: لا والله! حتّى يروى عليه الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكّر له ذاكراً فضلاً^(٣)!

وروى أهل السيرة أنّ الوليد بن عبد الملك في خلافته ذكر عليّاً عليه السلام، فقال: لعنه «الله» بالجرّ، كان لصّ بن لصّ.

فعجب الناس من لحنه فيما لا يلحن فيه أحد [إذ كان ينبغي أن يقول: الله، بالرفع، لا بالجرّ كما فعل!]، ومن نسبته عليّاً عليه السلام إلى اللصوصيّة [وهذه لا تعليق لنا عليه] وقالوا: ما ندري أيّهما أعجب! وكان الوليد لحناً^(٤).

(١) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ٤: ٥٦ - ٥٧.

(٢) الكامل في الأدب، للمبرّد - طبع أوربتا - ٤١٤.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٥٧.

(٤) نفسه ٥٨.

وأمر المغيرة الأعور الزنّاء - وهو يومئذ أمير الكوفة من قبل معاوية - حُجَرَ بن عديّ أن يقوم في الناس، فيعلن عليّاً عليه السلام، فأبى ذلك، فتوعّده، فقام فقال: أيّها الناس، إنّ أميركم أمرني أن ألن عليّاً فالعنوه. فقال أهل الكوفة: لعنه الله! وأعاد الضمير إلى المغيرة بالنية والقصد ^(١).

وأراد زياد أن يعرّض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه وأن يقتل كلّ من امتنع من ذلك، ويخرب منزله، فضربه الله ذلك اليوم بالطّاعون، فمات - لا رحمه الله - بعد ثلاثة أيّام، وذلك في أيّام معاوية ^(٢).

وكان الحجاج لعنه الله، يلعن عليّاً عليه السلام، ويأمر بلعنه وقال له متعرّض به يوماً وهو راكب: أيّها الأمير، إنّ أهلي عَقُّوني فسمّوني عليّاً، فغيّر اسمي، وصِلني بما أتبلّغ به، فإني فقير. فقال: لِّلطف ما توصّلت به قد سميتك كذا، ووليتك العمل الفلاني فاشخص إليه ^(٣).

وأسماء المنحرفين عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، والمغرقين في عدائه وعداء أهل بيته عليه السلام وشيعته، وأفعالهم الشنيعة لا يستوعبها هذا البحث.

روى أبو الحسن المدائني في كتاب «الأحداث» قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة - عام الصلح بين معاوية والإمام الحسن عليه السلام - (أن برئت الذمّة ممّن ذكر شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته) فقامت الخطباء

(١) نفسه.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٥٨.

(٣) نفسه.

في كلِّ كُورة، وعلى كلِّ منبر، يلعنون عليّاً ويبرءون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته؛ وكان أشدَّ الناس بلاء حينئذٍ أهل الكوفة، لكثرة مَنْ فيها من شيعة عليٍّ عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سُميَّة، وضمَّ إليه البصرة، فكان يتتبع شيعة عليٍّ وهو بهم عارف؛ لأنَّه كان منهم أيتام عليٍّ عليه السلام؛ فقتلهم تحت كلِّ حَجَرٍ ومَدَرٍ، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسَمَل العيون وصَلَبهم على جذوع النَّخل، وطردهم وشَرَّدهم عن العراق؛ فلم يبق بها معروف منهم.

وكتب معاويةُ إلى عمَّاله في جميع الآفاق: ألاَّ يميزوا لأحدٍ من شيعة عليٍّ وأهل بيته شهادة. وكتب إليهم: انْظُرُوا مَنْ قَبْلَكُمْ من شيعة عثمان ومحبيِّه وأهل ولايته، والذين يرون فضائله ومناقبه؛ فأدْنُوا مجالسَهم وقَرِّبُوهم وأكْرُمُوهم، واكتبوا لي بكلِّ ما يروي كلُّ رجلٍ منهم، واسمه واسم أبيه وعشيرته.

ففعَلُوا ذلك حتَّى أَكْثَرُوا من فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصَّلَات والكِسَاء والحِباء والقطاع، ويفيضة في العرب والموالي منهم، فكثر ذلك في كلِّ مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجيء أحد مردود من النَّاس عاملاً من عمَّال معاوية، فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلَّا كتب اسمه وقَرَّبه وشَفَّعه. فلبثوا بذلك حيناً.

ثمَّ كتب إلى عمَّاله: أنَّ الحديث في عثمان قد كَثُرَ وفَشَا في كلِّ مصر وفي كلِّ وجه وناحية؛ فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا النَّاس إلى الرِّوَاية في فضائل الصحابة والخلفاء الأوَّلِينَ، ولا تتركوا خبراً يرويه أحدٌ من المسلمين في أبي تراب إلَّا وتأتوني بمناقضٍ له في الصحابة؛ فإنَّ هذا أحبُّ إليَّ وأقَرُّ لعيني،

وأدحضُ حجّة أبي تراب وشيعته، وأشدُّ إليهم من مناقب عثمان وفضله.

فقرئتُ كُتبه على الناس، فزويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها! وحدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتّى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقيَ إلى معلّمي الكتاتيب، فعلموا غلماهم وصبيائهم من ذلك الكثير الواسع حتّى روّوه وتعلّموه كما يتعلّمون القرآن، وحتّى علّموه بناتهم ونساءهم وخدّمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله. ثمّ كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا مَنْ قامت عليه البيّنة أنّه يُحب عليّاً وأهل بيته، فاحموه من الدّيون، وأسقطوا عطاءه ورزقه. وشقّع ذلك بنسخة أخرى: مَنْ اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره.

فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق؛ ولا سيّما بالكوفة، حتّى أنّ الرجل من شيعة عليّ عليه السلام ليأتيه مَنْ يثق به، فيدخل بيته، فيلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتّى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمنّ عليه؛ فظهر حديث كثير موضوع، ومُجتانٍ منتشر! ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة؛ وكان أعظم الناس في ذلك بليّة القراء المراءون، والمستضعفون، الذين يُظهرون الخُشوع والنُسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولائهم، ويصيبوا به الأموال والضّياع والمنازل، حتّى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الدّينيين الذين لا يستحلّون الكذب والبهتان، فقبلوها ورووها، وهم يظنون أنّها حقّ، ولو علموا أنّها باطلة لمّا رووها ولا تديّنوا بها.

فلم يزل الأمر كذلك حتّى مات الحسن بن عليّ عليه السلام، فازداد البلاء والفتنة،

فلم يبق أحدٌ من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه، أو طريدٌ في الأرض.
ثمّ تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام، وولّى عبد الملك بن مروان، فاشتدّ على الشيعة! وولّى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرّب إليه أهلُ التُّسك والصّلاح والدين ببغض عليّ وموالاة أعدائه... فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغضب من عليّ عليه السلام وعيّه والطعن فيه والشتان له...

وقد روى ابنُ عرفة المعروف بنفطويه، في تاريخه: إنّ أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أميّة، تقرّباً إليهم بما يظنون أنّهم يُرغمون به أنوف بني هاشم ^(١)!

مدرسة معاوية في وضع الحديث

جرى الكلام في المنع من الحديث والمعاقبة عليه، والتعلّل في ذلك بذريعة أن لا يختلط القرآن بشيء من غيره، وكان الموقف الصارم من الحديث في هتك حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله بحرق سيرته، وامتدّت أياديهم إلى القرآن فهتكوا حرمة بحرق المصاحف مع المزاعم التي ذكرناها في ضياع نصوص منه، وأنّ الآية الفلانية كانت على عهد النبي صلى الله عليه وآله كذا، وأضافوا إليها كلمات، وأخرى بلفظٍ آخر... ممّا ذكرناه. وفستّرنا ذلك بأنّه تمهيد لإقصاء أهل البيت عليهم السلام عن مراتبهم التي ربّها القرآن الكريم وربّبتها السنّة المطهّرة.

وذكرنا شيئاً ممّا فعله معاوية خاصّة وبنو أميّة وحاشيتهم مستفيدون من

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤ - ٤٦.

سياسة التمهيد، والتمكين جهد إمكانهم في إفراغ عُقد النقص وطلب الثارات، فيالبدر وأحد
وحُنين ... ونذكر هنا عملاً فنياً شيطانياً مُقتناً سلكه ابن هند في حقل الأحاديث الموضوعة في
ذمّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام نشأ عليها أجيالاً شامية تتوارث بُغض عليّ عليه السلام وينقل كل جيل إلى
الذي يليه تلك الأحاديث الموضوعة.

ذكر أبو جعفر الإسكافي: أنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية
أخبار قبيحة في عليّ عليه السلام، تقتضي الطعن فيه والبراءة منه؛ وجعل لهم على ذلك جُعلاً يُرغبُ في
مثله؛ فاختلقوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة. ومن التابعين:
عروة بن الزبير^(١).

روى الواقدي أنّ معاوية لما عاد من العراق إلى الشام بعد بيعة الحسن عليه السلام واجتماع الناس
إليه خطب فقال: أيّها الناس؛ إنّ رسول الله ﷺ قال لي «إِنَّكَ ستلي الخلافة من بعدي، فاختر
الأرض المقدّسة، فإنّ فيها الأبدال؛ وقد اخترتكم، فalcنوا أبا تراب. فلعنوه. فلمّا كان من الغد
كتب كتاباً، ثمّ جمعهم فقرأ عليهم؛ وفيه: هذا كتابُ كتبه أمير المؤمنين معاوية، صاحب وحي الله
الذي بعث محمداً نبياً، وكان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب، فاصطفى له من أهله وزيراً كاتباً أميناً، فكان
الوحي ينزل على محمّد وأنا أكتبه؛ وهو لا يعلم ما أكتب، فلم يكن بيني وبين الله أحد من خلّقه.

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٣.

فقال له الحاضرون كلّهم: صدقت يا أمير المؤمنين ^(١)!

أنصّدق الله تعالى إذ نصب عليّاً عليه السلام، وليّاً لأمر المسلمين؛ وقد تكلمنا عن ذلك بما فيه كفاية في آية الولاية وتصدّق أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بخاتمه في حال الركوع في الصلاة، فكان الإجماع المتواتر أنّ الآية نزلت في عليّ عليه السلام؛ ونصّت على حصر الولاية بالله تعالى، ثمّ برسوله صلى الله عليه وآله، ومن ثمّ بخليفة رسوله عليّ عليه السلام.

وتوجّ ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله بأخذ البيعة العامّة لأمر المؤمنين عليّ عليه السلام في حجة الوداع في غدير خمّ، ولعن في أكثر من موطن من ينصب عليّاً عليه السلام أو يأبى خلافته...، فكيف يناقض - حاشا له صلى الله عليه وآله - نفسه، فيفسد ما أبرم وينصب خليفتين من بعده، ومن الثاني: معاوية؛ وكفى به تعريفاً!

ثمّ انظر أيّ جمهور أنتجت المدرسة الأمويّة، فإنّ الأمويّين قد بثّوا أحاديث كاذبة بشأن «الشام» وأتّما الأرض المقدّسة! وأنّ أهلها هم الأبدال الذين ينتصر بهم الله تعالى لدينه... وغير ذلك. وعلى هذا تابعوا سيّدهم في لعن أمير المؤمنين عليه السلام، حتّى صار جلّهم لا يعرف من هو «علي بن أبي طالب عليه السلام»!

روى الإسكافي: وقد صحّ أنّ بني أميّة منعوا من إظهار فضائل عليّ عليه السلام، وعاقبوا ذلك الراوي له؛ حتّى أنّ الرجل إذا روى حديثاً لا يتعلّق بفضله بل بشرائع الدّين لا يتجاسر على ذكر اسمه؛ فيقول: عن أبي زينب ^(٢)!

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٧٢.

(٢) المعيار والموازنة ١٣٧.

وروى عطاء، عن عبد الله بن شداد بن الهاد، قال: ودِدْتُ أن أترك فأحدَثَ بفضائل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوماً إلى الليل؛ وأنَّ عُتْقِي هذه ضُرِبَ بالسيف ^(١).

وقال: وقد روى أن معاوية بذلَ لِسُمْرَةَ بن جُنْدَب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في عليّ بن أبي طالب: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) ^(٢)، وأنَّ الآية الثانية نزلت في ابن مُلْجَم، وهي قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) ^(٣)، فلم يقبل منه، فبذل له مائتي ألف درهم فلم يقبل فبذل له ثلاثمائة ألف فلم يقبل، فبذل له أربعمائة فقبل، وروى ذلك ^(٤).

ما أعظم إجرامك يا ابن هند! ما أن تفرّدت بالشام حتى بذلت جهديك كلّ لفتن أهل الشام وإبعادهم عن دينهم ونشر الجهل بينهم فراح يسوقهم حيث شاء؛ وقد ذكر هذه الحالة المأساوية «عمرو بن العاص» وزير معاوية في قصيدة طويلة تسمّى الجَلْجَلِيَّة، هذا بعضُها:

وَلَمَّا عَصَيْتُ إِمَامَ الْمُهَدِي وَفِي جَيْشِهِ كُلُّ مُسْتَفْحَلٍ
أَبَا الْبَقَرِ الْبُكْمِ أَهْلَ الشَّامِ لِأَهْلِ التُّقَى وَالْحِجَى أُبْتَلَى؟

(١) نفسه.

(٢) البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥.

(٣) البقرة: ٢٠٧.

(٤) المعيار والموازنة ٧٢ - ٧٣.

فقلت: نعم، قم فإني أرى
فبي حاربوا سيّد الأوصياء
وعلمتُهم كشَفَ سوءاتهم
وحيث رفعتك فوق الرؤوس
وكم قد سمعنا من المصطفى
وفي يوم «خُم» رقى منبراً
وفي كفّه كفّه مُعلناً
ألسْتُ بكم منكم في النفوس
فأنخله إمرة المؤمنين
وقال: مَنْ كنتُ مولىً له
فوالِ مواليه يا ذا الجلال
ولا تنقضوا العهد من عترتي

قال المفضّل بالأفضل
بقولي: دُمّ طُلّ من نَعْتَلِ^(١)
لِرَدِّ العَصَنَةِ المُقْبِلِ^(٢)
نزلنا إلى أسفل الأسفل!
وصايا مخصّصة في عليّ؟!
يُبلّغ، والزّكَبُ لم يرحل
يُنادي بأمر العزيز العلي:
بأولى؟ فقالوا: بلى فافعل
من الله مُستخلف المُنحَل
فهذا له اليوم نَعَمُ الولي
لِوعادِ مُعادي أخ المُرسل
فقاطعهم بي لم يُوصَل

(١) طُلّ الدم: هدير ولم يُثار له. ونعتل: اسم لعثمان سمّته به عائشة.

(٢) ذلك أنّ عمرو بن العاص برز ليقاتل فبرز إليه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام فلما رآه أسقط نفسه عن فرسه ورفع رجله فبانَت سوءته، فأشاح أمير المؤمنين بوجهه الكريم عنه وهرب ابن العاص. وفعل مثل ذلك معاوية وبُسر مع الإمام!!

فَبَخَّـبَحَ شَيْخُكَ لَمَّا رَأَى عُرَى عَقْدِ حَيْدَرٍ لَمْ تُحْلَلِ
فَقَالَ: وَلَيْكُمُ فَا حَفْظُوه فَمَدَّخَلْهُ فَيْكُمُ مَدَّخَلِي
وَأَنَا وَمَا كَانَ مِنْ فَعْلَانَا لَفِي النَّارِ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ
وَمَا دُمُ عَثْمَانٍ مَنِّجٍ لَنَا مِنْ اللَّهِ فِي الْمَوْقِفِ الْمُخْجَلِ
وَأَنَّ عَلِيًّا غَدًا خَصْمُنَا وَيَعْتَزُّ بِاللَّهِ وَالْمَرْسَلِ
فَمَا عُذْرُنَا يَوْمَ كَشَفِ الْغَطَا؟! لَكَ الْوَيْلُ مِنْهُ غَدًا، ثُمَّ لِي! (١)

شهادة حقّ نطق بها ابن النابغة، لما حصل بينه وبين سيّده ابن هند خلاف، تضمّنت مقارنة وموازنة بين العسكرين: عسكر أهل الكوفة اهل الثّقى والعقول الذين يمضون على بينة، متّبعين إمام هدى سيّد الأوصياء أمير المؤمنين بأمر الله تعالى وتبليغ رسوله ﷺ فاتّبعوه ولم ينكثوا عهداً... ولذا فم أسودّ لا يجبنون.

ثمّ وصف عسكر أهل الشام وأهمّ بقّر بكمّ استطاع ابن العاص أن يعلمهم، بل ويعلم ملكهم ابن هند، وابن أبي أرتاة كيف يدفعون عن أنفسهم بسوءاتهم ويصف نفسه وأهل الشام بالجهل إذ اتّبعوا معاوية ورفعوه، فنزلوا بذلك إلى أسفل السافلين، وأنّه ومعاوية ومن تبعهم في جهنّم!! وهذا الذي قلناه من قبل في أحاديث «الأريكة»، وتحذير رسول الله ﷺ من صاحب «الأريكة» الذي يتّخذ القرآن ذريعةً للمنع من حديث رسول الله ﷺ ، وقد

(١) شرح نهج البلاغة ٢: ٥٢٢.

استعمل ﷺ لفظ «يوشك» التي تظهر في القريب زمنياً، وفعلاً وجدنا أبا بكر يحرق «٥٠٠» حديث، ثم ينهج عمر المنهج نفسه فيحرق أحاديث رسول الله ﷺ ويعاقب صحابة لأتهم يحدثون ويحبس آخرين...، فإذا جاء ابن هند ومن قبله سلفه عثمان الذي توسّع في معاقبة خيار الصحابة والمنع من الحديث، فما كان منه إلا أن يمدّ يده إلى تحريف أسباب نزول القرآن بما يخدم أهدافه، فإنّ هذا التحريف لديه أسهل من حرق السنّة ومنع تداولها، ومن حرق كتاب الله تعالى؛ كيف وهو معاوية الذي أعلن صراحةً أنّه ما قاتل من أجل الصلاة والصوم والحجّ والزكاة؛ وإنّما قاتل ليتأمر عليهم - مرّ بنا -؛ وما علمنا منه ولا من بيته إسلام وإنّما هو فتح مكّة وإرغام رسول الله ﷺ لآل أبي سفيان أن يفتحوا بيّتهم للإسلام المنتصر وأحسن إليهم فأطلقهم؛ فهم الطلقاء. ومرّ بنا لعن رسول الله ﷺ لأبي سفيان ولولديه: يزيد ومعاوية ابني أبي سفيان، في أكثر من موطن ودعوة رسول الله ﷺ إلى قتل معاوية إذا رأوه يخطب على المنبر... وقد كان جريئاً في أمرٍ سبق إليه ولكن في حدودٍ من ذلك ما يتعلّق بأمر فدك وادّعاء النصّ على خلافة الأوّل وأمثال ذلك.

وأما معاوية فبعد تشدّده في محاربة الحديث، وفتحته مدرسةً لكتابة التاريخ والسيرة وفقّ ما يريد، وعلم أولئك رغبته وقد أعمتهم الأموال التي أغدقها عليهم معاوية، فحقّقوا له رغبته ومن ذلك وضع أحاديث تنال من أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأهل بيته عليه السلام. فأما بشأن الآيتين المباركتين؛ حيث دخل معاوية في

معاملة تساومية مع سُمرة بن جُنْدَب بذل له فيها مائتي ألف درهم، فلم يقبل فزاده لم يقبل حتى صار أربعمئة ألف درهم، فقبل على أن يروي أنّ الآيتين نزلتا في أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام!

ومن قصّة الآيتين كما ذكر المفسّرون:

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) ، نزلت في الأخنس ابن شريق بن عمرو بن وهب بن أبي سلمة الثقفي، كان يأتي النبي صلى الله عليه وآله فيخبره أنّه يحبّه ويحلف بالله على ذلك، ويخبره أنّه يتابعه على دينه، فكان النبي صلى الله عليه وآله يعجبه ذلك ويدنيه في المجلس، وفي قلبه - أي قلب الأخنس - غير ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى) ما يقول، يعني يمينه التي حلف بالله، و (مَا فِي قَلْبِهِ) أنّ الذي يقول حقّ (وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) يقول جدلاً بالباطل ...^(١).

ونحن في غنى عن تفسير المفسّرين، ولكن قطعاً للذريعة ومماشاةً لمنهج البحث، وإلاّ فالآيتان بمعاوية أليق فهو محض باطل سيرته التي مات عليها تثبت ذلك، وعليّ عليه السلام حبّه إيمان وبُغضه نفاق. وأمّا قوله: إنّ قول الله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) ، إنّها نزلت في ابن ملجم؛ فلا عجب! فكلاهما: ابن ملجم، ومعاوية، ناصبيان خرجا على أمير المؤمنين عليه السلام فقاتله معاوية، وأجهز

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١: ١٠٨، معاني القرآن، للقرّاء ١: ١٢٤، الكشاف ١: ١٢٣، الجامع لأحكام القرآن ٣: ١٧، جامع البيان ٤: ٢٤٣، إعراب القرآن، للعكبري ١: ٥٢، البحر المحيط ٢: ١١٦، تفسير الفخر الرازي ٢: ١٩٠.

عليه ابن ملجم في محراب صلاته فضربه بالسيف فمضى عليه السلام شهيداً.

أما بشأن الآية المباركة، فالإجماع منعقد على أنها نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وذلك أن قريشاً تحالفوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأجمعوا أمرهم: أن يُنتدب لذلك من كل قبيلة شاب، فيكبسوا عليه وهو نائم، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيضيع دمه ولا يأخذ بثأره أحد. فنزل جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك مكة ويهاجر، وأن يبيت ابن عمه علي على فراشه، ففعل وبات الفدائي وقد وطن نفسه للشهادة في سبيل الله وفي سبيل سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

لقد عزّ الناصر الذي يؤدّي وظيفة خطيرة مثل هذه، وما كان لجسد غير علي أن يتكرّم بمماسّة موضع جسد النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه. ثمّ ما كان لغير علي أن يقوم مقام النبي سواء في الدعوة والتبليغ حيث اختصّه بتبليغ «براءة»، أو تأدية أمانته وما كان يوصي إليه.

عن معاوية بن عبد الله بن عبيد الله بن أبي رافع، عن أبيه، عن جدّه، عن أبي رافع في هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: وخلفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم - يعني خلف علياً - يخرج إليه بأهله، وأمره أن يؤدّي عنه أمانته ووصايات من كان يوصي إليه، وما كان يؤتمن عليه من مال، فأدّى علي أمانته كلّها. وأمره أن يضطجع على فراشه ليلة خرج، وقال: إنّ قريشاً لم يفقدوني ما رأوك، فاضطجع على فراشه. (١) إنّ التأدية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليس أمراً يُذكر من غير وقفة وتأمل! وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم في

(١) أسد الغابة ٤: ٩٦.

هذا الباب وفيرة وفي أكثر من مشهدٍ وموقف؛ يعزّزها ائتمانه ﷺ أهله، ولا يجوز لنبيّ الله أن يأتمن على أهله إلاّ رجالاً مثله في العصمة.

وقد خلفه ﷺ على أهله غير مرّة، من ذلك: غزاة تبوك، فأظهر عليّاً حزنه لذلك فقال له النبيّ ﷺ: «يا عليّ، إنّما خلقتك على أهلي، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى، غير أنّه لا نبيّ بعدي؟»^(١).

ونذكر بعض الآثار الواردة في نزول الآية المباركة في أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. ورد نزول الآية في أمير المؤمنين عليّاً؛ عنه وعن ولديه الحسين عليهما السلام؛ وكفى بهم صدقاً ووثوقاً!

* عن أمير المؤمنين عليّاً فيما خاطب به أهل الشورى، محتجّاً عليهم بفضائله وما اختصّه الله تعالى به، ومنه الآية المذكورة، برواية الصحابيّ أبي الطفيل عامر بن واثلة. (المناقب للخوارزمي ٣١٥، مناقب الإمام عليّ لابن

(١) المصنّف، لابن أبي شيبة حديث ١٢ من فضائل عليّ عليه السلام، مسند أبي داود حديث ٢٠٥، مسند أحمد، مسند أبي سعيد ح ١٠٨٧٩ ومواضع أخرى، مسند أبي يعلى - مسند سعد ٢: ٦٦ - ١٣٢ وغيرها، الفضائل، لأحمد، حديث ١٤٢، تاريخ البخاري الكبير ٤٨/٣: ١٧٩، صحيح مسلم ٣: ٤٤، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عليّ عليه السلام رقم ٣٠ - ٣٢، المعجم الكبير، للطبراني ٤٦/٢٤: ٣٨٤، طبقات ابن سعد ٣: ٢٤، مسند ابن حبان ١٥/٣٦٩: ٦٩٢٦، مشكل الآثار ٢/٢١٣: ١٩٠٣، الكامل، لابن عديّ ٢/٤١٦: ترجمة حرب ابن شدّاد، سنن ابن ماجه ١: ٤٢ حديث ١١٥، أنساب الأشراف ١: ٣٤٦، تاريخ بغداد ٣: ٢٨٩/١٣٧٦، حلية الأولياء ٧: ١٩٤، مختصر تاريخ دمشق ١٧/٢٤٣ - ٢٤٨، مناقب الخوارزمي ١٣٣/١٤٨، تهذيب الكمال ٣٥/٢٦٣ ...

المغازليّ ١٥٥، كنز العمال ٣: ١٥٦، غاية المرام ٥٦٤).
ورواه الصحابيّ أبو ذرّ الغفاريّ. (أماي الطوسيّ ٢: ١٦٢).
ورواه ابن الكوّاء، عنه عليّ. (خصائص أمير المؤمنين للشريف الرضيّ ٢٦). وأبو مريم
الأسديّ، عنه عليّ. المستدرك على الصحيحين ٣: ٥.
* الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليّ. تذكرة الخواصّ ١٨٢.
* عليّ بن الحسين بن عليّ عليه السلام، عن حكيم بن جبير، عن عليّ بن الحسين عليه السلام، قال:
إنّ من شرى نفسه ابتغاء رضوان الله عليّ بن أبي طالب عليّ. وقال عليّ عليه السلام عند ممّيته على
فراش رسول الله ﷺ:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطَأَ الْحَصَى وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحِجْرِ
رسول إله خاف أن يمكّروا به فنجاه ذو الطّول الإله، من المكّر
وبات رسول الله في الغار آمناً مؤقّى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت أراعيهم وما يُثبّتونني وقد وطئت نفسي على القتل والأسر
ورد في المناقب للخوارزميّ ١٢٧ وينايع المودّة ٩٢، والمستدرك على الصحيحين. وورد بغير
الشعر المذكور في: أماي الطّوسيّ ٢: ٦١، المناقب لابن شهر آشوب ٢: ٦٤.
* ابن عبّاس. مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٣١٨، المناقب للخوارزميّ ١٢٦، وينايع المودّة ٩٢.
وبرواية عمرو بن ميمون عنه، في مختصر تاريخ دمشق ١٧: ٣٢٩.

ورواية أبي صالح عنه في تفسير الطبري ٩: ١٤٩، تفسير فرات ٥، دلائل النبوة لأبي نعيم ٦٣ - ٦٥.

والسُدِّي عنه، في العُمدَة لابن البطريق ١٢٤، ينابيع المودة ٩٢.
ورواه أبو غطفان عن ابن عباس، في الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٢٢٧، أمالي الطوسي ٢: ٦٠. وشعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون، في البداية والنهاية ٧: ٣٣٨.
ولحديث ابن عباس طُرُق كثيرة في شواهد التنزيل من ذلك كرقم ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨.

ومن مصادر الحديث عن ابن عباس: أنساب الأشراف ٢: ١٠٦، خصائص النسائي ٦١ - ٦٢، مسند أحمد بن حنبل ١: ٣٣٠ - ٣٣١، والمعجم الكبير للطبري ٣: ١٥١، وتاريخ بغداد ١٣: ١٩١ - ١٩٢ ن وكفاية الطالب ٢٤٠ - ٢٤١، وإحياء العلوم للغزالي ٣: ٢٥٢، التلخيص ٣: ٤٢٦٣/٥، تفسير الثعلبي ٢: ١٢٦، تفسير النيشابوري بهامش تفسير الطبري ٢: ٢٩١، تفسير القرطبي ٣: ٢١، مجمع الزوائد ٩: ١٩ - ٢٠، الرياض النضرة ٢: ٢٦٩ - ٢٧٠، ذخائر العقبى ٨٤ - ٨٨.

* رواه الصحابي أبو سعيد الخُدري. شواهد التنزيل حديث رقم ١٣٣.

* وورد عن عائشة بنت قدامة. الطبقات الكبرى ١: ٢٢٧.

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يبيت أمير المؤمنين عليه السلام على فراش رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفديه بمهجنه ويدراً عن نفسه بنفسه؛ يشدُّ أزره في ذلك أبو طالب، أبوه مؤمن قريش وناصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم. جاء في «شعر أبي طالب وأخباره -

المستدرك ص ٧٣: «مما أنشدته أبو طالب، وكان كثيراً ما يخافُ على رسول الله ﷺ البَيَات - أي العَدْرَ ليلاً حيث يبيت - إذا عُرف مضجعه، فكان يُقيمه ليلاً من منامه ويُضجع ابنه عليّاً مكانه، فقال له عليّ ليلةً: إني مقتول. فقال له أبو طالب، شعراً:

إصبرن يا بُنيّ فالصبرُ أحجى كلُّ حيٍّ مَصرُهُ لِشَعُوبٍ ^(١)
 قَدَّرَ اللهُ - والبلاءُ شديداً - لِفِدَاءِ الحبيبِ وابنِ الحبيبِ
 إنْ تُصَبِّكِ المُنُونُ فَالتَّبَلُّ تُبري فمُصِيبٌ منها وغيرُ مُصِيبِ
 كلُّ حيٍّ - وإنْ تملَى بِعُمُرٍ - آخذٌ من مَذاقِهَا بِنَصِيبِ
 فأجاب عليّ عليه السلام، فقال:

تأمرني بالصبرِ في نصرِ أحمدٍ ووالله ما قلتُ الَّذي قلتُ جازعا
 ولكنني أحبتُ أن ترى نُصرتي وتعلمَ أنّي لم أزل لك طائعا
 سأسعى لوجهِ الله في نصرِ أحمدٍ نبيّ الهدى المحمود طِفْلاً وبافعا ^(٢)
 إنّ في سلوكِ أبي طالب عليه السلام، في حمايته لرسول الله ﷺ، وفدائه بابنه عليّ عليه السلام، وطاعة عليّ المطلقة لأبيه؛ مع وعيٍ منه أنّ ذلك في سبيل الله تعالى؛

(١) شَعُوب: المنيّة، يُقال أشعَبَ الرجلُ، إذا مات أو فارق فراقاً لا يرجع. تهذيب الألفاظ، لابن السكيت ٤٥٣.

(٢) المستدرك على شعر أبي طالب عليه السلام، لأبي هفان المهزومي (ت ٢٥٧ هـ) ٧٤.

وقد ترجمه في جوابه لأبيه شعراً، مضافاً إلى ما لحقه هو وبني هاشم من أذى قريش التي فرضت عليهم مقاطعة أمدها ثلاث سنين لا يشترون منهم ولا يبيعونهم، ولا يتزوجون منهم ولا يزوجههم... ومن ثمّ انعزل أبو طالب وبنو هاشم إلى شعبٍ وادٍ عرف فيما بعد باسم وادي أبي طالب؛ أقول: إنّ في سلوك أبي طالب هذا تحطيم للدعاية الأموية التي نشرت حديثاً مفترئاً وهو أنّ رسول الله ﷺ دعا أبا طالب إلى الإسلام فأبى؟! فلما مات، استأذن الله تعالى بالاستغفار له فلم يأذن له؟! كل ذلك ناصبيّة وبغضاً وحرماً لعليّ أمير المؤمنين عليه السلام.

إنّ الحماية التي أولاهها أبو طالب عليه السلام لرسول الله ﷺ تكذب الدعاية الأموية وتلقي ظلال تساؤل على كتب الحديث والتاريخ التي تناقلت تلك الدعاية بنصّ واحد! من غير التفات لسيرة شيخ البطحاء وزعيمها ومقدار الأذى الذي تحمّله هو وبنو هاشم وفقدانه منزلته بين قومه. فإذا كان ذلك عاطفةً محضةً، فلم حُرِّم أبو هب، وهو عمّ النبي ﷺ أيضاً هذه العاطفة؟! بل كان أشدّ الناس عداوةً له واستخفافاً له، وكانت امرأته تُعينه في مهمته القدرة هذه فكانت تحمل الشوك والخطب يضعانه في الطريق الذي يمرّ به رسول الله ﷺ؛ وقد أنزل الله تعالى فيهما سورةً كاملةً: «سورة تَبَّت».

إنّ للعاطفة حدوداً، ومن حدودها أن يطلب أبو طالب من ابن أخيه يكفّ عن الدعوة صوتاً له من خطر قريش وإبقاءً على مكانته هو في قريش..؛ إلّا أن موقفه وشعره وشعر ولده عليه السلام، ومواقف وأشعار تترجم حقيقة أبي طالب وأنه عاش ومات مسلماً مناضلاً ﷺ. وهذه بعض أشعاره:

حديث بحيرا الراهب

ذكر ذلك ابن إسحاق في سيرته؛ فبسند عن يونس بن بُكير عن محمد بن إسحاق، قال: إنَّ أبا طالب خرج تاجراً إلى الشام ومعه رسول الله ﷺ، فلما نزل الركب بُصرى من أرض الشام، وبها راهب يُقال له بَحِيرَا في صومعة له، وكان أعلم أهل النصرانية، فلما نزلوا بِحِيرَا وكانوا كثيراً ممَّا يَمْرُون به قبل ذلك لا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتَّى إذا كان ذلك العام نزلوا قريباً من صومعته، فصنع لهم طعاماً كثيراً، وذلك - فيما يزعمون - عن شيء رآه وهو في صومعته في الركب، حين أقبلوا وغماماً تظله - أي تظلَّ النبي ﷺ - من بين القوم، حتَّى نزلوا تحت شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة قد أظلت الشجرة، وتدلَّت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتَّى استظلَّ تحتها، فلما رأى ذلك بَحِيرَا، نزل من صومعته وأمر بذلك الطعام فصنع، ثمَّ أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، وأنا أحبُّ أن تحضروا كلَّكم...، فحضروا وتخلَّف رسول الله ﷺ لحداثة سنَّه، فلما نظر بَحِيرَا في القوم لم يرَ الصفة التي يعرف ويجد عنده؛ قال: يا معشر قريش لا يتخلَّف أحد منكم عن طعامي هذا، قالوا له: يا بَحِيرَا ما تخلَّف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلَّا غلام هو أحدثُ القوم سنّاً، تخلَّف في رحالهم، قال: فلا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم... فأحضروه، فلما رآه بَحِيرَا جعل يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده في صفتة، حتَّى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرَّقوا قام بَحِيرَا فقال له: يا غلام أسألك باللات والعزى إلَّا أخبرني عمَّا أسألك عنه، وإنَّما قال بَحِيرَا له ذلك لأنَّه سمع

قومه يحلفون بهما، فزعموا أنّ رسول قال له: لا تسلي باللات والعزى شيئاً، فو الله ما أبغضت شيئاً قطّ بغضهما، فقال له بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عمّا أسألك عنه، قال: سلمي عمّا بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من قومه، وهيئته، وأموره؛ فجعل رسول الله ﷺ يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثمّ نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده، فلمّا فرغ منه أقبل على عمّه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال له بحيرا، ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيّصا، قال: فإنّه ابن أخي وقد مات أبوه وأُمّه حبلى به، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلدك واحذر عليه من اليهود، فو الله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغّنه شرّاً، فإنّه كائن لابن أخيك هذا شأن فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمّه حتّى أقدمه مكّة حين فرغ من تجارته بالشام.

فزعموا أنّ نفرّاً من أهل الكتاب «يهود» قد كانوا رأوا رسول الله ﷺ في ذلك السفر هم: زبير، وثمّان ودريس؛ ورأوا منه أشياء فأرادوه، فردّهم عنه بحيرا، وذكرهم الله عزّ وجلّ، وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ...^(١).

ولأبي طالب شعر في ذلك:

إنّ ابن أمانة النبيّ محمّداً عندي بمثل منازل الأولاد
لما تعلّق الزمام رحمته والعيس قد قلّصن بالأزواد

(١) سيرة ابن إسحاق ٧٣ - ٧٦.

فأرفض من عيني دمع ذارف مثل الجمان مُفَرَّق الأفراد
إلى آخر الشعر. فأنت ترى أنه قد آمن وأعلنها صريحة^(١) بنبوّة محمد ﷺ وهو ما زال غلاماً،
وذلك لشهادة حُرٍّ؛ ممّا يدلّل على رجحان عقل أبي طالب دون غيره من الشيوخ الذين ماتوا
كفّاراً أو قُتلوا مشركين فكان الحسد لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: كيف تجتمع النبوة والإمامة في بيت
واحد، والسيادة لابن عمّه سيّد الرسل وله سيّد العرب والزوجه سيّدة نساء أهل الجنّة ولولديه
سيّدي شباب أهل الجنّة وأبوه شيخ البطحاء حامي النبي ﷺ مؤمن قريش؟! ومن شعر أبي
طالب عليه السلام، وذلك لما اجتمعت بنو هاشم وبنو المطلب معه ورأى أن قد امتنع بهم وأن قريشاً لن
يعادوه، وتجد في الشعر أنه انتصر لرسول الله ﷺ، وفيه تصريح منه برسالة النبي:

منعنا الرسول رسول المليك يبيض تالاً كلمع البروق

بصرب بزبر دون التهّاب حذار البوادر كالحنفقيق^(٢)

أذب وأحمي رسول المليك حماية حام عليه شفقيق^(٣)

فلما رأى أبو طالب من قومه ما سرّه من جدّهم معه، وحدهم عليه جعل

(١) نفسه ٧٦.

(٢) الحنفقيق: أي الداهية. اللسان.

(٣) سيرة ابن إسحاق ١٤٩.

يمدحهم ويذكر قديمهم، ويذكر فضل رسول الله ﷺ فيهم، ومكانه منهم، ليشتدّ لهم رأيهم فيه، وليحدبوا معه أمرهم، فقال أبوطالب:

إذا اجتمعت قريش لفخرٍ فبعد مناف سِرُّها وصميمُها
وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوماً فإنَّ محمداً هو المصطفى من سِرِّها وكرمها
تداعت قريش عُثَّها وسمينُها علينا فلم تظفر وطاشت حلومُها
وكنّا قديماً لا نقرّ ظلامه إذا ماثنوا صُعر الخدود نُقيمها
ونحمي حماكل يوم كريمة ونضربُ عن أحجارها من يرومها^(١)

إنَّ أبا طالب رضي الله عنه يحكم لعبد مناف على قريش بالفخر؛ وإذا صار السباق في حلقة الشرف؛ فهاشم عُوده المونق؛ وذروه هاشم وسنائُها: محمد رسول الله ﷺ. هكذا يصنّف أبوطالب مواضع الفخر، فكيف انساقت كتب الحديث والتاريخ خلف العداء الأمويّ وأعرضت عن هذه السيرة العطرة لهذا الرجل النبيل الذي كان سنداً للنبيّ ﷺ يفديه بنفسه وبابنه وعشيرته عن إيمانٍ برسالته؛ فصار مشركاً؛ وسيجمع الله بينهم وحينها يخسر المبطلون.

ومن شعر لمؤمن قريش وشيخ البطحاء أبي طالب يُظهر فيه منَعته وإيمانه بالنبيّ ﷺ، ويختتمه بالتوحيد لا بالشرك! قال:

ما إن جنينا من قريش عزيمة سوى أن منعنا خيرَ من وطىء الثريا

(١) سيرة ابن إسحاق ١٤٩.

أخائفه للنائبات موراً^(١) كريماً ثناه لا لئيماً ولا ذرباً
 فيا أخويننا عبد شمس ونوفلاً فيأياكما أن تسعرا بيننا حرباً
 وإن تصبحوا من بعد وُدِّ وإلفه أحابيش فيها كلكم يشتكي النكبا
 ألم تعلموا ما كان في حربٍ داحسٍ ورهط أبي يكسوم إذا ملأوا الشعبا
 فوالله لو لا الله لا شيء غيره لأصبحتم لا تملكون لنا سرباً^(٢)

فهو يبدأ بمدح ابن أخيه الذي ينافح عنه وأتته خيرٌ من وطئ التربة ويختمها بالقسم لا بالالآت والعزى... التي يلحف بها أهل الجاهلية وإنما بالله تعالى، ثم ينزهه أن يكون شيء غيره، فمثل أبي طالب يقال عنه مشرك؟! والذي يحمل معه الأزام يوم «تبوك» فإذا ظهرت الروم قال: ويه بني الأصفر مشجعاً لهم، ذلك هو أبو سفيان.

واسمع أبا طالب كيف يشد من عزيمة ابن أخيه رسول الله ﷺ ليواصل مسيرته وأتته بمنع عنه أعداءه ولن يصلوا إليه بأذى حتى يهلك دونه، ومصرحاً بأن دين محمد ﷺ خير الأديان، فماذا بعد الهدى إلا الضلال؟! قال ﷺ:

والله لن يصلوا إليه بجمعهم حتى أُوسد في التراب دفينا!
 إمضي لأمرِك ما عليك غَضاضةٌ وابشرْ وقرَّ بذلك منك عيونا
 ودعوتني وعلمتُ أنَّك ناصحٌ فلقد صدقتِ وكنْتَ قديماً أميناً

(١) أي: سريع الأجابة.

(٢) سيرة ابن إسحاق ١٥٠.

وعرضت دينا قد عرفتُ بأنّه من خير أديان البريّة دينا^(١)
وأشعار أبي طالب ومواقفه الجهاديّة وشرحها يطول، نأخذ بعض الشواهد التي تُبطل الدعاية
الوضعيّة الأمويّة المعادية لهذا البيت الشريف ولأنّه يُعطي تفسيراً موضوعيّاً للوضع الذي مارسه
الأمويّون بحق أسباب نزول آيات القرآن الكريم، وموقفهم من السنّة منعاً ووضعا!! ومن شعره لما
كتبت قريش كتابها في بني هاشم:

ألا أبلغا عنيّ على ذات نأيها لؤيّاً وخصّصاً من لؤيّ بني كعب
ألم تعلموا أنّا وجدنا محمّداً نبياً كموسى خُطّ في أوّل الكتب
أفيقوا أفيقوا قبل أن تُحفر الثرى ويصبح من لم يجنّ ذنباً كذي الذنب!
ولسنا وربّ البيت نُسلم أحمداً على الحال من عضّ الزمان ولا كرب^(٢)
والشعر أطول من هذا، يحث على مناصرة النبيّ ﷺ وبني هاشم مقابل الذين فرضوا عليهم
المقاطعة، ويقيم عليهم الحجّة بأنّ محمّداً ﷺ نبيّ مذكور في التوراة؛ ويحلف برّب البيت أنّهم لن
يخذلوا النبيّ ﷺ على أيّ حالٍ من الأحوال.

ولو كان أبو طالب مشركاً - حاشا أن ننطق بها! - للجأ إلى اللات والعزّى ... وغيرها ممّا
كان أبوسفیان ومشايخ قريش عاكفين على عبادتها وتقديسها والنحر

(١) سيرة ابن إسحاق ١٥٥.

(٢) نفسه ١٥٧.

لها، وطلب النصر منها؟! إلا أن الموحد كان يلجأ إلى الواحد الأحد:

«يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: لما سمعت قريش بذلك - أي بشعره وصلابته - ورأوا منه الجِدَّ وأيسوا منه، فأبدوا لبني عبد المطلب الجفاء، فانطلق بهم أبو طالب فقاموا بين أستار الكعبة، فدعوا الله على ظلم قومهم لهم، وفي قطيعة أرحامهم واجتماعهم على محاربتهم، وبتأولهم سفك دمائهم، فقال أبو طالب: اللهم إن أبي قومنا إلا النصر علينا، فعجل نصرنا، وحل بينهم وبين قتل ابن أخي»^(١).

ثم أقبل أبو طالب إلى جمع قريش وهم ينظرون إليه وإلى أصحابه، فقال أبو طالب: ندعو ربَّ هذا البيت على القاطع المنتهك للمحارم، والله لتنتهعنَّ عن الذي تريدون، أو لينزلنَّ الله بكم في قطيعتنا بعض الذي تكرهون، فأجابوه: إنكم يا بني عبد المطلب لا صلح بيننا وبينكم ولا رحم إلا قتل هذا الصبي السفيه^(٢).

هذا النضال الشديد مع تعريضه نفسه وبنيه وعشيرته لكلِّ المخاطر هو مجرد عاطفة؟! ولما رأى من القوم إصراراً انتهى بالمقاطعة عاطفة كذلك؟! وتبقى مسألة الإيمان بالله تعالى، فلم يسجل التاريخ أن لأبي طالب صنماً تمسك به، إنما وجدنا يُقسم بالله وحده ويتوعد المشركين بصلابة أن ربه الله سيعاقبهم وقد فعل؛ إذ قُطعت رؤوس العُتاة من آل أمية وغيرهم وأكثرهم حصدهم سيف ذي الفقار بيد الفتى عليّ عليه السلام؛ فلا غرو أن يضعوا الأحاديث التي تنال منه ومن أبيه،

(١) سيرة ابن إسحاق ١٥٨.

(٢) نفسه ١٥٨ - ١٥٩.

مع التشدد في منع رواية الحديث إلا مشروطاً: ما كان على عهد عمر.

المقاطعة ودخول الشعب

قال ابن إسحاق: ثم عمّد أبو طالب فأدخل الشعب ابن أخيه وبني أبيه ومن اتّبعهم من بين مؤمن، دخل لنصرة الله، ونصرة رسول الله ﷺ ومن بين مشرك يحمي، فدخلوا شعبهم، وهو شعب في ناحية من مكّة...؛ وكان أبو طالب يخاف أن يغتالوا رسول الله ﷺ ليلاً أو سراً، فكان رسول الله ﷺ إذا أخذ مضجعه أو رقد بعثه أبو طالب عن فراشه وجعله بينه وبين بنيه خشية أن يقتلوه... (١).

وهذا الذي أشرنا إليه سابقاً، وهنا تجد أبا طالب يعرض نفسه وبنيه لخطر القتل فداءً لرسول الله ﷺ؛ فهل فعله هذا إلا عن إيمان راسخ بنبوة محمد المصطفى ﷺ؟! ولذا لا نعجب أن يكون جوابه لأمر المؤمنين عليّ عليه السلام كما مرّ بنا حين مبيتته على فراش النبي ﷺ ليلة هجرته المباركة. ولأبي طالب عليه السلام شعر فيما جرى في الشعب:

ألا من لهم آخر الليل مُعتم	طواني وأخرى النجم لم يتقّم
طواني وقد نامت عيون كثيرة	وسائر أخرى ساهر لم يُنوم
لأحلام أقوام أرادوا محمّداً	بسوءٍ ومن لا يتقي الظلم يُظلم
سَعَوْا سَفْهاً واقتادهم سوء رأ	يهم على قائل من رأيهم غير محكم
رجوا أمور لم ينالوا نظامها	وإن حشدوا في كلّ نفر وموسم

(١) سيرة ابن إسحاق ١٥٩ - ١٦٠.

يرجون أن نسخا بقتل محمد ولم تختضب سُمُرُ العوالي من الدم
يرجون منّا خطّة دون نيلها ضاربٌ وطعن بالوشيح المقوم
كذبتهم وبيت الله لا تقتلونّه جماجم تلقى بالحطيم وزمزم
وتقطع أرحام وتنسى حليلة حليلها ونغساً محرماً بعد محرم^(١)

ومن قصيدة له لما أخبره رسول الله ﷺ أنّ الله أعلمه أنّه أرسل الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسم هو الله عزّ وجلّ إلّا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فانطلق أبو طالب حتى دخل المسجد، والمشركون من قريش في ظلّ الكعبة...، فلما انتهى إليهم قالوا: قد آن لك أن تطيب نفسك عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم! وفي حياته فرقتكم وفسادكم! فقال أبو طالب: قد جئتم في أمرٍ لعلّه فيه صلاح وجماعة فاقبلوا، هلمّوا صحيفتكم التي فيه تظاهركم علينا، فجاءوا بها...، فلما جاءوا بصحيفتهم قال: صحيفتكم بيني وبينكم، وإنّ ابن أخي خبرني - ولم يكذبي - أنّ الله عزّ وجلّ بعث على صحيفتكم الأرضة، فلم تدع لله فيها إسماً إلّا أكلته وبقي فيها الظلم والقطيعة والبهتان، فإن كان كاذباً فلكم عليّ أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقاً؛ فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق، وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ، وكانوا هم بالغدر أولى منهم، واستبشر أو طالب وأصحابه، وقالوا: أيّنا أولى بالسحر والقطيعة والبهتان فقال المٌطعم بن

(١) نفسه.

عدي بن نؤفل بن عبد مناف، وهشام بن عمرو، أخو عامر بن لُؤي بن حارثة، فقالوا: نحن بُراءٌ من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نماليء أحداً في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش، فخرج ناس من شعبهم وقد أصابهم الجهد الشديد، فقال أبو طالب في ذلك من أمر محمد ﷺ وما أرادوا من قتله:

تطاول ليلي بهمّ وصبّ	ودمع كسحّ السقاء السرب
للعب قصي بأحلامها	وهل يرجع الحلم بعد اللعب
وقول لأحمد أنت أمرؤ	خلوف الحديث ضعيف النسب
وإن كان أحمد قد جاءهم	بحقّ ولم يأتهم بالكذب ^(١)

والشعر أطول من هذا كلّهُ أدلّه على صدق إيمان أبي طالب وأنّه لن يخذل النبي ﷺ مهما كان التحدي!

وقال ﷺ بشأن الصحيفة لما رأى قومه لا يتناهون وقد رأوا فيها العلم من العلم ما فيها: وما ذنب من يدعو إلى البرّ والتقى ولم يستطع أن يا رب الشعب يارب وقد جرّوا فيما مضى غبّ أمرهم وما عالم أمراً كمن لم يجرب وقد كان في أمر الصحيفة عبرة متى ما يُخبر غائب القوم يعجب محي الله منها كفرهم وعقوقهم وما نقموا من باطل الحقّ معرب

(١) سيرة ابن إسحاق ١٦١ - ١٦٣.

وَأَمْسَى ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقًا عَلَى سُخْطِ مَنْ قَوْمَنَا غَيْرَ مُعْتَبَرٍ
فَلَا تَحْسَبُوا يَا مُسْلِمِينَ مُحَمَّدًا لَدِي عَرَبَةٍ مِنَّا وَلَا مُتَغَرَّبٍ
سَتَمْنَعُهُ مِنَّا يَدٌ هَاشِمِيَّةٌ مَرْكَبُهَا فِي النَّاسِ خَيْرُ مَرْكَبٍ ^(١)
أَيُّ إِيْمَانٍ هَذَا، وَكَيْفَ يُقَالُ عَنْهُ مُشْرِكٌ وَهُوَ يَصِفُ دَعْوَةَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبِرِّ وَالتَّقَى، وَمَذْكُورًا
بِصَدَقِ نَبَوْتِهِ بِأَمْرِ الصَّحِيفَةِ وَأَنَّهُ ﷺ يُخْبِرُ عَنِ الْغَيْبِ؛ وَلِذَا فَهُوَ مَاضٍ عَلَى نَحْجِهِ وَمَعَهُ فِي ذَلِكَ
حَوَاسِمُ بَنِي هَاشِمٍ.

وَلَمَّا هَاجَرَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْحَبَشَةِ، قَالَ أَبُو طَالِبٍ شَعْرًا يَحْضُرُ فِيهِ النِّجَاشِيُّ عَلَى حَسَنِ جَوَارِهِمْ
وَالدَّفْعِ عَنْهُمْ:

تَعْلَمُ - أَيُّتَ اللَّعْنِ - أَتُكُّ مَا جَدَّ كَرِيمٍ فَلَا يَشْقَى لَدَيْكَ الْمَجَانِبُ
تَعْلَمُ بِأَنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً وَأَسْبَابَ خَيْرٍ كُلِّهَا بِكَ لَا زَبْ
فَإِنَّكَ فَيْضُ ذُو سَجَالٍ غَزِيرَةٍ يَنَالُ الْأَعَادِي نَفْعَهَا وَالْأَقْرَابَ ^(٢)
وَقَالَ أَيْضًا:

تَعْلَمُ خِيَارَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا وَزِيرُ مُوسَى وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ
أَتَى بِهَدْيٍ مِثْلَ الَّذِي أَتَى بِهِ وَكُلٌّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَيَعْصِمُ
وَأَنْتُمْ تَتْلُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ بِصَدَقِ حَدِيثٍ لَا حَدِيثَ التَّرْجَمِ

(١) سيرة ابن إسحاق ١٦٣ - ١٦٤.

(٢) نفسه ٢٢١ - ٢٢٢.

وَأَنْتَ مَا يَأْتِيكَ مِنْ عَصَابَةٍ لِفَضْلِكَ إِلَّا أَرْجِعُوا بِالتَّكْرَمِ ^(١)
فأبو طالب يخاطب النجاشي ملك الحبشة وهو نصراني ويذكره بأن نبوة محمد ﷺ موجودة
في التوراة والإنجيل وأنها تصفه بالصادق ...
روى الزهري أن عروة بن الزبير حدثه، قال: حدثني عائشة، قالت: كنت عند رسول الله إذ
أقبل العباس وعلي، قال: يا عائشة، إن هذين يموتان على غير ملتي - أو قال: ديني ^(٢).
وروى عبد الرزاق عن معمر، قال: كان عند الزهري حديثان عن عروة عن عائشة في علي
عليه السلام، فسأله عنهما يوماً، فقال: ما تصنع بهما وبحديثهما! الله أعلم؛ إنني لأتألمهما في بني
هاشم.

قال: فأما الحديث الأول؛ فقد ذكرناه؛ وأما الثاني فهو أن عروة زعم أن عائشة حدثته قالت:
كنت عند النبي ﷺ إذ أقبل العباس وعلي، فقال: «يا عائشة؛ إن سرك أن تنظري إلى رجلين
من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»، فنظرت، فإذا العباس وعلي بن أبي طالب ^(٣)!!
وأما عمرو بن العاص، فروى عنه الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما
مسنداً متصلاً بعمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) سيرة ابن إسحاق ٢٢٢.

(٢) نفسه ٤: ٦٣ - ٦٤.

(٣) نفسه ٦٤.

«إِنَّ آلَ أَبِي طَالِبٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءٍ إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ»^(١).

الإمام الباقر عليه السلام يحدث عن محنة أهل البيت عليه السلام وشيعتهم.

وقبل ذكر مفتريات صاحب الهرة! نذكر قول الإمام محمد الباقر عليه السلام لنقف على محنة أهل بيت النبوة عليه السلام، ومحنة أوليائهم وشيعتهم معهم، بعد شهادة أمير المؤمنين عليه السلام، من تصفياتٍ وقتلٍ ومصادرة أموالٍ ومخارية فكرية...

قال عليه السلام لبعض أصحابه: ما لقينا من ظلم قريش حتى أخرجت الأمر عن معدنه، واحتجّت على الأنصار بحقنا وحجتنا. ثم تداولتها قريش، واحدٌ بعد واحد، حتى رجعت إلينا، فنكثت بيعتنا، ونصبت الحرب لنا، ولم يزل صاحب الأمر في صعود كمود، حتى قُتل، فبُيع الحسن ابنه وعُوهِد ثم عُدرَ به... «ثم تكلم عن محنة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، وكيف كان حال شيعة أهل البيت عليه السلام، من اقصاءٍ وامتهانٍ وحرمانٍ وقتلٍ، لا يأمنون على دمائهم».

قال: ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وأولياء السوء في كلّ بلدة، فحدّثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، وروّوا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله، ليبعضونا إلى الناس، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقُتِلت شيعتنا بكلّ بلدة، وقُطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكان من يُذكر بحبنا والانقطاع إلينا سُجن أو نُهب ماله، أو هُدِمَت داره، ثم لم يزل البلاء يشتدّ ويزداد! إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام، ثم جاء الحجاج فقتلهم كلّ قِتلة، وأخذهم

(١) نفسه.

بكلِّ ظَنَّةٍ وَتَهْمَةٍ، حتَّى أنَّ الرجلَ ليقالَ له: زنديقٌ أو كافرٌ، أحبُّ إليه من أن قالَ له: شيعةٌ عليٌّ، وحتَّى صارَ الرَّجلُ الذي يُذكرُ بالخيرِ - ولعلَّه يكونُ ورعاً صدوقاً - يحدِّثُ بأحاديثٍ عظيمةٍ عجيبةٍ، من تفضيلِ بعضٍ من قد سَلَفَ من الولاةِ، ولم يخلق اللهُ تعالى شيئاً منها، ولا كانت ولا وقعت وهو يحسبُ أنَّها حقٌّ لكثرةِ مَنْ قد زَوَّاهَا مَنْ لم يُعرفَ بكذبٍ ولا بقَلَّةِ ورعٍ^(١).

من هنا تعرف عظمُ السوءِ الذي ألحقه الأوائلُ من أصحابِ «الأريكة» بالسيرة، ثمَّ عدوا على القرآن الكريم فهتكوا حرمةَ، ممَّهدين لبني أُمِّيَّةٍ وعظيمهم معاوية، فينهجوا منهجَ السَلَفِ في شأنِ السيرة ويزيدوا عليها بالتصريح ما أبطنه السَلَفُ من دواعي محاربة الحديث؛ فيعلنوا صراحةً أنَّه بُغضَ أهل البيت ﷺ وحسدَهم ومحاولة طمس حَقِّهم، وقد مرَّ بنا كتاب معاوية إلى عمَّاله يدعوهم إلى الرواية واختلاق الفضائل في حقِّ الثلاثة! مع اختلاق أحاديث ذمَّ شديدة بشأن أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ تصل حدَّ كفره وأتَّه رجل من أهل النَّار!! ثمَّ سيرة معاوية وبني أُمِّيَّةٍ في إعلان البراءة من نفس رسول الله ﷺ: عليٌّ بن أبي طالب، عقب كلِّ صلاة، وتتبعه وعمَّاله لشيعة أهل البيت قتلاً ونهباً وعلى ذلك سار الحاكمون من بني أُمِّيَّةٍ وولاتهم، إلَّا ما كان من «عمر بن عبد العزيز» لما أراد الله تعالى به من خير، إذ أبطلَ سنَّةَ الكفر التي سنَّها معاوية في لعن أمير المؤمنين عليٍّ بن أبي طالب ﷺ والبراءة منه؛ وأحسن السيرة مع بني هاشم؛ ولذلك قصَّة:

قال عمر بن عبد العزيز: كنتُ غلاماً أقرأ القرآن على بعض ولد عُتْبَةَ بن

(١) شرح نهج البلاغة ١١: ٤٣ - ٤٤.

مسعود، فمرّ بي يوماً وأنا ألعب مع الصبيان، ونحن نلعن عليّاً! فكره ذلك ودخل المسجد، فترك الصبيان ودخلت المسجد لأدرس عليه وردي، فلما رأيته قام فصلّى وأطال في الصلاة، شبه المعرض عتي، حتّى أحسست ذلك منه، فلما انقضى من صلاته كلّح في وجهي، فقلت له: ما بال الشيخ؟ فقال لي: يا بنيّ، أنت اللاعن عليّاً منذ اليوم! قلت: نعم، قال: فمنذ متى علمت أنّ الله سيخطّ على أهل بدر بعد أن رضي عنهم! فقلت: يا أنت، وهل كان عليّ من أهل بدر؟ فقال: ويحك! وهل كانت بدر كلّها إلّا له؟! فقلت: لا أعود، فقال: الله أنّك لا تعود! قلت ك نعم. فلم ألعنه بعدها. ثمّ كنت أحضر تحت منبر المدينة، وأبي يخطب يوم الجمعة، وهو حينئذ أمير المدينة، فكنت أسمع أبي يمرّ في خطبته تهدر شقاشقه، حتّى يأتي إلى لعن عليّ عليه السلام فيجتمجم^(١)، ويعرض له من الفهاهة^(٢) والحصر^(٣) ما الله عالم به، فكنت أعجب من ذلك، فقلت له يوماً: يا أبت، أنت أفصح الناس وأخطبهم، فما بالي أراك أفصح خطيب يوم حقلك، حتّى إذا مررت بلغن هذا الرجل، صيرت ألكن غيّاً^(٤)؟! فقال: يا بنيّ، إنّ من ترى تحت منبرنا من أهل الشام وغيرهم، لو علموا من فضل هذا الرجل ما يعلمه أبوك ما تبعنا منهم أحد. فوقرت^(٥) كلمته في

(١) تجتمجم الكلام: لم يبيته، وتجمجم عن الأمر، أي لم يُقدّم عليه.

(٢) الفهاهة: الوهن والنسيان والغفلة والسقطة.

(٣) الحصر: الضيق والعبي في المنطق.

(٤) ألكن: ثقل اللسان، ومن في لسانه عجمة. وعيياً: عاجزاً.

(٥) وقرت: استقرت وثبتت.

صدري، مع ما كان لي معلّمي أيام صِغري، فأعطيتُ الله عهداً، لئن كان في هذا الأمر نصيب لأغْيَرْتَهُ، فلَمَّا مَنَّ اللهُ عَلَيَّ بالخِلافة أسْقَطْتُ ذلك، وجعلتُ مكانه: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ^(١)، وكتبْتُ به إلى الآفاق فصار سنّة ^(٢).

وقال كثير بن عبد الرحمن يمدح عمر بن عبد العزيز ويذكر قطعه السبّ:

وَلَيْتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلَيَّ وَلَمْ تُخَفْ بَرِيّاً وَلَمْ تَقْبَلْ إِسَاءَةً مُّجْرِمٍ ^(٣)
وَكَفَّرْتَ بِالْعَفْوِ الذُّنُوبَ مَعَ الَّذِي أَتَيْتَ فَأُضْحَى رَاضِياً كُلَّ مُسْلِمٍ
أَلَا إِنَّمَا يَكْفِي الْفَتَى بَعْدَ زَيْغِهِ مِنْ الْأَوْدِ الْبَاقِي ثِقَافُ الْمُقَوِّمِ
وَمَا زِلْتَ تَوَاقِياً إِلَى كُلِّ غَايَةٍ بَلَغْتَ بِهَا أَعْلَى الْعِلَاءِ الْمُقَدِّمِ ^(٤)
فَلَمَّا أَتَاكَ الْأَمْرُ عَفَواً وَلَمْ يَكُنْ لَطَالِبِ دُنْيَا بَعْدَهُ مِنْ تَكَلُّمِ
تَرَكْتَ الَّذِي يُفْنَى لَأَنْ كَانَ ضَرْباً وَآثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمٍ ^(٥)، ^(٦)
وفيهما أبيات يتكلّم فيها عن إقبال الدنيا على عمر بن عبد العزيز من خلال المثلّك؛ إلّا إنّه زهد بها ولم ينخدع، من ذلك:

(١) النحل: ٩٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٥٨ - ٥٩.

(٣) في الأغاني ٩: ٢٥٨... ولم تتبع مقالة مجرم.

(٤) في الأغاني: وما زلت سبّاقاً إلى غايَةٍ صَعِدَتْ بِهَا أَعْلَى الْبِنَاءِ الْمُقَدِّمِ.

(٥) في الأغاني: تَرَكْتَ الَّذِي يُفْنَى وَإِنْ كَانَ مُوْنِقاً وَآثَرَتْ مَا يَبْقَى بِرَأْيِ مُصَمِّمِ.

(٦) شرح نهج البلاغة ٤: ٥٩ - ٦٠، الأغاني ٩: ٢٥٨.

فأعرضت عنها مشمئزاً كما سقتك مَدُوفاً من سَمَامٍ وَعَلَقَمِ
وقد كنت من أجباهها في مُنْعٍ ومن بحرهما في مُزِيدِ المِوَجِ مُفْعَمِ^(١)
والشعر أطول مما ذكرنا، اكتفينا بما أوردناه حجة على الخصم.

أبو هريرة

واحد من زمرة معاوية ممن أوكّل إليهم وظيفة تقليب الحديث ووضع مقابله ما جعل لهم من عطاء اشترى به بقية دينهم!

فقد ذكر الإسكافي رواية عن الأعمش، قال: لما قدم أبو هريرة مع معاوية عام الجماعة - بعد الصلح بين معاوية والإمام الحسن عليه السلام -، جاء إلى المسجد الكوفة، فلما رأى كثرة من استقبله من الناس جثا على ركبتيه، ثم ضرب صلّته مراراً، وقال: يا أهل العراق، أتزعمون أنّي أكذي على الله وعلى رسوله، وأحرق نفسي بالنار! والله لقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ لكلّ نبيٍّ حرماً، وإنّ حرّمي بالمدينة، ما بين عَيْرٍ إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، وأشهد بالله أنّ عليّاً أحدث فيها، فلما بلغ معاوية قوله أجازته وأكرمه وولاه إمارة المدينة.

قلت - والقول لابن أبي الحديد -: أمّا قوله «ما بين عَيْرٍ إلى ثور» فالظاهر أنّه غلط من الراوي، لأنّ ثوراً بمكة وهو جبل يقال له: ثور أطحل، وفيه الغار

(١) الأغاني.

الذي دخله النبي ﷺ وأبو بكر؛ وإنما قيل أطحل لأن أطحل بن عبد مناف بن أد ... بن عدنان كان يسكنه، وقيل اسم الجبل أطحل، فأضيف «ثور» إليه والصواب: «ما بين عير إلى أحد»^(١).

وزاد في معجم البلدان في القول: إلى - التي ذكرها أبو هريرة عير إلى ثور - بمعنى مع، كأنه جعل المدينة مضافة إلى مكة في التحريم^(٢).

فأما قول أبي هريرة: «إن علياً عليه السلام أحدث في المدينة» فحاش لله! كان عليه السلام أتقى الله من ذلك؛ والله لقد نصر عثمان نصراً لو كان المحصور جعفر بن أبي طالب لم يبدل إلا مثله^(٣).

قال أبو جعفر - الإسكافي -: وأبو هريرة مدخول عند شيوخنا غير مرضي الرواية، ضربه عمر بالدرة، وقال: قد أكثرت من الرواية وأخر بك أن تكون كاذباً على رسول الله ﷺ^(٤).

وروى سفيان الثوري، عن منصور، عن إبراهيم التيمي، قال: كانوا لا يأخذون عن أبي هريرة إلا ما كان من ذكر جنة أو نار^(٥).

وروى أبو أسامة عن الأعمش، قال: كان إبراهيم صحيح الحديث، فكنث

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧، معجم البلدان ٢: ٨٦ - ٨٧.

(٢) معجم البلدان ٢: ٨٧.

(٣) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

(٤) نفسه ٦٨.

(٥) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

إذا سمعتُ الحديثَ أتيتُهُ فعرضتُهُ عليه، فأُتيتُهُ يوماً بأحاديثٍ من حديثِ أبي صالح عن أبي هريرة، فقال: دعني من أبي هريرة، إنهم كانوا يتركون كثيراً من حديثه ^(١).

وقد روي عن عليٍّ عليه السلام أنه قال: ألا أن أكذبَ الناسَ على رسولِ الله ﷺ أبو هريرة الدَّوسِي ^(٢).

وروى أبو يوسف، قال: قلت لأبي حنيفة: الخبر يجيء عن رسول الله ﷺ؛ يخالف قياسنا ما نصنع به؟ قال: إذا جاءت به الرواة الثقاتُ عملنا به وتركنا الرأي، فقلت: ما تقول في رواية أبي بكر وعمر؟ فقال: ناهيك بهما! فقلت: عليٌّ و عثمان؟ قال: كذلك، فلما رأيَ أَعَدَّ الصحابة قال: والصحابة كلهم عدول ما عدا رجالاً، ثم عدَّ منهم أبا هريرة وأنس بن مالك ^(٣).

وروى سفيان الثوري، عن عبد الرحمان بن القاسم، عن عمر بن عبد الغفار، أن أبا هريرة لما قَدِمَ الكوفة مع معاوية، كان يجلس العشياتِ ببابِ كِنْدَةَ، ويجلس الناس إليه، فجاء شابٌّ من الكوفة، فجلس إليه، فقال: يا أبا هريرة، أنشدك الله، أسمعَ رسول الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: «اللهم والِ مَنْ والاه وعادِ مَنْ عاداه»؟! فقال: اللهم نعم؛ قال: فأشهد بالله ن لقد واليتَ عدوّه، وعاديت

(١) نفسه.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

وليّه! ثمّ قام عنه ^(١).

وروى أنّ عمرو بن ثابت، كان عثمانياً، من أعداء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ومبغضيه. روى أنّه كان يركب ويدور القرى بالشام ويجمع أهلها، ويقول: أيّها الناس، إنّ عليّاً كان رجلاً منافقاً؛ أراد أن يبخس برسول الله ﷺ ليلة العقبة، فالعنوه، فيلعنه أهل تلك القرية؛ ثمّ يسير إلى القرية الأخرى، فيأمرهم بمثل ذلك. وكان في أيام معاوية ^(٢). فما أخرى هؤلاء أن يكونوا مصداق قول أمير المؤمنين عليه السلام: روى حمّاد بن صالح، عن أيّوب، عن كهَمَس؛ أنّ عليّاً عليه السلام قال: يهلك في ثلاثة: اللاعن والمستمع المقرّن وحامل الوزر، وهو الملك المترفّ، الذي يتقرّب إليه بلعني، ويُبرأ عنده من ديني، ويُنتقص عنده حسي؛ وإنّما حسبي حسب رسول الله ﷺ، وديني دينه. وينجو في ثلاثة: من أحبّني، ومن أحبّ محبّي، ومن عادى عدوّي؛ فمن شرب قلبه بغضي أو ألّب على بغضي؛ أو انتقصني؛ فليعلم أنّ الله عدوّه وخصمه؛ والله عدوّ للكافرين ^(٣).
فأين مستقرّ كلّ من عادى وألّب وحارب وزوّي حقّ أمير المؤمنين عليه السلام وكذب على الله ورسوله بوضع الحديث واختلاقه، وأيّ حديث مفترى؟! إنّهُ تنقيص وسبّ لنفس رسول الله ﷺ بصريح القرآن الذي هو عدّله وليّ أمير

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ٦٧.

(٢) نفسه ٢٣.

(٣) نفسه ١٠٥.

المسلمين بعد الله تعالى ورسوله بنص القرآن وبيعة الغدير وغير ذلك سيّد العرب وأبو سبطي سيّد البشر اللّذين هما سيّدا شباب أهل الجنّة، وزوج سيّدة نساء العالمين التي ردّ رسول الله ﷺ رجالات كانوا يعدّون أنفسهم سادة فقال لهم: إنّ زواجها بيد الله؛ فزوّجها عليّاً ﷺ صاحب الفتوحات حتّى هتف ملك السماء باسمه مرّتين: يوم بدر، وأحد...

ومن ثمّ هو رسول الله ﷺ من شجرة واحدة والناس من أشجار شتّى؛ فهما في الذروة إذ عُدّ النسب؛ فبأيّ وجه يُقدح أبو الحسين؟!

أتيهم أولى بالنقيصة وعذاب الخلد؟؛ روى صاحب كتاب «الغازات» عن الأعمش، عن أنس بن مالك، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيظهر على الناس رجل من أمتي، عظيم السُرم، واسع البلعوم، يأكل ولا يشبع، يحمل وِزر الثّقَلين، يطلب الإمارة يوماً، فإذا أدركتموه فابقروا بطنه، قال: وكان في يد رسول الله ﷺ قضيب، قد وضع طرفه في بطن معاوية» ^(١).

عن عمرو بن مرّة، عن أبي عبد الله بن سلمة، عن عليّ ﷺ، قال: رأيتُ الليلة رسولَ الله ﷺ، فشكوت إليه، فقال: هذه جهنّم فانظر مَن فيها، فإذا معاوية وعمرو بن العاص معلّقين بأرجلهم منكّسين، تُرَضّخ رؤوسهما بالحجارة ^(٢).

(١) شرح نهج البلاغة ٤: ١٠٨.

(٢) نفسه ١٠٩.

سُمرة بن جُنْدَب

لم أجد له ذكراً حميداً في كتب الرجال، بل إنّ بعضها أهملت ذكره فلم تُترجم له بشيء مثل: تاريخ الثقات للعجليّ، وتاريخ ابن معين... ومن ذكره؛ فقد ذكره بسوء.

وكان سُمرة من شرطة زياد بن أبيه؛ روى عبد الملك بن حكيم عن الحسن، قال: جاء رجلٌ من أهل خراسان إلى البصرة، فترك ماله ما كان معه في بيت المال، وأخذ براءة، ثمّ دخل المسجد فصلى ركعتين، فأخذه سُمرة بن جُنْدَب، وأتّهمه برأي الخوارج، فقدّمه فضرب عنقه! وهو يومئذٍ على شرطة زياد، فنظروا فيما معه فإذا البراءة بخطّ بيت المال، فقال أبو بكر: يا سُمرة، أما سمعت الله تعالى يقول: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) ^(١) فقال: أخوك أمرني بذلك ^(٢).

بئس الأمير والمأمور! ولكن النصّ يدلّ على أنّ سُمرة قد أخذ الرجل وأتّهمه برأي الخوارج، من غير ذكر لزياد! فلعلّ الطمع بمال الرجل المسكين هو سبب ذلك؟!

وروى الأعمش، عن أبي صالح، قال: قيل لنا: قد قديم رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فأتيناه فإذا هو سُمرة بن جُنْدَب، وإذا عند إحدى رجليه خمر، وعند الأخرى ثلج! فقلنا: ما هذا؟ قالوا: به النّقرس؛ وإذا قومٌ أتوه فقالوا: يا

(١) الأعلى: ١٤، ١٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٧٧.

سَمُرَة: ما تقول لرَبِّكَ غداً؟ تُؤْتِي بالرجل فيُقال لك: هو من الخوارج فتأمر بقتله، ثم تُؤْتِي بآخر فيُقال لك: ليس الذي قتلته بخارجي، ذاك فتى وجدناه ماضياً في حاجته، فشبهه علينا، وإنما الخارجي هذا، فتأمر بقتل الثاني! فقال سَمُرَة: وأي بأس في ذلك؟! إن كان من أهل الجنة مضى إلى الجنة؛ وإن كان من أهل النار مضى إلى النار ^(١)!

وروى واصل مولى أبي عيينة، عن جعفر بن محمد بن عليّ عليه السلام عن آبائه، قال: كان لسَمُرَة بن جُنْدَب نخلٌ في بستان رجل من الأنصار، فكان يؤذيه، فشكا ذلك الأنصاريّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث إلى سَمُرَة، فدعاه فقال له: بع نخلك من هذا وخذ ثمنه، قال: لا أفعل؛ قال: فخذ نخلًا مكان نخلك، قال: لا أفعل؛ قال فاشتر منه بستانه، قال لا أفعل؛ قال: فاترك لي هذا النخل ولك الجنة، قال: لا أفعل؛ فقال صلى الله عليه وآله للأنصاريّ: «اذهب فاقطع نخله، فإنه لا حقّ له فيه» ^(٢).
وروى شريك قال: أخبرنا عبد الله بن سعد عن حُجْر بن عَدِيّ، قال: قدمْتُ المدينة فجلستُ إلى أبي هريرة، فقال: مَن أنت؟ قلتُ: من أهل البصرة، قال: ما فعل سَمُرَة بن جُنْدَب؟ قلت: هو حيّ، قال: ما أحدٌ أحبُّ إليّ طول حياة منه. قلت: ولم ذاك؟ قال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي وله ولحذيفة بن اليمان: «آخركم موتاً في النار»، فسبَقْنَا حذيفة؛ وأنا الآن أتمنى أن أسبِقَه؛ قال: فبقى سَمُرَة بن

(١) نفسه ٧٧ - ٧٨.

(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٧٨.

جُنْدَب حَتَّى شَهِدَ مَقْتَلَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ (١).

وروى أحمد بن بشير عن مسعر بن كدام، قال: كان سَمُرَةُ بن جندب أيامَ مسير الحسين عليه السلام إلى الكوفة على شُرطة عبيد الله بن زياد، وكان يحرضُ النَّاسَ على الخروج إلى الحسين عليه السلام وقتاله (٢).

وكانت وفاته بالبصرة سنة ثمان وخمسين، وقيل: إنَّه مات في آخر أيام معاوية، آخر سنة تسع وخمسين أو أول سنة ستين سقط في قدرٍ مملوءٍ ماءً حارًّا كان يتعالج بالقعود عليها من كزاز شديد أصابه فسقط في القدر فمات فكان ذلك تصديقاً لقول رسول الله ﷺ له ولأبي هريرة، وثالث معهما «أحرَّكم موتاً في النَّار» (٣).

هذه هي سيرة الصحابيِّ - كذا! - سَمُرَةُ بن جندب: جنديٌّ مأمور في جيش معاوية، مبتدِّل خسيس يُباع ويُشترى بdraهم معدودات! قد خسر الدنيا والآخرة، في الدنيا كزاز، فماء مغليٍّ، فعذاب البرزخ، فيوم المحشر؛ فأين المقرُّ؟! أم تناله شفاعة ابن هند، وابن سُمَيَّة، وابن مرجانة؛ فتمنعه من سقر؟ ثم أين حقوق الأبرياء الذين غصبهم أموالهم وقطع رؤوسهم؛ وما مصير شهادته الزور بحق أمير المؤمنين عليه السلام؛ وتحريفه للقرآن مقابل دراهم ابن هند؟! وماذا عن تحريضه وحربه لسيِّد شباب أهل الجَنَّة الإمام السبط الحسين عليه السلام، الذي حرَّبه

(١) نفسه.

(٢) نفسه ٧٨ - ٧٩.

(٣) تهذيب الكمال ١٢: ١٢٣.

حرب لرسول الله ﷺ ؛ بسندٍ عن السديّ عن صبيح مولى أمّ سلمة، عن زيد بن أرقم: أنّ النبيّ ﷺ قال لعليّ وفاطمة وحسن وحسين عليهما السلام: «أنا حربٌ لمن حاربكم، سلّم لمن سالمكم»^(١). وعن أبي حازم، عن أبي هريرة، قال: أبصر النبيّ ﷺ علياً وحسناً وحسيناً، فقال: «أنا حربٌ لمن حاربتهم، سلّم لمن سالمتم»^(٢). وإنّ معاوية حارب علياً أمير المؤمنين في سوح القتال بصقّين كما حاربه فكراً بالاجترأ على السنّة الشريفة من خلال وضع أحاديث في تنقيص شخصه عليه السلام - ويأبى الله! - وأعدّ لذلك رجالاً ضعاف النفوس اشترى ذممهم كما مرّ بنا. ولم يسلم القرآن الكريم من هذه المحاولات الدنيئة، فلمّا عجز عن تحريف نصّه وقد كفاه سلفه بالمزاعم التي أشرنا إليها في القراءات الشاذّة! ومزاعم سقوط آيات بل سورة... اكتفى هو بتفسير القرآن الكريم بغير ما أراد الله تعالى، كما وجدنا في قصّة البائس المحترق في الدنيا قبل الآخرة: سمرة بن جندب...

(١) المعجم الصغير، للطبراني ٢: ٣، صحيح الترمذي ٢: ٣١٩، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٤٩، مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٤٢، تاريخ بغداد ٧: ١٢٦، سنن ابن ماجه ٢: ١٤، ذخائر العقبى ٢٥، الرياض النضرة ٢: ١٩٩، الصواعق المحرقة ١١٢، كنز العمال ٦: ٢١٦، مجمع الزوائد ٩: ١٦٩، الكامل، لابن عدي ٢/١٤٧، مسند الحميدي ح ٥٨، المصنّف، لابن أبي شيبة ٧/٥٠٥/٦٤، صحيح مسلم ٢: ٦٤، تفسير الطبري ٣٠: ١٧١، أنساب الأشراف ١: ٣٨٣.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٤٢، تاريخ بغداد ٧: ١٣٧، المستدرک علی الصحیحین ٣: ١٤٩، البداية والنهاية ٨: ٢٠٥، مناقب الإمام عليّ، لابن المغازلي ٦٤، كفاية الطالب ٢٣١، ينابيع المودة ٢٦١، مسند أبي يعلى ١/٢٥١: ٢٩١، شرح السنة، للبيهقي ١٤/١٤: ٣٩٠٩.

فلم تذق دمشق آنذاك حلاوة الإيمان رغم وجود عدد من الصحابة الأسبق إسلاماً، والأعمق إيماناً والأكثر وعياً للإسلام وأشدّ حماساً له؛ فإنّ قيوداً تحدّ من حركتهم وتشلّ نشاطهم التربوي والتعليمي والتوعوي هناك؛ منها ما يعود إلى الوالي - وذلك قبل أن يتفرّد بالأريكة والملوكيّة - نفسه الذي لا يسمح بنشر ما يخالف سياسته ولو كان ذلك نصوصاً من القرآن الكريم والسنة المطهّرة! ومن الأدلّة على ذلك قصّته مع الصحابيّ الجليل خامس الإسلام صادق اللهجة أبي ذرّ الغفاريّ، وتسييره من الشام إلى المدينة، ثمّ يُنفي من هناك إلى صحراء الرّيذة ليموت هناك وحيداً في أرضٍ لا يسكنها بشر غيره.

ومن تلك القيود ما كان مصدره عاصمة الخلافة، فحين كانت العاصمة توجّه الصحابة إلى الأمصار، كان يؤخذ عليهم العهود والمواثيق ألاّ يحدّثوا بشيءٍ من حديث النبيّ ﷺ . وقد تحدّثنا عن هذه المسألة بتوسّع فيما مضى.

فكان للعامل الثاني أثر كبير في تمادي معاوية في طغيانه وبلغت به الجرأة وهو الوالي المطلق على الشام أن يترك تجارة الخمر حرّة ولم يكن في أهلها من يُنكر عليه! ولا حتّى من بعض من يدّعون صحابة ممّن حوله؛ ولذا غدّ فعل الصحابيّ البُدريّ العقبيّ النقيب عبادة بن الصامت شاذّاً، لينال جزاءه من عاصمة الخلافة، ذلك أنّه ﷺ كان في الشام فمرّت قطارة من الإبل تحمل خمرّاً، فقال: ما هذه، أزيّت؟ قيل: لا، بل خمرٌ يُباع لمعاوية! فأخذ شفرةً من السوق، فقام إليها وأراق ما فيها.

فأرسل معاوية إلى أبي هريرة، وكان هناك، فقال له: ألاّ تُمسك عنّا أخاك

عُبادة! فأتاه أبو هريرة فقال: يا عُبادة، ما لك ول معاوية! ذرّه وما حُمِّل.

فقال عُبادة: لم تكن معنا إذ بايعنا على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،
والأخذنا في الله لومة لائم، فسكت أبو هريرة. فكتب معاوية إلى عثمان بن عفّان: أنّ عُبادة
بن الصامت قد أفسد عليّ الشام!

فكان قرار العاصمة على الأثر بإجلاء عُبادة من دمشق إلى المدينة، حفاظاً على (صلاح
الشام) ^(١)!

وهكذا كلّما ظهر مَنْ يُنكر فساد والي الشام، هرع الوالي حفاظاً على ولايته وإبقاءً لرعيّته على
الصورة التي شرحها وزيره عمرو بن العاص - مرّ بنا - ليتمكن من التسلّط عليهم وإدارتهم كيف
شاء! وبالحالة التي تيسّر له الخروج على الإمام الحقّ المفترض الطّاعة الذي عُقدت له البيعة، فلا
مانع من ذلك، وليس لك أيّ سبيل يفي له بالمقصد، فليس في مَنْ حوله مَنْ يعرف أحاديث النبيّ
ﷺ التي عدّت الخروج على الإمام العادل كفراً وخروجاً عن الإسلام، وليس فيهم مَنْ يعرف مَنْ
هو عليّ بن أبي طالب فيتردّد في الخروج عليه.

فمن كلام معاوية حين قدم من الشام إلى المدينة وكانت مضطربةً على عثمان، مخاطباً عمّار
بن ياسر في مجلسٍ ضمّ جمعاً من الصحابة قال: يا عمّار، إنّ بالشام مائة ألف فارس كلّ يأخذ
العطاء، مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم، لا يعرفون عليّاً ولا قرابته، ولا عمّاراً ولا سابقته، ولا الزبير
ولا صحبته، ولا

(١) الرياض النضرة ٣: ٨٤، سير أعلام النبلاء ٩: ٢ - ١٠.

طلحة ولا هجرته، ولا يهابون ابن عوفٍ ولا ماله، ولا يتّقون سعداً ولا دعوته ^(١).

هذا كلّهُ وهو ما زال والياً فكيف حال الشام وبعد الذي كان من صقّين وما بعدها وما رافق ذلك من حملات التضليل وقلب الحقائق زادت في بُعد مسلمي الشام آنذاك عن هدى القرآن والسنة «فنشأوا على النّصب» ^(٢) - وقد ذكرنا أنّ مراكز النّصب ثلاثة منها الشام، والبصرة، ومرو - لا يعرفون إلّا معاوية رمزاً للإسلام! وأنّ الباطل والضّلال في خلافه.

وازداد الأمر ظلّمةً بعد معاوية، فالحاكم الجديد يزيد بن معاوية أشدّ بُعداً من الدين وأهدافه وضروراته وأحكامه؛ فبعد كونه ابن معاوية، المولود في الشام، كان قد نشأ وترعرع بين النّصارى مع أمّه النّصرانيّة ميسون، إذ كان معاوية قد طلقها بعد ما أسمعته أبياتاً تُفضّل فيها عيش البادية وزوجاً من بني عمّها على عيش القصور معه، تقول في أولها:

لَلْبَسِ عِبَاءَةً وَتَقَرَّرْ عَيْنِي أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ لِبْسِ الشُّفُوفِ
وآخرها:

وخرق من بني عمّي ثقيفٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجٍ عَنيفٍ
من هناك جاء يزيد إلى قصر الحكم، ورغم أنّه عُرف جهاراً بيزيد الخمر واللهو والطيور وملاعبة القرد على «الأريكة» غير أنّه لم يجد من أهل دمشق إلّا

(١) الإمامة والسياسة ٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣: ١٢٨ ترجمة معاوية بن أبي سفيان والنّصب هو البغض والعداء لعليّ وأهل البيت عليهم السلام.

السمع والطاعة في الخروج لقتال ابن رسول الله ﷺ ، سيّد شباب أهل الجنّة، ذكر ابن أعثم أنّ عدد تجاوز الأربعة آلاف فارساً، ^(١) وذكر رقماً آخر: عشرون ألفاً. ولما عادوا بالرؤوس مرفوعةً على الرماح يتقدّمها رأس السبط الشهيد الحسين عليه السلام ، خرج أهل دمشق بالزينة يتبادلون التبريك والتهنئة للفتح على ملكهم.

وحينما انتدبهم ابن ميسون للإيقاع بأهل مدينة الرسول ﷺ وأباحها لهم ثلاث أيّام يفعلون ما يشاؤون، لم يتخلّف أحد، فكانت وقعة الحرّة المنكرة، قتلاً من غير تمييز بين رجل وامرأة، وشيخ وطفل، ونهبوا الأثاث «فهم لُصوص»، ووقعوا على النساء حتّى حبلت ألف امرأة من غير زوج؛ ولم يكن من شفيح لأحد إلا أن يشهد على نفسه أنّه عبدٌ قنّ لأمر ... يزيد يفعل به ما يشاء!! فإنّ أبي قُتل ...

وفعلته الثالثة حيث لجأ ابن الزبير إلى بيت الله وسمّى نفسه العائذ، وكان ممكناً لجيش دمشق اليزيدي أن يصبر عليه ويضيق الخناق حتّى يجبره على الاستسلام، إلا أنّ جند الشام هتكوا حرمة بيت الله، فنصبوا المجانيق ورموه بالحجارة والنار فتهدّمت الكعبة واحترقت أستارها ... وجند الشام يرقصون لفعلهم ذاك.

وآل الأمر إلى مروان بن الحكم وبنيه، فلم يكن أحدهم أقلّ نصّباً من سلفه، خلا عمر بن عبد العزيز الذي أظهر عدلاً واجتهد في تصحيح المسار، غير

(١) الفتوح ٥: ١٥٨.

أنّ مدّة حكمه القصيرة، وعودة السياسة الأمويّة بعده إلى نهجها الأوّل، قد أجهز على تلك الإصلاحات وبّد آثارها. فعاشت دمشق أمويّة أكثر من قرنٍ من الزمن، من تولّي معاوية سنة ٢٠ هـ، و ١٣٢ هـ سنة مقتل مروان الحمار على أيدي العباسيّين، تعاقب عليها أمويّون قد وصفهم ابن كثير في أرجوزته، فيقول:

وكّلهم قد كان ناصبيّاً إلا الإمام عمر التقيّاً^(١)

فنشأ على أيديهم جيلٌ يصفه أبو سلّمة الأنصاريّ على لسان صاحب له، قال: كنت بالشام، فجعلت لا أسمع أحداً يُسمّى عليّاً ولا حسناً ولا حسيناً، وإنّما أسمع: معاوية ويزيد والوليد. فمررتُ برجلٍ جالس على باب داره، فاستسقيته، فقال: يا حسن! اسقه. فقلتُ له: أسميت حسناً؟

فقال: إي والله، إنّ لي أولاداً أسماؤهم: حسن و حسين وجعفر، فإنّ أهل الشام يُسمّون أولادهم بأسماء خلفاء الله، ولا يزال أحداً يلعن ولده ويشتمه، وإنّما سميتُ أولادي بأسماء أعداء الله، فإن لعنتُ فإنّما ألعنُ أعداء الله^(٢)!

أيّ ناصبيّة هذه، وأيّ جهل مركّب هو: فهو يخاف إن سمّاهم معاوية الملعون على لسان رسول الله ﷺ؛ ويزيد الذنوب والخطايا، والوليد المتهتّك المتقيّ في محراب الصلاة خمرّاً، عنده مقدّسون لا يقع عليهم لعن. وأمّا سيّد شباب أهل الجنّة وولدا رسول الله ﷺ، وجعفر الشهيد الذي أبدله الله تعالى

(١) البداية والنهاية ١٣: ٢٢٢.

(٢) معجم الأدباء ١٤: ١٢٨، سير أعلام النبلاء ١: ٤٠٢.

جناحين بعد أن قُطعت يداه دفاعاً عن الإسلام، فهو يطير بهما في الجنة، فهؤلاء موضع لعن وسُبَاب؛ متى شاء هذا الشامي أن يشتمهم نادى واحداً من أبنائه فشتمه!!
ودخل دمشق الحافظ النَّسائي في سنة ٣٠٢ هـ فوجد أهلها مغالين في بني أُمَيَّة، مُفرطين في النَّصَب، فأثارة ذلك فكتب كتاباً في فضائل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأذاعه بينهم، فثاروا عليه يطالبونه أن يكتب نظيره في معاوية، فأجابهم بقوله: لا أجد له فضيلة إلا «لا أشبع الله بطنك»! فضربوه وسحقوه بأقدامهم سحقاً عنيفاً كان سبباً في وفاته.

وقع هذا مع الحافظ الكبير النَّسائي بعد ١٧٠ سنة من سقوط الدولة الأموية! فدمشق لم تستقم للقيادة العباسية، بل ظَلَّت مضطربة عليهم طوال عهدهم، وقامت بها حركات فصلتها عن بغداد العاصمة العباسية فجاء أحمد بن طولون من مصر ليخمدوها فوجد الفرصة مناسبة له لأن يستقلَّ بها هو الآخر وينشئ المملكة الطولونية في الشام ومصر سنة ٢٦٦ هـ حتَّى أزاحه القرامطة من دمشق سنة ٢٩٠ هـ، ثمَّ هُزموا بعد عامٍ واحد على يد (طغج التركي)، ثمَّ انفصلت دمشق مرّة أخرى على يد (كافور الإخشيدي) العبد الذي حكم مصر و سوريا حكم الجبّارين، وخلفه ابنه أبو الفوارس الغلام ابن الحادية عشرة الذي هُزم سنة ٢٩٦ هـ على يد (جوهر) القائد الفاطميّ القادم من المغرب لتدخل دمشق تحت الحكم الفاطميّ حتَّى سقوطها سنة ٥٦٧ هـ.

غير أنّ ذلك كلّ لم يغيّر من ولاء دمشق الأمويّ، فنجد من يصرّح بأنّ

النَّيْل من مروان أو بنيه غلَوْ في التشييع!

تلك كانت صورة دمشق. وأمّا تفصيل حالها في العهود اللاحقة فيأتي خلال الحديث عن سمات عصر ابن تيمية.

وقبل الحديث عن عصر ابن تيمية وسماته، ينبغي لنا أن نتحدّث عن أمرٍ قد وعدنا الكتابة فيه ولو بما يقتضيه الحال، وهو الجبهة المعارضة لجبهة المنع من كتابة الحديث.

الجبهة المعارضة للمنع

وإذا كانت جبهة الرفض لكتابة السنّة الشريفة محدودة في الأشخاص الذين ذكرناهم، وتمسّك بها رجال الشجرة الملعونة أشدّ التمسّك، بل وزادوا في الأمر أن فتحوا باباً واسعاً للوضع في الحديث؛ فإنّا وجدنا جبهةً أوسع امتازت في جملة من شخوصها بالعصمة والطهارة، وفي جملة بالصدق والثقة والعدالة، هذه الجبهة أجمعت على التدوين من غير التفات إلى دستور المخالفين، وقد ضمّت بل كان في طليعتها رسول الله ﷺ، وقد نصّ القرآن الكريم على حُسن الاقتداء به، واتباع أوامره ونواهيه، فقال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) ^(١) وقال جلّ وعلا: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ^(٢). وجعل طاعة الرسول من طاعة الله تعالى وقرّحهما في محلّ واحد، وأمر المؤمنين بهما،

(١) الأحزاب: ٢١.

(٢) الحشر: ٧.

فقال تعالى: (...مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ^(١).

ثم جعل ما ينطق به الرسول وحياً، وإن لم يكن قرآناً، في قوله تبارك اسمه: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) ^(٢).

وقد قام الرسول الأكرم ﷺ بأداء المهمة الرسالية خير قيام، فدعا إلى كل ما يرفع من قيمة الإنسان ويسمو به إلى المكارم؛ ومن ذلك الدعوة إلى نبذ الأمية، وإلى تعليم الناس الكتابة والقراءة. وتمثّلت جهوده في هذا الصدد بأشكال منها:

١ - السنة التقريرية

كان في عصره ﷺ بعض الكتّاب، يُمارسون الكتابة في المدينة، منهم: سعد ابن الربيع الخزرجي ^(٣). وبشير بن سعد بن ثعلبة ^(٤).

وكان النبي ﷺ بحاجة ماسة إلى الكتابة، حيث يوجّه رسائل الدعوة إلى الأطراف، ويُرسل الملوك والرؤساء، ويكتب العقود والمعاهدات، فكان من الضروري وجود كتّاب مُجيدين لدى حضرته المنيعة ﷺ.

بالإضافة إلى أنّ كتابة القرآن المجيد، كانت تستدعي وجود كتّاب مُحسنين. وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أنّ النبي ﷺ لم يزاوِل الكتابة بنفسه - الكتابة

(١) النساء: ٨٠.

(٢) النجم: ٣ و ٤.

(٣) طبقات ابن سعد ٣: ٥٢٢.

(٤) نفسه: ٥٣١، وتهذيب التهذيب ١: ٤٦٤.

والقراءة - بشكل ظهر معه إعجازُ القرآن جلياً وواضحاً حتّى أُطلق عليه «الأمّي» في القرآن ^(١) وإن كان معنى «الأمّيّة» والمقصود منها في القرآن أمراً مختلفاً فيه إلى حدّ بعيد ^(٢).
علّمنا أنّ وجودَ مَنْ يمارس الكتابة عنده ﷺ من أمسّ الحاجات.

وبالنسبة إلى الحديث الشريف

عن عبد الله بن عمر قال: كان عند رسول الله ﷺ أناسٌ من أصحابه، وأنا معهم، وأنا أصغر القوم، فقال النبي ﷺ: «مَنْ كَذِبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». فلَمَّا خرج القوم قلتُ لهم: كيف تُحدِّثون عن رسول الله، وقد سمعتم ما قال، وأنتم تنهمكون في الحديث عن رسول الله؟

قال: فضحكوا، فقالوا: يا ابنَ أخينا، إنّ كلّ ما سمعنا منه فهو عندنا في كتاب ^(٣). فكانوا يكتبون الحديث من دون تحرج، ولو لا معرفتهم بإباحته لم يكونوا يفعلون ذلك، مع أنّ جميع ذلك كان بمراي من الرسول ﷺ، ومسمعه، بل كان بعضها بأمرٍ منه وتوجيهٍ، فسكوته عليها، وعدم منعه عنها، يدلُّ على رضاه

(١) الأعراف: ١٥٧ و ١٥٨.

(٢) لاحظ تفسير القرطبي ١٣: ١ - ٣٥٣، وكتاب (محمّد وعليّ، وأبناءؤه الأوصياء) للشيخ نجم الدين العسكري، ففيه بحث مشبّع عن ذلك.

(٣) الكامل، لابن عديّ ١: ٣٦، تقييد العلم ٩٨ (عن عبد الله بن عمرو).

بعملهم.

وهذا ما يُسمّيه علماء الأصول «السُّنَّة التَّقْرِيرِيَّة».

٢ - السُّنَّة الفَعْلِيَّة

لقد واجه النبي ﷺ موضوع الكتابة بشكل إيجابي منذ بداية الإسلام، فقام بأعمال تدلّ بوضوح على رغبته الأكيدة في تعميمها، وقد تناقل أهل العلم مواقف عديدة له نذكر منها:

- أنه ﷺ أدخل الكتابة في قضية سياسية عسكرية، حيث جعل فداء الأسرى من المشركين، مَنْ كان يعرف منهم الكتابة والقراءة، أن يُعلّم كلّ منهم عشرةً من أولاد المسلمين، فيكون فداؤه ذلك^(١).

روى الماوردي عن عكرمة أنّه قال: بلغ فداء أهل بدرٍ أربعة آلاف، حتّى إنّ الرجل ليفادي على أنّه يُعلّم الخطّ.

قال الماوردي: لما هو مستقرّ في نفوسهم من عظم خطّره، وجلالة قدره، وظهور نفعه وأثره.

- وأمر ﷺ بعض صحابته، بتعليم الخطّ في المدينة، منهم عبد الله بن سعيد ابن العاص، وكان كاتباً محسناً.^(٢)

- وأمر النبي ﷺ بعض الصحابة بكتابة الأحاديث الشريفة المسموعة منه، أو سائر أخبار المسلمين وحوادث عصر النبوة، وخاصّة الأحكام الشرعيّة

(١) طبقات ابن سعد ٢٠: ٢٢.

(٢) الاستيعاب ٢: ٣٧٤.

والأقضية الصادرة منه ﷺ .

- وكذلك أُملي ﷺ على بعض أصحابه ما كتبه من أحاديثه وأقواله. ويمكن أن يعتبر ذلك النواة الأولى لكتابة الحديث.

ودلالة هذه السنة على جواز التدوين، وإباحته منذ البداية، أقوى من غيرها:

١ - لأنَّ النبي ﷺ هو القائمُ بها، وقد تَمَّت على يده وتحت إشرافه المباشر.

وهذه أوضح دلالة مما تَمَّ كتابته في عصره، وسكوته عليه، وتقريره له.

٢ - إنَّ السنة الفعلية، أقوى دلالةً من القولية، لعدم قبولها التأويل، أو التفسير المختلف فيه.

وقد تحققت في الأعمال التالية:

١ - صحيفة النبي ﷺ التي كانت عند الإمام عليّ ﷺ والمعروفة عند العامة بـ «صحيفة عليّ ﷺ». قالوا عنها: خبرُ صحيفة عليّ ﷺ مشهور^(١).

وهي صحيفةٌ صغيرةٌ تشتمل على العقل - مقادير الدّيات - وعلى أحكام فكاك الأسير^(٢).

وقد وقفنا على روايات عديدة ذكرت نبأ هذه الصحيفة، منها:

* أخرج البخاري، وغيره، عن أبي جُحيفة، قال:

قلتُ لعلّي [عليّ ﷺ] هل عندكم كتابٌ؟

(١) السنة قبل التدوين، لمحمد عجاج الخطيب ١٣٧ و ٣٤٥.

(٢) منهج النقد ٤٦.

قال: لا، إلا كتاب الله، أو فَهْمٌ أُعْطِيَهُ رَجُلٌ، أو ما في هذه.

قال: قلتُ: فما في هذه الصحيفة؟

قال: العَقْلُ، وفِكَاكُ الأَسْرِ، وأن لا يُقْتَلَ مسلمٌ بكافر ^(١).

* وروى أبو حسان الأعرج: أن علياً كان يأمر بالأمر، فيقال: قد فعلنا كذا وكذا، فيقول: صدق الله ورسوله.

فقليل له: أشيء عَهْدَهُ إليك رسول الله ﷺ؟

قال: فقال: ما عَهْدَ إِيَّايَ رسولُ الله ﷺ شيئاً خاصَّةً دونَ الناس، إلا شيئاً سمعته منه في صحيفة في قِراب سيفي. قال: فلَمَّا نَزَلَ به حتَّى أخرج الصحيفة، فإذا فيها: مَنْ أَحْدَثَ حَدَثاً أو آوَى مُحْدِثاً فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقْبَلُ منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ.

وإذا فيها: إن إبراهيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وإيَّيَ أَحَرَّمَ مَكَّةَ، وإيَّيَ أَحَرَّمَ المدينة ما بين حَرَّتَيْهَا وَجَمَاهَا، لا يُخْتَلَى خلاها، ولا يُنْفَرُ صيدها، ولا يُلْتَقَطُ لُقْطُهَا، إلا لِمَنْ أَشَادَ بها - يعني مُنْشِداً - ولا يُقْطَعُ شَجَرُهَا، إلا أن يَغْلِفَ رجلٌ بغيراً، ولا يُحْمَلُ فيها سلاحٌ لقتال. وإذا فيها: المؤمنون يكافأ دماءهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يدٌ على مَنْ سِوَاهُمْ، ألا، لا يُقْتَلُ مؤمنٌ بكافرٍ، ولا ذو عهدٍ في

(١) صحيح البخاري، باب كتاب العلم من كتاب العلم (٣٨/١) كتاب الدييات، باب الدية على العاقلة (١٣/٩)، سنن ابن ماجه ٨٨٧/٢ ح ٢٦٥٨، جامع بيان العلم ٧١/١.

عهده ^(١).

* وعن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبيه، قال: خَطَبَنَا عَلِيٌّ [ع]، فقال: مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِنْدَنَا شَيْئاً نَقْرُؤُهُ، لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ - قال: صَحِيفَةٌ مَعْلُوقَةٌ فِي سَيْفِهِ، فِيهَا: أَسْنَانُ الْإِبْلِ، وَشَيْءٌ مِنَ الْجَرَاحَاتِ - فَقَدْ كَذَبَ.

وفيهما: قال رسول الله ﷺ: «الْمَدِينَةُ حَرَمٌ، مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَذَمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا» ^(٢).

* وعن طارق، قال: رَأَيْتُ عَلِيًّا [ع] عَلَى الْمَنْبَرِ، وَهُوَ يَقُولُ: مَا عِنْدَنَا كِتَابٌ نَقْرُؤُهُ عَلَيْكُمْ، إِلَّا كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ. وَصَحِيفَةٌ مَعْلُوقَةٌ فِي سَيْفٍ عَلَيْهِ حَلَقَةٌ حَدِيدٌ، وَبُكَرَاتُهُ حَدِيدٌ، فِيهَا فَرَاغُ الصَّدَقَةِ، قَدْ أَخَذَهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ^(٣).
وورد نَبَأُ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ فِي مَوْلاَفَاتٍ أُخْرَى لِلْعَامَّةِ.

(١) دلائل النبوة، للبيهقي ٢٢٨/٧، وأخرجه أبو داود، في المناسك (٢١٦/٢ ح ٤ - ٢٠٣٥). وانظر السنن الكبرى، للبيهقي ٣٠/٨، وسنن الدار قطني ٣٤٣ ومناقب الشافعي، للبيهقي ٤: ١.

(٢) دلائل النبوة، للبيهقي ٢٢٧/٧ - ٢٢٨، صحيح البخاري ٥٨/١ باب ذمة المسلمين ١٢/٤، مسند أحمد ٨١/١، أبو داود في المناسك ٢١٦/٢، تقييد العلم ٨ - ٨٩، جامع بيان العلم ٧١/١، إرشاد الساري ١٦٦/١، عمدة القاري ٥٦١/١، فتح الباري ١٨٢/١، و ٨٣/٧، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل المدينة ٩٩٥/٢، ومسنند أحمد (ط شاكر) ٦١٥/٤٥/٢.

(٣) تقييد العلم ٨٩.

لفت نظر: إنّ الرواية الأخيرة تُصرّح بأنّ الإمام عليّاً أخذ الصحيفة عن رسول الله ﷺ .

وكلمة «عن رسول الله ﷺ» وإنّ كان يحتمل الرواية عنه، لا أخذ الصحيفة عنه ﷺ، كما هو ظاهر الروايتين الأولتين. إلّا أنّ النصوص المتضمّنة لذكر الصحيفة هذه، والمنقولة بطريق أئمة أهل البيت عليهم السلام تُصرّح بأنّ تلك الصحيفة كانت عند رسول الله ﷺ، وفي ذؤابة سيفه، وهذه بعض النصوص.

١ - عن أبي جعفر محمد بن عليّ الباقر عليه السلام، قال:

وُجِدَ في قائم سيف رسول الله ﷺ صحيفة فيها مكتوب: ملعونٌ مَنْ سَرَقَ ثُحُومَ الأرض، ملعونٌ مَنْ تَوَلَّى غيرَ مَوالِيه، أو قال: ملعونٌ مَنْ جَحَدَ نعمةً مَنْ أنعم عليه ^(١).

٢ - وعن أبي عبد الله، جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: وُجِدَ في ذؤابة سيف رسول الله ﷺ صحيفة، فإذا فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، إنّ أعتى الناس على الله عزّ وجلّ، يومَ القيامة مَنْ قَتَلَ غيرَ قاتِلِه، والضارب غيرَ ضارِه، ومن تَوَلَّى غيرَ مَوالِيه - ومن ادّعى لغير أبيه - فهو كافّرٌ بما أنزل الله على محمّد؛ ومن أحدثَ حَدَثاً أو آوى مُحَدَّثاً لم يقبل الله عزّ وجلّ منه يومَ القيامة صرفاً ولا عدلاً. ^(٢)

٣ - وعن أيّوب بن عطية الحذاء، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ

(١) جامع بيان العلم، للقرطبي ٧١/١.

(٢) الكافي/ح ١.

عليّاً عليه السلام وجدّ كتاباً في قراب سيف رسول الله صلى الله عليه وآله ، مثل الإصبع، فيه: إنّ أعتى الناس ...
وأورد مثل ما مضى، إلّا أنّه زاد فيه: ولا يحلّ لمسلم أن يشفع في حدٍّ ^(١).

٤ - وروى الدولابي بسنده عن الإمام الباقر عن أبيه عن جدّه قال: وجدتُ في قائم سيف رسول الله صلى الله عليه وآله صحيفة مربوطة: أشدّ الناس عذاباً القاتل غير قاتله، والضارب غير ضاربه، ومن جحدّ نعمة مواليه فقد برئ ممّا أنزل الله عزّ وجلّ ^(٢).

وهذه النصوص تدلّ على أنّ الصحيفة المحتوية على المطالب المذكورة إنّما كانت لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وفي سيفه.

والنصّ التالي، يدلّ على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله ورث هذه الصحيفة لعليّ عليه السلام :
٥ - في مسند الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بسنده عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ، قال: ورثتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله كتابين: كتاب الله عزّ وجلّ، وكتاباً في قراب سيفي.

ف قيل: يا أمير المؤمنين، وما الكتابُ الذي في قراب سيفك؟ قال: من قتل غير قاتله، أو ضرب غير ضاربه، فعليه لعنة الله ^(٣). ويصرّح الدكتور أبو شُهبة بأنّ

(١) المحاسن، للبرقي - كتاب القرائن - ١٨/١ ح ٤٩ باب وصايا النبي صلى الله عليه وآله .

(٢) الذرّة الطاهرة، للدولابي ١٢٦ ح ١٤٦.

(٣) صحيفة الإمام الرضا عليه السلام ، الحديث (١٣٩)، وانظر عيون أخبار الرضا عليه السلام ، للصدوق ٤٠/٢ ح ١٢٢.

الصحيفة كانت عند رسول الله ﷺ ، فأعطاهما لعليّ ﷺ ، خاصة^(١) .
ولعلّ من هذه الصحيفة ما جاء ذكره عند ابن حزم في الأحكام من أنّ عثمان حمل إليه محمد بن عليّ بن أبي طالب من عند أبيه ﷺ كتاب حكم النبي ﷺ في الزكاة!
فقال: أغنها عني - عنا - ، فرجع إلى أبيه فقال ﷺ: ضع الصحيفة حيث وجدتھا^(٢) .
ونقل آخرون أنّ هذه الصحيفة كانت موجودة عند أبي بكر، أيضاً^(٣) .
وقال ابن حجر بصدد هذه الصحيفة: والجمع بين هذه الأحاديث أنّ الصحيفة كانت واحدة، وكان جميع ذلك مكتوباً فيها، ونقل كلّ واحد من الرواة ما حفظه عنها^(٤) .
والمهمّ ذكره: أنّ وجود هذه الصحيفة وأخبارها دليلٌ حاسمٌ على جواز كتابة العلم، وخاصة الحديث عن رسول الله ﷺ ، وأنّ ذلك قد تمّ في حياته، وبعلمٍ وبإشرافٍ تامٍّ منه، بل كان هو ﷺ يحافظ على هذه الكتابة في «ذؤابة سيفه» .
قال الدكتور رفعت: قد روى البخاريّ حديثاً من أحاديث الصحيفة في

-
- (١) صحيفة عليّ بن أبي طالب ﷺ ، جمع وتأليف الدكتور رفعت فوزي ٤١ .
(٢) الأحكام، لابن حزم ١: ٢٤٠ و ٢٥٣ ، توجيه النظر، لطاهر الجزائري ١٦ .
(٣) فتح الباري ٣/ ٣١٨ ، صحيح البخاري ٢/ ١٤٦ ، باب زكاة الغنم، السنن الكبرى، للبيهقي ٤/ ٨٨ ، سنن أبي داود ٢/ ٩٧ ، سنن النسائي ٥/ ١٨ - ٢٣ ، الفقيه والمتفقه، للخطيب ١/ ١٢٠ و ١٣٥ ، السنة قبل التدوين، للدكتور عجاج ١/ ٣٤٥ .
(٤) فتح الباري ١: ١٨٣ .

كتاب العلم، وترجم له بـ «باب كتابة العلم» دلالةً على جواز كتابة الحديث، ردّاً على مَنْ كرهوا ذلك، وفيه دلالةٌ - كذلك - على أنّ الحديث قد كُتِبَ - فعلاً - بمراءىٍ ومسمعٍ من رسول الله ﷺ (١).

ولا بدّ أن تكون هذه الصحيفة، غير «كتاب عليّ عليه السلام» الذي سنذكره بعد هذا، فإنّ هذه الصحيفة مختصرةٌ ومقتصرةٌ على الجُمْل المذكورة، بينما ذلك الكتاب، واسعٌ ومفصّلٌ جداً، إلّا أن يكون هذا جزءاً من ذاك!

واعترف بعضُ العامة بأنّ هناك خبر صحيفة أُخرى عند أمير المؤمنين عليه السلام غير تلك الصحيفة (٢).

٢ - كتاب الإمام عليّ عليه السلام

انتشر نبأ هذا الكتاب انتشاراً واسعاً، وأجمع أهل الحديث - خاصةً - على وجوده، فتناقل خبره علماء المسلمين على اختلافهم.

لكنّ أئمة أهل البيت الأطهار عليهم السلام؛ وهم أدري بما في البيت؛ أفصحوا عن سعة هذا الكتاب واحتوائه على علمٍ كثير، فقالوا: إنّها صحيفةٌ طوّلها سبعون ذراعاً، وأنّ رسول الله ﷺ قد أملاها على الإمام عليّ عليه السلام، فكتبها الإمام بخطّه وأنّه «أوّل كتاب جُمع فيه العلم» على عهد رسول الله ﷺ، وأنّ الأئمة الاثني عشر

(١) صحيفة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، جمع وتأليف الدكتور رفعت فوزي ٤١.

(٢) انظر: ردّ الدارميّ على بشر المُرسي، واصل الحديث، للخطيب محمّد عجاج ١٩٠، ولاحظ توجيه النظر للجزائري ١٦، عن الأحكام، لابن حزم.

من ذريته عليه السلام، يتوارثون ذلك الكتاب ^(١) وقد وصفوه بكونه كتاباً مدرجاً عظيماً ^(٢).

واعترف العامة بأهميته وسعته:

فقال بعضهم - محتجاً أن تكون هي الصحيفة التي أمر رسول الله ﷺ في السنة الأولى للهجرة بكتابتها -: فكانت أشبه شيء بدستور الدولة الناشئة - آنذاك - في المدينة، وعنوانها «هذا كتاب محمد النبي، رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش، وأهل يثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة، من دون الناس...». وقد بلغ من أمرها أنها أصبحت تُقرأ - وحدها - بكتاب الله، لتواترها وكثرة ما فيها من أحكام الإسلام، وكتباته الكبرى ^(٣).

وقال آخر: إنه جمع فيها عدة أحكام ^(٤).

وقال آخر: إن هذه الصحيفة فيها أمور كثيرة، وموضوعات متعددة ^(٥).

(١) انظر عن هذا الكتاب: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، للطهراني ٣٠٦/٢ بعنوان (أما لي رسول الله ﷺ). وأعيان الشيعة ٣٣٠/١ - ٣٣٨.

(٢) رجال النجاشي ٣٦٠، الترجمة ٩٦٦.

(٣) علوم الحديث، لصبحي الصالح ٣٠، الستة قبل التدوين ٣٤٤، أصول الحديث، للعجاج ١٨٨ - ١٨٩، دلائل التوثيق المبكر ٣٨٣ - ٣٨٤؛ بعنوان (دستور المدينة) عن صحيفة همام، الأموال، لأبي عبيد ٢٠٢، جمهرة رسائل العرب ١: ٢٥، تقييد العلم ٧٢، مسند أحمد ٧٩/١ و ١١٩ و ١٢٢ و ٢٧١، وغيرها، صحيح البخاري ٢٧٤/٢ و ٤٢٨/٤، صحيح مسلم ٧٠٢/٢، سنن أبي داود ٢٥٢/٤ رقم ٤٥٣، الترمذي ١٨٠/١، النسائي ٢٣/٨، ابن ماجه ١٤٥/٢.

(٤) الأنوار الكاشفة ٣٧.

(٥) علي بن أبي طالب عليه السلام ٤١.

والأئمة الأطهار عليهم السلام الذين ورثوا هذا الكتاب وكان موجوداً عندهم يرجعون إليه، أفصحوا عنه بشكل أدق، هذه بعض رواياته:

١ - قال الإمام الحسن المجتبي عليه السلام: إنَّ العلم فينا، ونحنُ أهله، وهو عندنا، مجموعٌ عندنا كُلُّه بخدافيره، وأنَّه لا يحدثُ شيءٌ إلى يوم القيامة حتَّى أرش الخدش إلَّا وهو عندنا مكتوبٌ؛ بإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله، وخطَّ عليّ عليه السلام بيده ^(١).

وكان الكتاب عند الإمام السجاد عليه السلام. فكان إذا أخذ كتاب «عليّ عليه السلام» قال: «مَنْ يُطِيقُ هذا؟!». ^(٢) ظاهراً متعجباً ممَّا فيه من قسم العبادات - والله أعلم. ثمَّ كان عند الإمام أبي جعفر، محمد الباقر عليه السلام:

٢ - قال عذافر الصيرفي: كنتُ مع الحُكم بن عُتَيْبَةَ عند الإمام أبي جعفر عليه السلام، فجعل يسأله، وكان أبو جعفر له مُكرِّماً، فاختلفا في شيءٍ! فقال أبو جعفر: يا بُنَيَّ: قُمْ، فأخرج كتاب عليّ. فأخرج كتاباً عظيماً، وفتحهُ، وجعل ينظرُ، حتَّى أخرج المسألة فقال أبو جعفر عليه السلام: هذا خطَّ عليّ عليه السلام، وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأقبلَ على الحُكم، وقال: يا أبا محمَّد، إذهب أنت وأبو سَلَمَةَ وأبو المُقدِّم حيث شئتُم يميناً وشمالاً، فو الله لا تجدون العلم، أوْثَقَ منه عند قومٍ كان ينزِلُ عليهم جبرئيلُ عليه السلام ^(٣). والروايات كثيرةٌ للغاية مع كثرة مصادرها في وجود كتاب عليّ أمير

(١) الاحتجاج ١٥٥، بحار الأنوار ١٠٠/٤٤.

(٢) الكافي، الروضة ١٧٢/١٦٣/٨.

(٣) رجال النجاشي ٣٦٠ رقم ٩٦٦.

المؤمنين ﷺ وأنه بخطه وبإملاء رسول الله ﷺ نكتفي بما يلي:

- حدث أبو دعامة، قال: أتيت علي بن محمد بن علي بن موسى [الإمام الهادي ﷺ] عائداً في علته التي كانت وفاته فيها في هذه السنة، فلما هممت بالانصراف قال لي: يا أبا دعامة، قد وجب حقك، أفلا أحدثك بحديث تسر به؟

فقلت له: ما أحوجني إلى ذلك يا ابن رسول الله!

قال: حدثني محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن موسى، قال: حدثني أبي موسى بن جعفر، قال: حدثني أبي جعفر بن محمد، قال: حدثني أبي محمد بن علي، قال: حدثني أبي علي بن الحسين، قال: حدثني أبي الحسين بن علي، قال: حدثني أبي طالب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: أكتب يا علي.

فقلت: ما أكتب؟ قال: أكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، الإيمان ما وقته القلوب، وصدقته الأعمال؛ والإسلام ما جرى به اللسان، وحلت به المناكح.

قال أبو دعامة: فقلت يا ابن رسول الله، ما أدري - والله - أيهما أحسن؟ الحديث أم الإسناد؟!

فقال: إنها لصحيفة بخط علي بن أبي طالب، بإملاء رسول الله ﷺ نتوارثها صاغراً عن كابر

(١).

وأطلق الرواة على هذا الكتاب أسماء منها: «الصحيفة» و «كتاب علي ﷺ» و «الجفر» و «الجامعة». ونقلوا عنه في كتبهم كما في: الكافي، وتهذيب الأحكام، وبصائر الدرجات، والإرشاد والاستبصار، والوسائل، والذريعة، ومن

(١) مروج الذهب ٥: ٨٢ - ٣٠٧٩/٨٣.

لا يحضره الفقيه ...

باب: ما كتبه النبي ﷺ إلى عمّاله وغيرهم فيما يتعلّق بأمر الدين:
استدلّ بعضهم على جواز كتابة الحديث بما وردَ عن النبي ﷺ من كتبه تلك.
قال الدكتور عتر: هي كُتب كثيرة، تشتمل على مهمّات أحكام الإسلام وعقائده وخطوطه
العريضة، وبيان الأنصبة والمقادير الشرعيّة للزكاة والدّيات والحدود والمحرمات وغير ذلك ^(١).
من ذلك: كتابه إلى عمرو بن حزم الأنصاري، عامله على اليمن ^(٢).
وكتابه إلى وائل بن حجر الحضرمي، وقومه، في خضرموت ^(٣).
وكتاب في الزكاة، والدّيات، كان عند أبي بكر ^(٤).
ونقول: الاستدلال بهذه الكتب، بلحاظ أنّه كان للنبي ﷺ إشرافٌ تامٌّ على كتابتها، وإن لم
يكن هو المباشر لذلك، لكنّ امتناعه عن الكتابة - لسببٍ؟ - لا يُثني أن يُنسب ذلك إلى فعله
ﷺ، باعتبار تعلّق إرادته بالفعل، وإشرافه عليه، ووقوعه لديه، وتعلّق غرضه به.

(١) منهج النقد في علوم الحديث ٤٧.

(٢) الفقيه والمتفقه ١٢٠/١ و ١٣٥، الأموال، لأبي عبيدة ٣٥٧، تنوير الحوالك، للسيوطي ٧/١ - ١٥٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٢٧٨/١ و ٣٤٩ و ٣٥١.

(٤) فتح الباري ٣/٣١٨، صحيح البخاري، كتاب الزكاة ١٤٦/٢، السنن الكبرى للبيهقي ٨٨/٤، الفقيه والمتفقه ١٢٠/١، السنّة قبل التدوين ٣٤٥، سنن أبي داود ٩٧/٢، سنن النسائي ١٨/٥.

وهذا، كما يكتب الكتّاب الرسائل والخطابات لمن يأمرهم بذلك، فإنّها تُنسب إلى الأمرين، دون الكاتبين، وإن كان هؤلاء هم المباشرين. مع وضوح اختلاف هذه السنّة عن التقرير لما فعله الغير، وكذلك عن الأمر بمُطلق التدوين والكتابة، فلا يكون إلّا من السنّة العمليّة الفعلية.

وأخيراً

وفي نهاية المطاف، والرسول الأعظم ﷺ مسجّى على فراش المرض ينتظر الموت الحقّ، إذ طلب من عنده «قرطاساً ودواة» ليكتب لهم «كتاباً» لا يضلّوا بعده أبداً. وكان طلبه جدّيّاً، ومهمّاً، إذ علّق عليه أمراً مهمّاً وهو هداية الأمتة وعدم ضلالتهم إلى الأبد. فقال عمر: إنّ النبيّ غلبه الوجع! وعندنا كتاب الله حسّبنا. ولا نطيل في الأمر فقد تكلمنا فيما مضى عنه بما فيه كفاية، وتحدّثنا عنه كدليل على كتابة السنّة من لدنه ﷺ.

السنّة القولية

والمراد بها الأحاديث القولية، المرفوعة إلى النبيّ ﷺ، والتي تدلّ على إباحته لكتابة الحديث خاصّة، أو ترغيبه وحثّه على مُطلق الكتابة، وكذلك ما ورد عنه ﷺ في ذكر الخطّ، والقلم، والدواة، والكتاب، من أدوات الكتابة، ممّا يدلّ على رغبته التامة في ذلك، وهي كثيرة جداً، وتكفي للدلالة على جواز كتابة

الحديث بطريق أولى.

فإذا كان ﷺ مُبيحاً للكتابة، ومرغباً فيها فالحديث أولى بأن يُكتب ويُقَيَّد.

والأحاديث الواردة مرفوعة عن النبي ﷺ في هذا المجال كثيرة.

قال القاضي عياض. قد روي كتابة العلم عن النبي ﷺ في أحاديث كثيرة ^(١).

وقد ذكرنا من قبل بعض الأحاديث في هذا الشأن؛ ونذكر بعضاً آخر هنا:

- عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «اكتبوا هذا العلم» ^(٢).

وأنت جدّ خبير بقصد النبي ﷺ بالعلم الذي ندب إلى كتابته وهو حديثه ﷺ لا غير!

- عن رافع بن خديج، قال: مرّ علينا رسول الله ﷺ يوماً ونحن نتحدّث، فقال: ما تُحدّثون؟

فقلنا: ما سمعنا منك يا رسول الله.

قال: تحدّثوا، وليتبوا مقعده - من كذب عليّ - من جهنم. ومضى لحاجته، وسكت القوم،

فقال: ما شأنهم لا يتحدّثون؟

قالوا: الذي سمعناه منك يا رسول الله!

قال: إني لم أريد ذلك، إنّما أردت من تعمّد ذلك، فتحدّثنا قال: قلت: يا رسول الله، إنّنا نسمع

منك أشياء، أفنكتبها؟!

قال: «اكتبوا، ولا حرج» ^(١).

(١) الإلماع في أصول السماع ١٤٧.

(٢) كنز العمال ٢٦٢/١٠ رقم ٢٩٣٨٩.

- وحديث كتاب أبي شاه من الشهرة في أهميّة كتابة الحديث، ومن شأنه ما رواه أبو هريرة، قال: لما فتح الله على رسوله مكّة، قام في الناس فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «إنّ الله تبارك وتعالى حبس عن مكّة الفيل، وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنّما لم تحلّ لأحدٍ كان قبلي، وإنّما أحلّت لي ساعة من نهارٍ، وإنّما لن تحلّ لأحدٍ بعدي فلا يُنقَرُ صيدها ولا يختلي شوْكُها، ولا تحلّ ساقطُها إلّا لمنشدٌ، ومن قُتل له قتيلٌ فهو بخيرِ النظيرين: إمّا أن يفدي، وإمّا أن يقتل».

فقام أبوشاه - رجلٌ من أهل اليمن - فقال: اكتبوا لي، يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ: «اكتبوا لأبي شاه»^(١).

وقد اتّفقوا على صحّة هذا الحديث، كما أذعنوا لدلالته على الجواز: قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: ليس يروى في كتابه الحديث شيء أصحّ من هذا الحديث، لأنّ النّبِيَّ ﷺ قال: «اكتبوا لأبي شاه»^(٢).

وقال ابن الصلاح: ومن صحيح حديث رسول الله ﷺ الدالّ على جواز ذلك حديث أبي شاه اليمني^(٣).

(١) تقييد العلم ٧٣/٢، الكامل، لابن عديّ ٣٦/١، محاسن الاصطلاح ٣٠٠.

(٢) تقييد العلم ٨٦، البخاري ٤٠/١ - ٤١؛ الباب ٣٦، إرشاد الساري ١٦٨/١، عمدة القاري ٥٦٧/١، فتح الباري ١٨٤/١، صحيح الترمذي ٣٩/٥ رقم ٢٦٦٧، معالم السنن، للخطابي ١٨٤/٤، الفقيه والمتفقه ٩١/١، تيسير الوصول ١٧٦/٣، جامع بيان العلم ٧٠/١، المحدث الفاصل ٣٦٣ رقم ٣١٤، الاستيعاب ١٠٦/٤، أسد الغابة ٢٢٤/٥، منهج النقد ٤٨.

(٣) مسند أحمد - ط شاكر - ٢٣٥/١٢.

(٤) مقدّمة ابن الصلاح ٣٠٠.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: كنتُ أكتب كلَّ شيءٍ أسمعُه من رسول الله ﷺ، وأريدُ حِفْظَهُ، فنهتني قريش، وقالوا: تكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعُه من رسول الله، ورسولُ الله بشرٌ يتكلَّم في الرضا والغضب؟!!

قال: فأمسكتُ، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ. فقال: «اكتبْ، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلَّا حقٌّ» وأشار بيده إلى فيه ^(١).

ومن ذلك ما دلَّ على الأمر بالكتابة بألفاظ أخرى:

روى الترمذيّ، في صحيحه: كتاب العلم، باب «١٢» الرخصة في كتابة العلم، سنده عن أبي هريرة، قال: كان رجلٌ من الأنصار يجلس إلى رسول الله ﷺ فيسمع من النبيِّ الحديث، فيعجبُه، ولا يحفظُه، فشكا إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنِّي لأسمعُ منك الحديث فيعجبني ولا أحفظُه؟!!

فقال رسولُ الله ﷺ: «استعنْ بيمينك» وأشار بيده إلى الخطَّ ^(٢).

ولقد جعل رسولُ الله ﷺ من حقِّ الولد على والده أن يعلمه الكتابة؛ قال رسولُ الله ﷺ: «من حقِّ الوَلَد على الوالد أن يُعلِّمَه الكتابة، وأن يُحسِّن اسمه، وأن يُزوِّجه إذا بَلَغَ» ^(٣).

وحثَّ رسولُ الله ﷺ بقرن الكتابة بالصلاة عليه، ولا غرابة بعد أن ذكره الله تعالى في

(١) تقييد العلم ٦٩، المحدث الفاصل ٣٦٥/٣١٨، محاسن الاصطلاح ٢٩٨، تحف العقول ٣٦، المستدرک علی الصحیحین ١٠٦/٥/١، مسند أحمد ١٦٢/٢.

(٢) سنن الترمذی ٣٩/٥ رقم ٢٦٦٦، الكامل، لابن عدي ٣٦/١، تقييد العلم ٦٦ - ٦٨، محاسن الاصطلاح ٣٠١، العقد الفريد ٤١٩/٢، فيض القدير، للمناوي ٤٩١/١، الفتح الكبير، للسيوطي ١٧٩/١.

(٣) تاريخ الخطّ، للكردی ٩، نشأة وتطور الكتابة، لفوزي سالم ٨٣.

كتابه المجيد مصرحاً أنّ الله وملائكته يصلّون على النبي! ثم عقّب بأمر المؤمنين أن يصلّوا عليه ويسلّموا تسليماً.

وعن أبي بكر، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَتَبَ عَنِّي عِلْماً، وَكَتَبَ مَعَهُ صَلَاةً عَلَيَّ، لَمْ يَزَلْ فِي أَجْرِ مَا قُرِئَ ذَلِكَ الْكِتَابُ»^(١).

وروى الخوارزمي مسنداً عن الإمام الصادق عن آبائه عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ لِأَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَضَائِلَ لَا يُحْصَى عَدَدُهَا غَيْرُهُ. فَمَنْ ذَكَرَ فَضِيلَةً مِنْ فَضَائِلِهِ، مُقَرَّراً بِهَا، غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. وَمَنْ كَتَبَ فَضِيلَةً مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تَسْتَغْفِرُ لَهُ مَا بَقِيَ لَكَ الْكِتَابَةِ رِسْمٌ.

وَمَنْ نَظَرَ إِلَى كِتَابَةٍ فِي فَضَائِلِهِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ الذُّنُوبَ الَّتِي اكْتَسَبَهَا بِالنَّظَرِ»^(٢).
وقد أكّد رسول الله ﷺ على سند الحديث وبَيَّنَّ علته، فإنّ فيه صدق الحديث من كذبه، ونجاة الراوي من المساءلة!

أسند الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن آبائه عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كَتَبْتُمْ الْحَدِيثَ فَاصْنَعُوا لَهُ إِسْنَادَهُ، فَإِنْ يَكُ حَقّاً كُنْتُمْ شُرَكَاءَ فِي الْأَجْرِ، وَإِنْ يَكُ

(١) شرف أصحاب الحديث ٣٥ ح ٦٤، الكامل، لابن عدي ٣/١١٠٠، محاسن الاصطلاح ٣٠٧، تاريخ الخلفاء ٧٣ ح ٨٩، النص والاجتهاد ١٤٦ - المورد ١٤ - .

(٢) المناقب، للخوارزمي ٢، أمالي الصدوق ١١٩ ح ٩، المجلس ٢٨.

باطلاً كان وُزُّهُ عليه»^(١).

وعن عطاء بن يسار، كتب رجل عند النبي ﷺ، فقال له: كتبت؟ قال: نعم.
قال: لم تكتب، حتى تعرض فيصح^(٢).

وأما ما في القرآن الكريم من ذكر للصُّحُفِ، والكتاب، والكتب... فكثير للغاية، فنقتصر
على:

السمعاني بسنده عن أبي هريرة، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أَوَّلُ ما خلق الله القلم،
ثمَّ خلق الثُّونَ، وهي الدواة، قال: وذلك قول الله عزَّ وجلَّ: (ن وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ)^(٣).
ثمَّ قال: اكتب، قال: وما أكتب؟

قال: اكتب مقادير كلِّ شيء من عمل، أو أجل، أو أثر، أو رزق.
قال: فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

قال: ثمَّ حَتَمَ على في القلم، فلم يَنْطِقْ، ولا ينطق إلى يوم القيامة»^(٤).
نكتفي بهذا والأحاديث كثيرة في منزلة العلماء حملة الحديث وأنَّ مدادهم يرجح دماء الشهداء
وغير ذلك...، لتحوّل ونوصل الكلام بإجماع أهل

(١) أدب الإملاء والاستملاء، للسمعاني ٤ - ٥، ميزان الاعتدال ٩٨/٤، محاسن الاصطلاح ٣٠١.

(٢) محاسن الاصطلاح ٣١٠.

(٣) القلم: ١.

(٤) الكامل، لابن عدي ٢٢٧٣/٦، تاريخ بغداد ٤٠/١٢، أدب الإملاء والاستملاء ١٥٨.

البيت عليه السلام على التدوين، لوحدة الموضوع.

إجماع أهل البيت عليه السلام على التدوين

أجمع أهل البيت عليه السلام على إباحة تدوين العلم، ومنه الحديث الشريف، ولم يُعهد من أحدٍ منهم منعه عنه، على طول الخطّ.

ومن المعلوم لدى كافة المسلمين أنّ إجماع أهل البيت عليه السلام حجة شرعية يجب اتباعها. أما ثبوت الإجماع منهم عليه السلام: فمع أنّه محسوسٌ بالعيان، حيث إنّنا لم نجد قولاً لأحدٍ منهم عليه السلام بالمنع، على كثرة تتبعنا في المصادر، ومتابعتنا لأقوالهم. فهو ثابت بالنقل والبيان - أيضاً - حيث إنّ رواياتهم وأقوالهم متضافرة بالإباحة، وأعمالهم ومؤلفاتهم متكررة مشتهرة. وأما أنّ إجماع أهل البيت عليه السلام حجة شرعية: فلتواتر الأحاديث المرفوعة الناصّة على أنّ رسول الله ﷺ قد نصبهم مراجع للأمة تلجأ إليهم للخروج من الشبهات، وتتمسك بحبلهم للنجاة من الضلال، وقرّهم بالقرآن، وجعلهم وإياه، سبيلين للهداية، وجعل التخلف عنهما هو الردى والغواية.

مثل حديث «الثقلين» عند الشيعة والعامة، وقد رواه بضع وعشرون صحابياً ونذكر بعض الروايات من غير سند، ثم نذكر مجموع المصادر المتحصّلة لنا؛ إذ أفضنا في ذكر ذلك في موضوع آخر من بحثنا هذا.

في رواية مسلم في صحيحه: «ألا أيّها الناس، فإنّما أنا بشرٌ يُوشك أن

أُدعى فأجيب، وإني تارك فيكم الثقلين وهما كتاب الله فيه الهدى والنور ...، وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، قالها ثلاث مرّات».

وفي رواية أحمد، والطبراني: «إني تارك فيكم خليفتي: كتاب الله جبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. وإن اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا ماذا تخلفوني فيهما». وفي رواية أخرى للطبراني: «فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقتصروا عنهما فتهلكوا، ولا تعلموهما فإنهم أعلم منكم».

وفيما أورده ابن حجر: «أئنها الناس يوشك أن أقبض قبضاً سريعاً، وقد قدّمتُ إليكم القول معذرةً إليكم، ألا إني خلّفتُ فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ، وعترتي أهل بيتي ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال: هذا عليّ مع القرآن والقرآن مع عليّ، لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض فأسألهما: ما أخلفتم فيهما؟!». «.

مصادر الحديث - بالفاظه وطرقه المتعددة -: الإسكافي في المعيار والموازنة ٣٥، الطبقات الكبرى لابن سعد ١٩٤/٢، مسند أحمد بن حنبل ١٤/٣ و ١٧ و ٢٦ و ٥٩ و ٣٦٦/٤ - ٣٦٧، و ١٨٢/٥ و ١٨٩ - ١٩٠، وفي الفضائل، له بالأرقام ١٧٠، ٩٦٨، و ٩٩٠ و ١٠٣٢ و ١٣٨٢ و ١٣٨٣ و ١٤٠٣ والمعجم الكبير، للطبراني ٦٢/٣ و ٦٣ و ٢٠١، وصحيح مسلم ٤/١٨٧٣/٢٤٠٨، والمعجم الصغير، للطبراني ١: ١٣١ و ١٣٥ و ٢٥٥، وخصائص الإمام عليّ، للنسائي ٩٦ والمستدرک علی الصحیحین ٣: ١٢٤ و ١٠٩ و ١٤٨ و ٣٠٧، والسنن الكبرى؛ للبيهقي ١٤٨/٢

و ٣٠/٧ و ١١٤/١٠، والترمذي في صحيحه ٣٧٨٨/٦٦٣/٥، وسنن الدارمي ٣١٠/٢، ومشكل الآثار، للطحاوي ٣٠٧/٢، وحلية الأولياء ٣٥٥/١، وتاريخ بغداد ٤٤٨/٨، وكفاية الطالب ب ١١/١، ومجمع الزوائد ١٦٣/٩، والصواعق المحرقة ٧٥/، ومناقب الإمام عليّ، لابن المغازلي ٢٣٦/، وأسد الغابة ٢٧٩/٤، وفرائد السمطين ١: ٧٦....

وأما الحديث عند الشيعة من الإمامية والزيدية والإسماعيلية فهو من المسلّمات، إن لم تبلغ أسانيده الكثيرة حدّ التواتر، مع أنّه قد صرّح بتواتره كثير.

وتوضيح دلالة الحديث على حُجّة إجماع أهل البيت عليهم السلام يتوقّف على ما يلي:

الأول: إنّ الخطاب في الحديث موجّه إلى جميع الأئمة.

لقلوه صلى الله عليه وآله فيه: «أيّها الناس...» وقوله: «فيكم» ويعمّ من كان في عصر النبوة من المشافهين، ومن يأتي بعدهم، وذلك:

١ - لأنّ الخطابات الشرعيّة والأحكام الدينيّة تعمّم جميعاً، وذلك ثابت في علم أصول الفقه.

٢ - لأنّ الشريعة الإسلاميّة هي ناسخة الشرائع السماويّة، ورسول الله صلى الله عليه وآله خاتم الأنبياء، فالناس إلى يوم القيامة مكلفون بما كُلف به المخاطبون في عصره صلى الله عليه وآله، وهذا ثبت في موضعه من علم الكلام.

٣ - تصريح الرسول صلى الله عليه وآله في متن الحديث بعدم افتراق العترة عن الكتاب إلى يوم القيامة، فجميع الناس في هذه المدّة داخلون في تعلّق غرضه صلى الله عليه وآله من

كلامه.

الثاني: إنّ الحكم المذكور في الحديث، والمسؤولية الملقاة على عاتق الأمة تجاه الكتاب والعِثْرَة أهل البيت عليه السلام، إنّما هو حكم إلزامي واجب، لا يجوز التخلف عنه، والتقصير فيه، ويجزّم تركه، وذلك:

١ - وذلك لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد ربّب الهداية على اتّباع الكتاب والعِثْرَة، وربّب الضلالة والهلاك على مخالفتها ومفارقتها. ومن الواضح أنّ طلب الهداية واجب عيني على كلّ مسلم، كما إنّ اجتناب الضلالة والابتعاد عنها أمر واجب عيني على المسلمين، والمسلمون يطلبون الهداية والابتعاد عن الضلالة في كلّ يوم عشر مرّات على أقلّ تقدير - في صلواتهم الخمس، في قراءة سورة الفاتحة - وهذا الطلب ليس استحباباً أو تخييراً، بل هو لزومي واجب؛ بحكم العقل وضرورة الشرع.

وإذا تمّ ذلك، كان اتّباع أهل البيت عليه السلام المؤدّي إلى الهداية والمُبعد عن الضلالة، بنصّ الحديث الشريف، واجباً إلزامياً على الأمة، وجوباً عقلياً، شرعياً، كما هو مسلّم عندهم من اتّباع القرآن.

٢ - لأنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد جَهدَ في إبلاغ هذا الحديث في ظروف حسّاسة - مكانية وزمانية - تكشف بلا ريب عن أهميّة ما تضمّنه كلامه، بالإضافة إلى تكرّر ذكره. فمن حيث المكان، قال ابن حجر: إنّ لحديث التمسك طُرُقاً كثيرة وردت عن نيفٍ وعشرين صحابياً، وفي بعض تلك الطُرُق أنّه قال ذلك بعرفة، وفي آخر:

أنّه قال ذلك بغدير حُـمّ، وفي آخر: أنّه قال ذلك في المدينة في مرضه وقد امتلأت الحجرة بأصابه، وفي آخر: أنّه قال لما قام خطيباً بعد انصرافه من الطائف.
وأضاف ابن حجر: ولا تنافي، إذ لا مانع أنّه كرّر عليهم في تلك المواطن وغيرها اهتماماً بالكتاب العزيز والعِـثْرة الطاهرة ^(١).

فهل يمكن أن يتصوّر أنّ كلّ ذلك كان لأمر غير ضروريّ ولا واجب على الأمة؟!
الثالث: الحديث يدلُّ على وجود أهل البيت ﷺ إلى يوم القيامة، مع القرآن، حتّى يرثوا عليه الحوض:

لإخباره بعدم إفتراقهما.

الرابع: يدلّ الحديث على عصمة الثقلين المذكورين فيه: أمّا القرآن، فعصمته واضحة لأنّه الوحي الإلهي الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) ^(٢).
وأما العِـثْرة، أهل البيت، فلمّا يأتي:

١ - لأنّ الرسول ﷺ أرجع الأمة إليها للبعد عن الضلالة والنجاة من الهلاك، ومن الواضح أنّ غير المعصوم لا يؤمّن على مثل هذه المهمّة.

٢ - لأنّه جعلهم في الحديث عدلاً للقرآن، ومؤدّين دَوْرَه، وقائمين بأمره، والقرآن كما قلنا معصوم، فهم كذلك، وإلّا لم يصحّ أن يجعلهم والقرآن بمنزلة

(١) الصواعق المحرقة ٨٩.

(٢) فُصِّلَتْ: ٤٢.

واحدة.

الخامس: والحديث يدلّ على أعلمية الثقلين من جميع الأمة: أمّا القرآن، فواضح كذلك، لأنّه الكتاب الذي نزل (تَبَيَّنًا لِشَيْءٍ) ^(١) وأمّا أهل البيت عليه السلام، فلما يأتي:

١ - لتصريح الرسول ﷺ في متن الحديث:

بقوله: «ولا تُعَلِّمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُمْ».

٢ - لاقتراحهم بالقرآن، الذي عرفنا كونه الأعلم من الجميع، وكوئهم بديلاً عنه في مهمّة الهداية والبُعْد عن الضلالة.

٣ - لإرجاع الأمة إليهم، مطلقاً، ولو كان في الأمة مَنْ هو أعلم من أهل البيت عليه السلام لَقُبْح إرجاعه إليهم.

٤ - لقوله ﷺ، في الحديث «ولا تقدموهم فتهلكوا» حيث رَبَّ الهلاك على التقدّم عليهم. وليس المراد بالتقدّم عليهم في المكان والمسير، وإنّما المراد بالتقدّم عليهم بالحكم والرأي والإفتاء والتكلم في أمور الدين والشرعة.

وهذا النهي مُطْلَقٌ، وعامٌّ لجميع أفراد الأمة، ولو لم يكن أهل البيت عليه السلام أعلم من غيرهم لم يستحقّوا مثل هذا المقام، ولم يحرم على غيرهم التقدّم عليهم.

السادس: وأخيراً، مَنْ هم أهل البيت عليه السلام؟

إنّ المراد من أهل البيت المذكورين في الحديث لا بدّ أن يكون معيّناً

(١) النحل: ٨٩.

ومُشَخَّصاً، بلا ترديد، وذلك:

١ - لأنَّ إرجاع الأمة - في أمرٍ مهمٍّ كالهداية - إلى أشخاصٍ غير معيّنين، هو من التكليف بما لا يُطاق، وتعليقٌ على المجهول، وهو أشبه بالإغراء بالجهل، وذلك كلّ خلاف الحكمة المعهودة في أحكم الناس وأعقل البَشَر، هادي الأمة المبعوث رحمة لها، رسول الله ﷺ .

٢ - أنَّ الجهل بالمراد من أهل البيت، يؤدّي إلى فُصور الحديث عن أداء الغرض المنشود منه، وهو منافعٍ لأهميّة الغرض المذكور الذي أثبتنا أنّه هو السبب في بذل أكبر الجهود لإبلاغ الحديث، وبالتالي فيكون ذلك كلّ لغواً وعَبَثاً، نَزْياً بالرسول ﷺ أن يتصدّى له. فالغرضُ المقصودُ للرسول ﷺ من جعل الثقلين خليفين له في الأمة، هي الهداية والابتعاد عن الضلالة، ومثلُ هذا المقام لا يقبلُ التسامح، والتفريط فيه، فلو وردَ فيه نصٌّ فلا بدّ أن يكون واضحاً مضبوطاً، ودقيقاً، لا يدخله شكٌّ أو ريبٌ، وإلّا لانتقض الغرضُ.

٣ - جعل أهل البيت، قريناً للقرآن، في نسقٍ واحد، بعنوان الثقلين، يدلُّ على أهمّهما سواءً في المعرفيّة والمحدوديّة بالتعيين، فكما أنَّ القرآن كتاب الله، نصٌّ محدود، مكتوبٌ، معروفٌ؛ فكذلك المراد من أهل البيت.

٤ - لم يُنقل من أحدٍ أن عدّ حديث الثقلين من الأحاديث المُجملة إذ ليس فيه من المفردات ما يُعدُّ من الغريب المُشكّل، ولا يحتوي كذلك على جملة معقّدة غامضة، فلا بُدّ أن يكون المراد من «أهل البيت» الوارد في الحديث بعنوان «الثقل الثاني» القرين للقرآن، واضحاً معيّناً عند السامعين، والرواة الناقلين الأوائل

على الأقل.

فَمَنْ هُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ؟

١ - قد حصر رسول الله ﷺ إطلاق اسم «أهل البيت» على الخمسة الطيبة: نفسه المقدسة، وابنته الزهراء فاطمة، وصنوه علي أمير المؤمنين، وسبطيه الحسن والحسين عليهما السلام، حينما أدخلهم تحت الكساء معه؛ وهبط الأمين جبريل بآية التطهير: (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ^(١).

فقال ﷺ: «اللَّهُمَّ هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً».

فكانت الآية خاصة بهم، فهم أهل البيت المعصومون عليهما السلام.

وقد تكلّمنا عن طُرُق نزول الآية فيهم عليهما السلام مع مصادر ذلك في موضع آخر.

وقد نصّ الإمام الحسين عليه السلام على ولده عليّ أنّه الإمام من بعده، وكلّ إمام نصّ على الذي يليه، إلى الإمام المهديّ الثاني عشر عليهما السلام.

والنصوص على الأئمة عليهما السلام في مصادرنا الحديثيّة متضافرة بما لم يبق معها مجال للريب ^(٢).

وجَهْلُ غير الشيعة بتلك النصوص لا يضُرُّ بحجّيتها، وذلك:

أولاً: لو كان جهل كلّ طائفة بما عند الأخرى من تاريخٍ وحديثٍ وغير ذلك، دليلاً، واستندوا إلى هذا الجهل، لما كان لأحدٍ الاعتماد على ما عنده، إنّما

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) أجمع مصدر لذلك كتاب (إثبات الهداة)، للشيخ الحرّ العامليّ.

الحجّة تنمّ بما يُعرَضُ من الأدلّة حسب الموازين المقرّرة للاستدلال، وإقامة الحجّة، وعلمُ الشيعة بتلك النصوص ثابت، والجاهل لا بدّ له أن يرجع إلى العالم.

وثانياً: إنّ تلك النصوص إنّما ثبتت بطرق الرواة الثقات المعترف بوثاقبتهم وحجّيتهم عند العامّة أيضاً؛ وإنّ قدحوا فيهم فإنّما هو للتطرّف المذهبي، والعصبية الطائفية، ومن المعلوم أنّ الملاك في حُجّة الرواية هي الوثاقة والاطمئنان بالصدور، لا سوء الظنّ والتهم. والحاصل: أنّ ضمّ المقدّمة الأولى، وهي قطعية صدق أهل البيت عليّ أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهما السلام، إلى المقدّمة الثانية وهي نصّ كلّ إمام من الأئمة الاثني عشر على الإمام الذي يليه، تثبّت النتيجة التالية: أنّ أهل البيت الذين نصبهم رسول الله ﷺ خلفاً له من بعده، وقُرّاء للكتاب إلى يوم القيامة، إنّما هم الأئمة الاثنا عشر عليهما السلام.

٢ - النصوص النبوية الدالة على أنّ الأئمة بعد النبي ﷺ إنّما هم اثنا عشر خليفة: ومن تلك: أنّ الرسول ﷺ قال: لا يزال الدين قائماً حتّى تقوم الساعة، أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلّهم من قريش. وقد أخرجهم العامة عن عبد الله ابن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأكثر طُرُقهم عن جابر بن سمرة.

ورواه من الأعلام:

أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، والحاكم النيسابوري والخطيب البغدادي وغيرهم^(١).

(١) مصادر حديث (اثنا عشر خليفة): =

وقد اختلف أهل المذاهب المختلفة في تفسير المراد بالاثني عشر، وطبقه كلٌّ على مَنْ يراه للخلافة من الخلفاء، وسكت بعضهم عن تفسيره، لكنَّ أحداً لم يوفق إلى تفسيره بما لا يردُّ عليه شيء.

وأما القول بأنَّ هذا الحديث مُحمَّلٌ غيرُ مبين، فباطلٌ، وذلك:

١ - لأنَّ موضوع الحديث وهو الإمامة والخلافة عن الرسول ﷺ منصبٌ مهمٌّ جداً، لا يتحمَّل التسامح فيه بإيراد نصٍّ مُحمَّل لا يُفهم منه شيء، وإلا، فمن الممكن أن يُقال: ما فائدة هذا الكلام، ولماذا يتصدَّى الرسول الكريم إلى إلقائه إذا لم يكن له معنى مفهوم، أو ثمرة بيّنة.

٢ - لأنَّ هذا الحديث لا يحتوي على مفردة غريبة توجب الإجمال في معنى الكلام، وليست الجملة بكاملها معقّدة حتّى يُتوقَّف في فهم المراد منها.

بل - على العكس - فإنَّ المراد والمدلول واضحٌ جداً، يقول: إنّ الخلفاء الذين يُلَوَّن أمرُ إمامة الإسلام هم اثنا عشر، في الفترة بين وفاته ﷺ وحتّى يوم القيامة.

وإذا لم ينطبق هذا المدلول، الثابت الحقُّ، إلّا على ما يقوله الشيعة الإماميّة،

= صحيح البخاري ١٠١/٩، كتاب ٢٣ - الأحكام، باب ٥١ - الاستخلاف، صحيح مسلم ١٤٥١/٣ - كتاب الإمامة، باب (١) الناس تبع لقريش. صحيح الترمذي ٤٥/٢ ط الهند ١٣٤٢، باب ما جاء في الخلفاء، دلائل النبوة، للبيهقي ٥١٩/٦، المستدرک على الصحيحين ٦١٨/٣ كتاب معرفة الصحابة، مسند أحمد ٣٩٨/١ و ٨٦/٥ و ٨٩ و ٩٠ و ٩٢ و ٩٣ - ١٠١ و ١٠٦ - ١٠٨ في مسند جابر بن سمرة. وتيسير الوصول ٣٤/٢، منتخب كنز العمال بحامش مسند أحمد ٣١٢/٥، تاريخ الخلفاء ٧، تاريخ بغداد ١٢٦/٢، كشف الظنون (١٥٤٨).

وكان الأئمة الاثنا عشر من أهل البيت هم الذين يصدق فيهم حديث الثقلين، فأبي مانع من الالتزام بأنهم المقصودون بحديث الأئمة الاثني عشر من قريش؛ ما دام هذا الالتزام يؤدي إلى العمل بكل ما قاله الرسول ﷺ، وعدم نسبة الإجمال إليه؟! مضافاً إلى أن أيّاً من المذاهب لم يُقدّم اعتقاد في أناسٍ تنطبق عليهم الصفات المذكورة في حديث الثقلين، وينطبق عليهم العدد المذكور في حديث الخلفاء الاثني عشر.

٣ - مع أنّ هؤلاء الأئمة الاثني عشر عليهم السلام قد جمعوا إلى كرم النسب شرف الحسب، وحازوا قصب السبق في كل فضيلة، وجمعوا طارف المجد وأثيله.

فهم بين الأمة كالنجوم السواطع، قد اعترف بفضلهم كل عدو وصديق، وأذن لعلمهم كل عالم ضليع، وأقرّ بمجدهم وسؤددهم الأولون والآخرون.

وأجمعت كتب الرجال للعامة في تراجمهم على القول في نعت آحادهم: ثقة ثقة ثبت صدوق لا يُسأل عن مثله، قد أتمكته العبادة، سيّد عصره في العلم، إمام ابن إمام وحق مثله أن يكون خليفة ...

وهذا الذهبي الحنبلي - وهو من كبار مؤرخي الإسلام، و مترجمي الأعلام - نراه يترجم للإمام المنتظر المهدي عليه السلام، فيقول: خاتمة الاثني عشر سيّداً. الذي تدعي الإمامية عصمتهم ... ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة، وأنه صاحب الزمان، وأنه حي لا يموت حتى يخرج فيملا الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

فوددنا ذلك، والله ...

فمولانا عليّ: من الخلفاء الراشدين ...
وابناه: الحسن والحسين، فسبطا رسول الله ﷺ، سيّدا شباب أهل الجنّة، لو استُخِلِفَا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين، كبيرُ القُدَر، ومن سادة العلماء العاملين، يَصْلُحُ للإمامة! ... وكذلك ابنه أبو جعفر الباقر: سيّد، إمام، فقيه، يَصْلُحُ للخلافة!
وكذا ولده جعفرُ الصادق: كبيرُ الشّأن، من أئمّة العلم، كان أوّلُ بالأمر من أبي جعفر المنصور.

وكان ولده موسى كبيرُ القُدَر، جيّد العلم، وأوّلُ بالخلافة من هارون.
وابنه عليّ بن موسى الرضا: كبيرُ الشّأن، له عِلْمٌ وبيان، ووقع في النفوس؛ صَيَّرَهُ المأمُونُ وليّ عهده، لجلالته.

وابنه محمّد الجواد: من سادة قومه.
وكذلك ولده الملقّب بالهادي: شريف جليل.
وكذلك ابنه الحسن بن عليّ العسكريّ رحمهم الله تعالى. فلو لَزِمَ اتّباع أحدٍ، لكانوا همُ الأوّلون، ولو استحقّ غيرهم شيئاً فهمُ الآخرُونَ.
ومّا لا ريب فيه أنّ إجماعهم على شيءٍ يُقدّم على إجماع غيرهم لو خالفه، ومخالفتهم لغيرهم تزعزع كيانه مخالفتهم.

وتدوين الحديث ممّا قد اتّفق جميعُ أهل البيت على إباحته وجوازه، وعدم منعه، فهم في جواز التدوين على منهاج واحد. فقد أباحوه حيث منعه المانعون، ودأبوا على تبليغه وأدائه منذ عهد الرسالة المبكّر، فضبطوه في مؤلّفاتهم، وسعّوا

في حفظه وأودعوه كلّ ثقة أمين؛ ولذلك حُفِظَ الحديث الشريف عندهم وعند أصحابهم وأتباعهم مسجلاً، مكتوباً، محفوظاً من الدسّ والتزوير والتحريف والتصحيف.

ما وردَ عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام

كان الإمام عليه السلام في طليعة المبشرين للتدوين^(١).
وقد علمنا أنّه كتب بخطّه بإملاء رسول الله ﷺ، كتابة الكبير، الذي تحدّثنا عنه فيما مضى.
وقد قيل في ذلك الكتاب أنّه «أول كتاب في الإسلام»^(٢). كما روى الإمام عليه السلام كثيراً من النصوص المرفوعة، الدالة على إباحة التدوين، وقد سبقت كذلك.
لكن الإمام عليه السلام قد أظهر التزامه بإباحة التدوين، بالقول والفعل، وتضافرت النصوص الموقوفة عليه في ذلك، وسنذكرها في مجموعتين:

١ - في مجال التصنيف والتأليف.

٢ - الأقوال المروية عنه، والموقوفة عليه.

في مجال التصنيف:

(١) الإلماع ١٤٧، علوم الحديث، لابن الصلاح ١٨١، تدريب الراوي ٢٨٥، وانظر: معالم العلماء، لابن شهر آشوب

٢، ومؤلفوا الشيعة، لشرف الدين ١٣.

(٢) انظر الذريعة ٣٠٦/٢.

روى البحراني بسنده عن عبد الملك بن أعين، قال: أراني أبو جعفر عليه السلام بعض كتب علي عليه السلام، ثم قال لي: لأي شيء كتب هذا الكتاب؟ قلت: ما أبين الرأي فيها!.

قال: هات.

قلت: علم أن قائمكم يقوم يوماً فأحب أن يعمل بما فيها. قال: صدقت^(١).
وروى الرازي عن شعبة (ت ١٦٠ هـ): أن روائتي التابعين - عامر الشعبي عن علي، وعطاء بن أبي رباح عن علي - إنما هي من كتاب^(٢).
وقال: كان عند أبي هارون العبدي (ت ١٣٤ هـ) كتاب عن علي عليه السلام^(٣). وقال أحمد: خلاص بن عمرو البحري، روايته عن علي عليه السلام، من كتاب، ويقال: وقعت عنده صحف عن علي عليه السلام.

وأما الكتب المنسوبة إليه عليه السلام بعناوينها الخاصة، فهي:

١ - كتاب في علوم القرآن:

أفلاّه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فذكر فيه ستين نوعاً من علوم القرآن؛ رواه الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد، ابن عقدة الكوفي (ت ٣٣٣ هـ) بسنده

(١) تدوين السنة ١٣٦؛ عن عوالم العلوم والمعارف، للبحراني.

(٢) الجرح والتعديل، المقدمة، لابن أبي حاتم ١٣٠/١.

(٣) سؤالات الحاكم للدار قطني ٢٠٣ رقم ٣١٤. والمراسيل، للرازي: ٤١، جامع التحصيل للعلاني ١٧٣ رقم ١٧٥.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام ^(١).

ورواه جمعٌ من كبار الطائفة فُنُسِبَ إليهم:

منهم: المحدث أبو القاسم سعد بن عبد الله بن أبي خَلَف الأشعريّ القُمي المتوفى (سنة ٣٠١

- أو ٢٩٩ هـ) بعنوان (تفسير سعد) و (ناسخ القرآن ومنسوخه) ^(٢).

ومنهم المحدث محمد بن إبراهيم بن أبي زينب الكاتب البغداديّ صاحب «الغيبة» تلميذ

الكليني؛ فقد نُسب إليه بعنوان (تفسير النعماني) ^(٣).

ومنهم السيّد الشريف المرتضى عليّ بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ) فقد نُسب إليه باسم

(المحكم والمتشابه في القرآن) ^(٤).

وقد أورد المحدث المجلسي نصّه بالكامل في كتاب (بحار الأنوار) ^(٥).

٢ - كتاب السنن والقضايا والأحكام:

كتابٌ كبير حوى أبواب العلم، وفقه الشريعة المقدّسة، ومنها ما قضى به الإمام عليّ عليه السلام في

الحوادث الخاصّة. وكما يبدو من اسمه فإنّ فيه السنن والآداب الشرعيّة، والعبادات من الطهارة

والصلاة والصوم... والأقضية، والحدود،

(١) لاحظ أعيان الشيعة ج ١ ق ٣٢١/١، بحار الأنوار ٣/٩٣.

(٢) سؤالات الحاكم للدار قطني ٣١٤/٢٠٣. والمراسيل، للرازي ٤١، وجامع التحصيل، للعلائي ١٧٥/١٧٣.

(٣) بحار الأنوار ٣/٩٣، مستدرک الوسائل ٣/٣٦٥.

(٤) الذريعة ١٥٤/٢٠ - ١٥٥. وقد طُبِع بهذا العنوان أيضاً.

(٥) راجع بحار الأنوار - الطبعة الحديثة ١/٩٣ - ٩٧، و ٧١/٨٤ - ٧٢، أعيان الشيعة (ج ١ ق ٣١٨/١)

وتأسيس الشيعة، للصدر ٣١٨.

والدييات، وأبواب المعاملات من البيوع، وغيرها. وقد روى هذا الكتاب جمعٌ من أصحاب الإمام عليّ عليه السلام، تارةً بعنوانه العام، وأخرى بعنوان باب من أبوابه. ونورد هنا قائمة بأسماء من رواه، أو روى قسماً منه:

- ١ - عُمرُ ابنُ الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، روى عن أبيه هذا الكتاب كاملاً^(١).
- ٢ - أبو رافع مولى النبي ﷺ، وصاحب بيت مال الإمام عليّ عليه السلام. روى الكتاب عن أمير المؤمنين كاملاً^(٢) ورواه عنه ابنه:
- عُبَيْدُ اللَّهِ بن أبي رافع، كاتب الإمام عليّ عليه السلام، كما يظهر من ترجمة أبيه وغيره^(٣).
- وعليّ بن أبي رافع، كاتب الإمام عليّ عليه السلام:
- روى الكتاب عن أبيه كاملاً^(٤).
- ٣ - ربيعة بن سبيع: روى قسم الزكاة عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في كتاب كتبه له بخطه لما بعثه على الصدقات^(٥).
- ٤ - محمد بن قيس البجلي:

(١) رجال النجاشي ٧، ذيل رقم ٢.

(٢) نفسه ٦، رقم (١)، تأسيس الشيعة ٢٨٠، تاريخ بغداد ٤٤٩/٨.

(٣) رجال النجاشي ٦، رقم (١) و ٧، رقم (٢)، معرفة علوم الحديث، للحاكم ١١٨.

(٤) رجال النجاشي ٦، رقم (٦).

(٥) رجال النجاشي ٧ - ٨ رقم ٣. وانظر الكافي (كتاب الزكاة، باب أدب الصدق) ٥٣٩/٣ وفيه (زمعة بن سبيع) وهو تصحيف، والجامع في الرجال، للزنجاني ٧٧٠/١.

روى قسم القضايا، وقد عُرض كتابه على الإمام الباقر عليه السلام فصدق أنه كتاب أمير المؤمنين عليه السلام^(١).

٥ - يعلى بن مروة الثقفي:

له نسخة عن الإمام عليه السلام^(٢).

٦ - الحارث بن عبد الله الهمداني:

روى الكتاب كاملاً عن أمير المؤمنين عليه السلام^(٣).

٧ - الأصبغ بن نباتة المجاشعي:

روى قسم القضاء عن الإمام عليه السلام^(٤)!

٨ - عبد الله بن عباس:

كان يتخذ صُحُفاً فيها قضاء علي عليه السلام^(٥).

٩ - ميثم بن يحيى التمار:

له كتاب، كان متداولاً حتى القرن السابع الهجري، حيث نقل عنه مباشرة الطبري صاحب

كتاب (بشارة المصطفى)^(٦).

١٠ - عبيد الله بن الحر الكوفي، الشاعر، الجعفي:

(١) تأسيس الشيعة ٢٨٤ وانظر رجال النجاشي ٣٢٣ رقم ٨٨١.

(٢) رجال النجاشي ٢٨٦ رقم ٧٦٢، ترجمة عمر بن عبد الله بن يعلى بن مروة، تأسيس الشيعة ٢٨٤.

(٣) رجال النجاشي ٧ ذيل الرقم ٢، الفهرست، للطوسي ٦٢ رقم ١١٩.

(٤) رجال النجاشي ٨ رقم ٥.

(٥) تقييد العلم - التصدير ١٩، توجيه النظر ٨، مقدمة صحيح مسلم ١/١٤.

(٦) تأسيس الشيعة ٢٨٣.

روى عن الإمام عليّ عليه السلام نسخة^(١).

١١ - ومن أجزاء هذا الكتاب هو (كتاب الديّات) الذي اشتهر باسم راويه ظريف بن

ناصح^(٢).

فقد عرضه الرواة على الأئمة: جعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعليّ الرضا عليه السلام، فأقرّوا أنّه

من إملاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه كتبه لعمّاله وأمرء الأجناد^(٣).

ونصّه الكامل موجود: فزقه الكليني في جامعہ (الكافي) وسمّاه (كتاب الفرائض عن عليّ

عليه السلام)^(٤).

وأورده بتمامه الشيخ الصدوق في (كتاب الفقيه)^(٥).

والذي يظهر من المصادر أنّ كلاً من هؤلاء الرواة قد ألّف ما يخصّه، وجمع روايات كتابه عن

الإمام عليّ عليه السلام، إلّا أنّا نعتقد بأنّ الكتاب ليس إلّا مجموعة كبيرة واحدة من تأليف الإمام

وإملائه عليه السلام، وذلك لما يلي:

١ - انتهاء الأسانيد في تلك الكتب إلى أمير المؤمنين عليه السلام، بعنوان أنّ كلاً منها نسخة منه، أو

إملائه.

(١) رجال النجاشي ٩ رقم ٦.

(٢) نفسه ٢٠٩ رقم ٥٥٣، الذريعة ١٥٩/٢ - ١٦١ بعنوان: أصل ظريف.

(٣) الجامع للشرائع ٦٠٨، الكافي ٣٣٠/٧.

(٤) الكافي ٣٣٠/٧ - ٣٦٣.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٤/٥٤ - ٦٦ وهو تمام الباب (١٨) دية جوارح الإنسان.

٢ - لوجود نفس العناوين ضمن ما تُنسب إلى غير الرواة المذكورين، الذين اعتُبروا كمؤلفين للكتب.

فذلك يؤكّد أنّ الكتاب المذكور كان مجموعةً كبيرةً من تأليف الإمام نفسه عليه السلام، رواه بعض أصحابه كاملاً، وروى بعضهم أبواباً منه ^(١). وقد وردت عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام رواياتٌ حول ما وردَ في هذا الكتاب بطرق الرواة المذكورين وغيرهم، في كتب العامة، جمع أحمد بن حنبل مجموعةً كبيرةً منها في مسنده ^(٢).

٣ - عَهْدُ الإمام عليه السلام للأشتر:

وهو العهدُ الطويل المهمّ الذي كتبه الإمام عليّ عليه السلام لمالك الأشتر النخعيّ، لما ولاه مصرَ، وتضمّن أصولَ إدارة البلاد، وتراتبِ النُظُم السياسيّة لأُمور العباد.

ونصّه معروفٌ، ومطبوعٌ متداولٌ، وهو في نَحج البلاغة وقد رواه الأصبغ بن نباتة ^(٣).

٤ - التعليقة النحويّة:

التي ألقاها الإمام عليه السلام إلى أبي الأسود الدؤليّ.

نقل خبرها السيوطي عن ابن عساكر أنّ بعض النحويّين كان يذكر أن عنده

(١) مرآة الكتب، لعليّ بن موسى التبريزي الشهيد (١٣٢٠): ٩.

(٢) مسند أحمد بن حنبل ١/٧٥ - ١٦٠، وانظر حول رواة آخرين لحديث الإمام عليّ عليه السلام بشكل مكتوب في دلائل التوثيق المبكر ٤٢٠، معرفة النسخ ٢٠٧.

(٣) نَحج البلاغة، بشرح صبحي الصالح ٤٢٧ - ٤٤٥.

تعليقة أبي الأسود التي ألقاها إليه عليّ عليه السلام ^(١).

٢ - في مجال العلم والآثار:

لقد نُقل عن أمير المؤمنين عليه السلام الكثير في مجال التأكيد على الكتابة والتدوين، وفيه ما هو صريح في الأمر به، كما أنّ فيه ما هو دالٌّ بالملازمة العرفية، وهذا بعضها:

- عن الحارث عن عليّ عليه السلام قال: «قَيِّدُوا الْعِلْمَ، قَيِّدُوا الْعِلْمَ» هكذا مرّتين ^(٢).

٢ - عن علباء، عن عليّ عليه السلام: أنّه خطب الناس، فقال: «مَنْ يَشْتَرِي مَنِّي عِلْماً بِدِرْهِمٍ» ^(٣).

قال أبو خيثمة زهير بن حرب - مفسراً هذا الحديث: يشتري صحيفة بدرهم ويكتب فيها العلم ^(٤).

وفي بعض نصوص الحديث: أنّ الحارث الأعور اشترى صُحُفاً بدرهم، ثمّ جاء بها عليّاً عليه السلام، فكتب له علماً كثيراً، ثمّ إنّ الإمام عليه السلام خطب الناس بعدُ، فقال:

(١) تقييد العلم ٨٥، إنباه الرواة، للقفطي ٣٩/١، وقال: رأيت بمصر في زمن الطلب بأيدي الورّاقين (جزءاً) فيه أبواب من النحو، يجمعون على أنّها (مقدمة عليّ بن أبي طالب) التي أخذها عنه أبو الأسود الدؤلي. وانظر سير أعلام النبلاء (٨٤/٤). الأشباه والنظائر، للسيوطي ١: ١٢ - ١٤، تاريخ الخلفاء له ١٤٣، طبقات النحويّين، للزبيدي ٢١.

(٢) تقييد العلم ٨٩.

(٣) طبقات ابن سعد ١١٦/٦ من طبعة ليدن، تقييد العلم ٩٠، تاريخ بغداد ٣٥٧/٨ كنز العمال ٢٦١/٥ ٢٩٣٨٥.

(٤) تقييد العلم ٩٠.

يا أهل الكوفة غلبكم نصفُ رجل ^(١).

* عن الحارث، عن عليّ عليه السلام، قال: قراءتُك على العالم وقراءةُ العالم عليك سواءٌ، إذا أقرَّ لك به ^(٢).

وروى نحوه أبو ظبيان، عنه عليه السلام ^(٣).

* عن هُبَيْرَةَ بن يَرِيم، عن عليّ عليه السلام، قال: القراءةُ عليه بمنزلة السماع منه ^(٤).

وهذا يدلُّ على وجود الكتاب في عهد الإمام عليه السلام، حيث إنّ قراءة الراوي على الشيخ لا تكون إلّا من كتابٍ وبواسطة نصٍّ مكتوب، يقرأ منه الراوي على الشيخ. ونقول أيضاً: قد يكون فيه بَعْثٌ على كتابة النصّ، ليكون الراوي مكثفياً بقراءته على الشيخ، لتحصيل عنصر الضَبْط والإشراف من الشيخ عليه.

* وقال عليه السلام لكتابه غُبيد الله بن أبي رافع: «أَلِيقْ دَوَاتِكَ، وَأَطِلْ جُلْفَةَ قَلَمِكَ، وَفَرِّجْ بَيْنَ السُّطُورِ، وَفَرِّمْ بَيْنَ الْحُرُوفِ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْدَرُ بِصَبَاحَةِ الْخَطِّ» ^(٥).

* وكتب عليه السلام إلى عمّاله: «أَدِقُّوا أَقْلَامَكُمْ، وَقَارِبُوا بَيْنَ سُطُورِكُمْ، وَاحْذِفُوا عَنِّي فُضُولَكُمْ، وَاقْصِدُوا قَصْدَ الْمَعَانِي، وَإِيَّاكُمْ وَالْإِكْثَارَ، فَإِنَّ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ

(١) طبقات ابن سعد ١٦٨/٦، السّنة قبل التدوين ٣٩٧، العلم، لزهير بن حرب ١٩٣.

(٢) الكفاية في علوم الرواية، للخطيب ٣٨٣.

(٣) نفسه ٣٩٩.

(٤) نفسه ٣٨٣.

(٥) نخب البلاغة، قسم الحكمة، الحكمة رقم ٣١٥؛ تاج العروس (فرمط).

لا تَحْتَمِلُ الإِضْرَارَ» ^(١).

* وعن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، قال: «عقلُ الكاتب قلمه» ^(٢).

* وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: كان أمير المؤمنين عليه السلام يُعجبه أن يُروى شعر أبي طالب، وأن يُدَوَّن ^(٣).

وأخبار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في هذا الميدان تطول، فنقتصر على ما ذكرناه، لنذكر شيئاً عن أئمة الهدى عليهم السلام، في هذا الأمر.

ما ورد عن الإمام الحسن السبط عليه السلام (استشهد سنة ٤٩ هـ).

١ - عن شرحبيل بن سعيد، قال: دعا الحسن بن عليّ عليه السلام بنيه وبني أخيه، قال: «يا بُنَيَّ، وبني أخي، إنكم صغار قوم، يُوشِكُ أن تكونوا كبار آخرين، فتعلّموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه فليكتبه، وليضعه في بيته» ^(٤).

ما ورد عن الإمام الحسين السبط الشهيد عليه السلام (٦١ هـ).

قال عليه السلام، في خطبة له في منى، في جمع عظيم من الشيعة وبني هاشم والصحابة والتابعين: «أما بعد، فإنّ هذا الطاغية قد فعل بنا وبشيعتنا ما قد رأيتم

(١) الخصال ٣١٠/١.

(٢) نور الحقيقة، حسين بن عبد الصمد الحارثي ١٠٨.

(٣) الحجة على الزاهب إلى تكفير أبي طالب، فخار بن معدّ العلوي ٢٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢٢٧/٢، سنن الدارمي ١٠٧/١ ح ٥١٧، الكفاية، للخطيب ٢٢٩، جامع بيان العلم ٨٢/١، كنز العمال ٢٢٩/٥، بحار الأنوار ١٥٢/٢ ح ٣٧.

وعلمتم وشهدتم، وإني أريد أن أسألكم عن شيء، فإن صدقتُ فصدقوني ... اسمعوا مقالي، واكتبوا قولي، ثم ارجعوا إلى أمصاركم وقبائلكم فمن أمنتكم من الناس ووثقتكم به فادعوهم إلى ما تعلمون من حقنا، فإني أخوف أن يدُرُسَ هذا الأمر، ويذهب الحق»^(١).

والشاهد في هذا الكلام، قوله عليه السلام: «اكتبوا قولي» حيث أنه أمر بكتابة كلامه عليه السلام، ودلالته على تدوين الحديث من جهات:

١ - لأننا نحن الشيعة الإمامية نؤمن أنّ ما يُحدّث به الإمام عليه السلام فإنما هو من السنّة التي يجب اتباعها، لما ثبت عندنا من الأدلّة على أنّ الأئمة عليهم السلام إنّما هم الحُجج المنصوبة من رسول الله ﷺ، على الأئمة؛ حيث أمرها بالتمسك بهم والأخذ منهم، وقد أسلفنا بعض ذلك في الاستدلال بحديث الثقلين.

٢ - أنّ الأئمة عليهم السلام قد صرّحوا بأنّ حديثهم إنّما هو حديث جدّهم رسول الله ﷺ، فهو بحكمه في الحجّة.

٣ - أنّ قوله الذي أمر بكتابته لا يخلو من ذكر حقّهم عليهم السلام الذي أشار إليه، ولا يخفى أنّ حقهم إنّما يثبت بما أثبت لهم رسول الله ﷺ، فقوله الذي أمر بكتابته حاوٍ لحديث رسول الله ﷺ لا محالة.

٤ - أنّ قوله «اكتبوا قولي» يكشف عن رضاه بكتابة سنّة رسول الله ﷺ لا محالة وبالأوّلوية المعلومة، خاصّة إذا كان الحديث يرتبط بأمر الدين.

(١) كتاب سليم بن قيس ١٦٥.

ما ورد عن الإمام عليّ زين العابدين عليه السلام (ت ٩٥ هـ).

قد أُثِرَتْ عنه المؤلفات التالية:

١ - الصحيفة:

الكتاب العظيم، الذي جمع عيون أدعيته عليه السلام، ومناجاته التي أنشأها بمناسبات شتى ولأغراض متنوعة، وكان عليه السلام يدأب على تلاوتها وهي تحتوي على مضامين عالية رفيعة، من أبواب المعارف الإسلامية العالية وقد تواتر الإسناد إليه، وهو مما أجمع علماء الإسلام على قبوله. أملاه الإمام عليه السلام على ولديه الإمام محمد الباقر عليه السلام، والشهيد زيد، وقد أملاه الإمام الباقر على ولده الإمام الصادق عليه السلام، وأملاه الإمام الصادق على الرواة^(١).

٢ - رسالة الحقوق:

الجامعة لأداب الدين والدنيا، مما يجب على الفرد في معاملته لنفسه، والآخرين مما حوله من الناس، وسائر الموجودات، من حقوق والتزامات من حقوق والتزامات، فهو أهم كتاب يحتوي على أسس الأخلاق الفاضلة، ومباني السلوك الاجتماعي في الإسلام. ونسخها متوفرة، شرحها عدة من العلماء.

٣ - مناسك الحج:

رسالة حاوية لجميع أحكام الحج الشرعية، في ثلاثين باباً، رواها عن

(١) الصحيفة الكاملة، بتقديم محمد المشكاة، كفاية الأثر، للحزاز ٢ - ٣٠٢، الفهرست للطوسي ١٩٩ و ٧٦٨، رجال الطوسي ٤٨٥ رقم ٥٣، رجال النجاشي ٤٢٦ رقم ١١٤٤، معالم العلماء، لابن شهر آشوب ١، الفوائد الطوسية ٢٤٦.

الإمام عليّ عليه السلام كلٌّ من أبنائه: الإمام محمّد الباقر، وزيد الشهيد، والحسين الأصغر عليه السلام. (مطبوعة).
٤ - صحيفة في الزهد:

قال أبو حمزة الثمالي ثابت بن أبي المقدام، قرأتُ صحيفةً فيها كلامُ زُهدٍ، من كلام عليّ بن الحسين عليه السلام، وكتبْتُ ما فيها، ثمّ أتيتُ عليّ بن الحسين صلوات الله عليه فعرضْتُ ما فيها عليه، فعرفه، وصحّحه ^(١).

٥ - الجامع في الفقه:

رواه أبو حمزة الثمالي، عن الإمام السجّاد عليه السلام ^(٢).

٦ - كتاب حديثه عليه السلام:

جمعه داوُد بن يحيى بن بشير، أبو سليمان الدهقان، الكوفي ^(٣).

٧ - نسخة رواها عبد الله بن إبراهيم بن الحسين الأصغر بن الإمام السجّاد عليه السلام، عن آبائه ^(٤).

ما ورد عن الإمام أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام (ت ١١٤ هـ)

١ - في الأقوال:

١ - عن جابر الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أُقَيّد الحديث، إذا سمعتُ؟

(١) الكافي ١٤/٨ - ١٧، الفهرست ٦٧ رقم ١٣٨.

(٢) رجال النجاشي ١١٦ رقم ٢٩٨، تأسيس الشيعة ٣٠٠.

(٣) رجال النجاشي ٧ - ١٥٨ رقم ٤١٥.

(٤) نفسه ٢٢٤ رقم ٥٨٧.

قال: «إذا سمعتَ حديثاً من فقيهٍ خيرٍ ممّا في الأرض من ذهبٍ وفضّةٍ»^(١). وقد أشار الإمام عليه السلام في هذا الجواب إلى ضرورة التدوين ولزوم الكتابة بنحوٍ دقيق، وبلاغة فائقة إذ جعل الكتابة خيراً من الذهب والفضّة؛ فإذا كان الإنسان بطبعه يُحافظُ على الذهب والفضّة بالإحراز والضبط، ولا يعرضهما للتلف والضياع، فإنّ ما هو خيرٌ منهما - أعني الحديث - يكون أوّلُ بالإحراز والحفظ، ومن الواضح أنّ أفضل طرق ضبط الحديث وإحرازه كتابته وتدوينه.

٢ - عن داود بن عطاء المديني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام، قال: «عَرَضُ الكتاب، والحديث سواء»^(٢). المراد بالعَرَض هنا هو قراءة الراوي الروايات على الشيخ، والمراد بالحديث هنا هو تحديث الشيخ وإقائه الروايات على الراوي.

والمراد بالعرض هنا هو ما يسمّى في علم المصطلح ودراية الحديث بالقراءة على الشيخ، والحديث هنا هو ما يسمّى في ذلك العلم بالسماع من الشيخ.

ومعنى هذا الخبر: أنّ القراءة على الشيخ، تُساوي في الحجّة والاعتبار السماع منه.

٤ - عن خالد بن طهمان، عن أبي جعفر عليه السلام قال:

(١) أدب الإملاء، للسمعاني ٥٥.

(٢) سنن الدارمي ١: ١٢٣، الكفاية، للخطيب ٣٨٦.

«لا تُعَدَّ لهم سِفرًا، ولا تُحَظَّ لهم بقلم»^(١).

وهذا الحديث وإن كان نهيًا عن إعداد السِفر - وهو الكتاب - والخطّ بالقلم، لكن من الواضح أنّ الإمام عليّ عليه السلام إنما نهي عن الكتابة للوُلاة الظالمين كما يظهر من الحديث الذي أورده ابن أبي شيبة قبل هذا الحديث وفيه: النهي عن التوليّ للسلطان.

وهو يدلّ بالإجماع على شرافة إعداد الكتب والخطّ بالقلم والرغبة فيهما للأخيار.

٢ - في الكتب والمؤلّفات:

وقد نُقلت عن الإمام أبي جعفر عليه السلام مؤلّفات عديدة:

قال محمّد عجاج الخطيب: كان عند الإمام محمّد بن عليّ بن الحسين، أبي جعفر الباقر عليه السلام

(٥٦ - ١١٤) كتبٌ كثيرةٌ، سمِعَ بعضها منه ابنه جعفر الصادق عليه السلام وقرأ بعضها^(٢).

وقال عبد الله بن محمّد بن عقيل بن أبي طالب: كنتُ أختلف إلى جابر بن عبد الله، أنا، وأبو

جعفر، معنا ألواحٌ، نكتبُ فيها.

وفي بعض نُصوصه: فنسأله عن سنن رسول الله ﷺ، وعن صلاته، فنكتبُ عنه^(٣).

(١) المصنّف، لابن أبي شيبة ٢٣٦/٥.

(٢) السّنة قبل التدوين ٣٥٥/٤.

(٣) تقييد العلم ١٠٤، المحدث الفاصل ٣٧٠ رقم ٣٣٥، وعنه في محاسن الاصطلاح ٢٩٧.

والمنقول من أسماء كتبه:

- ١ - تفسير القرآن: رواه زياد بن المنذر أبو الجارود العبدي ^(١).
 - ٢ - نسخة أحاديث: رواها خالد بن أبي كريمة ^(٢).
 - ٣ - نسخة: رواها خالد بن طهمان ^(٣).
 - ٤ - كتاب: رواه عبد المؤمن بن القاسم الأنصاري الكوفي ^(٤).
 - ٥ - كتاب: رواه زرارة بن أعين الشيباني الكوفي ^(٥).
 - ٦ - رسالته إلى سعد الإسكاف: رواها سعد بن طريف، الإسكاف الحنظلي ^(٦).
 - ٧ - رسالته إلى سعد الخير: وهو سعد بن عبد الملك الأموي نسباً، وهو صاحب نهر سعد بركة الكوفة، وقد رواها الكليني بسندين ^(٧).
- ما ورد عن الشهيد زيد بن علي عليه السلام (ت ١٢٢ هـ). نُقلت عنه مؤلفات عديدة:
- ١ - المجموع: سمعه منه أبو خالد الواسطي، وهو مطبوع بروايته باسم «مُسْنَدُ زَيْد» وله شروح كثيرة، منها المطبوع باسم (الرّوض النضير).

(١) الفهرست، للنديم ٣٦، تأسيس الشيعة ٣٢٧.

(٢) رجال النجاشي ١٥١ رقم ٣٩٦.

(٣) نفسه رقم ٣٩٧.

(٤) تأسيس الشيعة ٢٨٥.

(٥) نفسه/٢٨٦.

(٦) رجال النجاشي ١٧٨ رقم ٤٦٨.

(٧) الكافي ٥٢/٨ و ٥٥.

وتذكر بعض المصادر أنَّ للشَّهيد زید مجموعین فقہیَّ وآخر حدیثیَّ. ^(١) وهو من جَمع عبد العزیز البغداديَّ، طُبِعَ بالقاهرة سنة (١٣٤٠ هـ) قال محمد عجّاج الخطیب: المجموع من أجلِّ الوثائق التاريخية التي تُثبِتُ ابتداءَ التصنيف والتأليف في أوائل القرن الثاني الهجريّ بعد أن استنتجنا هذا من خلال عَرْضنا لمصنّفات ومجاميع العلماء، من غير أن نرى نموذجاً مادياً يمثّل أولى تلك المصنّفات، اللهم، إلّا موطأ مالك الذي انتهى من تأليفه قبلَ منتصف القرن الهجري الثاني، فيكون المجموع قد صُنّف قبله بنحو ثلاثين سنة ^(٢).

٢ - الاحتجاج في القلّة والكثرة:

ذكر ابن صفوان أنَّ لزید كتاباً في القلّة والجماعة. كان يستعمله في مُحاجة خصومه ويلجأ إليه. ^(٣)

٣ - الصّفوة: رسالة كلاميّة صغيرة، تبحث عن الإمامة وأحقّيّة أهل البيت عليهم السلام بها، معتمداً على آيات القرآن الكريم في بيان ذلك، مطبوعة.

٤ - قراءة عليّ عليه السلام:

نسبةً إلى زید بن عليّ في تأسيس الشيعة ^(٤) وقد ذكروا أنَّ لزید قراءة

(١) الروض النضير ٨٢/١، السّنة قبل التدوين ٣٦٩ و ٣٧١.

(٢) السّنة قبل التدوين ٣٧١. وللمزيد عن المجموع انظر: تاريخ الفقه الجعفري، للسيد الحسني ٣٠٣ - ٣٠٦.

(٣) الثّخف شرح الثّلف ٣٠.

(٤) تأسيس الشيعة ٢٨٥/٤.

خاصّة (١).

٥ - غريب القرآن:

تفسيرٌ لمفردات ألفاظ القرآن الكريم، وسمّاه بعضُ المؤلّفين بـ (غرائب معاني القرآن) (٢).
وذكر له السيّد المؤيّد مجدّ الدين تسعة مؤلّفات في علوم شتى (٣).

ما ورد عن الإمام جعفر بن محمّد أبي عبد الله الصادق عليه السلام (ت ١٤٨ هـ):

في الأحاديث:

* قال عليه السلام للمفضّل بن عمر الجعفي: «اكتب، وثبّ علمك في إخوانك، فإنّ مُتّ فأورث
كُتُبك بنيك، فإنّه يأتي على الناس زمانٌ هَرَجٌ، لا يأنسون فيه إلّا بكتبهم» (٤).
* وفي كتاب عاصم بن حميد الحنّاط، عن أبي بصير، قال: دخلتُ على أبي عبد الله عليه السلام
فقال: «دخل عليّ أناسٌ من أهل البصرة، فسألوني عن أحاديث، فكتبوها، فما يمنعكم من
الكتاب؟».

أما إنكم لن تحفظوا حتّى تكتبوا» (٥).

(١) ثورة زيد بن علي، الأستاذ ناجي حسن ٣٤.

(٢) الشّحف شرح الرّلف ٣٠.

(٣) نفسه.

(٤) الكافي ٤٢/١ كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب، الحديث ١١.

(٥) الكافي ٤٢/١ حديث ٩، البحار ١٥٣/٢.

وعن حسين الأحمسي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:
«القلب يتكلم على الكتاب»^(١).

وعن عبيد بن زرارة، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها»^(٢).

* قال الإمام الصادق عليه السلام للمفضل بن عمر في كتاب التوحيد: «تأمل يا مفضل - ما أنعم الله تقدست أسماؤه به على إنسان من هذا النطق الذي يعبر به عما في ضميره، وما يخطر بقلبه، ونتيجة فكره، وبه يفهم عن غيره ما في نفسه.

وكذلك الكتابة، التي بها تُقيّد أخبار الماضين للباقيين، وأخبار الباقيين للآتين، وبها تخلد الكتب في العلوم والآداب وغيرهما، وبها يحفظ الإنسان ذكر ما يجري بينه وبين غيره من المعاملات والحسابات ولولاه لانقطع أخبار بعض الأزمنة عن بعض، وأخبار الغائبين عن أوطانهم، ودرست العلوم...»^(٣).

* وروي عنه عليه السلام - موقوفاً عليه - أنه قال: «إذا كتبت الحديث فاكتبوه بإسناده».

وهو الحديث الذي مرّ مرفوعاً مسنداً بطريق أهل البيت عليه السلام.

* ومن حديث أبي بصير - لما استخبر الإمام الصادق عليه السلام عن أصحاب المهدي عليه السلام وبلدانهم - فقال عليه السلام: «إنك لا تحفظ، فأين صاحبك الذي كان يكتب

(١) الكافي ٤٢/١ حديث ١٠، البحار ١٥٢/٢ ح ٤٠.

(٢) الكافي ٥٢م، حديث ١٠.

(٣) توحيد المفضل ٧٩ - ٨٠، بحار الأنوار ٨٢/٣.

لك؟».

فقلت: أظنُّ شغلَه شاغلٌ، وكرهتُ أن أتأخَّرَ عن وقت حاجتي. فقال عليه السلام لرجلٍ في مجلسه: «اكتب له» ... ^(١).

ويلاحظُ في قوله عليه السلام «إنَّكَ لا تحفَظُ» أنَّه عليه السلام جعل الكتابة أمراً احتياطياً عند عدم التمكن من الحفظ، فهو يؤكِّد عليها عملياً في هذه الحالة. والمراد بقوله «لا تحفظ» أنَّ الحديث طويلٌ ويشتملُ على أسماء البلدان وأكثرها غريبةً غير متداولة، فمن البعيد أن يحفظها أبو بصير بالقاءٍ واحدٍ وسمع مرّة. وهذا يدلُّ على أنَّ مثل هذا الحديث - في الطول، والاشتغال على ألفاظ غريبة - كانوا يأخذون له مزيداً من الاحتياط بالضبط، والتسجيل، والكتابة، والتدوين! كما أنَّ قوله عليه السلام: «أين صاحبك الذي يكتب لك؟» يدلُّ على أنَّ أبا بصير، الذي كان فاقداً للبصر، كما هو المعروف، كان قد اتَّخذ له كاتباً يكتب له الحديث. ودلالة هذا الخبر على جواز كتابة الحديث، واهتمام الإمام عليه السلام بذلك واضحة جداً.

في المؤلفات:

لقد كان الإمام الصادق عليه السلام كثير الاهتمام بأمر الكُتُب وتدوينها، يُفصح عن ذلك في كلِّ زمانٍ ومكان وموقف، مستغلاً الفرص المتاحة لمثل هذا الأمر.

(١) دلائل الإمامة ن للطبري ٣٠٨.

قال محمد عجّاج: كان عند جعفر الصادق بن محمد الباقر عليه السلام رسائل، وأحاديث، ونُسَخ ^(١).

وقد أثار هذا الجانب حفيظة بعضهم، فكان يُشيرُ إلى الإمام الصادق عليه السلام بأنه «صُحفيٌّ» أي يأخذ علمه من الكتب!

وكان الإمام عليه السلام يفتخرُ بذلك فلمّا بلغه كلام أبي حنيفة هذا، ضحك وقال: ...، أمّا في قوله «أنا رجلٌ صحفيٌّ» فقد صدق! قرأتُ صحف آبائي، وإبراهيم، وموسى ... ما نُسب إليه عليه السلام من المؤلفات:

١ - التوحيد:

كتابٌ أملاه عليه السلام لى المُفضَّل بن عمر الجعفي الكوفي يحتوي على بيان عقيدة التوحيد، بالنظر والفكر، ويسمى بكتاب «فَكْر» لأنَّ الإمام عليه السلام يقولُ فيه المُفضَّل مكرراً: «فَكْرٌ مُفضَّل» ^(٢). وهو مشهور متداول، ويُعدّ من أفضل الكتب المؤلفة في باب التوحيد المرشدة إلى وحدانيّة الباري عزّ وجلّ.

وقد طُبِعَ أكثر من مرّة باسم «توحيد المُفضَّل» وأدرجه المجلسي في البحار مع الشرح والبيان ^(٣).

(١) السّنة قبل التدوين ٣٥٨، تهذيب التهذيب ١٠٤/٢.

(٢) روضات الجنّات، للخوانساري ١٦٩/٨، قاموس الرجال ٣٤٣/٨.

(٣) بحار الأنوار ١٥١/٢ - ١٥٧.

٢ - الإهليلجة في التوحيد:

رسالة كتبها الإمام الصادق عليه السلام، ردّاً على الملحدين المنكرين للربوبية، احتجاجاً عليهم، وأرسلها إلى المفضل بن عمر، المذكور ^(١).

٣ - الأهوازية:

رسالة مفصلة كتبها الإمام عليه السلام جواباً لأسئلة عبد الله النحاشي والي الأهواز، تحتوي على جملة من التعاليم الأخلاقية. أوردها السيد محيي الدين ابن زهرة في أربعين ^(٢).

٤ - رسالة إلى أصحابه عليه السلام:

كتبها لهم في الإرشاد إلى السيرة الحسنة، والسلوك الديني. أوردها الكليني في الكافي ^(٣).
(٥) الجعفریات:

مجموعة من أحاديث الأحكام، مرتبة على أبواب الفقه، رواها عن الإمام الصادق عليه السلام، ابنه الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وأحاديثه كلها مسندة عن آباءه، أو مرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولأن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام هو مجمع الأحاديث كلها، فإنّ الكتاب

(١) الذريعة ٤٨٤/٢، بحار الأنوار ١٥٢/٣، ١٩٦.

(٢) الأربعون حديثاً، لابن زهرة ٤٦ - ٤٧ ح ٦ وعنه الشهيد في كشف الرية ١٢٢؛ بحار الأنوار ١٨٩/٧٧، الذريعة ٤٨٥/٢.

(٣) الكافي، قسم الروضة ٢/٨ - ١٤.

سُمِّيَ بـ (الجعفرَيَّات) ^(١) .

وهناك مجموعة من الكتب نسبها إليه الرواة منها.

١ - وصية النبي ﷺ : ذكرها الإشبيلي في فهرسة ما رواه، وأورد طريقه إلى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ^(٢) . وذكره الطيبي في الخلاصة ^(٣) .

وذكره من أعلامنا، أحمد بن محمد، أبو غالب الزراري (ت ٣٦٨) في فهرست ما رواه، قال: عن أبي العباس ابن عقدة، وعلى ظهره إجازته لي جميع حديثه لي، بخطه ^(٤) .

وقد أسند الصدوق إلى ما سماه (وصية النبي ﷺ لعلي عليه السلام) من طريق أهل البيت عليه السلام ^(٥) .

٢ - كتاب الحج:

رواه أبان بن عبد الملك الثقفي ^(٦) .

٣ - مناسك الحج وفرائضه، وما هو مسنون في ذلك:

سمعه كله من الإمام عليه السلام رواية عمر بن محمد أبو الأسود، يتبع السابري،

(١) الذريعة ١٠٩/٢ رقم ٤٣٦ .

(٢) الفهرسة، لأبي خير الأندلسي ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٣) الخلاصة في علم الحديث، للطبي ١٠ .

(٤) رسالة أبي غالب الزراري في آل أعين ١٨١ رقم ١٠٧ .

(٥) من لا يحضره الفقيه ١٣٤/٤ .

(٦) رجال النجاشي ١٤ رقم ٩ .

ذكره النجاشي، ورواه بثلاثة أسانيد ^(١).

٤ - كتاب مَبُوبٌ في الحلال والحرام.

رواه إبراهيم بن محمد، أبو إسحاق المدني ^(٢).

٥ - كتاب نوادر: رواه داود بن عطاء المدني ^(٣).

وعدد ما يندرج تحت عنوان «كتاب» و «نسخة» وكلها للإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام كثير غير ما ذكرنا.

ولقد بلغت حركة التأليف قوتها في عهد الإمام الصادق عليه السلام ببركة توجيهاته وإرشاداته القيمة، فكان في تلامذته الكثيرون ممن ألفوا الكتب، ودوّنوا الحديث في المصنّفات والمسانيد ^(٤).

ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام (ت ١٨٣ هـ)

١ - الأقوال:

عن زيد النهشلي، قال: كان جماعة أبي الحسن عليه السلام من أهل بيته وشيعته يحضرون مجلسه، ومعهم في أكمامهم ألواح أبنوس لطاف وأميال، فإذا نطق أبو الحسن عليه السلام، بكلمة أو أفق في نازلة؛ أثبت القوم ما سمعوا منه في ذلك ^(٥).

(١) نفسه ٢٨٣ رقم ٧٥١.

(٢) نفسه ١٥ رقم ١٢.

(٣) نفسه ١٥٧ رقم ٤١٢.

(٤) المصطلح الرجالي ١٢٢، ١١٢٥.

(٥) مُهَجُّ الدعوات، لابن طاووس ٢١٩ - ٢٢٠.

وقد أثرت عنه عليه السلام المؤلفات التالية:

١ - مسند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام:

مجموعة من الروايات المسندة المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله، التي أسندها الإمام الكاظم عليه السلام بطريق آبائه عليهم السلام. رواها عنه موسى بن إبراهيم، أبو عمران المروزي، البغدادي؛ قال: إنه سمعها من الإمام عليه السلام عندما كان الإمام في سجن هارون العباسي. ذكره الطوسي^(١) والنجاشي^(٢).
وقد طبع الكتاب عدة طبعات في: النجف الأشرف، وبطهران، وفي أمريكا وفي بيروت.
وللإمام الكاظم عليه السلام مسائل وكتب ورسائل؛ رواها أصحابه (انظر رجال النجاشي والكاظمي...).

ما ورد عن الإمام علي بن موسى أبي الحسن الرضا عليه السلام (ت ٢٠٢ هـ).

١ - الأقوال:

١ - قال الراوي: كتبت على ظهر قِرطاسٍ: «إنّ الدنيا ممثلةٌ للإمام كَفَلَقَةِ الجَوْزَةِ» فدفعته إلى أبي الحسن عليه السلام، وقلتُ: جعلتُ فداك، إنّ أصحابنا رَوَوْا حديثاً ما أنكرته، غير أنّي أحببتُ أن أسمعَهُ منك!.

قال: فنظر فيه، ثم طواه... ثم قال: هو حقٌّ فحوّله في آدم. وفي نقلٍ آخر،

(١) الفهرست، للطوسي ١٩١ رقم ٧٢١.

(٢) رجال النجاشي ٤٠٧ رقم ١٠٨٢.

قال: وهو حقّ، فانقلوه إلى أديم^(١).

٢ - وفي تفسير قوله تعالى: (وَكَانَ تَحْتَهُ كَوْهًا لَّهُمَا)^(٢).

قال عليّ بن أسباط: قلتُ له عليه السلام: جعلتُ فداك، أريد أن أكتب.

قال: فضرب يده إلى الدواة، فتناولتُ يده، فتناولتها، وأخذتُ الدواة، فكتبته^(٣).

٣ - عن أحمد بن عمر الحلال، قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: الرجل من أصحابنا

يُعصيني الكتاب، ولا يقول: إرؤه عني؛ يجوز لي أن أرويّه عنه؟

قال: فقال: «إذا علمت أن الكتاب له، فارؤه عنه»^(٤).

وقد نُسبت إلى الإمام الرضا عليه السلام:

١ - صحيفة الرضا عليه السلام:

ويُسمّى أيضاً: (مُسْنَدُ الإمام الرضا عليه السلام).

وهو مجموع ما أسنده الإمام عليه السلام عن آبائه عليهم السلام، برواية العديد من أصحابه،

وأشهرهم أحمد بن عامر بن سليمان الطائي.

وهذه الصحيفة مشهورةٌ متواترةٌ النقل عنه عليه السلام، لدى كافة الطوائف الإسلامية، فلها طُرُق

كثيرة عند الشيعة الإمامية، والزيدية، كما هو عند العامة.

(١) الاختصاص، للمفيد ٢١٧، بحار الأنوار ١٤٥/٢ ح ١١ و ١٢.

(٢) الكهف: ٨٢.

(٣) بحار الأنوار ٢: ١٤٦.

(٤) الكافي ٥٢/١ ح ٦، روضة المتقين، للمجلسي ٢٦/١.

وذكرها أربابُ الفهارس، والمعاجم ^(١).

وقد طُبعت عدّة طبّعات ...

٢ - الرسالة الذهبيّة:

رسالة في بعض النصائح الطيّبة، كتبها الإمام عليّ بن أبي حمزة الثماليّ للمأمون العبّاسيّ فأمر هذا بكتابتها بماء الذهب؛ فسُمّيت بالذهبيّة. وهي مطبوعة.

٣ - أمالي الإمام الرضا عليّ بن موسى:

رواه أبو الحسن عليّ بن عليّ الخزاعيّ، أخو دُغبل الشاعر، قال: حدّثنا أبو الحسن عليّ بن موسى الرضا عليّ بن موسى، بطُوس، إملاءً، في رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، قال: حدّثني أبي موسى بن جعفر ... أورد ذلك الشيخ الطوسي، ونقل عنه أحاديث عديدة ^(٢). ولعلّ هذا الكتاب هو الذي ذكره النجاشي، وأنّ الخزاعي رواه عن الإمام ^(٣).

٤ - كتاب الإهليلجة:

نُسب إليه عليّ بن أبي حمزة.

قال السيّد الأمين، فيه حُجَجٌ بالغة ومطالبٌ جليّة في علم الكلام.

وله عليّ بن أبي حمزة مجالس وكتب ومساائل ونُسخ، مذكورة في كتب الرجال.

(١) رجال النجاشي ١٠٠ رقم ٢٥٠، الذريعة ١٥/١٧ و ٢١/٢٦ و ٢٤/١٤٩. أعيان الشيعة ١ ق ١/٣٧٤.

(٢) أمالي الطوسي ٣٧٠ - ٣٨٢.

(٣) رجال النجاشي ٢٧٧ رقم ٧٣٧.

ما ورد عن الإمام أبي جعفر محمد بن عليّ الجواد عليه السلام (ت ٢٢٠ هـ).

عن محمد بن الحسن بن أبي خالد، شَيْئُوْلَة، قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: جُعِلْتُ فداك، إنَّ مشايخنا رَوَوْا عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام، وكانت التَّقِيَّة شديدةً، فكتبوا كتبهم، فلم تُرَو عنهم، فلمَّا ماتوا صارت الكُتُب إلينا؟ فقال: «حدِّثوا بها، فإنَّها حقٌّ» ^(١).

ما ورد عن الإمام عليّ بن محمد أبي الحسن الهادي عليه السلام (ت ٢٥٤ هـ).

نُقلت عنه الكتب التالية:

- ١ - رسالة الردّ على أهل الجبر والتفويض ^(٢).
- ٢ - كتاب في أحكام الدين.
- ذكره السيد العامليّ ^(٣).
- ٣ - نسخة: رواها أبو طاهر، ابن حمزة بن اليسع، أخو أحمد ^(٤).
- ٤ - نسخة: رواها عيسى بن أحمد بن عيسى بن المنصور، السرّ من رأيي ^(٥).
- ٥ - نسخة: رواها عليّ بن الريّان بن الصلّت الأشعريّ القميّ ^(٦).

(١) الكافي ٥٣/١ ح ١٥ وعنه في بحار الأنوار ١٦٧/٢.

(٢) أعيان الشيعة ٣ ق/٣٨٠.

(٣) نفسه.

(٤) رجال النجاشي ٤٦٠ رقم ١٢٥٦.

(٥) نفسه ٢٩٧ رقم ٨٠٦.

٦ - مسائل: رواها عليّ بن جعفر الهُماني البرمكي. ^(٢)

ما ورد عن الإمام الحسن بن عليّ أبي محمد العسكري عليه السلام (ت ٢٦٠ هـ).

١ - عن داود بن القاسم الجعفريّ، قال: عرضتُ على أبي محمد صاحب العسكر عليه السلام (كتاب يوم وليلة) ليونس، فقال لي: «تصنيفٌ من هذا؟». فقلتُ: تصنيفُ يونس مولى آل يقطين.

فقال: «أعطاه الله بكلّ حرفٍ نوراً يوم القيامة» ^(٣).

والمأثور عنه من الكتب:

١ - كتاب المنقبة:

قال الشيخ الطهراني: المشتمل على أكثر الأحكام، ومسائل الحلال والحرام ^(٤).

٢ - نسخة: رواها عبد الله بن محمد، أبو معاذ الحويمي ^(٥).

٣ - مسائل: رواها محمد بن سليمان الرزاري، جدّ أبي غالب ^(٦).

٤ - مسائل: رواها محمد بن الريّان بن الصّلت الأشعري القميّ ^(٧).

(١) نفسه ٢٧٨ رقم ٧٣١.

(٢) رجال النجاشي ٢٨٠ رقم ٧٤٠.

(٣) نفسه ٤٤٧ رقم ١٢٠٨، بحار الأنوار ١٥٠/٢ ح ٢٥.

(٤) الذريعة ٢٣: ١٤٩.

(٥) نفسه/١٥٢.

(٦) رجال النجاشي ٣٤٧ رقم ٩٣٧.

ما ورد عن الإمام محمد بن الحسن المهدي المنتظر عليه السلام

فقد خرجت من ناحيته المقدسة أجوبة المسائل مكتوبة بشكل «توقيعات» على الأسئلة الموجهة إلى ناحيته المقدسة. وقد جمعها عدة من العلماء منهم: أبو العباس الحِمَيري، عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك بن جامع، القمي - من أصحاب الإمام أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام - المتوفى سنة ٢٩٩ هـ^(١) ومن خلال العرض السريع لروايات أئمة أهل البيت عليه السلام وجدنا إجماعهم جميعاً مع جواز التدوين قولاً وعملاً.

عصره السياسي

امتدت حياة ابن تيميه (٦٦١ - ٧٢٨ هـ) في العصر المماليكي الأول، عصر المماليك البحرية الذي ابتدأ بسيطرتهم على مصر سنة ٦٤٨ هـ، ثم بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ حتى كانت نهايتهم في سنة ٧٨٤ هـ ليبتدئ عهد المماليك البرجية، وحتى عام ٩٢٣ هـ حيث نهاية دولتهم على أيدي العثمانيين.

قام العصر المملوكي الأول على أنقاض الدولة الأيوبية التي حكمت مصر والشام منذ عام ٥٦٧ هـ، حيث كانت نهاية العهد الفاطمي الذي امتد قرابة ثلاثة قرون (٢٩٦ - ٥٦٧ هـ) حتى أنهكت الحروب المتوالية، فبعد السلاجقة الذين بسطوا سلطانهم على بغداد سنة ٤٥١ هـ، ثم اندفعوا نحو الشام ينازعون الدولة

(١) نفسه ٣٧٠ رقم ١٠٠٩.

(٢) رجال النجاشي ٢٢٠ رقم ٥٧٣.

الفاطميّة ...، بعد ذلك كانت الحروب الصليبيّة التي ابتدأت في سنة ٤٨٨ هـ بمهاجمة الثغور الشاميّة في آسيا الوسطى، ثمّ انحدر الصليبيّون نحو الرّها التي أصبحت ولايتهم الثانية، كلّ ذلك انتزعوه من السلاجقة، ثمّ انحدروا جنوباً فانتزعوا من الفاطميّين مدن الساحل ووادي نهر العاصي، وحاصروا القدس أربعين يوماً حتّى تمكّنوا منها في شهر رجب من سنة ٤٩٢ هـ، فأشاعوا فيها الذبح الذريع دون تمييزٍ في سنٍّ أو جنس - شبيه ذلك وقعة الحرّة! -

ومن الطريف أنّ صلاح الدين الأيوبيّ الذي خطّط مبكّراً لإنهاء الحكم الفاطميّ؛ تردّد كثيراً في قطع الخطبة الفاطميّة، حتّى انبرى لها أعجميّ يدعى نجم الدين الخبشاني، فخطب للمستضيء العبّاسيّ الذي لا يعدو كونه رمزاً ضعيفاً مقيداً في بغداد بعيداً عن كلّ ما يجري. فانفرد صلاح الدين بملك مصر موجّهاً أنظاره نحو الشام حتّى ضمّها إليه بموت نور الدين سنة ٥٦٩ هـ ليؤسّس الدولة الأيوبيّة في مصر والشام.

ثمّ توجّه صوب الصليبيّين فأفلح في طردهم من معظم المدن التي احتلّوها، ولم يبق في أيديهم من المدن الكبرى سوى صور وطرابلس وأنطاكية. ولكن بعد مضيّ صلاح الدين بدأ النزاع بين بنيه وأخيه العادل وأبناء أخيه، واشتدّ النزاع بين خلفهم، وكلّما أحسّ أحدهم بالضعف استعان بالصليبيّين على أخيه أو ابن عمّه ومنحهم ما لا يملكون من المدن، حتّى استعادوا أغلب ما انتزعه منهم صلاح الدين، وحتّى القدس، تخلّى لهم عنها الملك الكامل ابن العادل على أن ينصروه على الدّ خصومه، أخيه! صاحب دمشق.

فلما اشتدّ النزاع بين بني أيّوب عمد ملوكهم إلى شراء ممالك من الأتراك يقومون على حراستهم، واستكثر منهم الملك الصالح في سنة ٦٤٧ هـ وأقطعهم الأراضي ومنحهم جزيرة بحر النيل (روضة نهر النيل)، فمن أجل ذلك سُمّوا بالمماليك البحريّة. وازداد نفوذهم حتّى تمكّنوا بعد موت الملك الصالح في سنة ٦٤٧ هـ بأشهر فقط من قتل ابنه طوران شاه سنة ٦٤٨ هـ ليؤوّل ملك الأيوبيّين إلى الإمراة شجرة الدرّ زوجة الملك الصالح، فكانت آخر رموز الأيوبيّين، أوّل ملكة في تاريخ الإسلام.

ولأجل أن تحظى بتأييد الخليفة العبّاسي الرمز! في بغداد؛ اتخذت عزّ الدين أيّك المملوكي زوجاً وجعلت منه وجهاً صورياً للحكم، حتّى دسّت له مَن قتله في الحمّام، فهاج عليها المماليك فقتلوها ونصبوا سيف الدين قُطز المظفر المملوكي، وخطبوا له بالسلطنة كأوّل سلطان فعليّ للمماليك في سنة ٦٥٧ هـ، بعد عام واحد على سقوط العاصمة العبّاسيّة بغداد بأيدي التتار المغول واجتياحهم مدن الشام والإجهاز على بقايا الدولة الأيوبيّة هناك.

وفي أقلّ من سنة مرّت على سلطنته استطاع قُطز أن يهزم التتار في معركة عين جالوت الشهيرة. ولم يمض على ملكه غير أحد عشر شهراً حتّى قتله الظاهر بيبرس، ليجلس على كرسيّ السلطنة سنة ٦٥٨ هـ وكان بيبرس أقوى سلاطين المماليك على الإطلاق وأحسنهم سيرةً، وقد حاول أن يعيد الرمز العبّاسيّ حين عثر على رجل جاء به بعض الأعراب فزعموا أنّه من البيت العبّاسيّ نجا بنفسه فارّاً من بغداد إثر الغزو التتري، فبايعه بالخلافه وأرسله على

رأس جيش إلى بغداد ليجدد عهد آبائه، غير أنّ التتار قتلوه غربي بغداد وأفنوا جنده. وواصل الظاهر بيبرس مطاردة التتار في بلاد الشام، كما أفلح في دحر الصليبيين واسترجاع معظم ما احتلّوه، حتى استعاد منهم أنطاكية التي عجز عن استعادتها صلاح الدين، وكادت تستوي له جميع بلاد الشام، حتى كانت وفاته سنة ٦٧٦ هـ؛ لبيتدئ بعده عهد من الفتن وتعدّد الملوك وشيوع القتل بينهم وكانوا على الترتيب:

السعيد بركة ابن الظاهر بيبرس: خلعه أمراء العسكر سنة ٦٧٨ هـ.

سلامش بن بيبرس: كان عمره سبع سنين، وخُلِع بعد أربعة أشهر.

قلاوون المنصور: كان سلطاناً قوياً انتظم على عهده أمر البلاد حتى وفاته سنة ٦٨٩ هـ، وهو ثاني من مات على السلطنة بعد الظاهر بيبرس، في حين توزّع الآخرون بين مقتول ومخلوع.

الملك الأشرف ابن قلاوون: انتزع عكاً من الإفرنج واستعاد كامل البلاد الساحلية، وقُتِل في سنة ٦٩٣ هـ على أيدي مماليك أبيه.

بيدرا القاهر: ملك أقل من أسبوعين فقتله مماليك أبيه.

الملك الناصر ابن المنصور قلاوون: وفي عهده هذا غزا التتار البلاد سنة ٦٩٩ هـ؛ واحتلّوا حلب وحماه ودمشق وغزة والقدس والكرك وهزموا الملك الناصر إلى مصر، فأعاد عليهم الكرة في العام التالي في جيش قاده سالار وزميله بيبرس، فاستعادوا البلاد وهزموا التتار. بيبرس: القائد، وزميله سالار اتفقا على خلع الناصر سنة ٧٠٨ هـ واستقلاً

في الحكم عاماً واحداً.

الملك الناصر: عاد إلى السلطنة سنة ٧٠٩ هـ وأقصى بيبرس، وصحبه سالار هذه المرة من جديد، واستوت له البلاد، وعَدِم المنافسين؛ فكان آخر سلطان يعاصره ابن تيميه. تتميز هذا العهد بغلبة السيف على الوراثة في الحكم، وتجسّد التجزئة السياسية بغياب الرمز العبّاسي إلى الأبد، تلك التجزئة التي كانت قد ابتدأت في الواقع منذ فقد البيت العبّاسي هيمنته، حيث كان أحمد الراضي - المتوفى سنة ٣٢٩ هـ - آخر خليفة عبّاسي ينفرد بتدبير الجيوش والأموال والسياسة، وآخر من خطب على المنبر يوم الجمعة من بني العبّاس^(١). إنّ ابن تيميه الذي ورث الناصبيّة الخارجيّة التي تحدّثنا عنها، ولم تُسغه أُسرّةً بالتربية الصالحة؛ فقد وجدناها مفكّكة لا تعرف لها انتماءً قبلياً تعتزّ به، وإنّما هي تنتهي إلى امرأة واعظة اسمها: تيميه؛ مع تشكيك جدّهم الذي وضع لهم شجرة نسبهم المقطوعة! هل أنّ تيميه هي الجدّ الرابع أو دونه؟! ثمّ لم يكن لهم حظّ من العلم: فجّدّ حسودٌ وإن كان واعظاً، متى حلّ بحران واعظٌ ما زال وراءه حتّى أخرجه منها! وجدّ آخر أقلّ شراً وإن لم يكن يعرف بعلم، وأمّا أخوه، فلا له ولا عليه، وهو القائم على شؤون أخيه المعاشيّة لأنّ الأخير مشغول بالفتن والحروب الكلاميّة...، ثمّ وهو صبيّ حامت الشكوك حوله في ارتياد الأماكن السريّة للصابئة وماذا كانوا يفعلون بالصبيان ممّا يُؤثّر على عقولهم سلباً.

(١) باختصار شديد عن تاريخ ابن الوردي ج ٢: ٩٧ - ٢٤٧.

وقلنا هناك أنّ المشار إليه أمضى في حَرّان التي كانت أشدّ الأقطار ناصبيّة حتّى أنّها لم تخضع لدستور عمر بن عبد العزيز في رفع السبّ عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام .

فتأزرت عوامل الوراثة مع عامل البيئة المصطبغة بألوان الديانات من يهوديّة ونصرانيّة وصابئة وكانت الأخيرة أكثر انتشاراً، مع عامل الأسرة وروح التمرد لدى الصبيّ، في عمر أكثر ما يكون فيه الإنسان قابلاً على التلقّي والأخذ، وعامل آخر قد ذكرناه في جملة هذه العوامل سابقاً - ولكن للتذكير - هو عدم زواجه الذي لا نعلم سببه؟! فعلّه لو تزوّج لحقّت حدّته وانشغل عن الناس قليلاً؛ والله أعلم.

وما رآه من هجوم المغول على حَرّان، ففرت أسرته تحمله وحطّت رحالها في دمشق. ولم تذق أسرة ابن تيمّيه طعم الأمان في دمشق بسبب الحروب والتقلّبات السياسيّة، فتارة الصولة للصليبيّين، وأخرى للتتار، ومرة للفاطميّين، وأخرى للمماليك، ثمّ عودة للرمز العباسيّ، مضافاً إلى السلاجقة ... وينتصر أحد بالصليبيّين على ابن عمّه ويعطيهم مقابل النصر مدناً شاميّة، وهكذا.

إنّما نذكر هذه الأمور لتأثيرها السلبيّ في العائلة التي فرت من الحروب لتجد أشدّ منها ممّا حملها على أن ترحل إلى مصر، فلم تكن الأخيرة بعيدة عن تلك المؤثرات فعادت إلى دمشق. وكان تأثير تلك الأحداث أكثر في النفس المضطربة لابن تيمّيه والذي

يهَمُّنا من هذه المسألة أنَّ الرجل المزدوج الشخصية المضطرب لمجموع الأسباب التي ذكرناها؛ قد دخل حروباً كلامية مع الفرق الإسلامية على نهج الخوارج! والغريب في الأمر أنَّه اختصَّ بالقسط الأوفر منها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم وعلّمتهم الجليل: العلامة الحليّ مع بُعد الشُّقَّة بينه وبينه، فابن تيمية، والحليّ في العراق! وقبل الولوج في هذا الأمر الذي هو الباعث الواقعي لهذه الدراسة، نتكلّم موجزاً عن الحالة الاجتماعية لدمشق في عصر ابن تيمية:

عصره الاجتماعي والثقافي

ماذا ينتظر مجتمعاً ضربته الفتن بأجرائها وتعاقبت عليه العصور لا يرى فيها من الاستقرار إلّا كطيف الوسنان المسهّد ح وتعاقبت عليه ملوك وأمراء لا يرون له حقّاً ولا يرعون له ذمّةً ولا يفهمون للأمان معنىً إلّا ما حاط قصورهم!.

أمراء وسلّاطين لا يعرفون حدّاً من حدود الله تعالى؛ يتنازعون الملك تنازع الصبيان على لُعبيهم، ولا فرق عندهم أن تُراق الخمرة على موائدهم أو تُسفك الدماء تحت حوافر خيولهم!. فماذا ينتظر المجتمع إذن وحاكموه هكذا؛ غير الفقر والجهل والبلاء؟ ففي سنة ٦٥٦ هـ اشتدّ الوباء بالشام وخصوصاً بدمشق حتّى عزّ مغسلوا الموتى.

وفي سنة ٦٨٠ هـ غرقت دمشق.

وفي سنة ٦٩٤ هـ جفّت مصر جفافاً هائلاً تبعه غلاءٌ فاحش حتّى أُكلت الميتة.

وفي سنة ٧١٨ هـ وقعت مجاعة في شمالي بلاد الشام والموصل كانت سبباً لجلاء الناس وموت الكثير منهم، وغلاء فاحش حتى بائع الأمهات أولادها للنصارى! فإذا امتنع من شراء الأولاد جعلت المرأة نفسها نصرانيةً ليرغب في الشراء!.

وفي سنة ٧٢٠ هـ زلزلت مصر والشام.

وفي سنة ٧٢٤ هـ غرقت مصر.

واستشرى الجهل، الوليد الطبيعي للفقير، وشاعت أساليب جديدة من التكسب، فتكسبوا بالشعر، وبالخرافات والأباطيل، كما تكسبوا بالمنكرات كالخمرة والحشيشة، وصارت الحشيشة جزءاً من ثقافة الأدباء والشعراء، وفاضلوا بينها وبين الخمرة وأكثروا من ذلك حتى سقط في شراكها ذوو وجاهة، كعالم الدين أحمد بن يوسف (٦٨٨ هـ) الذي عُرف فيما بعد بالشيخ الماجن ومن قوله فيها:

يا نفسِ ميلي إلى التصابي فاللهو منه الفتي يعيشُ
ولا تملّي من سُكرِ يومٍ إنْ أعْوَرَ الخمرُ فالحشيشُ^(١)

ومع ذلك فإنّ السواد الأعظم من المسلمين كان يستنكر تلك المظاهر ويتأذى منها ... ففي سنة ٦٩١ هـ رفع أهل معرة النعمان دعاوى إلى الملك الأشرف مطالبين بإبطال الخمارة، فأبطلت وخُربت من ساعتها.

(١) البداية والنهاية ١٣: ٣٣٣.

وفي سنة ٧٢٠ هـ أريقَت الخُمور في خندق قلة المدينة السلطانية وأُحرقت الظروف، وذلك أنَّه وقع بَرْدٌ كُبار أهلِكَ المواشي وأعقبه سيلٌ مخوف، فسأل السلطان الفقهاء عن سببه، فقالوا: من الظُّلم والفواحش. فأبطل الحانات في مملكته، وأبطل مكس - ضريبة - الغلَّة الذي كان يُثقل كاهل الناس.

وبين الفقر والجهل تجد الخرافات والأباطيل أرضها الخصبة لتنمو، والناس حينئذٍ أشدَّ تعلقاً بها من تعلقهم بالحقائق وبضرورات الدين المُسندة، ففُتِحَ بذلك بابٌ جديد للتكسب كان ضحيَّته السُّدج على الدوام. وتواترت أخبار العوام برؤية المنامات، وكثرة الظواهر، وتحدّثوا بقيام المرضى والزَّمنى وفُتِحَ أعين الأضرَّاء عند قبور اكتشفوها في المنامات، ونقل بعض عن بعض أشياء لا أصل لها ... وبطل الناس من معاشهم وأشغالهم بسبب ذلك ...^(١).

وترقَّى الخيال ببعض المتكسِّبين، فادَّعوا علم النجوم، ورموا تقاويم كتبوا عليها أحكاماً بحسب الأبراج، فمنعهم السلطان من ذلك سنة ٧١٨ هـ وشاء الله أن يبير تجارتهم فأشاعوا أنَّ الشمس ستكسف في دمشق في الساعة السابعة بعد الظهر من يوم الخميس الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٢٦ هـ، وذكروا أنَّ ذلك ثابت في جميع التقاويم وأنَّه حساب لا يُجْرم. فتهيَّأ الناس للصلاة فلم

(١) الحوادث الجامعة، لابن الفوطي ١٩٤. (وقد أفرَدنا فصلاً كاملاً في كتاب منهاج السالكين، في الردِّ على ابن القيم، فيه كثير من عظام تلك الخرافات فهذا يحیی عظام دجاجة فيردّها سالمة، وآخر من كرامته أن الله تعالى ينزل لزيارته في قبره!!...).

تنكسف الشمس، بل انكسف المنجّمون ^(١)! وفي أجواء الفقر والبليلة يكثر اللصوص وقطّاع الطُّرُق، وهذا ما حصل في تلك السنين إذ قُطع طريق الحاجّ عدّة مرّات. وإلى جانب ذلك كانت طبقات منعمة أولهم السلطان والمقرّبون إليه، ثمّ الولاة والأمراء ونوّابهم وحرسهم. ثمّ طبقة القضاة وكثير من الفقهاء الذين كانوا يحظون بعناية السلطان والولاة، وعدد من رجال الدين أطلق عليهم طبقة (المُعَمِّين).

عصره العلمي والأدبي

نشط التأليف في هذا العصر نشاطاً ملموساً. ومن أبرز ما ظهر فيه التأليف الموسوعيّ الذي كان رائده نصير الدين الطوسيّ (٦٧٢ هـ) الذي ألّف في الفقه وفي الفلسفة والرياضيّات والفيزياء والفلك والطبّ وعلم المعادن؛ وكان صاحب أكبر مرصد فلكيّ أنشأه بنفسه في ذلك العصر. وظهر علماء آخرون كتبوا في علوم متعدّدة، منهم: زكريّا بن محمّد القزوينيّ (٦٨٢ هـ) وجمال الدين الوطواط (٧١٨ هـ) و أبو حيّان الأندلسيّ (٧٥٤ هـ). ويرع في الطبّ: ابن النفيس (٦٨٧ هـ) مكتشف الدورة الدموية الصغرى. وفي الفيزياء: العالمان الكبيران: قطب الدين الشيرازيّ (٧١٠ هـ)، وتلميذه كمال الدين الفارسيّ (٧٢٠ هـ).

(١) تاريخ ابن الوردي ٢: ٢٧٠.

وفي الرياضيات: سعيد بن محمد الصفديّ (٧١٢ هـ).
وفي علم الاجتماع وفلسفة التاريخ: ابن الطقطقي (٧٠٩ هـ) في كتابه (الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية) وكان سابقاً لابن خلدون.
وفي اللغة: بعد أبي حيّان الأندلسي كان ابن منظور (٧١١ هـ)، ثمّ ابن هشام الأنصاريّ (٧٦١ هـ).

وبرز من المؤرّخين عدد كبير، كأبي شامة (٦٦٥ هـ)، وابن العديم (٦٦٦ هـ)، وابن خلّكان (٦٨١ هـ)، وابن الفوطي (٧٢٣ هـ) ن والمزّي (٧٤٢ هـ)، والذهبيّ (٧٤٨ هـ)، وآخرون.
وأما أوسع الناس تصنيفاً في العلوم الدينية خاصّة كالفقه والأصول والتفسير والحديث فكان: العلامة ابن المطهر الحلّي (٧٢٦ هـ) وله تأليف أخرى كالمهتة والرياضيات والفلسفة، شرح فيها كثيراً من كتب شيخه نصير الدين الطوسيّ حتّى قيل: لو لا شرح ابن المطهر لم يفهم أحد كلام نصير الدين.

وإمام الزيدية يحيى بن حمزة المؤيد بالله (٦٦٩ - ٧٤٩ هـ) والشيخ عليّ بن عبد الكافي السبكي (٦٨٦ - ٧٥٦ هـ) إمام الشافعية، وله نح من مائة وخمسين مصنّفاً في العلوم الدينية.

عصره الدينيّ

الحالة الدينية في هذا العصر مليئة بكلّ ما هو مثير.
فالعصر الذي شهد سقوط عاصمة الخلافة على أيدي التتار المغول وما تبعه

من دمار وخراب، شهد أيضاً تدفق هؤلاء التتار سلاطين وجنوداً إلى اعتناق الإسلام وتطبيق شيء من أحكامه.

والعلاقة بين الديانات السماوية الثلاث كانت على أسوأها، لما شهدته اليهود والنصارى من دعم وحماية من قبل الصليبيين ثم التتار - قبل إسلامهم فحلف ذلك فتناً كثيرة، ومذاهب إسلامية منحرفة نشطت أهمها:

١ - الإسماعيلية: وهي فرقة شيعية قديمة نسبياً شذت بعد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، وكان لها شوكة ونفوذ، ومركزها في سلمية من نواحي حمه، والمذهب الإسماعيلي هو مذهب الدولة الفاطمية التي حكمت قرابة ثلاثة قرون، وعُرفوا بالباطنية لإغراقهم في الباطن.

٢ - الكرامية: فرقة من العامة تقول بالتجسيم والتشبيه، تسربت عقائدهم حتى إلى بعض خصومهم، ومن ذلك قولهم باستقرار الله تعالى على العرش مماساً له من جهته العليا، وجوزوا عليه الانتقال والتحول والنزول. تعالى الله عما يصفون.

٣ - النصيرية: فرقة من غلاة الشيعة، زعمت أن الروح الإلهية حلت في الإمام علي عليه السلام، ثم اعتقدوا أن ابن ملجم هو أفضل أهل الأرض لأنه خلص روح اللاهوت من ظلمة الجسد، وكان لهم في هذا العصر قوة أزعجت السلطان فوجه إليهم جيشين لمقاتلتهم، مرة سنة ٧٠٥ هـ ومرة سنة ٧١٧ هـ.

٤ - اليزيدية: أو العدوية، نسبة إلى الشيخ عدي بن مسافر المرواني الأموي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ وكان صوفيّاً استوطن أرض الأكراد في الجزيرة الشامية

(الحدود العراقية السورية). وكان يعتقد في يزيد بن معاوية أنّه إمام حقّ وابن إمام، فغلا فيه أتباعه من بعده وكان لهم انتشار وفِتن في تلك الديار، وديار بكر وبلاد الأرمن من آسيا الوسطى. وانتشر التصوّف انتشاراً هائلاً، ساعده على ذلك الجهل العامّ بفحوى الدين وأهدافه الكبرى، في أجواءٍ من اليأس والقنوط والخمول، مع تأييد السلاطين لذلك خدمةً لحكمهم. وهذا لا يعني أنّ التصوّف كان منسجماً على الدوام مع السلطة، فمن شيوخيهم من أُوذي وسُجن، كالشيخ السهروردي (٥٨٧ هـ) والشيخ محيي الدين بن عربي (٦٣٨ هـ) والشيخ خضر العدوي (٦٧١ هـ) ... ومهما يكن فإنّ انتشار التصوّف يُعدّ من أبرز الظواهر الدينيّة في ذلك العصر.

المذاهب الكبرى

شهدت دمشق في هذا العصر حدثاً جديداً، فقد أنشأ الظاهر بيبرس نظاماً جديداً يقضي بتعيين أربعة قضاة موّرعين على المذاهب الأربعة، وطبّق هذا النظام في القاهرة سنة ٦٦٣ هـ، ثم في دمشق سنة ٦٦٤ هـ، بعد أن كان القضاء محصوراً بالشافعيّة. قال السُّبكي الشافعيّ: لم يكن يلي قضاء الشام، والخطابة والإمامة بجامع بني أميّة إلاّ من يكون على مذهب الأوزاعيّ، إلى أن انتشر مذهب الشافعيّ فصار لا يلي ذلك إلاّ الشافعيّة. وأرخ ذلك السُّبكي بسنة ٣٠٢ هـ منذ عهد القاضي

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨: ٣٢٠.

أبي زُرعة محمد بن عثمان الدمشقي^(١).

وإذا قرار بيبرس هذا يُعدّ انتصاراً للمذاهب الثلاثة حيث أشركهم في القضاء، فإنّه كان قراراً قاسياً على الشافعية الذين لم يعتادوا رؤية مشارك لهم في القرار، رغم أنّ بيبرس قد احتفظ لهم ببعض المزايا، كاختصاص القاضي الشافعي بالأوقاف وتقديمه في الأيّام الرسميّة، إلّا أنّ ذلك لم يحدّ من سخطهم الذي بلغ إلى حدّ اعتقادهم أنّ هذا النظام قد أوجب على فاعله الظاهر بيبرس دخول النار والعذاب الشديد، كما أوجب ضياع ملكه!. يقول السُّبكي: حُكي أنّ الظاهر بيبرس رأى الشافعيّ في النوم لما ضمّ إلى مذهبه بقيّة المذاهب، فقال له الشافعيّ: تُهين مذهبي! البلاذلي، أو لك؟! أنا قد عزلتك وعزلت ذريّتك إلى يوم القيامة.

قال: فلم يمكث إلّا قليلاً ومات، ولم يمكث ولده السعيد إلّا يسيراً وزالت دولته، وذريّته إلى الآن فقراء!.

بهذه البساطة يروي العلامة السُّبكي أحلام البسطاء فيقول بعكس ما تراه عيناه، فهو يعلم أنّ بيبرس قد بقي في السلطنة ثلاث عشرة سنة بعد قراره بضمّ القضاة، وأنّه أحسن السلاطين سيرةً، فعطلّ الخمر والحشيشة في كلّ البلاد ولم يفعل ذلك أحد غيره، وهزم المغول والصليبيين وحقق ما عجز عنه صلاح الدين حتّى توفّي سنة ٦٧٦ هـ! ولكنّ ذلك لم يكن شافعاً له، فالسُّبكيّ يقول: حُكي أنّه رُئي في النوم بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عذّبتني عذاباً شديداً يجعل

القضاة أربعة.^(١)

ولم يكن ذلك شأن الشافعية وحدهم، فما تناقله أصحاب المذاهب الأخرى كثير، فمثلاً ما رواه الذهبي الحنبلي وأثبتته العماد الحنبلي في أحداث سنة ٧٢٥ هـ: كان غرق بغداد المهول، وساوى الماء الأسوار، وغرق أمم لا تُحصى، ودام خمس ليالٍ، قال الذهبي: ومن الآيات أن مقبرة الإمام أحمد بن حنبل غرقت سوى البيت الذي ضريحه فيه، فإن الماء دخل في الدهليز علو ذراع ووقف بإذن الله وبقيت البواري عليها غبار حول القبر^(٢)!.

ذكر ذلك عن قبر أحمد، ولم يُخبر بمصير قبر أبي حنيفة أو الشيخ عبد القادر الجيلاني وكلاهما في بغداد، ولعلّه رأى أن ذلك من مسؤولية الأحناف والصوفية!.

وتم أحداث كبيرة كان سببها التعصب المذهبي، فحجّر الملك الأشرف الأيوبي على العزّ بن عبد السلام شيخ الشافعية، إنّما كان جرّاء خلاف بينه وبين الحنابلة الذين استمالوا الملك الأشرف وأقنعوه أن قولهم قول السلف وأنذ عبد السلام زائع عن الصراط المستقيم^(٣).

وفي قضية أحمد بن إسماعيل التبريزي الشافعي الذي قضى عليه القاضي الحنفي بالجلد ثمانين ضربة، ثمّ بنفيه وإخراجه من التدريس بسبب شتمه أحد

(١) طبقات الشافعية الكبرى ٨: ٣٢١.

(٢) شذرات الذهب ٦: ٦٦. والبواري: الحضر من قصب.

(٣) طبقات الشافعية الكبرى ٨: ٨١٨ وما بعدها.

ذرية الإمام أبي حنيفة. يقول الشوكاني:

قد لطف الله به بمرافعته إلى حاكم حنفي، فلو رُفِعَ إلى حاكم مالكي لحكم بضرب عنقه! وقبح الله هذه المجازفات والاستحلال للدماء والأعراض لمجرد أشياء لم يوجب الله فيها إراقة دم ولا هتك عرض^(١). هذا كله لا يعني أن هناك تحافياً تاماً وقطيعةً بين أصحاب المذاهب، بل على العكس كانت إفادة بعضهم من البعض مألوفة جداً في التعليم والتأليف والحوار، وربما كان الحوار ينتهي بانتقال فقيه من مذهب إلى مذهب وقد حصل كثيراً.

كما كان جو من التفاهم بين أتباع المذاهب الأربعة والصوفية، فالمدرسة التي تُنشأ لتدريس المذاهب الأربعة يُخصّص فيه رباط للصوفية.

وفي سنة ٧١٦ هـ وقع اختيار الصوفية على قاضي القضاة الشافعي نجم الدين ابن صصري ليتولّى مشيخة الشيوخ عند الصوفية بدمشق^(٢).

الشيعة الإمامية: ومع أن الشيعة تجمعهم مع المذاهب الكبرى جامعة لا ينكرونها تلك هي حبّ أهل البيت عليه السلام، وكتبهم مشحونة بأحاديث منزلتهم الخاصة! وتفاسيرهم كذلك؛ إلا أنه شتان بين الحبّ والولاء، والثاني هو الذي ميّز الشيعة الإمامية كخطّ مقابل جميع الفرق فإذا ما كتبوا عن أحد رجالهم قالوا عنه: ثقة صدوق واسع العلم إلا أنه يتشيع! وفي حال مناقشة حديث فأرادوا إبطاله قالوا في سنده فلان يتشيع أو شيعي، ولم ينظروا فيما قبله وما بعده، إذ غالباً ما

(١) البدر الطالع ١: ٤٠.

(٢) النجوم الزاهرة ٥: ٣٤٥.

يكونوا (حنفيّ وشافعيّ وحنبلّي ورمّا مالكيّ) مع ورود الحديث أو الخبر في الصحاح والمسانيد والسُنن والتاريخ، إلّا أنّ كلمة شيعيّ على الأقلّ تبرز أمامك!

وعلى صعيد آخر: فعلى الرغم ممّا تركه الوزير الإماميّ أحمد بن بدر الجمالي من أثرٍ شكره الجميع، ثمّ ما أبداه طلائع بن رزيك الإماميّ من سيرة أثنى عليها المؤاف والمخالف حتّى جمعت مدائحه في كتاب سُمّي (الدّر النظيم) ^(١).

ورغم أنّ هذين الحاكمين الإماميّين قد قُتلا على أيدي الإسماعيليّة، فيما كانت كتب العامّة تكثرُ لهما كلّ التقدير.

وبالرغم من أن موقف الإماميّة من غلاة الشيعة - كالإسماعيليّة والنصيريّة - لا يختلف عن موقف العامّة، إلّا أنّ كلّ ذلك لم يصحّح المسار لموقف أولئك من الشيعة الإماميّة وبقي الحديث عنهم كالحديث عن أيّ فرقة من الغلاة بدون تمييز، فحصلت أخطاء كبيرة تعمّدها الكبار، وتلقّاها التابعون تلقّي المقلّد الذي سلّم لشيخه بكلّ ما يقول.

هذا هو عصر ابن تيمّيه بأهمّ ملامحه، وذاك مكانه الذي أشرفنا عليه، وتلك أسرته التي عرفناها من قبل. وتلك بيئته الأولى: حرّان وهذه بيئته الثانية التي ترعرع فيها وتعلّم وفيها مات دمشق.

(١) النجوم الزاهرة ٥: ٣٤٥.

دراسته:

- ابتدأ درسه على أبيه في دمشق، ثم تنقل بين عدد من مشايخها، رجالاً ونساءً منهم:
- أحمد بن عبد الدائم المقدسي (٥٧٥ - ٦٦٨ هـ) الحنبلي. ومن تاريخ وفاته يظهر أن ابن تيمية قد باشر التعلم عليه مبكراً ولما يجاوز السابعة من عمره.
 - أبو زكريّا، سيف الدين يحيى بن عبد الرحمان الحنبلي (ت ٦٦٩ هـ).
 - ابن أبي اليُسّر التنوخي (ت ٦٧٢ هـ).
 - أبو زكريّا، كمال الدين يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح الحرّاني الحنبلي (ت ٦٧٨ هـ).
 - عبد الرحمان بن أبي عمر، ابن قدامة المقدسي الحنبلي (ت ٦٨٢ هـ).
 - أمّ العرب، فاطمة بنت أبي القاسم بن القاسم بن عليّ - المعروف بابن عساكر مؤرّخ الشام - (ت ٦٨٣ هـ).
 - أمّ الخير، ستّ العرب بنت يحيى بن قايماز (ت ٦٨٤ هـ).
 - زينب بنت أحمد المقدسيّة (ت ٦٨٧ هـ).
 - زينب بنت مكّي الحرّائيّة (ت ٦٨٨ هـ).
 - وآخر من ذكر في شيوخه موتاً: أحمد بن نعمة المقدسي (٦٩٤ هـ).
- وهو القائل: أنا الذي أذنت لابن تيمية في الإفتاء^(١).

(١) عقد الجمان ٣: ٢٨٥.

- وأما الشيخ: عبد السيّد، اليهوديّ، الذي أسلم وتوفيّ سنة ٧١٥ هـ فمنهم من عدّه في شيوخه، ومنهم من عدّه في رُفقتِه وأصحابه ^(١).

عودته، ممّا أدّى إلى الحكم عليه بالزندقة والكفر وانتقاله من سجن لآخر... وكان من دواعي ذلك فتواه في الزيارة مبثوثة في كتاباته على غير النحو الذي ذكره ابن كثير، وسنعرض له في محله. وما سنذكره من ردود علماء عصره عليه، أو من جاء بعدهم كفاية في إظهار حقيقة ابن تيميّه، ومن ثمّ دحض أباطيله والردّ على من ينتصر له.

سمع المسند مرّات، والكتب الستّة، ونسخ سنن أبي داود، ثمّ أخذ كتاب سيّويه فتأمله وفهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم وأحكم أصول الفقه والفرائض ونظر في الكلام والفلسفة، وبرز في ذلك على أهله، وردّ على رؤسائهم وأكابرهم، ونظر في الرجال والعلل، وصار عجباً في سرعة الاستحضار والتوسّع في المنقول والمعقول... ^(٢).

ولما كانت عائلته حنبليّة المذهب؛ كان طبيعياً أن ينهل ابن تيميّه من دروسها: «وكان للحنابلة بين المدارس الفقهيّة والاعتقاديّة مدارس خاصّة بهم، مثل المدرسة الجوزيّة والمدرسة السكريّة، كما كان لهم المدرسة العمريّة التي أنشأها أبو عمر بن قدامة، بناها بسفح قيسون للفقراء والمشتغلين بالقرآن والفقه.

(١) انظر في شيوخه: العقود الدريّة، لابن عبد الهادي (٧٤٤ هـ)، الدرر الكامنة ١: ١٤٤، تاريخ ابن الوردي ٢:

٢٧٦، الوافي بالوفيات ٧: ٢٧٥ - ٢٧٦، علم الحديث لابن تيميّه، المقدّمة.

(٢) الدرر الكامنة ١: ١٤٤.

وفي هذه المدارس الحنبليّة تخرج ابن تيمية، ودرس في كنف أبيه ورعايته وتوجيهه، وكان لا بدّ قد رأى الأشاعرة، وهم يهاجمون الحنابلة، ويرمونهم بالتجسيم والتشبيه...، فندب نفسه للجدل مع الأشاعرة»^(١).

إلا أنّ كون عائلته حنبليّة، وأنّه درس يافعاً في مدارسهم...، فكلّ ذلك لم يخلق من ابن تيمية شخصيّة حنبليّة؛ وإن تركت بصماتها في تكوين فكرٍ وجعلت منه شخصاً هو أقرب إلى المذهب الحنبليّ منه إلى غيره من المذاهب الأخرى.

إلا أنّه كانت له اجتهاداته الفقهيّة الخاصّة، فلم يكن مقلّداً. قال تلميذه «الذهبيّ»: «شيخنا وشيخ الإسلام وفريد العصر علماً ومعرفة وشجاعة... وأمرأً بالمعروف ونهيأً عن المنكر. وبرع في تفسير القرآن، وبرع في الحديث، وفاق النّاس في معرفة الفقه بحيث إنّّه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب؛ بل بما يقوم دليله عنده»^(٢).

وقال أبو زهرة: «وبعقله العميق النّافذ وصل إلى ما وصل إليه من اختيارات ليست في المذاهب الأربعة أو منها، كاعتبار الطّلاق الثلاث بلفظ الثلاث، والطّلاق المتتابع طلقه واحدة...»^(٣).
لقد جرت سيرة البشر على أنّ يرث الخلف السّلف في الموقع الاجتماعيّ

(١) ابن تيمية، حياته وعصره: ٢٦.

(٢) علم الحديث: ٤٣، والبداية والنهاية، لابن كثير ١٤: ٦٧.

(٣) ابن تيمية، حياته وعصره: ٢٨.

والمنصب الدينيّ. وقد كان لأبي المترجم له - ابن تيمية - مشيخة الحديث في بعض مدارس الجامع الكبير في دمشق، وكان له كرسيّ فيه. فتوفيّ سنة ٦٨٢ هـ، وابنه أحمد في الحادية والعشرين من عمره؛ وبعد وفاة أبيه بسنة، حلّ محله، وجلس مجلسه.

وكان الشائع آنذاك في العقائد هو مذهب أبي الحسن الأشعريّ، وكان الأشاعرة ينتهجون في العقائد منهج الاستدلال العقليّ والبرهان المنطقيّ؛ فقد كانت نشأة أبي الحسن الأشعريّ؛ نشأة اعتزاليّة، فطُبِعَ بطريقتهم في الاستدلال، ولكنّه خالفهم بعد في النتائج من غير أن يتحوّل عن طريقتهم في الاستدلال.

ومذهب الأشعريّ في العقائد هو مذهب أهل العامّة، وكان الأيوبيّون قد بالغوا في نشره؛ فكان أتباعه من الكثرة في الشرق والغرب. وقد خالفهم الحنابلة، ليس فقط في منهج البحث في العقائد؛ وإنّما في الفقه أيضاً: «كان الحنابلة يسلكون في دراسة عقائدهم مسلكهم في دراسة الفقه. يستخرجون العقائد من النصوص، كما يستخرجون الأحكام الفرعيّة من النصوص، لأنّ الدّين مجموع الأمرين، فما يُسلك في تعرّف أحدهما يُسلك لا محالة لاستخراج الثاني، وكانت في القرآن آيات فيها وصف الله سبحانه وتعالى بما يُفيد في ظاهره التشبيه بالحوادث، وفي الأحاديث ما يشبه ذلك؛ فكانوا يفسّرونها على مقتضى ما تؤدّيه اللغة بحقيقتها ومجازها»^(١).

(١) ابن تيمية، حياته وعصره: ٢٥. [من غير تأويل بما يناسب ذات الله تعالى وينزهه عن التجسيم والتشبيه وغيرها من صفات المخلوقات].

من هنا احتدمت الحرب الكلامية بين الحنابلة وخصومهم، وكانت التهمة الموجهة إلى الحنابلة هي رميهم بالتجسيم، وتشبيه الله تعالى وعدم تأويلهم التصوص والألفاظ بما يناسب الله تعالى من التنزيه. وقد حمل ابن تيمية لواء المعركة الجدلية فخاضها بعنف؛ ليس مع الحنابلة وحسب، وإنما مع فرق الإسلام ومذاهبها جميعاً وتسعرت لظاها بعد خوضه في حديث المساجد الثلاث، وإفتائه بجرمة زيارة قبر رسول الله ﷺ والتمسح به رجاء البركة، ومنعه من التوسل بالنبى إلى الله تعالى. وقد نال الحنابلة بسببه بعض الأذى، حتى اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم أنهم على معتقد الشافعي - على ما سنرى -.

وقد أعان على التأليب عليه إضافة لما تقدم، ما عرف منه من حدة في الطبع نفرت أقرب تلامذته ومحبيه، ولهم ردود عليه - سنعرض لهما في فصل أصحاب الردود على ابن تيمية - فالذهبي قال: «ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير فيه، ومن نابذه وخالفه قد ينسبني إلى التغالي فيه، وقد أوديت من الفريقين من أصحابه وأضداده، وأنا لا أعتقد فيه عصمة، بل أنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، فإنه كان مع سعة علمه، وفرط شجاعته...، تعتريه حدة في البحث، وغضب وصدمة للخصوم تزرع له عداوة في النفوس...»^(١).

(١) ابن تيمية، حياته وعصره: ٣١.

بداية المعركة

قلنا: إنّ ابتداء المعركة الطويلة التي خاضها ابن تيمية، كانت مع فقهاء المذاهب في عصره، وذلك حينما وجّه إليه أهل حماة مجموعة أسئلة تتعلّق بالله تعالى، وصفاته المذكورة في القرآن الكريم، من الاستواء على العرش، وإضافة الكرسيّ لله سبحانه؛ ومسألة اليد، والوجه... وغير ذلك ممّا عرف بالعقيدة الحمويّة؛ نسبةً إلى أصحاب تلك الأسئلة من أهل حماة، فأجاب ابن تيمية عليها وقال إنّها صفات حقيقيّة للباري عزّ وجلّ، من غير تأويل لتلك الألفاظ.

ذكر تلميذه ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٨ هـ:

«قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدّين الحنفي فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان قد سأله أهل حماة المسماة بالحمويّة، وأرسل فطلب الدّين قاموا عنده. فاختفى كثير، وضرب جماعة ممّن نادوا على العقيدة، فسكت الباقون...»^(١). وذكر الحادثة ابن حجر العسقلاني، قال:

«وأوّل ما أنكروا عليه من مقالاته سنة (٦٩٨)، قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحمويّة، ومحتوا معه؛ ومُنِعَ من الكلام...»^(٢).

إنّ ما حلّ بساحة ابن تيمية، والحنابلة، لم يكن من العامّة، بل من الخاصّة «الفقهاء» وعلى رأسهم الحنفيّين ناصرهم في ذلك بعض الأمراء.

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ٤: ١٤.

(٢) الدرر الكامنة ١: ١٤٥.

بعد تلك الحادثة، عاش ابن تيمية سبع سنوات بعيداً عن ملاحقة القضاء والمحاكمات؛ وسبب ذلك أنّ التتار ألحقوا هزيمةً بالجيوش المصرية والشامية وباتوا يهدّدون دمشق. فانشغل العلماء عنه في مواجهة المحنة، وانشغل هو بأمورٍ أخرى، إذ فتح نار قلمه مختصّاً به الشيعة، والصوفيّة. ولعلّ أحد الأسرار التي حملت ابن تيمية على أن لا يوضّب قلمه للنيل من علماء المذاهب الذين هاجموه وحكموا عليه بالسجن، وإنّما يشحذ همته لشنّ الغارة على فرقاء من المسلمين؛ هو أنّ نائب السلطنة تلقى كتاباً فيه أنّ ابن تيمية ومعه أفراد يناصحون التتار ويكاتبونهم، ويؤيّدون من يمالئهم^(١). فراح يطعن في معتقداهم، كما حملته سورة الغضب وما عُهد عنه من الحدة على العودة إلى إثارة موضوع الزيارة وما يتفرّع منها من التوسّل والتقرب إلى الله تعالى بالنبيّ ﷺ، وبالأولياء.

كما استخدم ابن تيمية نفس السلاح؛ فاتّهم الرفاعيّة الأحمديّة أتباع السيّد أحمد الرفاعيّ بالدجلش والشعوذة وممالة التتار^(٢).

مهاجمة الشيعة: ولقد وجد ابن تيمية الفرصة سانحة للطعن في الشيعة ومعتقداهم وأسقط عليهم نفس التّهمة؛ أي ممالة التتار، وكتب إلى الناصر يحرضه عليهم ويّتهمهم بمناصرة الصليبيين، وأنّهم قد حملوا راية الصليب، ولما جاء التتار فرحوا بهم وأعانوهم على المسلمين، وأنّهم كانوا السبب في خروج

(١) انظر (ابن تيمية، حياته وعصره: ٤٢)، والبداية والنهاية ١٤: ٢٢.

(٢) ابن تيمية، حياته وعصره: ٤٧.

جنكيزخان، وفي استيلاء هولأكو على بغداد ...

وأكثر من الواقعة في الشيعة لدى السلطان الناصر حتى تمكن أن يضم إليه كتيبة قادها ابن تيميه بنفسه، وهاجم الشيعة في الجبل السوري بكل شدة وعنّف وقتل الكثير، وحرّق أشجارهم وهو «يبرّر قطعه لأشجارهم بقوله: اقطعوا أشجارهم لأنّ النبي ﷺ لما حاصر بني النضير قطع أصحابه نخلهم وحرّقه ٩^(١)».

في هذه المرحلة الصعبة التي كان يمرّ بها المجتمع المسلم، كتب ابن تيميه أفكاره ومعتقداته، وسمّى كتابه الذي ضمّنه ذلك «منهاج السّنة النبويّة في نقض كلام الشيعة والقدريّة»، فكان هجوماً عنيفاً على أبرز علماء عصره من الشيعة هو العلامة الحلّي وعلى كتابه «منهاج الكرامة» وكان كتابه هذا وصلة ووسيلة لإفراغ ما في نفسه من مقتّ للشيعة ما أنساه مرارة ما عاناه من علماء المذاهب السّنيّة.

وقد عُرف عن الحلّي من النباهة والعلم ما هيأ له أن يحتلّ من نفس «خُدايَندا»^(٢) ن حفيد هولأكو» ذروة السنام حتى تمكن من إقناعه بالمذهب الشيعي؛ فأظهر التشيع ممّا أثار حفيظة ابن تيميه ورجال الحنابلة؛ فشنّوا الغارة على الحلّي والشيعة.

ونال ابن تيميه من نصير الدّين الطوسي أستاذ الحلّي، وأحد كبار علماء الشيعة، ومن ابن العلقمي وزير آخر حاكم عبّاسي وحملهما مسؤوليّة سقوط

(١) البداية والنهاية ١٤: ٣٥.

(٢) وهو الصحيح وتعني بالفارسيّة (عبد الله) إلّا أنّهم حرّفوها فجعلوها: خريندا! و (خر) بالفارسيّة تعني: حمار؟! فانظر أدب الناصبة الجاهلة، ثمّ احكم!.

بغداد ومقتل حاكمها «المستعصم» من غير أن ينظر في مجمل الظروف والأسباب المتعددة التي أفضت إلى النتيجة المأساة.

ولما كان ابن كثير حنبلياً وتلميذاً لابن تيمية؛ كان لا بد أن يشايعه في آرائه، إذ كان مولهاً به يرفع من مقامه ويحطّ من الذين قاضوه وسجنوه، ولا يخرج عن منهجه في مهاجمة الشيعة ورجالهم. ذكر في تاريخه في أحداث سنة ست عشرة وسبعمئة، قال: «وفي هذا الشهر، أعني ذا القعدة وصلت الأخبار بموت ملك التتر خربندا محمد بن أرغون بن بغا بن هولاكو قان؛ ملك العراق وخراسان وعراق العجم والروم وأذربيجان والبلاد الأرمنية وديار بكر.

توفي في السابع والعشرين من رمضان، ودُفن بترتبه بالمدينة التي أنشأها التي يقال لها السلطانية، وقد جاوز الثلاثين من العمر. وكان موصوفاً بالكرم ومحباً للهو واللعب والعمائر، وأظهر الرفض. أقام سنة على السنة ثم تحوّل إلى الرفض. أقام شعائره في بلاده وحظي عنده الشيخ جمال الدين بن مطهر الحلبي، تلميذ نصير الدين الطوسي، وأقطعه عدّة بلاد، ولم يزل على هذا المذهب الفاسد إلى أن مات في هذه السنة.

وقد جرت في أيامه فتنة كبار ومصائب عظام، فأراح الله منه العباد والبلاد، وقام في الملك بعده ولده أبو سعيد؛ وله إحدى عشرة سنة، ومدبر الجيوش والممالك له الأمير جويان، واستمر في الوزارة علي شاه التبريزي، وأخذ أهل دولته بالمصادرة وقتل الأعيان ممن اتهمهم بقتل أبيه مسموماً، ولعب كثير من الناس به في أول دولته ثم عدل إلى العدل وإقامة السنة، فأمر بإقامة الخطبة

بالترضي عن الشيخين أولاً ثم عثمان ثم عليّ...»^(١).

لقد شقّ على ابن كثير رواج المذهب الشيعي، فسلك منهج شيخه ابن تيميه في محاددة الشيعة والطعن في شيوخهم: الطوسي، والحليّ...، ورمى المذهب الشيعي بالفساد؛ كلّ ذلك لأنّ السلطان «خُدا بندا» تشييع وأخذ بمذهب أهل البيت عليه السلام، وعظّم رجاله؛ فوصف أئامه بالفئتن والمصائب. إلّا أنّه غفر مرحلة ما بعد خُدا بندا، حيث خلفه ابنه الصبيّ، وما فعله من قتل الأعيان على الشبهة والتهمة في اغتيال أبيه، ومصادرته أموال الناس، مع كونه موضع سخرية الآخرين. وذريعتَه في ذلك: أنّ خُدا بندا قد خرج عن السُنّة بتقديمه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام؛ فلمّا خلف ابنه عاد إلى السُنّة في تأخير الوصيّ عليّ! وبعد أن شفى بعض ما في نفسه - وهو دمشقيّ حنبليّ - بالحديث كما شاء له الهوى عن مذهب أهل بيت النبوة عليه السلام، اختصّ العلامة الحلّيّ بحديث خاص، فرماه بالنجاسة ودنس الأخلاق...؛ شأنه في ذلك شأن شيخه «ابن تيميه» إلّا أنّ عصبِيّته أعمته حتّى عن تسمية الكتاب الذي تصدّى ابن تيميه للافتاء عليه؛ وهو «منهاج الكرامة» للعلامة الحلّيّ، فسماه «منهاج الاستقامة». ففي موضع آخر من حديثه عمّن توفيّ من الأعيان سنة ستّ وعشرين وسبعمائة، قال: «ومّن توفيّ فيها من الأعيان: أبو منصور حسن بن يوسف بن مطهر الحلّيّ العراقيّ الشيعيّ، شيخ الروافض بتلك النواحي، وله التصانيف الكثيرة، يُقال: تزيد على مائة وعشرين مجلداً، وعدّها خمسة وخمسون مصنفاً، في الفقه والنحو والأصول والفلسفة والرفض، وغير ذلك من

(١) البداية والنهاية ١٤ : ٧٧.

كبار وصغار، وأشهرها بين الطلبة شرح ابن الحاجب في أصول الفقه، وليس بذاك الفائق، ورأيت له مجلدين في أصول الفقه على طريقة المحصول والأحكام، فلا بأس بها فإنها مشتملة على نقل كثير وتوجيه جيد، وله كتاب منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة، خبط فيه في المعقول والمنقول، ولم يدر كيف يتوجه، إذ خرج عن الاستقامة. وقد انتدب في الرد عليه الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية في مجلدات أتى فيها بما يهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة ... ولد ابن المطهر الذي لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرضا ليلة الجمعة سابع عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وستمائة، وتوفي ليلة الجمعة عشرين من محرم من هذه السنة - أي سنة ٧٢٦ - وكان اشتغاله ببغداد وغيرها من البلاد، واشتغل على نصير الدين الطوسي، وعلى غيره، ولما ترقض خدابندا حظي عنده ابن المطهر وساد جداً وأقطع بلاداً كثيرة»^(١).

ابن تيمية في مجلس القضاء: ومن جديد مثل ابن تيمية أمام القضاء، وذلك سنة ٧٠٥ هـ، حيث عُقدت له ثلاث مجالس. قال ابن حجر العسقلاني: «وكان السبب في هذه المحنة أن مرسوم السلطان ورد على النائب بامتحانه في معقده لما وقع إليه من أمور تُنكر في ذلك فعُقد له مجلس في سابع رجب وسُئل عن عقيدته فأملأ منها شيئاً ثم أحضروا العقيدة التي تُعرف بالواسطية - للشيخ ابن تيمية - فقرأ منها وبحثوا في مواضع ثم اجتمعوا في ثاني عشرة وقرروا صفى الدين الهندي يبحث معه ثم أخرجه وقدموا الكمال الزملكاني، ثم انفصل الأمر

(١) البداية والنهاية ١٤: ١٢٥.

على أنّه شهد علت نفسه أنّه شافعيّ المعتقد. فأشاع أتباعه أنّه انتصر؛ فغضب خصومه ورفعوا واحداً من أتباعه إلى الجلال القزوينيّ نائب الحكم بالعدليّة فعزّره، وكذا فعل الحنفيّ باثنين منهم، وأمر النائب مَنْ ينادي أنّ مَنْ تكلم في العقائد فُعل كذا به، وقصد بذلك تسكين الفتنة ^(١).

المجلس الثاني: ثمّ عقد لهم مجلس في سلخ رجب، وجرى فيه بين ابن الزملكاني وابن الوكيل مباحثة...؛ وذكر ابن حجر أنّ ثمة خلاف وقع بينهم.

قال: ثمّ وصل في خامس رمضان بطلب القاضي والشيخ وأن يرسلوا بصورة ما جرى للشيخ في سنة ٦٩٨، ثمّ وصل مملوك النائب وأخبر أنّ الجاشنكير والقاضي المالكيّ قد قاما في الإنكار على الشيخ وأنّ الأمر اشتدّ على الحنابلة حتّى صُفّع بعضهم.

المجلس الثالث: توجّه القاقضي والشيخ إلى القاهرة ومعهما جماعة فوصلا في العشر الأخير من رمضان، وعُقد مجلس في ثالث عشر منه بعد صلاة الجمعة، فحكم المالكيّ بحبسهِ وحُبس في برج، ثمّ بلغ المالكيّ أنّ الناس يتردّدون إليه فقال: يجب التضييق عليه إنّ لم يُقتل وإلاّ فقد ثبت كفره. فنقلوه ليلة عيد الفطر إلى الحبّ، وعاد القاضي الشافعيّ إلى ولايته، ونودي بدمشق: مَنْ اعتقد عقيدة ابن تيمّيه حلّ دمه وماله خصوصاً الحنابلة. وُقرأ المرسوم، قرأه ابن الشهاب محمود في الجامع. ثمّ جمعوا الحنابلة من الصالحية وغيرها وأشهدوا على أنفسهم أنّهم على معتقد الشافعيّ. واتّفق أنّ قاضي الحنابلة شرف الدين الحرّانيّ

(١) الدرر الكامنة ١٤٥ - ١٤٦.

كان قليل البضاعة في العلم، فبادر إلى إجابتهم في المعتقد واستكتبوه خطّه بذلك ^(١). كلمة إجماع: لقد كانت كلمة الجميع واحدة في مناهضة ابن تيمية، نلمس هذا من كتاب بعث به ولد الشيخ جمال الدين ابن الظاهريّ لبعض معارفه بدمشق، فقد ذكر فيه أنّ جميع من بمصر من القضاة والشيوخ والفقراء والعلماء والعوام يحطّون على ابن تيمية ^(٢)... شروط التخلية: بذل البعض مساعٍ بغية تخلية سبيل ابن تيمية وذلك سنة ٧٠٦ هـ، وجرى الحديث بذلك مع القضاة الثلاثة: الشافعيّ، والمالكيّ، والحنفيّ؛ فاتّفقوا على أنّهم يشترطون فيه شروطاً، وأنّ يرجع عن بعض العقيدة، فأرسلوا إليه فامتنع من الحضور، فلم يزل في الجُبّ إلى أنّ شفع فيه مهنا أمير آل فضل؛ فأخرج في ربيع الأوّل في الثالث وعشرين منه وأحضر إلى القلعة ووقع البحث مع بعض الفقهاء، فكُتِب عليه محضر بأنّه قال أنا أشعريّ. ثمّ وجد خطّه بما نصّه: الذي أعتقد أنّ القرآن معنى قائم بذات الله، وهو صفة من صفات ذاته القديمة وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت، وأنّ قوله على العرش استوى؛ ليس على ظاهره ولا أعلم كنه المراد؛ بل لا يعلمه إلّا الله؛ والقول في النزول كالقول في الاستواء». وكتبه أحمد بن تيمية، ثمّ اشهدوا عليه أنّه تاب، وذلك في خامس عشر

(١) الدرر الكامنة ١: ١٤٧، والبداية والنهاية ١٤: ٣٨.

(٢) نفسه.

ربيع الأول سنة ٧٠٧ هـ وشهد عليه بذلك جمع جم من العلماء وغيرهم^(١)...

إنّ الشروط المذكورة، والمحضر الذي كتبه ابن تيميه بخطه وبشهادة الشهود من علماء مختلف المذاهب، يشير إلى تراجع ابن تيميه عن كثير من عقيدته؛ ومن قبل كان قد شهد على نفسه بأنّه أشعريّ، رغم بغضه لعقيدة الأشعريّ. وعلى أثر شهادته وكتابته المحضر؛ أفرج عنه وسكن القاهرة وسكن الحال لذلك.

لم تدم الأمور على حالها، فقد هيجها ابن تيميه من خلال عودته للخوض في الحديث عن «الاستغاثة» ممّا أثار عليه الصوفيّة «ثمّ اجتمع جمع من الصوفيّة عند تاج الدّين بن عطاء، فطلعوا في العشر الأوسط من شوال إلى القلعة وشكوا من ابن تيميه أنّه يتكلّم في حقّ مشايخ الطريق وأنّه قال لا يستغاث بالنبيّ ﷺ؛ فافتضى الحال أنّ أمر بتسييره إلى الشام فتوجّه على خيل البريد، وكلّ ذلك والقاضي زين الدّين بن مخلوف - المالكيّ - مشغول بنفسه بالمرض وقد أشرف على الموت وبلغه سفر ابن تيميه فراسل التائب، فردّه من بلبس وادّعى عليه عند ابن جماعة، وشهد عليه شرف الدين ابن الصابوني؛ فاعتقل بسجن بحارة الديلم في ثامن عشر شوال إلى سلخ صفر سنة ٧٠٩، فنُقل عنه أنّ جماعة يتردّدون إليه وأنّه يتكلّم عليهم في نحو ما تقدّم، فنُقل إلى الإسكندريّة في سلخ صفر وحُبس ببرج شرقيّ»^(٢).

أمضى ابن تيميه أكثر من سبع سنين بعيداً عن دمشق، أمضاها بين محاكمة

(١) الدرر الكامنة ١: ١٤٨.

(٢) الدرر الكامنة ١: ١٤٨ - ١٤٩.

و سجن ...

وفي سنة ٧١٢ واتت الفرصة ابن تيمية ليتحرّر من السجن بسبب ما وقع من حرب مع التتر وانشغال الجميع بهذا الأمر، فشفعوا له عند القاضي المالكي «فاشترط القاضي أن لا يعود ابن تيمية فقبل له: إنّه قد تاب، فأفرج عنه ووصل دمشق مستهل ذي القعدة سنة ٧١٢»^(١).

وفي عام ٧١٨ عُقد له مجلس، إذ أنكر عليه القضاة فتواه في مسألة الحلف بالطلاق، وتمّ الاتفاق على عدم عودته إلى تلك الفتيا. وفي شهر رمضان سنة ٧١٩ قاموا عليه من جديد بسبب عودته إلى الفتوى، فأكد عليه المنع من الفتيا وقرئ في البلد مرسوم السلطان الذي يتضمّن ذلك، ثمّ حُبس بالقلعة بعد أن عقدوا له مجلساً في رجب سنة عشرين، وأفرج عنه في عاشوراء سنة ٧٢١^(٢).

إنّ هذه الحقبة الزمنية شهدت نشاطاً لابن تيمية يكاد أن ينحصر في الفقه بعد أن أمضى على نفسه كتاباً برجوعه عن بعض عقائده والكلام فيها، ولأجله حُوقق وسُجن على فتاواه. وفي عام ٧٢٥ وقع للشيخ شهاب الدين البعلبكي من الحساب بسبب متابعته لابن تيمية في بعض آرائه: «وفيها منع شهاب الدين بن مري البعلبكي من الكلام على الناس بمصر، على طريقة الشيخ تقي الدين بن تيمية، ثمّ سُقّر إلى

(١) نفسه ١: ١٤٩.

(٢) نفسه، البداية والنهاية ١٤: ٨٧، ٩٣، ٩٧، ٩٨.

الشام بأهله...»^(١).

نهاية المطاف: وانتهى المطاف بابن تيمية أن أودع السجن في شعبان سنة ٧٢٦ بسبب عودته إلى الكلام، فكان ذلك خاتمة حياته حيث مات في معتقل القلعة في ليلة الإثنين، العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ. قال البرزالي: «يوم الإثنين سادس عشر شعبان اعتقل ابن تيمية بقلعة دمشق حيث ورد مرسوم السلطان بذلك. وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله ومنعه من الفتيا، وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في السفر وإعمال المطي على زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقبور الصالحين»^(٢).

«وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه له فيه، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم، وعزّر جماعة منهم على دوابّ ونودي عليهم ثم أطلقوا، سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية، فإنه حُبس بالقلعة، وسكتت القضية»^(٣).

إنّ الإبقاء على ابن الجوزية في المعتقل يرجع إلى ما عرف عنه من اندكاكه في البوتقة الفكرية لابن تيمية، فكان يحذوه في المعتقد والآراء، - وهو شديد

(١) البداية والنهاية ١٤: ١١٧.

(٢) نفسه: ١٢٣.

(٣) نفسه ١٤: ١٢٣.

مثله على الشيعة ورجالهم - .

تعصّب مقيت: أن التعصّب صفة مذمومة، إذ تحمل صاحبها على العناد والإصرار على الباطل مع وضوح البرهان. والغريب من ابن كثير الحنبليّ أنّ تعصّبه لابن تيميه لم يحمله على تمجيده وإطرائه بأفضل النعوت وتخريج آرائه وتوجيهها لتكون مقبولة؛ وإنّما ذهب أبعد من ذلك حيث أنكر بعض آرائه التي حوقق عليها فسُجن لأجلها من قبيل مسألة الزيارة، وهو ما لم ينكره ابن تيميه وإنّما أصرّ عليه ومؤلفائه حافلة به!

قال: «ثمّ يوم الخميس دخل القاضي جمال الدين بن جملة، وناصر الدين مشيد الأوقاف، وسألاه عن مضمون قوله في مسألة الزيارة، فكتب ذلك في درج وكتب تحته قاضي الشافعية بدمشق: قابلت الجواب عن هذا السؤال المكتوب على خطّ ابن تيميه إلى أن قال: وإنّما المحرّر جعله زيارة قبر النبي ﷺ، وقبور الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصية بالإجماع مقطوعاً بها. قال ابن كثير: فانظر الآن هذا التحريف على شيخ الإسلام، فإنّ جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وإنّما فيه ذكر قولين في شدّ الرحل والسفر إلى محرّد زيارة القبور، وزيارة القبور من غير شدّ رحل إليها مسألة، وشدّ الرحل لمحرّد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شدّ رحل، بل يستحبّها ويندب إليها، وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرّض إلى هذه الزيارة في هذا الوجه في الفتيا، ولا قال إنّها معصية، ولا حكى الإجماع على المنع منها، ولا هو جاهل قول الرسول ﷺ «زوروا القبور فإنّها تذكركم

الآخرة» والله سبحانه لا يخفى عليه شيء...»^(١).

وما ذكره ابن كثير في محاولة منه لتبرئة ساحة ابن تيمية مما وُجّه إليه من التّهم، لا معنى لم
وذلك لإقرار ابن تيمية بها وتوبته ثمّ عودته إلى أفكاره...

(١) البداية والنهاية ١٤ : ١٢٤.

الفهرس

إهداء	٣
مقدمة	٣
تمهيد	٩
تعريف بـ (ابن تيمية) ٦٦١ - ٧٢٨ هـ	١٧
تسمية تيمية	١٩
وقفة تأمل	٢٠
عوداً على تيمية	٢١
والدته	٢٢
تعليق	٢٢
قبيلته	٢٣
خلاصة	٢٤
صفاته البدنية	٢٤
بيئته	٢٦
ابن تيمية خارجي، الجزيرة تستضيف الخوارج	٣١
وقفة قصيرة	٣٢

٣٣	لفت نظر
٤٢	ملاحظة جديدة بالاهتمام
٤٣	موقف طلحة والزبير من عثمان
٤٦	ثلاثة من أهل الشورى
٤٧	موقف أمير المؤمنين عليّ عليه السلام
٤٩	نفاق طلحة!
٥١	البيعة لأمر المؤمنين عليه السلام
٥٦	مقتل مالك بن نويرة
٦١	بين دستورين
٦٢	دستور عليّ بن أبي طالب في القتال
٦٢	تسيير عائشة إلى المدينة
٦٨	الخوارج في السنة
٧١	إمام الخوارج وشيخها
٧٣	ابن تيمية يُصرّح بخارجيته
٨٣	خطبة ابن الزبير فيهم
٨٤	كتاب ابن الأزرق إلى ابن الزبير
٨٥	عليّ عليه السلام في وصف الخارجي: ابن الأزرق؛ والخارجي ابن تيمية
٨٦	معاوية يدحض دعوى باطله بحق عليّ عليه السلام
٩٢	عائشة تبكي قتالها عليّاً
١٠٥	الإسلام يبسط سلطانه على حرّان
١٠٨	رواية الطبري الثانية
١٠٩	النفوذ الأمويّ في الشام وانطباع الجزيرة بأثر ذلك
١١٢	وقعة أجنادين

١١٣	وقعة مرج الصُّفَر
١١٤	يوم فِحل
١١٥	وقعة اليرموك
١١٧	فتح دمشق
١١٩	فتح مصر
١٢٠	الخليفة يعزّي أبا سفيان
١٢١	الخليفة يتوعّد الشورى بمعاوية:
١٢٧	السياسة الأمويّة وآثارها الاجتماعيّة في الشام
١٣١	معاوية يصدق بحقيقته
١٣٥	آفة معاوية تسري إلى يزيد
١٣٧	معاوية يمنع من نشر حديث رسول الله ﷺ
١٣٧	أبو بكر يحرق أحاديث رسول الله ﷺ
١٤٣	فائدة
١٤٦	أحاديث الأريكة
١٤٧	لفْتُ نظر
١٤٩	مزيّد من النصوص النبويّة في وجوب رواية الحديث
١٥٠	توجيه غير مقبول من الذهبي
١٦٠	حديث رسول الله؛ وردّ عمر بلفظ آخر
١٦٢	أحاديث النبي في الرّدة
١٦٦	أصحاب الصخرة
١٦٨	بسالة أمير المؤمنين يوم أُحد
١٧١	عمر يقتفي سنّة أبي بكر
١٧٧	أحمد، وابن الجوزي يُنكران دفن الكتب

١٧٨	موافقوا عمر في رأيه وفعله
١٨١	أساليب عمر في المنع
١٨٤	مُصحف عمر بن الخطّاب
١٨٧	آيةٌ أخرى
١٨٩	تحريفُ كتاب الله عزّ وجلّ
١٩١	أُمّهات المؤمنين يُحرّفن آية
١٩٢	أحاديث التّهوّل
١٩٥	نقدُ التبرير
٢٠٥	منهج عمر في المنع من حديث رسول الله ﷺ
٢٠٧	وقفة قصيرة مع خطبة عمر
٢٢٣	عثمان ورواية الحديث
٢٢٩	أحبّ السُّور إلى رسول الله ﷺ
٢٣٢	ثورة ابن مسعود على زيد
٢٣٥	أبيّ بن كعب
٢٤٢	عثمان يُشَقِّق المصاحف
٢٤٣	اختلاف وزيادة ونقصان!
٢٤٥	ترتيب عثمان لسور القرآن
٢٤٨	كذب على رسول الله ﷺ ، في القراءة
٢٥١	مروان يُشَقِّق القرآن
٢٥٢	معاوية يمنع الحديث
٢٦٧	الإسكافي يفضح أسباب الفرقة عن عليّ عليه السلام
٢٧٤	ذكر أصناف المخالفين والمعاندين للإمام عليّ عليه السلام
٢٧٩	دستور معاوية في سبّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والبراءة منه

مدرسة معاوية في وضع الحديث	٢٨٤
حديث بحيرا الراهب	٢٩٨
المقاطعة ودخول الشعب	٣٠٥
أبو هريرة	٣١٤
سمرة بن جندب	٣١٩
الجبهة المعارضة للمنع	٣٢٩
وأخيراً	٣٤٤
السنة القولية	٣٤٤
إجماع أهل البيت عليه السلام على التدوين	٣٥٠
فمن هم أهل البيت؟	٣٥٧
ما ورد عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام	٣٦٢
ما ورد عن الإمام الحسن السبط عليه السلام (استشهد سنة ٤٩ هـ)	٣٧١
ما ورد عن الإمام الحسين السبط الشهيد عليه السلام (٦١ هـ)	٣٧١
ما ورد عن الإمام علي زين العابدين عليه السلام (ت ٩٥ هـ)	٣٧٣
ما ورد عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام (ت ١١٤ هـ)	٣٧٤
ما ورد عن الإمام جعفر بن محمد أبي عبد الله الصادق عليه السلام (ت ١٤٨ هـ):	٣٧٩
ما ورد عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام (ت ١٨٣ هـ)	٣٨٥
ما ورد عن الإمام علي بن موسى أبي الحسن الرضا عليه السلام (ت ٢٠٢ هـ)	٣٨٦
ما ورد عن الإمام أبي جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام (ت ٢٢٠ هـ)	٣٨٩
ما ورد عن الإمام علي بن محمد أبي الحسن الهادي عليه السلام (ت ٢٥٤ هـ)	٣٨٩
ما ورد عن الإمام الحسن بن علي أبي محمد العسكري عليه السلام (ت ٢٦٠ هـ)	٣٩٠
ما ورد عن الإمام محمد بن الحسن المهدي المنتظر عليه السلام	٣٩١
عصره السياسي	٣٩١

عصره الاجتماعي والثقافي	٣٩٧
عصره العلمي والأدبي	٤٠٠
عصره الديني	٤٠١
المذاهب الكبرى	٤٠٣
دراسته:	٤٠٨
بداية المعركة	٤١٣
الفهرس	٤٢٧